آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(٢)

مطبوعات المجمع

عطاءات العلم

العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

١٣٢٥ - ١٣٩٣

تحقيق

خالد بن عثمان السبت

إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الثاني

دار ابن حزم

دار عطاءات العلم

ISBN 978–9959–857-74-3

جميع الحقوق محفوظة
لدار عطاءات العلم للنشر

الطبعة الخامسة
١٤٤١هـ - ٢٠١٩م
الطبعة الأولى لدار ابن حزم

دار ابن حزم
بيروت - لبنان -ص.ب : 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
البريد الإلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb
الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

أحد مشاريع
عطاءات العلم
هاتف: ٩٦٦١١٤٩١٦٥٣٣+
فاكس: ٩٦٦١١٤٩١٦٣٧٨+
info@ataat.com.sa

العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

/ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ [١١/أ]
لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ
وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٩٨، ٩٩].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٨].

هذه الآيات من سورة الأنعام بين الله فيها براهين العقائد العقلية الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، ومن ذلك أنه خلق جميع الآدميين من نفس واحدة، أبوهم رجل واحد، وأمهم امرأة واحدة، مع اختلاف أشكالهم، وألوانهم، وألسنتهم، وذلك دليل على إبداع عظيم. والله (جل وعلا) ينبهنا في القرآن العظيم في آيات كثيرة على ما أودع في أنفسنا من غرائب صنعه وعجائبه، الدالة على أنه وحده هو الرب، وهو المعبود وحده جل وعلا.

وقوله هنا ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله الذي أدعوكم إلى توحيده وطاعته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أصل الإنشاء: الإبراز من العدم إلى الوجود(١). والمراد بهذه النفس الواحدة: أبونا آدم، كما أطبق عليه العلماء(٢).

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٦٢).
(٢) السابق.

وإنما قال: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ بالتاء الفارقة بين الذكر والأنثى مع أن آدم ذكر[١]: لأنه أطلق عليه اسم النفس، فهو تأنيث لفظي لا حقيقي، كقول الشاعر[٢]:

أَبُـوكَ خَلِيْفَـةٌ وَلَـدَتْـهُ أُخْـرَى وأَنْـتَ خَلِيْفَـةٌ ذاكَ الكمـالُ

هذه النفس الواحدة هي: آدم. والله (جل وعلا) أرشدنا في هذه الآية إلى أن نتأمل ونتعقّل مم خُلقنا، وما العنصر والأصل الذي خُلقنا منه؛ لنعرف أقدارنا، ونعرف عظمة ربنا، فأول مَنْشَئنا تُراب بلّه الله (تبارك وتعالى) بماء. هذا الأصل الأول لنا، كما قال ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] أخذ الله تراباً فبَلّه بماء، فلمّا بُلّ وعُجن بالماء صار طيناً؛ ولذا قال تارةً: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: آية ٢٠] وتارة: ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: آية ٢]. ثم إن الله (جل وعلا) ذكر أحوال ذلك الطين، مرة قال: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: آية ١١] يلزق باليد إذا مسه الإنسان، بين أنه: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: آية ٢٦] ثم بين أن ذلك الطين يبس فصار صلصالاً كالفخّار، تُسمع له صلصلة إذا قرعه شيء، ثم خلق من ذلك الطين ــ الذي أصله ماء وتراب، خلق منه ــ بشراً سوياً، ذا لحم وعظام ودم، هو أبونا (آدم) المراد بقوله هنا: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] ثم خلق من آدم امرأته (حواء) أُمّنا، خلقها من زوجها آدم، وقد نص على ذلك في آياتٍ كثيرة[٣] كقوله في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: الأضواء (٢/ ٢٠٥).

وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: آية ١] يعني حواء. وكقوله في سورة الأعراف: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: آية ١٨٩]. وقوله في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] وهذا من غرائب صنعه وعجائبه، حيث كان العنصر الأول: الماء والتراب، وخلق منه رجلاً جميلاً في غاية الحسن والجمال، ثم خلق من نفس الرجل امرأةً أنثى. وهذا أحد القسمة الرباعية، لأن الله خلق نوع الإنسان على قسمة رباعية: قسم منه خلقه من ذكر دون أنثى، وقسم منه خلقه من أنثى دون ذكر، وقسم منه خلقه بلا أنثى ولا ذكر، وقسم منه خلقه من أنثى وذكر.

أما الذي خُلق من دون الأنثى ومن دون الذكر: فهو أبونا آدم؛ لأن الله خلقه من تراب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [آل عمران: آية ٥٩].

والذي خُلق من ذكر دون أنثى: هو حواء، خلقها الله من آدم دون أنثى.

والذي خُلق من أنثى دون ذكر: هو نبي الله عيسى، أوجده الله من أمه مريم بلا ذكر.

والذي خُلق من ذكر وأنثى: هو سائر جنس الإنسان.

وهذه غرائب وعجائب تدل على كمال قدرة خالق هذا الكون. إن شاء خلق دون أنثى ودون ذكر، وإن شاء خلق من ذكر دون أنثى، وإن شاء خلق من أنثى دون ذكر، وإن شاء خلق من أنثى وذكر.

ثم إن الله أشار إلى الطور الثاني من أطوار الإنسان؛ لأن الطور

الأول من أطوار الإنسان: الماء والتراب، والطور الثاني: هو النُطفة. أشار الله إلى بعض تلك الأطوار بقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على قراءة: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[(١)] وبعضهم قرأ: ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ بكسر القاف. أما: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فجميع السبعة قرؤوها بفتح الدال. وأما: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ ففيها قراءتان سبعيتان: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقِرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[(٢)].

أما على قراءة: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[(٣)] فالأظهر أنهما اسما مكان. أي: مكان استقرار، ومكان استيداع. وقيل: هما مصدران ميميان. أي: فاستقرار واستيداع.

أما على قراءة: ﴿فَمُسْتَقِرٌّ وَمُستودَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾: اسم فاعل، و ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ اسم مفعول. كما يأتي شرحه.

وقد تقرر في فن العربية: أن الفعل إذا زاد ماضيه على ثلاثة أحرف فإن اسم مكانه واسم زمانه ومصدره الميمي كلها بصيغة وزن اسم المفعول، كما هو معروف في فن الصرف[(٤)].

وأكثر علماء التفسير أن المراد بـ: (المُسْتَقَر): المُسْتَقَر في

(١) في هذا الموضع وقع وهم للشيخ (رحمه الله) استدركه بعده بأسطر وقد حذفت الكلام الذي وقع فيه الوهم هنا وأثبت الكلام على وجهه بعد استدراك الشيخ رحمه الله.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٩.

(٣) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ابن جرير (١١/ ٥٦٢ ـ ٥٧٢)، القرطبي (٧/ ٤٦)، البحر المحيط (٤/ ١٨٨)، الدر المصون (٥/ ٦٦).

(٤) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٨٣، ٨٤).

الأرحام، والمراد بـ (المُسْتَودع): المُسْتَقَر في الأصلاب. يعني أول نشأتكم من نفس واحدة، ثم صار بعد ذلك النُطف يقرها الله في الأصلاب، ثم يًنقلها فتستقر في الأرحام، فَيُخْرِج منها بشراً سوياً، وهذا عليه أكثر المفسرين، أن (المُسْتَقَر): هو استقرار الجنين في الرحم، و(المُسْتَودَع): هو استيداع الله للنطفة الذي خُلق منها في أبيه[١].

وكان بعض العلماء يختار: أن (المُسْتَقَر): الاستقرار على وجه الأرض أيام الحياة، وأن (المُسْتَودَع): الاستيداع في بطن الأرض في القبور[٢].

وبعض العلماء يقول: المُسْتَقَر في الأصلاب، والمُسْتَودَع في الأرحام[٣]. عكس ما ذكرنا.

والذي عليه أكثر المفسرين: أنها تشير إلى بعض أطوار الإنسان؛ لأن الله (تبارك وتعالى) نبه الإنسان على أنه نقله من حال إلى حال، وجعل خلقه طوراً بعد طور كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] أي: خلقكم على طور ثم نقلكم من ذلك الطَّور إلى طَور آخر. وقال جل وعلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] بعد أن كنتم نُطفاً تصيرون علقاً، ثم مُضغاً، ثم عظاماً. وقد بيّن الله (جل وعلا) هذه المراتب بياناً شافياً في آياتٍ كثيرة من أوضحها آية

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٦٣)، القرطبي (٧/ ٤٦)، البحر المحيط (٤/ ١٨٨).
(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٦٤)، البحر المحيط (٤/ ١٨٨).
(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٦٥)، البحر المحيط (٤/ ١٨٨).

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن الله بيّن فيها الأطوار التي مر بالإنسان عليها إلى حالته هذه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ ــ ١٦].

وعلى هذا: فالمُسْتَقَر: هو القرار المكين الذي يجعل الله فيه الإنسان في رحم أمه بعد أن خلق آدم من تراب، كما قال في آية (قد أفلح) هذه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ يعني: رحم أمه. وهذا نبهنا الله عليه، وحذّرنا أن ننصرف عن هذا، وأن نغفل عنه؛ لأنكم كلكم تعلمون أن الواحد منا لم يدخل رحم أمه مُخَطَّطاً، وليس فيه يدٌ، ولا رجل، ولا رأس، ولا عين، بل يدخل رحم أمه وهو نطفةٌ من مني، ثم إن الخالق (جل وعلا) ينقل بقدرته تلك النطفة فيجعلها دماً جامداً، وهو المعبَّر عنه بـ (العلقة)، ثم يقلب ذلك الدم مضغة لحم ليس فيها تخطيط، ولا رجلٍ، ولا يد، ثم إنه يقلب تلك المضغة هيكل عظام، ويرتب هذه العظام بعضها ببعض هذا الترتيب المُحْكَم المتقن الذي يجده الواحد منكم، فيرتب السُّلاميات في السُّلاميات، والمفاصل بالمفاصل، وفقارى الظهر بفقارى الظهر، ويجعل هذه العظام على أم الدماغ، فيجعل له دماغه في هذا الغلاف الذي هو أم الدماغ، ويفتح في وجهه العينين، ويصبغ بعضهما بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، ويزينهما بشعر الحواجب والجفون، ويجعل فيهما حاسة البصر، ويفتح له الأنف، ويجعل فيه حاسة الشم، ويفتح له الفم، ويجعل فيه

اللسان ليرد به شارد الطعام على أضراسه عند المضغ، ويبين به الكلام، حتى يقضي حاجته من بني الإنسان، ثم إنه (جل وعلا) يضع الكبد في محله، والكليتين في محلهما، وكل موضع في محله، ويوكله بوظيفته في تدبير الجسم، ويفتح الشرايين ليدور الدم، ويفتح مجاري البول والغائط. ولو شُرِّح عضوٌ واحد من أعضاء الإنسان تشريحاً حقيقياً لبهر العقول ما أودع الله (جل وعلا) فيه من غرائب صنعه وعجائبه، فليس في الواحد مِنَّا موضع رأس إبرة إلاّ وفيه من غرائب صنع خالقه وعجائبه ما يبهر العقول لو فكر(١).

وأنا أُؤكد لكم أن هذه العمليات الهائلة التي تُفعل في الواحد منا، العليم القدير الذي فعلها لم يحتج إلى أن يشق بطن أم الواحد مِنّا، ولم يُبَنِّجْها، ولم يُنَوِّمها في صحية، بل فعل فيها هذه الأعمال الهائلة العجيبة الغريبة من حيث لا تشعر، وهي لاهية تفرح وتمرح، لا تدري عما يُفعل في بطنها من غرائب الصُّنع وعجائبه، مع أن الجنين الذي يُفعل فيه هذا من الغرائب والعجائب هو مندرج في ثلاث ظلمات: ظُلمة بطن أمه، وظلمة رحمها داخل البطن، وظلمة المشيمة التي على الولد؛ لأنه في داخل الرحم يكون عليه المشيمة، والسَّلاَ يغطيه، فالله (جل وعلا) عِلْمُه نافذ، وبصره نافذ، لا يحتاج إلى كهرباء، ولا إلى نور يكشف به تلك الظلمات، بل علمه وقدرته نافذة، فيفعل في الإنسان هذه الأفعال الغريبة العجيبة، ويرتب بعضه مع بعض، ويخلقه هذا الخلق العجيب.

(١) للاستزادة في هذا الموضوع انظر مثلاً: مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧، ٢٥٥) فما بعدها، أقسام القرآن ص ٢٩٥ فما بعدها.

ونحن دائماً نذكر هذا لأن الله ينبهنا عليه، وينكر علينا أن نغفل عنه؛ لأن الله يقول في السورة الكريمة ـ سورة الزمر ـ : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزمر: آية ٦] أين تصرفون وتروح عقولكم عن فعل خالقكم فيكم؟ فأَنَّى تصرفون عما يفعل الله (جل وعلا) فيكم؟ هذه غرائب صُنْع ربنا وعجائبه، حتى إنه من شدة لطفه وحكمته: أن ما يحتاج الإنسان إلى تقصيره دائماً، كشعره وأظفاره: نزع منه روح الحياة، إذ لو جعل الحياة في الشعر والظفر لم يحلق الإنسان، ولم يُقصِّر، ولم يُقَلِّم أظفاره إلا وهو مُنوَّم في صحية بعملية. هذا من غرائب صُنعه وعجائبه (جل وعلا) ولطفه بخلقه؛ ولذا نبهنا على هذا حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ كما قال جل وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ الآية. [الروم: الآيتان ٢٠، ٢١] وقال هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فلكم بعد إنشاء تلك النفس، وإنشاء زوجها منها، لكم بعد ذلك ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام، تُنقلون فيها من طَور النطفة إلى طَور العَلَقَة، ومن طَور العَلَقَة إلى طَور المُضْغَة إلى آخر الأطوار.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: نُطفاً في أصلاب الآباء. هذا قول أكثر المفسرين.

وبعض العلماء عَكَس، قال: الاستيداع في بطن الأمهات، والاستقرار في أصلاب الرجال.

وبعض العلماء يقول: مُسْتَقَر على ظهر الأرض، ومُسْتَودَع في

بطنها في القبور وأنتم أموات، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: الآيتان ٢٥، ٢٦] الكفَات هنا: محل الكَفْت. والكَفْت في اللغة: معناه الضم[1]. أي: محلاً يضمهم أحياءً على ظهرها، ويضمهم أمواتاً في بطنها. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ ولذا قال: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ التفصيل: البيان والإيضاح وإزالة الإجمال. والمراد بالآيات: آيات هذا القرآن العظيم مع ما تضمنته من آياته الكونية (جل وعلا)، الدالة على كمال قدرته.

وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: قال في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٧] وهنا قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٨] فما الحكمة في تلوين الكلام، والتعبير في الأول بـ (قوم يعلمون) وفي الثاني بـ (قوم يفقهون)[2]؟

قال بعض العلماء: إنما قال بعد ذكره الاهتداء بالنجوم: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأن ذلك أمرٌ يعلمه جُلّ الناس. وقال هنا: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ لأن أسرار نقل الإنسان من هذه الأطوار وإيجاده الأول لا يُدْرِك حقائقها وما انطوت عليها من الغرائب والعجائب إلا الذين يفقهون. أي: لهم فقه وفهم دقيق في الأمور.

(١) انظر: المفردات (مادة: كفت) ص ٧١٣.

(٢) في الإجابة على هذا السؤال انظر: درة التنزيل وغرة التأويل ص ٦٨، البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص ٦٥، مِلَاك التأويل (١/ ٤٦٢)، البحر المحيط (٤/ ١٨٨)، الدر المصون (٥/ ٦٧).

وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

وهذه الآيات الكريمة قد بينا مراراً أنها تشير إلى براهين البعث الثلاثة الكثيرة في القرآن؛ لأن الله تبارك وتعالى أجرى العادة بأنه يُكثر في القرآن العظيم من ثلاثة براهين على البعث، ذكرها كلها في هذه الآيات من سورة الأنعام. وهذه البراهين الثلاث:

منها: إيجادنا أولاً؛ لأن من خلقنا أولاً من تراب، ثم من نفس واحدة، ثم خلق من تلك النفس زوجها، ثم صار يجعل نطفنا مستودعة في أصلاب آبائنا، ثم ينقل منها ويجعل لنا قراراً في أرحام أمهاتنا، وينقلنا في تلك الأطوار إلى أن نكون بشراً ننتشر في الأرض، من قدر على هذا الإيجاد الأول فلا شك أنه قادرٌ على البعث مرةً أخرى بعد الموت؛ لأن عامة العقلاء متفقون على أن إعادة الفعل أسهل من ابتدائه، والله (جل وعلا) كل شيء عنده سهل.

والآيات الدالة على أن الإيجاد الأول برهان عقلي قاطع على الإيجاد الثاني ـ الذي هو البعث ـ كثيرة جداً في هذا القرآن العظيم، كقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: آية ٢٧] وكقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٤] وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: آية ٦٢] وتتعظون بأن من أنشأ أولاً قادرٌ على أن ينشيء ثانياً، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: آية ٥] إلى أن قال في آخر آيات الحج هذه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: الآيتان

٦، ٧] بهذه الدلائل العظيمة؛ لأن البعث والإيجاد بعد عدم لا يمكن أن يكون أعظم من الإيجاد الأول من التراب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحج: آية ٥] فعَيْنُ المقدمة التي تنكرون: هي المقدمة التي أنتم موجودون بها، مقرون بها، وكقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: الآيتان ٧٨، ٧٩]، وكقوله جل وعلا: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى﴾(١) وفي القراءة الأخرى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: الآيات ٣٧ ــ ٤٠] بلى والله هو قادرٌ على ذلك. وهذا كثير في القرآن؛ ولأجل هذا قال الله جل وعلا: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين: الآيات ١ ــ ٤] ثم بيّن أن مُراده بالقَسَم على أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ليقيم بذلك البرهان القاطع على البعث بعد الموت؛ ولذا أتبعه بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ [التين: آية ٧] أَيُّ شيء يحملك على التكذيب بالبعث والجزاء، وقد علمت أني أوجدتك أولاً، وليس الإيجاد الأخير بأصعب من الإيجاد الأول؟ ولأجل هذا بيّن الله تعالى أنه لا ينكر الإيجاد الثاني ــ الذي هو البعث بعد الموت ــ إلا من نَسِيَ الإيجاد الأول حيث قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ [يس: آية ٧٨] إذ لو تَذَكَّر خلقه الأول لما أمكنه أن ينكر خلقه الثاني. وكما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ

---

(١) وهي قراءة أكثر السبعة. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٤٥٣.

لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: الآيات ٦٦ ـ ٦٨] وهذا كثير. وهذا البرهان القطعي على البعث أشار له بقوله هنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٨].

البرهان الثاني: خلقه السماوات، وتزيينها بالنجوم، وخلقه الأرض، وأشار له هنا بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ [الأنعام: آية ٩٧] والنجوم زُينت بها السماء. ومن خلق هذا العالم العلوي والسفلي فهو قادرٌ على بعث الإنسان الصغير المسكين؛ لأن من خلق الأكبر الأعظم فهو قادرٌ على خلق الأصغر من باب أولى؛ ولأجل هذا كثر في القرآن العظيم الاستدلال على البعث بإيجاد السماوات والأرض المشار لها بإيجاد النجوم والاهتداء بها في العالم العلوي، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: آية ٥٧] أي: ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادرٌ على خلق الناس الذين هم أصغر. وكقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: آية ٣٣] وكقوله: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: آية ٩٩] وكقوله جل وعلا: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: الآيات ٢٧ ـ ٣٢] والجواب: السماء أشد خلقاً منّا، أي: فمن قدر على خلق الأشد فهو قادرٌ على خلق الأضعف الأصغر. والآيات في مثل هذا كثيرة.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها، المشار إليه بقوله

هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] لأن من يحيي الأرض، ويُخرج النبات بعد الانعدام قادرٌ ــ بلا شك ــ على أن يحيي الأنفس الإنسانية بعد العدم؛ لأن الكل من باب واحد، كله جرم خلقه الله أولاً وانقرض وانمحى. وقد عاينا أنه يُعيد النباتات، فتجد الأرض بحُليِّها وحُللها من أنواع النبات، ثم ييبس، وتذروه الريح، ويصير هشيماً، ثم إن الله يوجد في الأرض، شيئاً كثيراً بعد فنائه. فمن أحيى الأرض وأنبت النبات بعد أن انعدم: فلا شك أنه قادرٌ على خلق الإنسان، وإنبات الآدميين بعد أن أكلتهم الأرض.

والآيات الدالة على هذا البرهان كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: آية ٣٩] وكقوله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٧] أي: فإخراجنا للنبات بعد الانعدام كذلك إخراجنا للموتى بعد أن أكلتهم الأرض. وكقوله جل وعلا: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: آية ٥٠] وكقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: الآيات ١٧ ــ ١٩] أي: من قبوركم أحياءً بعد الموت، وكقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ

بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق: الآيات ٩ ـ ١١] أي: كخروج النبات الذي تشاهدون ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ أي: خروجكم من قبوركم أحياءً بعد الموت. والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً كما قال جل وعلا: ﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] كذلك الإخراج نخرج الموتى؛ ولذا قال (جل وعلا) هنا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] الله (جل وعلا) ينزل الماء من السماء؛ لأن إنزال الماء من السماء فيه غرائب وعجائب، يجب على الإنسان تأملها؛ لأن الله قال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس: آية ٢٤] وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ﴾ صيغة أمر تدل على الوجوب، فإذا لم ينظر الإنسان إلى طعامه كان مخالفاً للأمر السماوي من خالق السماوات والأرض. وما يدريه أن الله يقول له كما قال لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: آية ١٢] ما منعك ألا تنظر إلى طعامك إذ أمرتك؟

وهذا النظر المأمور به إلى الطعام كأن الله يقول لك: انظر يا عبدي لتعلم عظمتي وقدرتي، وتعرف قدرك، وضعفك، وعجزك، انظر إلى الخبز الذي تأكله، وتُقيم به أَوَدَك، من هو الذي خلق الماء الذي نبت بسببه؟ أيقدر أحد غير الله أن يخلق هذا الجرم اللطيف الذي يحيي به الله الأجسام، وينبت به النباتات؟ لا والله لا يقدر على خلقه إلا الله.

هب أن الماء خُلِق، فمن يقدر على إنزاله، وسقي الأرض به مع سعة رقعتها؟ من يقدر على إنزاله على هذا الأسلوب الغريب

العجيب الذي ينزل رَشَاشاً؟ فلو كان مُنْزِلُه أخْرَقَ لأنزله قطعة واحدة متصلاً بعضه ببعض. ولو نزل المطر الغزير قطعة واحدة لأهلك كل من سقط عليه، وترك الخلق أثراً بعد عين؛ لأن الله تعالى بين كيفية إنزاله إياه، وما في ذلك من الغرائب والعجائب ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور: آية ٤٣] الوَدْق: المطر يخرج من خلال السحاب، أي: من فتوق المُزن وثقوبه التي جعلها الله فيه، وهو إنما يأتي به قادر يُصرفه كيف شاء. ولكن الله بين في السورة الكريمة ــ سورة الفرقان ــ أنه يُنزل الماء هذا الإنزال الهائل الغريب العجيب، وأن كثيراً من الناس يأبى في هذه الغرائب والآيات إلا الكفر ــ والعياذ بالله ــ ؛ لأن الله قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ [الفرقان: الآيات ٤٨ ــ ٥٠] يعني: صَرَّفْنَا الماء بين الناس، تارة نُغْدِق المطر على قوم لتخصب أرضهم، وتنبت زروعهم، ويكثر خير مواشيهم، اختباراً لهم وابتلاءً هل يشكرون نعمنا؟ ونَصْرِفه عن قوم كانوا في خِصْب حتى يُجْدِبوا؛ لنختبرهم بذلك الجدب، والفقر، وهلاك المواشي، والزروع: أيتعظون، وينيبون إلينا؟ ولما قال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ قال: ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: آية ٥٠] ومن الناس الذين أبوا إلا كفوراً: الكفرة، وأذناب الكفرة، الذين يزعمون أن السحاب لم ينزله ملك مقتدر، وإنما هي طبائع، وأن الماء تتفاوت عليه درجات الشمس، أو احتكاك الهواء حتى يتبخر وتتصاعد أبخرته، فتتجمع ثم تلاقي هواءً حاراً، ثم تزعزعها الريح، فتفرقها، وأن هذا ليس فعل فاعل!! هؤلاء الذين يقول الله فيهم:

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ في تلك السحابة ــ التي أنزلها الله ليلاً ــ أن النبي ﷺ قال: «أسمعتم ما قال ربكم البارحة؟ قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأصبح من عبادي كافر بي مؤمن بالكوكب. أما الذين قالوا: مُطرنا بفضل الله وبرحمته، فهذا مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما الذي قال: مُطرنا بنوء كذا، فهو كافر بي مؤمن بالكوكب»(١). ومثله الذي يقول: مُطرنا ببخار كذا!! لأن السحاب ينزله ملك مقتدر، يخلق ماءه أولاً. وبين خلقه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ أي: يسوقه ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكباً يعلو بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ يعني المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: آية ٤٣] جمع خَلَل، أي: من ثقوب المُزن وفروجه: ينزل منها؛ لأنه يجعل وعاءه كالغرابيل؛ ينزل منها المطر، على قدر ما يشاء الله جل وعلا ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ [الفرقان: آية ٥٠].

هب أن الماء خُلق، وأن المطر أُنزل على هذا الأسلوب الغريب العجيب، من هو الذي يقدر أن يشق الأرض ويُخرج منها مسمار النبات؟

هب أن مسمار النبات خرج، من هو الذي يقدر أن يشقه ويخرج منه السنبلة؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلَّم، حديث رقم: (٨٤٦)، (٢/ ٣٣٣)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الأحاديث: (١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مُطِرْنا بالنوء، حديث رقم: (٧١)، (١/ ٨٣).

هب أن السنبلة وُجدت، من هو الذي يقدر أن يخرج حبها وينميه، وينقله من طَور إلى طَور حتى يصير صالحاً مُدْرِكاً نافعاً للأكل؟

كما ينبهنا الله على هذا في هذه الآية التي نحن عندها في قوله: ﴿ انظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] انظروا الثمر عندما يبدو، وانظروه عندما يُدْرِك ناضجاً صالحاً للأكل، تعلمون أن الذي نقله منذ تلك الحال الأولى إلى حالة الانتفاع هذه، أنه رب قادرٌ عظيم، هو الخالق وحده، المعبود وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] الباء: سببية، والله (جل وعلا) يُسَبِّب ما شاء على ما شاء من الأسباب، ولو شاء أن تنخرم الأسباب لانخرمت، فهو (جل وعلا) يفعل كيف يشاء، ويسبب ما شاء من المُسَبَّبات، على ما شاء من الأسباب، ويبين لنا في كتابه غرائب وعجائب وعبراً نعلم بها أنه لا تأثير إلا لله وحده، وأنه لو شاء أن لا تؤثر الأسباب لم تؤثر، ومن ذلك ما قصّ علينا في سورة الأنبياء وغيرها من سور القرآن أنه أُلقي إبراهيم في نار نمرود وقومه، أُلقي إبراهيم في نارٍ تضطرم، تأكل الحطب حتى تتركه رماداً، أُلقي فيها إبراهيم والحطب، فأكلت الحطب بحرارتها فتركته رماداً، وصارت برداً على إبراهيم. ولو لم يقل الله: ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا ﴾ [الأنبياء: آية ٦٩] لو لم يقل: ﴿ وَسَلَـٰمًا ﴾ لأهلكه بردها، والنار لا عقل لها ولا إدراك تحرق به الحطب وتترك إبراهيم. وذلك يبين أن الفاعل هو الخالق (جل وعلا)، وأنه يسبب ما شاء على ما شاء من المُسَبَّبات. ويوضح لنا هذا: أن السبب تارةً يكون مناقضاً للمُسبَّب وينتج الشيء من نقيضه، كما قدمنا في هذه الدروس في

قصة قتيل بني إسرائيل[(١)]؛ لأنه لما أراد الله أن يُحييه قال لهم: اذبحوا بقرة، فذُبحت البقرة، وصارت ميتة، وقُطعت منها وصلة، وهي ميتة، قطعة من بقرة ميتة، ليس فيها من الحياة شيء، فضربوه بها فحيـي، /وأخبرهم بقاتله!! لو ضربوه بالبقرة حية لربما قال [١١/ب] جاهل: قد استفاد الحياة منها، وسرت حياتها فيه!! أما هو فقد أمرهـم أن يميتوهـا، ويـذبحـوها، ويضربوه بقطعة منها فحيـي!! فمن أين وُجدت هذه الحياة من هذا الضرب بقطعة من بقرة ميتة؟ وذلك برهان قاطع على أن الله يسبب ما شاء على ما شاء من الأسباب؛ ولأجل هذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بسببه ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: جميع أصناف النباتات مما يأكله الناس والأنعام، كما قال جل وعلا: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ [طه: آية ٥٤] فينبت للناس أنواع النبات مما هو قوت كالقمح والشعير ونحوهما، ومما هو فاكهة، وينبت لهم المرعى لحيواناتهم؛ لأن الحيـوانـات إذا أكلـت المـرعـى المليـء كثـرت ألبـانهـا، وأزبـادهـا، وأسمانها، ولحومها، وكثرت جلودها، وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها، إلى غير ذلك من منافعها بسبب الماء؛ ولذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من نبات كل شيء.

﴿خَضِرًا﴾ الخَضِر: هو صفة مشبهة من (خَضِرَ) فهو (خَضِرٌ وأَخْضَـرُ). والمـراد بـالخَضِـر هنـا: الـذي ينبـت أخضـر كـالبقـول

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

ونحوها(١)؛ لأن القمح والشعير وما جرى مجراهما ينبت أولاً نبات البقول.

ثم قال: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك الخَضِر النابت.

﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعلو بعضه بعضاً كالسنبل، فإنك تجد السنبلة يتراكب فيها الحب ويعلو بعضه بعضاً(٢). وهذا معنى قوله: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قراءة الجمهور(٣): ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ﴾ بالنصب؛ لأن الكسرة علامة هنا للنصب.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النخل: من جنس المُنْبَت بهذا الماء، إلا أن الله قَطَعَه، وجاء به في صيغة جملة مُسْتَأْنَفَة من مبتدأ وخبر تنويهاً بشأن النخل(٤)؛ لأن النخل كله منافع.

وجرت العادة في القرآن: أنه إذا ذَكَر الإنعام بالتمر ذكره باسم شجرته التي هي النخلة، وإذا ذكر الإنعام باسم العنب ذكره باسم الثمرة التي هي العنب. هذه قاعدة مطردة في القرآن.

قال بعض العلماء: إنما ذكر شجرة التمر التي هي النخلة لأن النخلة كلها منافع، فتمرها بعض منافعها(٥). فلو عبّر بالتمر لأهمل

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٧٣)، القرطبي (٧/ ٤٧)، الدر المصون (٥/ ٦٩).
(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٧٤)، القرطبي (٧/ ٤٨)، البحر المحيط (٤/ ١٨٩).
(٣) والقراءة الأخرى: برفع «جناتٌ». انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٩.
(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٩).
(٥) انظر تفصيل ذلك في: مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠).

منافع النخل الكثيرة؛ لأن النخل كلها منافع؛ لأن خوصها تُصنع منه القفاص، وجريدها تُصنع منه الحُصر، وتصنع منها الحبال، ولبها يؤكل، وجذعها يُسقف به، وكُرْنَافها يُوقد به، فجميع ما فيها منافع.

أما شجرة العنب: فليس في نفس الشجرة من المنافع ما في النخلة[1]، فأعظم منافعها في ثمرتها.

وقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ النخل: جمع نخلة. وقيل: هو جنس أو اسم جمع[2]. وهو يُذكَّر ويُؤنث؛ لأن الله ذكَّره في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: آية ٢٠] ولم يقل: منقعرة. وأنثه في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: آية ٧] وهذا معروف في كلام العرب، أن أسماء الأجناس تُذكَّر وتُؤنَّث.

قال بعض العلماء: فإن قيل له: (نخيل) لم يجز تأنيثه.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ يطلق (الطلع) على أول ما يخرج من النخلة؛ لأنه يخرج أولاً قبل أن ينفتح يسمى (كِمّاً)، ثم ينفتح على النَّوْر المسمّى بـ(الإغْرِيض). وهذا هو المراد بقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾. وربما يُطلق الطلع على ثاني الحال؛ لأنه يكون أولاً طَلْعاً

---

(١) قال ابن القيم: «وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار. وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل، وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلداً فأطال فيها الحِجَاج والتفضيل من الجانبين. وفَصْلُ النزاع في ذلك: أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعاً، وأجدى على أهله، كالمدينة والحجاز والعراق. والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل، وأعم نفعاً، وأجدى على أهله، كالشام، والجبال، والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل». اهـ. مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠).

(٢) انظر: الكليات ص ٩١٢.

نَوْراً أبيض، ثم يُنقل من طَور إلى طَور حتى يكون بُسْراً ورُطَباً وتمراً يابساً. وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ المراد بالطلع هنا: حاله الأخيرة، إلا أن ذلك يوجد من الطلع، وهو النَّوْر الذي ينفتح عنه الكِمُّ أولاً[١].

وقوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾ القِنْوَان: جمع القِنْو، كالصِّنْوَان والصِّنْو.

وفيه قراءة: ﴿قِنوانٌ﴾ و ﴿قُنوانٌ﴾ أما قراءة: ﴿قَنْوان﴾ بفتح القاف فليست سبعية[٢].

والقِنْوَان: جمع القِنْو. والقِنْو: هو عِذْقُ النخلة الذي فيه الثمر[٣].

وقوله ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المُتَنَاوَل؛ لأن النخل إذا كان صغاراً قد يثمر الثمرة الجيدة، مع أنها دانيةٌ قريبة سهلة المُتَنَاوَل، لا يحتاج صاحبها إلى طلوع، ولا إلى صعود. ومعنى قوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المُجْتَنَى، ينالها الإنسان من غير تعب.

قال بعض العلماء: ذكر دانية الثمر ولم يذكر السَّحُوق ــ التي

(١) انظر: القرطبي (٧/ ٤٨، ٥٠)، الدر المصون (٥/ ٧٥)، وقد ذكر مراتب ثمر النخلة، ونقل قول بعضهم:

إن شِئْتَ أن تَضْبِطَ يا خَليلُ ... أسماءَ ما تُثْمِرُهُ النخيلُ
فاسمَعْه موصوفاً على ما أذكرُ ... طَلْعٌ وبعده خَلال يظهر
وبَلَحٌ ثم يليه بُسُرُ ... ورُطَب تجنيه ثم تَمْرُ
فهذه أنواعُها يا صاحِ ... مضبوطةً عن صاحب الصحاحِ

(٢) وكذلك القراءة بضم القاف (قُنوان) شاذة أيضاً. انظر: المحتسب (١/ ٢٢٣)، القرطبي (٧/ ٤٨).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٧٥)، القرطبي (٧/ ٤٨)، الدر المصون (٥/ ٧٣).

هي النخلة الطويلة ــ قال بعض العلماء: ذكر الدانية لأن النعمة بها أتم؛ لأن ثمرها يوجد بلا تعب ولا كلفة. بخلاف السَّحُوق فإنها لا بد من أن يُصعد عليها[١].

وقال بعض العلماء: هنا حذف الواو وما عَطَفَت عليه: ومن النخل من طلعها قنوان دانية وسَحُوق[٢]. أي: نخل طِوَال.

وقوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾ مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله[٣].

وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾[٤].

و ﴿قِنْوَانٌ﴾ في محل مبتدأ، و ﴿دَانِيَةٌ﴾: نعتٌ له.

والخبر قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾[٥].

وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ جارٌّ ومجرور مُبدل من الجار والمجرور قبله، وهذا معروف.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ جماهير القراء قرؤوا: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾[٦] وهو معطوف على قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عَطف الخاص على العام[٧]. أي: فأخرجنا به نبات كل شيء، وأخرجنا به

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ٤٨)، البحر المحيط (٤/ ١٨٩).

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٤٨)، البحر المحيط (٤/ ١٨٩).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ٤٨)، البحر المحيط (٤/ ١٨٩)، الدر المصون (٥/ ٦٩).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٩، ١٩٠)، الدر المصون (٥/ ٦٩).

(٥) انظر: القرطبي (٧/ ٤٨)، البحر المحيط (٤/ ١٩٠)، الدر المصون (٥/ ٦٩).

(٦) تقدمت هذه القراءة قريباً، وأشرت هناك إلى القراءة الأُخرى، وهي برفع (جنات).

(٧) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٩٠)، الدر المصون (٥/ ٧٥).

جنات من نخيل وأعناب. ولم يقل: وجناتٌ من أعناب؛ لأن جنات الأعناب ليست من قِنْوَان النخيل. ولو رُفع في قوله: «وجناتٌ من أعناب» لصار المعنى: من النخل قِنْوَان دانية، ومن النخل جناتٌ من أعناب. وهذا لا يصح. وعلى بعض القراءات: ﴿وجناتٌ﴾ بالرفع، قالوا: يُقَدَّر له محذوف. أي: ولهم من نِعَمِه ــ جل وعلا ــ جناتٌ من أعناب[(١)].

(الجنات) جمع الجنة، والجنة في لغة العرب: البستان[(٢)]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ [القلم: آية ١٧] هو بستان معروف وقعت فيه هذه القضية. أصل الجنة: البستان. والعرب تسمي كل بستان (جنة). وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير[(٣)]:

كأَنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقتَّلَةٍ ... من النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّة سُحُقا

يعني: بستان نخلٍ نخله طِوَال؛ لأن السُّحُق: جمع سَحُوق، وهو النخلة الطويلة. هذا أصل الجنة في لغة العرب.

وهي في اصطلاح الشرع: دار الكرامة التي أعد الله لعباده المؤمنين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: آية ١٧].

---

(١) انظر توجيه قراءة الرفع في: حجة القراءات ص ٢٦٤، القرطبي (٧/ ٤٩)، البحر المحيط (٤/ ١٩٠)، الدر المصون (٥/ ٧٦).

(٢) انظر: المفردات (مادة: جنَّ) ص ٢٠٤.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾ الأعناب: جمع العنب، وهو الثمر المعروف. وفي العنب غرائب وعجائب؛ لأنها ثمرة كأن جُلّها ماء يمسكه الله جل وعلا[١].

﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ أما قوله: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ فلم يقرأه أحد كائناً ما كان إلاّ بالنصب.

أما ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ فقراءة الجمهور: ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾ وفي بعض القراءات ﴿وجناتٌ﴾ بالرفع.

أما ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ فقرأه عامة القراء بالنصب، ولم يرفعه أحد.

الزيتون: هو الشجر المعروف، وهو الذي وصفه الله بالبركة في قوله: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: آية ٣٥] لأن منافع الزيتون كثيرة؛ لأنه وقود ودهن وإدام، إلى غير ذلك من منافعه[٢]. يذكرون أنه أول شجرة نبتت في الأرض شجرة الزيتون، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان يزعمون أنها شجرة الزيتون، ويزعمون أن شجرة الزيتون هي أطول الشجر عمراً، وأنها تمكث في الأرض ما لا تمكثه شجرة غيرها.

﴿ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ معروف.

﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ كان بعض العلماء يقول: في الكلام حذف دل المقام عليه، أي: والزيتون مشْتَبِهاً وغير

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ٣٤٠).

(٢) انظر: زاد المعاد (٤/ ٣١٦ ـ ٣١٧)، أقسام القرآن ص ٤٤.

متشابه، والرمان مُشْتَبِهاً وغير متشابه[١]. أنها راجعة لكليهما. وحُذف أحدهما لدلالة المقام عليه، ونظير هذا التفسير من كلام العرب قول عمرو بن أحمر الباهلي[٢]:

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي   بَرِيئاً ومن أَجْل الطَّوِيِّ رماني

يعني كنتُ منه بريئاً، وكان والدي بريئاً.

ومنه قول ضابىء بن الحارث البرجمي[٣]:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينة رَحْلُهُ   فـإنـي وقَيَّـاراً بهـا لغـريـبُ

وهو أسلوب عربـي معروف.

ومعنى كون الزيتون مُشْتَبِهاً وغير مُتَشَابِهٍ: أن شجره يتشابه ورقه في القَدْر، ويتشابه في نباته في جميع الغصن، وغير متشابه لأنه أنواع تختلف طُعُومُها. الذي يعرفه يجد في اختلاف طعمه فروقاً يستدل بها على كمال قدرة من صنعه، وأن صانعه ليس بطبيعة؛ لأن الطبيعة معنى واحد لا ينقسم، وكذلك الرمان: تجده متشابهاً بالمنظر، أغصانه وورقه متشابه، وقد تجد طعمه متبايناً أيضاً كما هو معروف[٤].

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٩١)، الدر المصون (٥/ ٧٩).

(٢) البيت في الكتاب لسيبويه (١/ ٧٥)، الدر المصون (٢/ ٦٠٨).
وقوله: «الطوي» أي: البئر. وقد كان بينه وبين رجل خصومة فيها.

(٣) البيت في الكتاب لسيبويه (١/ ٧٥)، الخزانة (٤/ ٨١، ٣٢٣)، وقيار: اسم فرسه.

(٤) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٧٨)، القرطبي (٧/ ٤٩)، البحر المحيط (٤/ ١٩١)، الدر المصون (٥/ ٧٩).

كونه يتشابه من جهة، ويختلف من جهة، هذا دليل على كمال قدرة من خلقه، وأن خالقه ليس بطبيعة؛ لأن الطبيعة عند من يزعمونها معنى واحد، جوهر لا يتقسم، ولا يقبل الانقسام. يستحيل أن تؤثر الطبيعة في مطبوعين مختلفين. فالنار لو فرضنا ـ كما يقولون ـ «إنها بطبيعتها تحرق» فلا يمكن أن يكون من طبيعتها الإبراد، وكذلك السكين، وقلنا: «طبيعتها القطع»، فلا يكون من طبيعتها الوصل، وهكذا. فلا يمكن أن تكون الطبيعة الواحدة تنتج أشياء مختلفة.

واختلاف هذه الأشياء دليل على أن فاعل ذلك صانع مختار يفعل ما يشاء، كما نبَّهنَا على ذلك في أول سورة الرعد؛ لأن الله (جل وعلا) في أول سورة الرعد لما بين غرائب صنعه وعجائبه، نبَّه خلقه أن ما يزعمه الكفرة الفجرة الكلاب، أبناء الكلاب، من أن فعل الله (جل وعلا) في هذا الكون من غرائبه وعجائبه، أنه فعل طبيعة، ألقمهم الحجر في أول سورة الرعد، ذلك أن الله لما قال: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ ثم نوه بشأن هذا القرآن ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ ذكر صفات خالق هذا الكون ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾ ثم قال ـ هو محل الشاهد ﴿وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرْعٍ ونَخيلٍ﴾ وفي قراءة أخرى[1]: ﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ وفي

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٥١.

القراءة الأخرى[١]: ﴿تُسْقَى بماءٍ واحدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: الآيات ١ ـ ٤] وفي القراءة الأخرى: ﴿في الأُكْل﴾[٢] [٣] يعني تجد هذا البستان أرضه أرض واحدة، وقِطَع يجاور بعضها بعضاً، والماء الذي يُسقى به ماءٌ واحد، والأرض بقعةٌ واحدة لا اختلاف في مائها، ولا في أرضها، ثم ترى ذلك البستان تخرج منه ثمارٌ مختلفة ألوانها، وأشكالها، ومقاديرها، وطعومها، ومنافعها. فهذا لا يمكن أن يكون من طبيعة، إذ لو كانت طبيعة الماء لما اختلفت إلى هذا الاختلاف، ولو كانت طبيعة الأرض لما اختلفت إلى هذا الاختلاف؛ لأن الماء واحد، والبقعة واحدة، فدل اختلاف هذه الثمار في أصنافها، وألوانها، وأشكالها، ومقاديرها، وطعومها، ومنافعها: على أن خالقها هو القادر وحده، الرب وحده، المعبوْد وحده، الذي له السلطان على هذا الكون، وأَمْره (جل وعلا) هو الأمر، ونهيه هو النهي، وشرعه هو الشرع، ودينه هو الدين؛ ولذا قال (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

ثم قال: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ هذا إلفات خالق الكون نظر خلقه إلى غرائب صنعه وعجائبه، انظر مثلاً إلى النخلة، إلى (الكُمّ) عندما يطلع كاللسان غير مفتوح، ثم انظره عندما ينفتح عن ذلك النَّوْر الأبيض اللين، ثم بعد ذلك، بعد أن يصير تمراً يابساً مُدْرِكاً، انظر

(١) المصدر السابق.

(٢) وهناك قراءة أخرى في قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ حيث قُرِىء بالنون ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ وبالياء ﴿ويُفَضِّل﴾. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٥٢، القرطبي (٩/ ٢٨٣).

(٣) انظر: النشر (٢/ ٢١٦).

حالته الأولى عندما نبت، وحالته الثانية عندما طاب وأدرك، تعرف أن الذي نقله من ذلك الطَّور إلى هذا الطَّور أنه ملك قادر، هو رب كل شيء، ومعبود كل شيء جل وعلا.

ولذا قال: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٩] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ﴾ الذي يلفت ربكم نظركم إليه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: دلالات واضحات ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: يصدقون، يعرفون بذلك من غرائب صنع ربهم وعجائبه أنه هو الرب وحده، المعبود وحده جل وعلا.

وإنما خص المؤمنين في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ لأن الكفرة لا يتعظون بالآيات، ولا يفهمون عن الله غرائبه وعجائبه؛ لأن الله أعمى بصائرهم والعياذ بالله.

ومن عادة القرآن أنه غالباً يخص بالفعل المنتفع به، وإن كان الفعل في أصله عاماً[1]، كقوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: آية ٤٥] وهو مذكر به الأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر الأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: آية ١٨] وأمثال ذلك، مع أنه منذرٌ للجميع، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: آية ١].

هذه غرائب صنع الله وعجائبه يبينها لخلقه (جل وعلا) ليعرفهم بربهم (جل وعلا) بما يرون في هذا الكون من باهر صنعه، وعظيم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

قدرته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿ انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾.

﴿ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ ﴿ أَثۡمَرَ ﴾ معناه: عندما يبدو ويطلع.

والينـع: تقول العرب: «يَنَعَ الثمر، يَيْنَع، ويَينِع يَنْعاً، فهو يَانع»، إذا نضج وأدرك وصار صالحاً للأكل[1]. معناه: انظروه عند حالته الأولى، وانظروه عند ينعه. أي: طِيبه، ونُضجه، وإدراكه صالحاً للأكل، تعرفون بذلك أن الذي نقله من الطور الأول عندما يثمر، إلى الحالة التي أينع فيها وصار صالحاً للأكل، تعلمون أن ذلك فعل عليم قدير عظيم، هو رب كل شيء، ومعبود كل شيء؛ ولذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ ﴾.

[١٢/أ] / ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٠ ـ ١٠٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ ﴾ [الأنعام: آية ١٠٠].

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً: ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ ﴾ بتخفيف الراء. وقرأه نافع وحده: ﴿وَخَرَّقُواْ﴾ بتشديد

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٨١)، القرطبي (٧/ ٥٠)، الدر المصون (٥/ ٨٢).

الراء[١]. أما على قراءة عبد الله بن مسعود: (وحرّفوا له بنين وبنات) فهذه قراءة شاذة[٢].

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) لما بين غرائب صنعه وعجائبه الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، كما في الآيات الماضية، كقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ الآية [الأنعام: آية ٩٧]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: آية ٩٩] إلى آخر الآيات، بين الله فيها كمال قدرته، وغرائب صنعه، وعجائبه، الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، وقال في هذه الآية، كأنه يقول: مع ما أبديت لخلقي من آياتي الدالة على عظمتي وجلالي، وأني الرب المعبود،

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٠.

(٢) هذه القراءة إنما تُنسب لابن عمر، وابن عباس (رضي الله عنهما)، كما في البحر المحيط (٤/ ١٩٤)، والدر المصون (٥/ ٨٧)، وفي المحتسب (١/ ٢٢٤): (عمر، وابن عباس).
وابن عمر يُشَدِّد الراء، وخففها ابن عباس.
أما القراءة المنسوبة لابن مسعود (رضي الله عنه)، فهي في قوله: (وخلقهم) حيث قرأها بإسكان اللام (وخَلْقَهم). والظاهر أنه معطوف على الجن. أي: وجعلوا خلقهم الذي ينحتونه أصناماً شركاء لله. انظر: المحتسب (١/ ٢٢٤)، البحر المحيط (٤/ ١٩٤)، الدر المصون (٥/ ٨٦)، وقد استشكل مؤلفه نسبة هذه القراءة لمصحف ابن مسعود، ومعلوم أن المصاحف آنذاك لم تكن مشكولة ولا منقوطة، فالله ــ تعالى ــ أعلم.

مع هذا أشركوا بي الجن، وعبدوا معي المعبودات التي لا تنفع ولا تضر[١].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ في إعراب قوله: ﴿الْجِنَّ﴾ أوجه:

أشهرها[٢]: أنه أحد مفعولي ﴿جَعَلُوا﴾. والمعنى: جعلوا الجن شركاء لله. فهو المفعول الأول، أُخِّر لأمن اللَّبْس.

و (جعل) هنا ذهب كثير من العلماء إلى أنها التي بمعنى (صيَّر)[٣] وهو غلط. وإن قاله كثير من أجلاء العلماء.

والتحقيق: أن (جعل) هنا بمعنى (. . .)[٤].

(. . .) منافعها من ألبان، وأصواف، وأوبار، وأشعار، وأسمان إلى غير ذلك، وكذلك خلق السماء، ورفعها، وأبعد سَمْكها، وزينها بالنجوم، وجعلها سقفاً محفوظاً تمر عليه آلاف السنين لا يتفطر، ولا يتصدع، ولا يتشقق، ولا يحتاج إلى إصلاح وترميم ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧)، القرطبي (٧/ ٥٢)، البحر المحيط (٤/ ١٩٣)، الدر المصون (٥/ ٨٣).

(٣) انظر: الدر المصون (٥/ ٨٣)، وما سيأتي عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٤) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. والكلام على (جعل) ومعانيها تجده عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، والآية (١٨٩) من سورة الأعراف. والكلام بعد الانقطاع يتعلق بالآية التي بعدها (١٠١) وهي قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ. . .﴾ الآية.

[الملك: الآيتان ٣، ٤] أي: من عظم ما رأى؛ ولذا قال هنا: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] أي خالق السماوات والأرض، ومخترعهما ومن فيهما.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وهذه الآية يُفهم منها أن المُلك والوَلَدِية لا يمكن أن يجتمعا؛ لأنهم لما ذكروا له الولد كان من رده عليهم: أنه مخترع الأرض والسماء. أي: ومن فيهما، وصانع الشيء فهو مالكه، والولد لا يكون مملوكاً أبداً(١).

وجرت العادة في القرآن: بأن الله يرد على الكفرة في ادعاء الولد بأنه مالك كل شيء، وأن الخلق عبيده، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لأن العبد لا يمكن أن يكون ولداً.

ومن هذه الآيات القرآنية أخذ العلماء أن الإنسان إذا ملك ولده ـ بأن تزوج أمة لغيره، وكان ولده رقيقاً واشتراه ـ أنه يعتق عليه بنفس الملك، ولا يمكن أن يملكه؛ لأن الملكية والولدية متنافيان(٢).

ولذا قال هنا: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

﴿أَنَّىٰ﴾ هنا: هذا استفهام للاستبعاد والإنكار والنفي. لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن كل ما في السماوات والأرض إنما هو خلقه وملكه، فكيف يكون له ولد من صُنْعِه ومُلْكِه الذي خلقه وأبرزه من العدم إلى الوجود.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي: امرأة؛ لأنه يتنزه (جل وعلا) عن

---

(١) انظر: القرطبي (٢/ ٨٥)، البحر المحيط (٤/ ١٩٥)، التسهيل لابن جزي ص ٢١١ ـ ٢١٢، التحرير والتنوير (٧/ ٤١٠).

(٢) انظر: القرطبي (١١/ ١٥٩).

ذلك؛ ولذا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وجميع الكائنات خَلْقه، ولا يمكن أن يكون شيء من خَلْقه ولداً له بحال؛ لأن الولد كالجزء من الوالد، والخلق صنع الوالد، والجزء والصنعة متباينان لا يمكن أن يجتمعا في شيء؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ﴾ جل وعلا ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ لا تخفى عليه خافية، فهو (جل وعلا) يعلم كل شيء، ويعلم غير الشيء؛ لأن (الشيء) عند أهل السنة والجماعة لا يطلق إلا على الموجود، والله يعلم الموجود الذي هو شيء، ويعلم المعدوم الذي هو ليس بشيء، فهو عالم بالموجودات، والمعدومات، والجائزات، والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، يعلم أن لو كان كيف يكون؟ كما قد بينا نصه تعالى على ذلك في هذه السورة ـ سورة الأنعام ـ فقد بيناه مفسراً في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٨](1) لأن الكفار إذا عاينوا النار ندموا على تكذيب الرسل، وتمنوا الردّ للدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل؛ ولذا قالوا: ﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبُ بآيات ربِّنا ونكونُ من المؤمنين﴾ [الأنعام: آية ٢٧] على إحدى القراءات(2)، والله (جل وعلا) عالم أن هذا الردّ الذي تمنوه عالم أنه لا يكون، وقد صرح (جل وعلا) أنه عالم أن لو كان كيف يكون؟ كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بإرادته لحكمة يعلمها ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران، ص ١٩٢.

عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي ثبطهم عنه، وسبق في علمه أنه لا يكون، هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧]. وكقوله: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] إلى غير ذلك من الآيات. ولذا قال هنا: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] فمن أحاط علمه بكل شيء فكيف يكون جنساً له ـ كالولد ـ من لا يعلم شيئاً إلا ما علمه الله؟ يعني: فالذي تدَّعون من الأولاد لله لا يعلمون شيئاً إلا ما علمهم الله، فكيف يكونون كالجزء والجنس لمن لا يخفى عليه شيء؟

وقد قدمنا مراراً[١]: أن العلم المحيط لله وحده، وأن المخلوقين يعلمون من علم الله ما علمهم الله فقط، وبينا أمثلة كثيرة لذلك، منها:

أن أعلم الخلائق ـ الملائكة والرسل ـ الملائكة قد قدمنا في سورة البقرة أن الله لما قال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: الآيتان ٣١، ٣٢] فقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ النكرة إذا بُنيت على الفتح مع (لا) فـ(لا) التي معها هي (لا) التي لنفي الجنس[٢]. والمعنى: أنهم نفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم، إلا شيئاً علمهم الله إياه.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: ضياء السالك (١/ ٣٥١).

والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) ـ مع ما أعطاهم الله من الفضل والمكانة والعلم ـ دلت آيات كثيرة أنهم لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم جل وعلا.

هذا سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه)، الذي فضّله الله في الأرض والسماء على جميع الخلق ـ نبينا محمد ﷺ؛ لأنكم تعرفون في قصة الإسراء والمعراج الثابتة بالأحاديث الصحيحة التي لا كلام فيها، أنه لما ارتفع (صلوات الله وسلامه [عليه])(١) إلى السماء، واخترق السبع الطباق، بلغ مبلغاً لم يبلغه رسول من الأنبياء، فظهرت مكانته على الجميع في العالم العلوي. ولما نزل إلى الأرض (صلوات الله وسلامه عليه) صلى بهم، فكان هو الإمام الأعظم، بإشارة من جبريل (صلوات الله على الجميع) ـ قد رُميت أحب زوجاته إليه بأعظم فرية، رموها بالفاحشة مع صفوان بن المعطل، وهو (صلوات الله وسلامه عليه) يغدو الملك ويروح عليه بالوحي، فلما رموها كان (صلوات الله وسلامه عليه) لا يدري أحق ما قالوا عنها أم لا؟؟ حتى هجرها، وكان يقول: كيف تِيْكُم؟ قالت: فقدت من رسول الله ﷺ العطف الذي كنت أجده منه إذا مرضت. وكان يقول لها: «**يا عائشة إن كنت أَلْمَمْتِ بذنب فتوبي إلى الله، وإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله**». لا يدري عن الحقيقة حتى أخبره المحيط علمه بكل شيء ـ رب السماوات والأرض ـ وقال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: آية ٢٦] وصرح بأن المقالة التي قيلت عليهم إفك وزور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ

(١) زيادة يقتضيها الكلام.

عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: آية ١١] ولما قالت لها أمها ــ لما نزلت براءتها في بيت أبي بكر ــ: قومي إليه فاحمديه. قالت (رضي الله عنها): والله لا أحمده اليوم، ولا أحمد اليوم إلا الله؛ لأنه هو الذي برأني، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لم يبرئني(١).

وهذا نبي الله إبراهيم ــ وهو هو ــ مع ما أعطاه الله من المكانة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وشهد له الله الشهادات العظيمة ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: آية ٣٧] ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وقيل للنبي ــ وهو هو ــ (صلوات الله وسلامه عليه): ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: آية ١٢٣] ذبح عجله، وتعب هو وامرأته في إنضاج العجل، ولم يدرِ أن ضيفه ملائكة حتى قدّم العجل المُنضج إلى الملائكة، ولما رآهم لا يمدون إليه أيديهم نكِرَهم وخاف منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: آية ٧٠] وصرح لهم في سورة الحجر بأنه خائف منهم ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر: آية ٥٢] أي: خائفون منكم، ولم يدر حقيقة الأمر حتى سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾(٢) [الحجر: الآيتان ٥٧، ٥٨] (. . .)(٣).

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل.

(٣) سيأتي نحو هذا البسط عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأعراف، والآية (٣٠) من سورة التوبة.

وهذا نراه مشاهداً اليوم، كل كفر وإلحاد، وكل خساسة في الخُلُق ارتكبوها، دخلوا معهم كل جحر، حتى إنه وُجد واحد إفرنجي نبتت قرحة تحت أنفه، فلم يقدر على حلق شعرات الشارب، صاروا يتركون من ذلك شيئاً، دخولاً في ذلك الجحر، واتباعاً لتلك القرحة، فحلقوا لحاهم، وتركوا دينهم، ودخلوا مع الإفرنج في كل جحر دخلوه!! وهذا من غرائب معجزاته[1] (صلوات الله وسلامه عليه)، حيث أقسم على هذا، وتحقق بعد عشرات القرون، والغيوب التي أخبر بها كثيرة جداً، كثير منها شاهده الناس، والباقي منها سيشاهدونه. وهذا معنى قوله (جل وعلا): ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠١].

ثم إن الله (جل وعلا) لما بين غرائب وعجائب صنعه وكمال قدرته، وبين لنا هذا في آيات كثيرة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الأنعام: آية ٩٥]، وبين (جل وعلا) أنه الذي أنشأنا وخلقنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٨]، وبين أنه خلق لنا أرزاقنا على ذلك الأسلوب الغريب العجيب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: آية ٩٩] وبين أنه الواحد الذي لا مثيل له ولا نظير، المتنزه عن الأولاد والصاحبات، وأنه خالق كل شيء، وأنه العليم بكل شيء، أشار لنا وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي سمعتم صفاته وغرائب فعله وعجائبه هو ﴿ٱللَّهُ﴾ خالق هذا الكون الذي يأمركم وينهاكم على لسان نبيه

(١) سيأتي عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٢]، لا معبود يُعبد بالحق إلا هو وحده، وكل معبود من دونه ـ كالجن الذي عبدها أولئك الكفرة ـ هو وعابدوه في النار ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: آية ٩٨].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: آية ١٠٢] (جل وعلا) لأنه (جل وعلا) خالق كل شيء، وإذا نظر الإنسان في أصناف المخلوقات بهر عقله قدرة الله (جل وعلا)، فإذا نظرتم إلينا معاشر الآدميين تجدون خالق السماوات والأرض أودع في الواحد منا من غرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، ويفتت الكُبود.

من أظهر ذلك: أنه صَبَّنَا صَبَّة واحدة، فجعل الأنف هنا، والعينين هنا، والفم هنا، ولم يتفق منا اثنان، لا يمكن أن يتفق اثنان، حتى لا يُعرف [فرق][1] بينهما، ولو جاءت الآلاف والملايين، مضروباً في الآلاف والملايين: لم يضق العلم أن يجعل لكل واحد صورة وهيئة مخالفة لصورة الآخر وهيئته، حتى إن الأصوات، وآثار الأقدام، وبصمات الأصابع في الأوراق، كل هذا لم يشتبه منه شيء. وهذا من غرائب صنع هذا الخالق وعجائبه جل وعلا.

وأبدع في كل واحد منا، لو شُرِّح عضو واحد تشريحاً صحيحاً لبهر العقول ما أودع الله فينا من غرائب صنعه وعجائبه.

إذا نظرت في العينين تجد في العينين من غرائب صنع الله

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ما يبهر العقول، كيف جعل هذا النور الذي يشع لهذا الإنسان يجتلب عليه جميع مصالحه، ومن ذلك ــ من الظاهر الواضح ــ أنه جعل للعين شحمة لئلا يجففها الهواء والريح، وجعل ماء العين مِلْحاً لئلا تُنتن الشحمة؛ لأن الملح يزيل النتن، وصبغ له بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وفتح له فماً، وجعل له عيناً عذبة من الريق يأكل بها الطعام، لو جف ريقه لما قدر أن يبتلع الزبد الذائب، ومن كمال قدرة الله أن الريق إذا كان يأكل به يبُل به الطعام ويبتلعه ويجم له الريق، وإذا كان غير وقت الحاجة ينقطع عنه الجَمّ؛ لئلا يتعبه التفل. فلو جعل له عينيه في قدميه لما رأى بهما شيئاً، ولو جعله عموداً واحداً كالخشبة من غير مفاصل لتعب، رتب بعض مفاصله ببعض لينثني، ورتب فقرات الظهر بعضها ببعض، وفرق له أصابع يديه، لو جعل يده ملتصقة كيد البعير لم يحُل شيئاً ولم يعقد شيئاً، وشد له رؤوس أصابعه بالأظفار، وأودع فيه من الغرائب والعجائب شيئاً يبهر العقول.

ونحن نلفت أنظار إخواننا دائماً لما لفت الله أنظارنا إليه، بأن كل هذه العمليات ــ أيها الإخوان ــ عملها ربنا فينا من غير أن يشق بطن أمهاتنا، ولا أن يخيطها، كل هذه العمليات الهائلة والأم بطنها لم يُشق، ولم يحتج إلى أن تُبنج، ولا أن تنوم في صحيّة، يعمله خالق الكون وهي لا تدري ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: آية ٦].

وهذا ننبه الناس إليه دائماً؛ لأن الله يُعجِّب خلقه منهم كيف ينصرفون عن هذا؟!! حيث قال في السورة الكريمة سورة الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦].

أنتم كُلّاً تعلمون أن الواحد منكم يدخل رحم أمه ليس مخططاً مفصلاً، ليس فيه رأس، ولا يد، ولا رجل، ولا عظم، نطفة ماء من مني، ثم الله (جل وعلا) يخلق هذا المني دماً، ثم يخلق الدم علقة، ثم يخلق الدم مضغة، ثم المضغة عظاماً، إلى آخر ما ذكر. ويخططكم هذا التخطيط، ويفصلكم هذا التفصيل، ويفتح لكم العيون، والأفواه، والآناف، والأسماع، ويجعل في العين حاسة البصر، وفي اللسان حاسة الذوق، وفي [الأذن] حاسة [السمع][1] إلى غير ذلك. ويُرَتِّب ـ أيها الإخوان ـ هذه العظام والسُّلَاميات هذا الترتيب الغريب العجيب ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: آية ٢٨] الأسر: معناه شد الشيء بالشيء وإلصاقه به. إذ لو كان الذي ألصق هذه العظام والسُّلاميات بعضها ببعض، بل ولو لم يجعله قوياً مشدوداً لقالوا: سقطت يد فلان البارحة، وسقطت رجله، وطاح فخذه؛ لأنه لم يكن مشدوداً!! لا، شَدَّهُ خالق السماوات والأرض، وألصق العظام بعضها ببعض، والغضارف بالعظام واللحم، وشدّ هذا شداً محكماً ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإنسان: آية ٢٨].

الشاهد أن الله نبهنا على فعله فينا ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: آية ٢١] وبين لنا أنَّا ندخل بطون أمهاتنا نُطف ماء؛ ولذا قال: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [الزمر: آية ٦] ينقلكم من طَور إلى طور ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] وهذا كله والواحد في ظلمات ثلاث:

(١) في الأصل: «وفي السمع حاسة الأذن» وهو سبق لسان.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: آية ٦] ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، لم يحتج خالق السماوات إلى أن يشق البطن، ويشق الرحم، ويزيل المشيمة التي على الولد، حتى يتمكن بصره، لا، بصره (جل وعلا) وعلمه نافذ، يفعل هذه الأفعال الغريبة العجيبة، ولم تمنعه من ذلك الظلمات الثلاث، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال ــ وهو محل الشاهد ــ : ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزمر: آية ٦]. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ أين تُصرف عقولكم، وتذهب عن فعل خالقكم جل وعلا فيكم؟! ولذا قال (جل وعلا): ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: آية ١٦] وقد بين غرائب صنعه وعجائبه، أشار لخلقه للإنسان كما كنا نقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] وهذا الخلق بعد الخلق، والطَّور بعد الطَّور، المذكور في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح: آية ١٤] بينه (جل وعلا) في سورة (قد أفلح المؤمنون) قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ ــ ١٤] هذه أفعال الله (جل وعلا) فينا الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده (جل وعلا)(١)؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني: أن من فعل هذه

(١) مضى نحو هذا البسط عند تفسير الآيتين (٩٢، ٩٨) من سورة الأنعام، وسيأتي نحوه عند تفسير الآيتين (١١، ٤٥) من سورة الأعراف، والآية (٣٨) من سورة التوبة.

الأفعال، وكانت قدرته بهذه المثابة من العظمة هو المعبود وحده جل وعلا.

﴿وَهُوَ﴾ ـ جل وعلا ـ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٠٢] أصل الوكيل: هو الذي تُفوض إليه الأمور وتسند؛ ليجلب المصالح فيها، ويدفع المضار، وهو (جل وعلا) هو الوكيل بكل شيء، الذي كل شيء بيده، تُفَوَّض أمور كل شيء إليه، يفعل فيها ما يشاء (جل وعلا). هذا الذي هذه صفاته هو الذي يستحق أن يُعبد جل وعلا.

[١٣/أ] / قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٣].

استدل المعتزلة بهذه الآية الكريمة على أن الله لا يُرى بالأبصار. واستدلالهم بهذه الآية على ذلك باطل(١).

واعلموا أولاً: أن التحقيق في رؤية الله بعين الرأس أنها يُنْظَر إليها بنظرين:

أحدهما: النظر إليها بالحكم العقلي.

والثاني: النظر إليها بالحكم الشرعي.

أما رؤية الله بالنظر إلى حكم العقل: فهي جائزة في الدنيا، وجائزة في الآخرة.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٦ ـ ١٨، ٢٠ ـ ٢٢)، الشريعة للآجري ص ٢٥١ فما بعدها. اللالكائي (٣/ ٤٥٤) فما بعدها، ابن كثير (٢/ ١٦١)، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٢، وللدارقطني في الرؤية كتاب مفرد، وهو مطبوع.

فالدليل على جوازها عقلاً في دار الدنيا: أن نبي الله موسى ــ وهو هو ــ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] فلو كانت رؤية الله مستحيلة عقلاً في الدنيا لما خفي ذلك على نبيه موسى؛ لأنه لا يجهل المستحيل في حق الله.

أما بالنظر إلى الحكم الشرعي: فهي جائزة وواقعة في الآخرة قطعاً، ممتنعة في الدنيا. وهذا هو التحقيق، فعُلم من هذا التحقيق: أن رؤية الله بالأبصار وعيون الرؤوس جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، جائزة وواقعة شرعاً في الآخرة، ممتنعة شرعاً في الدنيا[١]. فالله جل وعلا في دار الدنيا لا يُرى بالأبصار فعلاً، وإن كان ذلك يجوز عقلاً، ولكنه في الآخرة يراه المؤمنون (جل وعلا)، هذا هو التحقيق.

ومذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه آيات القرآن، والأحاديث الصحيحة المتواترة، أن رؤية الله واقعة شرعاً، يراه المؤمنون يوم القيامة بأبصارهم، كما جاء عن حوالي عشرين صحابياً في أحاديث متواترة[٢]: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة. وقد نص الله على ذلك في آيات من كتابه[٣]، كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وكقوله (جل وعلا) في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: آية ١٥]

---

(١) انظر: مختصر الصواعق ص ١٧٩.

(٢) انظر: كتاب الرؤية للدارقطني، الشريعة للآجري ص ٢٥٣ فما بعدها، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (٣/ ٤٧٠) فما بعدها، شرح الطحاوية ص ٢١٥، ٢١٧، وقد ساق ابن القيم (رحمه الله) أحاديث الرؤية عن سبعة وعشرين صحابياً. انظر: حادي الأرواح ص ٢٠٥ فما بعدها.

(٣) انظر: الأضواء (٢/ ٢٠٦).

يُفهم من مفهوم مخالفته: أن المؤمنين غير محجوبين عن ربهم، بل يرونه[١]، وهو كذلك. وثبت عن النبي ﷺ أنه فسر قوله: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم»[٢].

هذا هو التحقيق في رؤية الله، أنها جائزة في حكم العقل في الدنيا والآخرة، ممتنعة في حكم الشرع في دار الدنيا، واقعة في الآخرة.

ولطالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: إذا كانت جائزة عقلاً في الدنيا فما وجه منعها وعدم إمكانها شرعاً؟

أجاب بعض العلماء عن هذا السؤال: بأن الناس في دار الدنيا رُكّبوا تركيباً ضعيفاً مُعَرَّضاً للتغير، والفناء، والزوال، وهذا التركيب الضعيف المُعَرَّض للفناء، والتغير، والزوال، لا يقدر، ولا يستطيع، ولا يقوى على رؤية خالق السماوات والأرض، والدليل على ذلك: أنه لما تجلّى للجبل صار الجبل دكّاً لعظم رؤية الله (جل وعلا)، كما يأتي في الأعراف في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] فما يدك الجبال

(١) انظر: اللالكائي (٣/٤٦٨)، الشريعة ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، شرح الطحاوية ص ٢١٢.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (سبحانه وتعالى)، حديث رقم: (١٨١)، (١/١٦٣) من حديث صهيب (رضي الله عنه)، وقد رواه جماعة من الصحابة والتابعين ذكرهم اللالكائي (٣/ ٤٥٥)، والآجري في الشريعة ص ٢٥٧ وغيرهما.

لا يقدر عليه بنو آدم، ولا يقوون عليه[١]. أما في الآخرة فإن الله يُرَكِّبهم تركيباً جديداً قوياً ليس قابلاً للتغير ولا للفناء، فيقوون بتلك القوة على رؤية الله جل وعلا.

فتبين بهذا أنها جائزة عقلاً في الدنيا، إلا أن البشر يعجزون ولا يقوون عليها، وأنها واقعة شرعاً؛ لأنهم في ذلك الوقت يطيقونها لتركيبهم الجديد الدائم.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وقد قدمنا مراراً في هذه الدروس[٢]: أن الواجب على كل المسلمين في آيات الصفات: أن يعتقدوا ثلاثة أُسس كلها في ضوء القرآن العظيم، فمن اعتقد الأُسس الثلاثة كلها لقي ربه سالماً على محجة بيضاء، ومن أخل بواحد منها وقع في مهواة قد لا يتخلص منها، هذه الأُسس الثلاث:

أولها: ـ وهو الأساس الأكبر للتوحيد، وهو الحجر الأساسي لمعرفة الله الصحيحة، والصلة بالله على أساس صحيح وثيق. هذا الأصل العظيم الذي هو أساس التوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة صحيحة وثيقة ـ : هو اعتقاد أن خالق السماوات والأرض منزه غاية التنزيه عن أن يشبه شيئاً من صفات خلقه، أو ذواتهم، أو أفعالهم. فهو (جلّ وعلا) العظيم الأعلى الذي لا يشبه شيئاً من خلقه، ومَن الخلق حتى يشبهوا مَنْ خَلَقَهم؟ أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته؟ كيف تشبه الصنعة صانعها؟ لا.

(١) انظر: شرح الطحاوية ص ٢٢٠، مختصر الصواعق ص ١٨٠.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام، وسيأتي في مواضع أخرى متعددة.

وهذا الأساس العظيم، الذي هو أساس التوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة صحيحة، الذي هو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، بيَّنه الله في آيات من كتابه، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: آية ٦٥] هذا أساس التوحيد الأكبر، فإذا نظَّف الإنسان ضميره من نجاسة وتقذير التشبيه كان سهلاً عليه أن يؤمن بما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ إيماناً مبنياً على أساس التنزيه؛ لأن كل البلايا منشؤها من أقذار القلوب بنجاسات التشبيه، فمن طهر قلبه عن أقذار التشبيه ونجاساتها، وعلم أن صفات الله بالغة من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين: سهل عليه أن يؤمن بالصفات؛ لأنه يعتقد في معانيها التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق.

وهذان الأصلان اللذان بيناهما الآن ـ اللذان هما: تنزيه الله عن مشابهة خلقه، والإيمان بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، وعدم مشابهة الخلق ـ لم نقله من تلقاء أنفسنا، وإنما قلناه في ضوء تعليم خالق السماوات والأرض في ضوء المحكم المنزل؛ لأن الله لما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١] فإتيانه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه تعليمٌ أعظم، ومغزىً أكبر، وسرٌّ سماوي لا يخفى، لا يبقى معه في الحق لبس؛ لأنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ مع أن السمع والبصر ـ ولله المثل الأعلى ـ

من حيث هما سمعٌ وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات ــ ولله المثل الأعلى ــ فكأن الله يقول: لا تتنطع يا عبدي يا مسكين فتنفي عني صفة سمعي وبصري، مدعياً أن المخلوقات تسمع وتبصر، وأنك إن أثبتَّ لي سمعي وبصري كنتَ مُشَبِّهاً لي بالمخلوقات التي تسمع وتبصر. لا، وكَلَّا!! أَثْبِتْ لي سمعي وبصري، مراعياً في ذلك الإثبات: تنزيهي، وقولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فجميع الصفات من هذا الباب الواحد. فأول الآية ــ أعني: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ــ يدل على التنزيه الكامل عن مشابهة المخلوقين من غير تعطيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ يدل على الإيمان بالصفات إيماناً حقاً على أساس التنزيه، من غير تشبيه ولا تمثيل.

فالأساس الأول من هذه الأُسُس الثلاثة: هي تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، وذواتهم، وأفعالهم.

الأساس الثاني: هو أن لا تكذب الله فيما أثنى به على نفسه؛ لأنه لا يَصِفُ اللَّهَ أعلمُ بالله مِنَ الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصفُ الله بعد الله أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

فعلينا أولاً أن نطهر قلوبنا من أقذار التشبيه، وأن نُنزه خالق السماوات والأرض عن أن تُشبه صفتُه صفة خلقه، ثم إذا طهَّرنا القلوب من أقذار التشبيه، ونَزَّهْنا خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، سهل علينا الإيمان بصفاته ــ صفات الكمال والجلال ــ إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، وعدم المماثلة، على غِرَار

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: آية ١١].

الأساس الثالث من هذه الأُسس: هو قطع الطمع عن إدراك الكيفيات؛ لأن من أدرك كيفية الشيء فقد أحاط به، والله يقول: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: آية ١١٠].

فهذه الأُسس الثلاثة التي هي: تنزيه الله عن مشابهة خلقه، والإيمان بصفاته الثابتة في كتابه وسنة رسوله، إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، وقَطْع الطمع عن إدراك الكيفية. هذا معتقد السلف الذي كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون. لا يفسرون صفات الله إلا بدليل جليل لائق منزه عن الأقذار ومشابهة الخلق، ولا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه، بل يثبتونه له على أساس التنزيه، على غِرَار: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: آية ١١].

وأنا أُؤكد لكم: أننا في هذه الدار ــ دار الدنيا ــ وسنرتحل جميعاً منها إلى القبور، ثم ننتقل من القبور إلى عَرَصَات القيامة، إلى محل المناقشة والسؤال عن الحقير والجليل، فإذا جئتم الله وأنتم معتقدون هذه الأُسس الثلاثة، أؤكد لكم أنه لا تأتيكم بلية، ولا وَيْلَة، ولا مشكلة، ولا لوم، ولا توبيخ من واحد من هذه الأُسس التي بينتُ لكم على ضوء القرآن العظيم. فلا يقول الله لواحد منكم: لِمَ تنزهني عن مشابهة المخلوقات؟ لا، وكَلَّا. هذا التنزيه طريق سلامة محققة. ولا يقول الله لأحد منكم: لِمَ أثْبتَّ لي ما أثْبتُّه لنفسي، أو أثْبتَه لي رسولي؟ ولِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي؟ لا، وكَلَّا. فتصديق الله والإيمان بما قال على أساس التنزيه طريق سلامة محققة لا شك فيها. ولا يقول الله لواحد منكم: لِمَ لا تَدَّعي

أن عقلك الضعيف المسكين محيط بكل صفاتي وكيفياتها؟ لا، وكَلاَّ.

فهذه الأسس الثلاثة في ضوء القرآن العظيم طريق سلامة محققة؛ ولذا ما ثبت من رؤية الله بالأبصار نُمِرُّه كما جاء، ونعتقد أنه حق على الوجه اللائق بكماله وجلاله، المُنزه عن مشابهة صفات المخلوقين من جميع النواحي.

إذا عرفتم هذا: فاعلم أن العلماء أجابوا عن استدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة على مذهبهم الباطل بأجوبة متعددة:

منها: أن معنى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] كما جاء عن ابن عباس وجماعة من السلف: أن الإدراك المنفي هنا هو الإحاطة[١]. والمعنى: لا تحيط به الأبصار.

والإدراك قد يطلق على الإحاطة كثيراً[٢]، كقوله: ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: آية ٩٠] أي: أحاط به من جميع جهاته. ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: آية ٦١]. أي: محاط بنا.

وعلى هذا فمعنى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ أي: لا تُحيط به الأبصار، وإن كانت تراه في الجملة، فالإدراك المنفي هو الإحاطة. والإحاطة لا يستلزم نفيها نفي مطلق الرؤية الثابت في الأحاديث المتواترة، والآيات القرآنية[٣].

الوجه الثاني: أن معنى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام:

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٣).

(٢) السابق (١٢/ ١٤).

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٠٦).

آية ١٠٣] أي: لا تدركه في دار الدنيا(١)، بدليل قوله في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣]. فلما قيد نظرها إلى ربها بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، عرفنا أن ذلك النظر مقيد بالقيامة، وأنَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي في دار الدنيا.

وقال بعض العلماء: لو سَلَّمنا ما يقوله المعتزلة من أن الإدراك: الرؤية، وأن الآية عامة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فعمومها تخصصه آيات أُخر بيوم القيامة(٢): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٥] أي: بخلاف المؤمنين فليسوا بمحجوبين عن ربهم.

وقد تقرر في الأصول أن المفهوم يُخَصِّص العام(٣)، سواءً كان مفهوم موافقة، أو مفهوم مخالفة.

فمثال تخصيص العام بمفهوم الموافقة(٤): قوله ﷺ: «لَيُّ الواجِدِ ظُلْمٌ يُحِل عِرْضَه وعقوبته»(٥)

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٨ ـ ١٩).

(٢) انظر: السابق (١٢/ ١٩).

(٣) انظر: الفقيه والمتفقه (١/ ١١٢)، روضة الناظر (٢/ ١٦٧)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٥٦٨)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٣٦٦ ـ ٣٦٨)، نهاية السول (٢/ ١٧٤)، الفتاوى (٣١/ ١٠٥ ـ ١١٠)، أضواء البيان (٥/ ٥٦٠).

(٤) انظر: شرح الكوكب (٣/ ٣٦٦).

(٥) الحديث بهذا اللفظ أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٢، ٣٨٨، ٣٨٩)، وأبو داود في الأقضية، باب في الدَّين هل يُحبس به؟ حديث رقم: (٣٦١١)، (١٠/ ٥٦)، والنسائي، كتاب البيوع، باب مطل الغني، حديث رقم: (٤٦٨٩، ٤٦٩٠)، (٧/ ٣١٦)، وابن ماجه، كتاب الصدقات؛ باب الحبس في الدَّين، حديث رقم: (٢٤٢٧)، (٢/ ٨١١)، والحاكم (٤/ ١٠٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر: =

ومعنى قوله: «لِيُّ الواجد» يعني: ظلم الغني يُحِل عقوبته. يعني: بالحبس. وعِرْضَه: بأن يقول: ظلمني، ومطلني. وظاهر هذا العموم يشمل الوالد إذا مطل دَيْن ولده؛ لأن لفظة «الواجد» يصدق بكل غريم موسر، فيدخل فيه الأب، إلا أن مفهوم الموافقة في قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: آية ٢٣] يُفهم منه: أن حَبْسَه في دَيْنِه من باب أولى لا يجوز. فَخُصِّصَ الحديث بمفهوم الموافقة في الآية.

ومثاله في مفهوم المخالفة: قوله ﷺ: «في أربعين شاة شاة»(١). ظاهر عمومه: سواء كانت سائمة، أو معلوفة، فلما قال في

= الإرواء رقم: (١٤٣٤)، وصحيح ابن ماجه رقم: (١٩٧٠)، صحيح النسائي رقم: (٤٣٧٢، ٤٣٧٣)، صحيح أبي داود رقم: (٣٠٨٦)، المشكاة رقم: (٢٩١٩)، وهو من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه (رضي الله عنه).

(١) هذه الجملة ـ بهذا اللفظ ـ وردت في عدة أحاديث وآثار؛ فمن ذلك:
١ ـ عن ابن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً. عند ابن ماجه في الزكاة، باب صدقة الغنم، حديث رقم: (١٨٠٥، ١٨٠٧)، (١/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩).
٢ ـ عن أنس (رضي الله عنه) مرفوعاً. عند الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٠٤) وقال: «لم يرو هذا الحديث عن داود بن أبي هند إلا سلام أبو المنذر، تفرد به حاتم بن عبيد الله»، وانظر: مجمع الزوائد (٣/ ٧٣).
٣ ـ ما رواه قزعة عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) (وشك قزعة في رفعه) عند أحمد (٣/ ٣٥)، وقال في المجمع (٣/ ٧٣): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». اهـ.
٤ ـ الحسن البصري (رحمه الله) مقطوعاً. عند ابن أبي شيبة (٣/ ١٣٢).
٥ ـ إبراهيم النخعي (رحمه الله) مقطوعاً. عند ابن أبي شيبة (٣/ ١٣٢).
كما ورد في هذا المعنى عدة أحاديث وآثار بألفاظ متفاوتة عن أنس وابن عمر (رضي الله عنهم) وكتاب النبي ﷺ في الصدقات الذي يرويه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده، وكتاب أبي بكر (رضي الله عنه) في =

الحديث الآخر: «في الغنم السائمة زكاة»(١) خُصص عموم «في أربعين شاة شاة» بمفهوم المخالفة في قوله: «في الغنم السائمة زكاة». أي: فمفهومه: أن غير السائمة لا زكاة فيها. فيُخَصَّص بهذا المفهوم عموم: «في كل أربعين شاة شاة» ولذا يُخَصَّص عموم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] بمفهوم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: آية ١٥] أي: بخلاف المؤمنين فليسوا محجوبين عن ربهم. وقد نص الله على ذلك في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: آية ٢٦] ولا شك أن القرآن تخصصه السنة، وأن السنة تخصص القرآن. فلو قلنا: إن عموم ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عموم عام، بمعنى: لا تراه الأبصار. فإنه تخصصه الأحاديث المتواترة عن النبي أن المؤمنين يرونه يوم القيامة بأبصارهم، ودلت عليه الآية المذكورة كما هو معروف.

وتخصيص الكتاب بالكتاب والسنة معروف(٢).

فمثال تخصيص القرآن بالقرآن: تخصيص قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ

= الصدقات، وكذا كتاب عمر (رضي الله عنه)، وورد عن علي (رضي الله عنه) موقوفاً وغير ذلك وحديث أنس في الصحيح.

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: زكاة الغنم، حديث رقم: (١٤٥٤)، (٣/ ٣١٧).

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه (١/ ١١٢)، المستصفى (٢/ ١٠٢) فما بعدها، البحر المحيط للزركشي (٣/ ٣٦١) فما بعدها، شرح الكوكب المنير (٣/ ٣٥٩) فما بعدها، الروضة (٢/ ١٦١)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٥٥٨)، نهاية السول (٢/ ١٦٣).

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨] في قوله جل وعلا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: آية ٤] فالمطلقة الحامل تخصص من القروء بوضع الحمل، وكما خصص منه المطلقة قبل الدخول بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: آية ٤٩] ومعلوم أن تخصيص الكتاب بالسنة كثير؛ ولذا خُصِّصَ قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٤] بقوله: «**لا تُنكح المرأة على عمتها أو خالتها**...» الحديث[1]. وخُصِّصَ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: آية ١١] بأولاد الأنبياء فلا يرثون، والولد الكافر فلا يرث، والولد الرقيق فلا يرث. كل ذلك بالسنة، وهذا معروف[2].

فمعنى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] أي: لا تحيط به الأبصار، أو: لا تدركه الأبصار في الدنيا، ولكنها تراه في الآخرة.

واختار غير واحد: أن الإدراك هنا المنفي معناه: الإحاطة. أي: لا تحيط به الأبصار، ولا ينافي أنها تراه، ولكن لا تحيط به؛ لأنه لا يحيط به شيء، وهو محيط بكل شيء، وفي الحديث: «لا

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها، حديث رقم: (٥١٠٩، ٥١١٠)، (٩/ ١٦٠)، ومسلم، كتاب النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، حديث رقم: (١٤٠٨)، (٢/ ١٠٢٨) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).
وقد أخرجه البخاري أيضاً في النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، حديث رقم: (٥١٠٨)، (٩/ ١٦٠) من حديث جابر (رضي الله عنه).

(٢) انظر هذه الموانع وأدلتها في: العذب الفائض (١/ ٢٣ ــ ٤١).

أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[١] فكما أن المؤمنين يعلمون صفات ربهم ـ صفات الكمال والجلال ـ ولا يحيطون بكيفية كُنْهِها فكذلك يرونه يوم القيامة بعيونهم ولا تحيط به أبصارهم.

والحاصل هو ما قدمناه: أن التحقيق في رؤية الله بعيون الرؤوس بالأبصار أنها جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، ممتنعة شرعاً في الدنيا، جائزة [نقلاً وعقلاً][٢] وواقعة في الآخرة بالأحاديث المتواترة، والآيات القرآنية كما بينا.

وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الأبصار: جمع بَصَر، ولعلماء اللغة حدود متقاربة في معنى البصر[٣]:

قال بعضهم: البصر: العين، إلا أنه مُذَكَّر.

وقال بعضهم: البصر: حاسة الرؤية.

وقال بعضهم: البصر: حِسُّ العين. أي: إحساسها الذي تُدرك به المرئيات.

وقال بعضهم: البصر: هو الجوهر اللطيف الذي ركَّبه الله في حاسة الرؤية تُرى به المُبْصَرات. معناه: أن هذا البصر الذي في العين ـ المعنى القائم فيها، الذي تُدرك به المُبصرات ـ لا يحيط بخالق السماوات والأرض وإن كانوا يرونه، كما جاء في الآيات القرآنية.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم: (٤٨٦)، (١/ ٣٥٢).

(٢) في الأصل: «جائزة وواقعة عقلاً في الآخرة»، وما بين المعقوفين زيادة ينتظم بها الكلام.

(٣) انظر: المفردات (مادة: بصر) ص ١٢٧، المصباح المنير (مادة: بصر) ص ٢٠، الكليات ص ٢٤٧.

﴿وَهُوَ﴾ جل وعلا ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] أي: يحيط بها علماً وبصراً.

وهذه الآية تدل على أن الخلق لا يحيطون بكيفية البصر، ولا يعلمون كيفية هذا النور، وحقيقة هذا النور الذي جعله الله في العين تبصر به المرئيات. لا يبصر الإنسان بيده، ولا بأنفه، ولا بجبهته، ولا برجله، وإنما يبصر بخصوص عينه. فهذا المعنى الذي أودعه الله في العين لا تحيط الناس بكُنْه كيفيته، ولا حقيقته، والله (جل وعلا) يدركه، أي: يحيط به، ويراه، ويعلم حقيقته (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ أصل (اللطيف): (فَعِيْل) من اللطف. واللطف أصله في لغة العرب: هو إيصال النفع، والإكرام، والبر بالطرق الخفية[1]. فكل ما يوصل إليك النفع، والبر، والإحسان فإنه لطيف بك. والعرب تقول: صديق مُلاطِف. إذا كان يلاطفك بالبر، والإحسان، والإكرام.

وسُئِل بعض علماء العربية عن: (صديقك المُلاطِف) ما معنى كونه ملاطفاً لك؟

أجاب: بأن الصديق المُلاطِف ينطبق عليه قول الراجز[2]:

إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك

(١) انظر: المفردات (مادة: لطف) ص ٧٤٠، الكليات ص ٧٩٧.

(٢) هذا الرجز في المستطرف للأبشيهي (١/ ١٣٦)، ويُنسب لعبد الملك بن مروان، ونسبه ابن خميس في الشوارد (٢/ ٧٦) إلى القرشي، وهو في جمهرة الأمثال للعسكري (١/ ٥٨) بلا نسبة.

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

فعلى كل حال اللطف: إيصال البر والإكرام والإحسان. وكثيراً ما يُطلق على إيصاله بالطرق الخفية التي لا يعلمها كل الناس.

والله (جل وعلا) لطيف بخلقه، محسن إليهم، يدرك حقائقهم، ولا يخفى عليه منهم شيء، لطيف إليهم، محسن برٌّ بهم، يوصل لهم طرق الإكرام، والبر، والإحسان من حيث لا يشعرون. وقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ (فَعِيل) من الخُبر. و(الخبير) في لغة العرب لا يكاد يطلق إلا على العالِم بما من شأنه أن يخفى، فلا يُطلق الخبير على العالم بالظاهر غالباً، وإنما يطلق (الخبير) على من عَلِم شيئاً من شأنه أن يخفى، ومنه قول العرب: «على الخبير سَقَطْتَ»[1] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: آية ١٤]. فلو قلت مثلاً: «أنا خبير بهذا الأمر». وهو أمرٌ معنوي يخفى، كان كلاماً عربياً. ولو قلت: «أنا خبير بأن الواحد نصف الاثنين» لم يكن هذا من لغة العرب؛ لأن كون الواحد نصف الاثنين ليس من شأنه أن يخفى حتى يُعبَّر عنه بلفظ (الخبير). هذا هو معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾. وكان بعض المتأخرين من العلماء يقول[2]: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ في استخراج الأشياء لقدرته عليها ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ بمكانها، لا يخفى عليه شيء. والأول هو التفسير المعروف، وهو المعروف في كلام العرب. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠

(١) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص ٢٠٦.

(٢) وهو قول أبي العالية. انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٣).

عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٤]. ﴿قَدْ﴾: هنا حرف تحقيق. و﴿جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ إنما ذكّر الفاعل ولم يقل: «جاءتكم بصائر» لأن الجمع المُكَسَّر يجري مجرى الواحدة المؤنثة المجازية التأنيث[(١)]، فيجوز التجريد من التاء. وحسَّنه هنا الفصل بالمفعول ـ أعني: ﴿جَآءَكُم﴾ ـ فإن الفصل يبيح ويجوز به ترك التاء في المؤنثة الحقيقية، أحرى غيرُها[(٢)].

وقوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ البصائر: جمع البصيرة (فَعِيْلَة) مجموعة على (فَعَائِل) على القياس. والبصيرة أشهر معانيها في لغة العرب أنها تُطلق إطلاقين يرجع إليهما غالب استعمال البصيرة في القرآن، وفي لغة العرب[(٣)]:

أحدهما: أن البصيرة هي الحُجَّة والدليل القاطع. فمعنى (البصائر): الحُجَج والأدلة القاطعة، وإنما قيل للدليل القاطع والحجة والبرهان: (بصيرة) لأنه يُنَوِّر البصيرة التي هي نور العقل، يُنَوِّرها حتى ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، والضار ضاراً، والحَسَن حَسَناً، والقبيح قبيحاً. وعلى هذا فمعنى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ أي: قد جاءتكم حُجَج قاطعات، وأدلة واضحات في هذا القرآن العظيم، بيّن الله لكم بها توحيده، وأدلة براهينه القاطعة، كقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] إلى آخر

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٤) من سورة الأنعام، وانظر: الدر المصون (٥/ ٩١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة، وانظر: الدر المصون (٥/ ٩١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٤)، البحر المحيط (٤/ ١٩٦)، الدر المصون (٥/ ٩١)، بصائر ذوي التمييز (٢/ ٢٢٣).

ما تقدم من آيات البراهين، والحجج القاطعة في هذه السورة الكريمة.

ومن إطلاق البصيرة على الدليل القاطع: قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] أي: على علم، ودليل واضح، وبرهان قاطع لا يترك في الحق لَبْساً. ومنه بهذا المعنى: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: الآيتان ١٤، ١٥] معناه: أن الإنسان حجة على نفسه.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾. في قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ وجهان معروفان من التفسير(١):

أحدهما: أنه لو اعتذر كل الأعذار، كما قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٣] فنفسه حجة عليه؛ لأن جلْده وجوارحه تنطق بما فعل، كما يأتي في قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: آية ٢٢] وكقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: آية ٦٥] فكلام أيديهم وشهادة أرجلهم هو كون الإنسان بصيرة وحجة على نفسه، حيث يشهد عليه جلْدُه وأعضاؤه ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [فصلت: آية ٢١] فعلى هذا: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ لو أتى بالأعذار الكاذبة كقولهم: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٢] ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ [النحل: آية ٢٨] ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٣] فنفسه منها حجة قاطعة

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٩/١٨٤ ـ ١٨٦)، ابن كثير (٤/٤٤٩)، اللسان (مادة: بصر) (١/٢١٩ ـ ٢٢٠).

عليه، وهي شهادة أعضائه وجلده على أنه فعل كذا يوم كذا، في وقت كذا، في مكان كذا.

الوجه الثاني: أن (المِعْذَار) يطلق في لغة بعض العرب من اليمانيين وغيرهم على (السِّتْر)، فيقولون: «أرخى مِعْذَاره» أي: سِتْرَه. والمعنى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ تقوم حجة منه بما فعل على نفسه بشهادة جوارحه ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أي: ولو أرخى ستوره وقت الذنب بحيث لا يطَّلع عليه أحد، فجوارحه تُخبر بما فعل. هذا هو معنى البصيرة، ومعانيها راجعة إلى هذا.

والظاهر أن تسمية العرب الدم الذي يخرج من البكر عند افتضاضها ـ فقطعة الدم التي تخرج من البكر عند افتضاضها ـ تسميها العرب: (بصيرة) لأنها حجة على أن الزوج وجدها بكراً غير ثيب[١]. ومن هنا قيل لدم القتيل الذي يكون عند أولاده ـ يأخذون دمه ـ تقول العرب لدمه: (بصيرة). لأنه حجّة على القاتل أنه قتله. وهو معنى معروف[٢]، ومنه قول الأشعر الجعفي[٣]:

رَاحُوا بصائِرُهُم على أكتَافِهِم وبَصِيْرَتي يَعْدُو بها عَتَدٌ وأى

فمعنى قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ أي: قد جاءتكم في هذه السورة الكريمة حُجَج وبراهين قاطعات على كمال قدرته (جل وعلا)

---

(١) انظر: القاموس (مادة: بصر) ص ٤٤٨، اللسان (مادة: بصر) (١/ ٢٢٠).

(٢) انظر: القاموس (مادة: بصر) ص ٤٤٨، اللسان (مادة: بصر) (١/ ٢٢٠).

(٣) البيت في ابن جرير (١٢/ ٢٤)، اللسان (مادة بصر) (١/ ٢٢٠).

وقوله: «عَتَد» أي: الفرس الشديد التام الخلق، السريع الوثبة، المعد للجري.

وقوله: «وأى» أي: الفرس السريع الطويل.

وآياته الباهرة، الدالة على أنه رب كل شيء، وأنه المعبود وحده.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي: بعين قلبه؛ لأن الإبصار إنما هو بالبصيرة، وهو المعنى الثاني للبصيرة، وهو الاستبصار والعلم بالقلب بحقائق الأشياء ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ يعني: ببصيرة قلبه؛ لأن الإبصار النافع هو الإبصار ببصيرة القلب كما يأتي في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: آية ٤٦].

ومن أراد أن يقرب عنده معنى هذه الآية الكريمة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ فلينظر إلى رجلين في وسط الشارع، أحدهما صحيح العينين، تام البصر جداً، إلا أنه مفقود العقل بتاتاً. والثاني أعمى، مكفوف لا يبصر شيئاً، إلا أنه كامل العقل تامه. فتجد صحيح العينين قوي النظر حديده، الذي يفقد العقل يضرب رأسه في الجدار، ويسقط في البئر، ويسقط في النار، ويسقط على الحيّة، فهو لا يرى شيئاً، وبصره الحديد لا ينتفع به، وتجد ذلك الأعمى وعصاه أمامه، يروغ من هنا ومن هنا، كأنه يرى كل ما يضره وما ينفعه، بهذا تعلموا مدى قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

إذا أبصر القلبُ المروءةَ والتقى فإن عمى العينين ليس يضير[2]

ومعنى قوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي: ببصيرة قلبه وأدرك عظمة الله، وفهم عن الله آياته التي جاءت بها رسله فآمن بالله، وصَدَّق رسله، وامتثل أمر الله، واجتنب نهيه.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فقد أبصر لنفسه؛ لأن فائدة ذلك الإبصار راجعة عليه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ أي: عمي قلبه، ولم يفهم عن الله ــ والعياذ بالله ــ فلم يفهم عن الله آياته، ولم يفهم هذه البصائر والحُجج والأدلة القاطعة، لم يفهمها، ولكن عمي قلبه عنها ــ والعياذ بالله ــ فعلى نفسه، فعماه على نفسه، نفسه عمي عليها، وإياها أضر.

وهذه الآيات تدل الإنسان على أنه إن أبصر عن الله فإنما ينفع نفسه، وإن عمي عن الحق فإنما يضر نفسه ــ والعياذ بالله ــ فعلى المسلم أن يجتهد فيما يبصر به من إخلاص النية، وطاعة الله (جل وعلا).

وهذا معنى قوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ وهذا الكلام كأن الله أمر النبي ﷺ أن يقوله؛ ولذا قال في آخره: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ الحفيظ: (فَعِيْل) بمعنى (فَاعِل) أي: بحافظ عليكم أعمالكم(١)، أوفقكم إلى خير، وأوفقكم لترك الشر، وإلى فعل الخير، وأحسب أعمالكم، وأضبطها عليكم، لا، وكلَّا، ليس من شأني حفظ أعمالكم وتوفيقكم، ولا إحصاء أعمالكم عليكم، ولا مجازاتكم عليها، إنما أنا رسول مُبلِّغ، إنما عليَّ البلاغ، وقد بلَّغْتُ، وحِفْظُ أعمالكم وتوفيقكم إلى الخير والشر ومجازاتكم على ذلك كله بيد الله وحده، كما قال جل وعلا: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: آية ٤٠]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: وهو التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: آية ٥٤] أي: وهو الطاعة.

(١) انظر: ابن جرير (٨/ ٥٦٢).

وهذا معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ [الأنعام: آية ١٠٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام: آية ١٠٥].

في هذه الآية الكريمة ثلاث قراءات سبعيات[1]: قرأه من السبعة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ على وزن (فَعَلْت) (الدال) غير ممدودة بألف، و (التاء) مفتوحة ـ تاء المخاطَب ـ ﴿دَرَسۡتَ﴾ بعدم مدّ الدال، وفتح التاء. هذه قراءة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

وقرأه من السبعة أبو عمرو، وابن كثير: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَارَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ﴾ على وزن (فَاعَلْت) بتاء المُخَاطَب المفتوحة.

وقرأه ابن عامر وحده من السبعة: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ﴾ على وزن (فَعَلَتْ) بتاء التأنيث الساكنة.

أما على قراءة نافع وعاصم وحمزة والكسائي فمعنى ﴿دَرَسۡتَ﴾: اعلم أولاً أن معنى الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: وكذلك التصريف الواضح الذي نُصَرِّف عليه الآيات على أنحاء مختلفة، من إقامة البراهين العقلية، وإفحام الخصوم، والوعد والوعيد، وبيان المَحَجَّة، كذلك التصريف الذي نصرِّف به الآيات في هذه السورة: نصرِّفها في غيرها من جميع القرآن مما يحتاج له البشر على أنحاء مختلفة من العقائد، والحلال والحرام، والآداب، والمكارم، والأمثال، والوعد والوعيد، كذلك التصريف الواضح على الأنحاء المختلفة، نُصرف الآيات. وتصريف القرآن بهذه

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٠، أضواء البيان (٢/ ٢٠٦).

الأساليب العظيمة لحكمة مفترقة إلى شيئين: أي: ليؤمن به من وفقه الله، وليُكذب به من خذله الله فيقول: دَرَسْتَ هذا القرآن على غيرك، وأخذته من غيرك[1]، كما قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: آية ٥]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: آية ٤] والمعنى: نُصرِّف آيات القرآن على أنحاء مختلفة، في أكمل بيان وأوضحه؛ لنخذل قوماً، ونوفق آخرين؛ لأن الله أنزل هذا القرآن، وصدق في علمه أنه يؤمن به قوم فيُدخلهم الجنة، ويكفر به آخرون فيدخلهم النار؛ لأن هذا القرآن منذ أنزله الله لا يدخل أحد الجنة إلا عن طريق العمل به، ولا النار إلا عن طريق الإعراض عنه، فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه مفتاح النار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود: آية ١٧] والله (جل وعلا) يبتلي بابتلاءاته فيضل قوماً ويهدي آخرين، وله في ذلك الحكمة البالغة؛ ولأجل هذا جعل القرآن هدى لقوم وفقهم للعمل به، وجعله هلاكاً على آخرين، وحجة عليهم، خذلهم فأعرضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: آية ٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: آية ٤٤] والعياذ بالله ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] هذا معنى قوله:

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٠٧).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ولأجل أن ينقسموا إلى أشقياء وسعداء: صرفنا هذا القرآن على هذا التصريف.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ أي: وليقول الكفار الذين خذلهم الله ولم يوفقهم للعمل به: ﴿دَرَسْتَ﴾ يعنون درست هذا القرآن على غيرك، وأخذته عن بعض البشر(١)، كما يأتي في قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: آية ١٠٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يرويه محمد عن غيره ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: الآيات ١٨ ــ ٢٦] وكقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: آية ٤] وكقولهم: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: آية ٥] أي: ليقول من خذله الله: دَرَسْتَ هذا القرآن، وأَخَذْتَه عن غيرك من البشر، وتعلمته منه، كما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: آية ١٠٣] أي: لأجل أن يخذل الله من خذلهم فيكذِّبوا بكتاب الله، وينكروا أنه منزل من الله، ويزعموا أنه درسه على غيره، وأخذه من بشر.

هذا على قراءة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي(٢).

أما على قراءة ابن كثير، وأبـي عمرو: ﴿وليَقولُوا دَارَسْتَ﴾ فمعناه راجعٌ إلى الأول، والمعنى: دَارَسْتَ غيرك من البشر، دَارَسْتَهم فَدَارَسُوك، وقرأت عليهم وقرؤوا عليك، فاستعنت بهم حتى

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٦).

(٢) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات ص ٢٦٤، ابن جرير (١٢/٢٦)، القرطبي (٧/٥٨)، البحر المحيط (٤/١٩٧)، الدر المصون (٥/٩٦)، أضواء البيان (٢/٢٠٦ ــ ٢٠٧).

حصّلت هذا الكلام الذي جئت به من عندهم.

أما على قراءة ابن عامر: ﴿وليقولوا دَرَسَتْ﴾ فأصلها قراءة معناها مُشْكِل، وأظهر أقوال العلماء فيها وجهان[1]:

أحدهما: وليقول من خذله الله وأشقاه ولم يوفقه للقرآن: دَرَسَتْ هذه الآيات التي تأتي بها؛ لأنها متقادم عهدها؛ لأنها من أساطير الأولين أخذتها عنهم؛ فهو ليس بشيء جديد أُنزل عليك، وإنما هي دارسة قديمة، كانت عند الأولين من أساطيرهم، أخذتها عنهم، وعلى هذا فالمعنى يرجع إلى قوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: آية ٥]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: آية ٢٤] لأن أساطير الأولين أساطير قديمة دارسة أخذتها عنهم، ليست بأمر جديد منزل عليك. وهذا من أبين الوجوه في قراءة ابن عامر: ﴿وليقولوا دَرَسَتْ﴾.

الوجه الثاني: أي: وليقول من خذله الله وأشقاه ولم يوفقه للعمل بالقرآن: دَرَسَتْ هذه الآيات، طال علينا العهد بها وانمحت، فينبغي لك أن تأتي بغيرها / وتبدلها بجديد، فإن هذه الأولى دَرَسَتْ [١٣/ب]
ولم تنفع، كما قال: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: آية ١٥]. والأول أظهر.

﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥] هذه الحكمَة، أي: ليقول من خذلهم الله وأشقاهم: دَرَسْتَ هذا القرآن وأخذتَه عن بشر، فهو أساطير الأولين وليس بكلام الله؛ ولأجل أن نبينه لمن وفقناهم، فيكون عمىً على هؤلاء وهدىً لهؤلاء، كما قال:

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٠٧).

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: آية ٤٤]، فقوله: ﴿هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ كقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥]، كقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤]، وكقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: آية ٨٢] أي: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لهم عقول وعلم يُظهر لهم ما ضَمَّنَّا في هذا القرآن من تصريفنا الآيات من غرائبنا، وعجائبنا، وبصائرنا، أي: أدلتنا القاطعة الواضحة التي لا تترك في الحق لبساً. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٠٦، ١٠٧].

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لمّا بين الله (جل وعلا) أنه أنزل علينا على لسان نبينا بصائر حيث قال: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾ والمعنى: جاءتكم من قِبَلنا على لسان نبينا بصائر، أي: حُجَج قاطعات، وأدلة واضحات، لا تترك في الحق لبساً. فهذه البصائر التي جاءتكم يلزمكم اتباعها، وعدم المَيْل والحَيْدة عنها؛ ولذا أتبع قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤]، بقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهو تلك البصائر والبينات والحُجج القاطعات التي أنزلها الله عليك، وهذه البصائر: هي هذا القرآن العظيم، وهو المأمور باتباعه في قوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهذا القرآن العظيم يجب علينا جميعاً أن نتّبعه، فنتأدب بآدابه، ونتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق، ونُحلّ حلاله،

ونُحَرم حرامه، ونعتقد عقائده، وننزجر [بوعيده]، وننبسط [لوعده][(١)]، ونتأسى بأمثاله، إلى غير ذلك من العمل به.

واعلموا أن هذا القرآن العظيم هو أعظم نعمة أعطاها الله لهذا الخلق الذي أنزله عليه، وقد بين (جل وعلا) أن إيراث هذا القرآن العظيم هو العلامة الوحيدة في الاصطفاء، فالله لا يورث هذا الكتاب إلا من اصطفاه من خلقه، حيث قال تعالى بعد أن نوّه بالقرآن والعمل به: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ إلى أن قال: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فبيَّن أن إيراث هذا الكتاب علامة للاصطفاء؛ ولذا قال: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ والجمهور من العلماء على أن الذين أُورثوا الكتاب الذين اصطفاهم الله بإيراث هذا الكتاب لا يختصُّون بحَمَلَة القرآن الذين يحفظونه، بل يشمل جميع الأمة الذين يعملون به، فَيُحِلُّون حلاله، ويُحَرِّمون حرامه، ويعتقدون عقائده، إلى غير ذلك، وإن لم يكونوا يحفظونه[(٢)]، وسواء وقع منهم تقصير؛ لأن الله لما بين إيراثه للكتاب، وأن إيراثه الكتاب علامة الاصطفاء، قسَّم هذه الأمة التي أورثها هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام، قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم نوّه بالقرآن العظيم فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ من الله عليهم. فصرحت الآية بأن إنزال القرآن، وإيراثنا إياه أعظم فضل وأكبره علينا؛ ولذا علّمنا الله أن نحمده على هذه النعمة الكبرى،

(١) في الأصل: «وننزجر بوعده، وننبسط لوعيده»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٢/ ١٣٣)، ابن كثير (٣/ ٥٥٤).

والفضل الأعظم، حيث قال في أول سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: آية ١] يعني لم يجعل فيه اعوجاجاً من جهة الألفاظ ولا المعاني، فألفاظه بليغة مستقيمة، [ومعانيه](١) كريمة جليلة، أخباره صدق، وأحكامه عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] يعني: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام. ثم قال (جل وعلا) وهو محل الشاهد: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني جميع الذين أُورثوا الكتاب، هذا القرآن العظيم، وعلى رأسهم الظالم لنفسه؛ لأنه أول من ذُكر، حيث قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم قال عن الجميع: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ ولم يبق غير الذين أُورثوا الكتاب بظالمهم، ومقتصدهم، وسابقهم إلا الكفرة الفجرة؛ ولذا قال بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: الآيات ٢٩ ـ ٣٦] وكان بعض العلماء يقول: حُقَّ لهذه (الواو) أن تُكتب بماء العينين(٢). يعني واو ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لأنها حَكَمَت بدخول الجميع في الجنة، وعلى رأسهم الظالم لنفسه.

وأصح التفسيرات في (الظالم)، و(المقتصد)، و(السابق)(٣):

(١) في الأصل: ومعناه.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) انظر: ابن جرير (٢٢/ ١٣٣)، ابن كثير (٣/ ٥٥٤).

أن الظالم: هو الذي يطيع مرة ويعصي أُخرى، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ١٠٢].

والمقتصد: هو الذي يأتي بالواجبات، ويترك المحرمات، ولا يتقرب بالنوافل.

والسابق بالخيرات: هو الذي يأتي بالواجبات، ويتقي المحرمات، ويتقرب إلى الله بالنوافل، تقرباً إليه بغير الواجبات.

وكان بعض العلماء يقول: ما الحكمة في تقديم الظالم في آية فاطر هذه، والظالم إذا كان في هذا الوعد الكريم بدخول الجنة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ فمن أين له أن يُقَدَّم فيقدمه الله بالذكر على المقتصد والسابق؟

للعلماء عن هذا أجوبةٌ معروفة(١):

منها: أن بعضهم قال: هذا المقام أظهر الله فيه كرمه وتعظيم هذا القرآن العظيم، وقوّة آثاره على من أورثهم إياه بدخول الجنة؛ ولذا بدأ بالظالم لئلا يقنط، وأخّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: آية ٢٤] ولما كان أكثر أهل الجنة الظالمين لأنفسهم بدأ بهم لشأن الكثرة.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

كذا قالوا والله ــ تعالى ــ أعلم؛ ولذا لما نوّه بهذه البصائر التي هي النعمة العظيمة ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] أمر باتباعها وقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهذا الذي أُوحي إليك من ربك هو تلك البصائر، أي: الحُجج القاطعات، والأدلة الساطعات الواضحات، التي لا تترك في الحق لبساً، التي صرّفها الله في هذا القرآن العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥]، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: آية ٨٩]، وهذا معنى قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦].

وهذه الآية نص بأن الذي يجب اتباعه هو الوحي، وهو القرآن العظيم، فلا يجوز اتباع غيره، فمن اتبع تشريعاً غيره فَرَبُّه من اتبع تشريعه، كما بيناه مراراً[١]، وكما سيأتي إيضاحه مراراً في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام[٢]؛ لأن التشريع إنما هو لخالق السماوات والأرض، كما أنه لا شريك له في عبادته: كذلك لا شريك له في حكمه؛ ولذا قال تعالى في العبادة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: آية ١١٠]، وقال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦] وفي قراءة ابن عامر: ﴿وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾[٣] فالحكم لله وحده، كما أن العبادة له وحده، فهو المعبود وحده (جل وعلا)،

---

(١) ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) والآية (٩٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ما سيأتي عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (١٥٨) من سورة الأعراف، والآيتين (٢٨، ٣١) من سورة التوبة.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران، ص ٢٧٧.

فيجب توحيده في العبادة، وهو الحاكم وحده (جل وعلا)، فالحكم له وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧] لأن الحكم لا يكون إلا لمن هو أعلى من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢] لأن العلي الكبير الذي هو متصف بغاية العلو والكبر والعظم هو الذي له أن يأمر وينهى، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وليس لأحد البتة تشريع مع الله، فكل من اتبع تشريعاً وضعياً سواء سمّاه نظاماً، أو قانوناً، أو دستوراً من التشاريع الوضعية التي وضعها إبليس على ألسنة أوليائه من الكفرة: فَرَبُّه ذلك الذي اتبع تشريعه، وهو كافر بالله كفراً بواحاً مخرجاً عن الملة. والله بيّن هذا في آيات كثيرة؛ لأن التشريع لا يمكن إلا أن يكون للسلطة العليا الحاكمة، التي لا يمكن أن تكون فوقها سلطة، وهي سلطة خالق السماوات والأرض، فهو الآمر الناهي، فالأمر أمره، والنهي نهيه، والدين ما شرع، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم، ومن أراد أن يتبع تحليلاً وتشريعاً لغيره فقد اتخذ غيره رباً، وهو مشرك بخالق السماوات والأرض؛ لأن الشرك به في حكمه كالشرك به في عبادته؛ ولذا سيأتيكم في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ براهين قاطعة من هذه البصائر التي قال الله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] موضحاً أن من اتبع تشريع الشيطان فقد اتخذ الشيطان رباً، وهو مشرك بالله شركاً أكبر مخرجاً عن دين الإسلام[1]؛ ذلك أن إبليس اللعين لما قال لتلامذته

(١) انظر: الإحالات السابقة.

من كفار مكة: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ قال لهم: الله قتلها. قالوا: إذاً هي ذبيحة الله، وأنتم تقولون: هي ميتة نجسة، فما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المُذكى ـ تقولون: حلال طيب مستلذ!! وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون: حرام ميتة نجس، فأنتم إذاً أحسن من الله!! فأنزل الله ـ بإطباق العلماء(١) ـ فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني: الميتة. أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: الأكل من الميتة ﴿لَفِسْقٌ﴾ وخروج عن طاعة الله. ثم قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: وإن أطعتموهم في أن الميتة حلال في تشريع الشيطان؛ لأن الصحابة والكفار اختلفوا في لحم الميتة، فقال الصحابة: حرام بتشريع الله؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] وقال أتباع الشيطان في تشريع الشيطان: الميتة حلال؛ لأنها ذبيحة الله، فما ذبحه الله أحسن مما ذبحه البشر.

فهي قطعة لحم اختلف فيها شرع الله مع قانون الشيطان، فقال الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني: إن أطعتم الكفار، بأكل الميتة الذي أباحه قانون إبليس، ونظام الشيطان ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ بالله حيث أشركتم به في حكمه، وهو يقول: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾ [الكهف: آية ٢٦].

وهذا الشرك الذي حكم الله به في سورة الأنعام على من اتبع قانون الشيطان، ونظام إبليس، هو الذي يوبخ الله مرتكبيه يوم القيامة

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧٨).

ـ في سورة (يس) ـ على رؤوس الأشهاد، ويبين مصيرهم النهائي، وذلك في قوله: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس: آية ٦٠] وقد أجمع العلماء أن عبادتهم للشيطان التي نهاهم عنها وعهد إليهم ألا يفعلوها إنما هي اتباع نظامه، وتشريعه، وقانونه، في سَنِّ المعاصي، والكفريات، والمنكرات، ثم قال: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ ﴾ حيث عبدوه واتخذوا تشريعه ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ثم بين المصير النهائي لعَبَدة الشيطان، ومتبعي نظام إبليس: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٥] ولأجل هذا سمى الله تعالى الذين يُطاعون في المعصية: (شركاء) حيث قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] ولما سأل عدي بن حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال: ألم يحلوا لهم ما حرم الله؟ ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أربابا[(١)].

فكل من يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان، فهو مشرك بالله في حكمه، والله يقول: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

آية ٢٦]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠]، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢]، الحكم للعلي الكبير وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] يعني: لا معبود بالحق يُعبد إلا هو، فلا يجوز أن يُشرك بعبادته أحد، ولا أن يُشرك في حكمه أحد، سبحانه (جل وعلا) أن يكون له شريكٌ في عبادته، أو شريك في حكمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] بعض العلماء يقول: هذا الإعراض المأمور به عن المشركين في سورة الأنعام في مكة قبل الهجرة منسوخ بآية السيف(١)؛ لأن الإعراض زمن مكة، ولما جاء إلى المدينة أُذن له في القتال أولاً بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: آية ٣٩] ثم أُمر بقتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٠] ثم أُمروا بالقتال العام في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

وبعض العلماء يقول: هذه الآية ليست منسوخة(٢)؛ لأن المراد بالإعراض عن المشركين عدم الكلام معهم، وعدم سبابهم، وهذا أمرٌ قد يكون غير منسوخ. وهذا معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٦].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٢)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٣٥٥)، الإيضاح لمكي ص ٢٨٦.

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٣٥٥)، الإيضاح لمكي ص ٢٨٦.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٧ ـ ١١٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٧] لما قال الله (جل وعلا) لنبيه: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] لما أمره بالإعراض عن المشركين؛ بين أن إشراكهم بالله واقعٌ بمشيئة الله (جل وعلا)، فأتبعه بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾. قد تقرر في فن المعاني: أن فعل المشيئة إذا ربط بأداة شرط يحذف مفعوله دائماً(١)، فمفعول المشيئة هنا محذوف(٢)، وتقديره: ولو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا.

وهذه الآية الكريمة تبين أنه لا يقع شيءٌ إلا بمشيئة الله، وأنه لو شاء عدم إشراك الكفار لم يشركوا. وقد دلت على هذا آياتٌ كثيرة كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: آية ٣٥]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: آية ١٣] وهذه الآيات ترد على القدرية الزاعمين أن الكفر والمعاصي بمشيئة العبد لا بمشيئة الله، فمذهبهم باطل، فروا من شيء فوقعوا فيما هو أشنع وأكبر منه،

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ٩٩).

فهم يريدون التقرب لله، بأن يزعموا أن الخسائس كالسرقة، والزنا، والشرك أنها بمشيئة العباد لا بمشيئة الله، زاعمين أن الله أنزه وأعظم وأجل من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته.

وهذه الشبهة ـ التي هي شبهة الجبر والقدر ـ هي أعظم الشبه التي في دين الإسلام، وكثيرٌ من ضعفاء العلم يصعب عليهم أن ينفكوا عنها، ويتخلصوا منها، ونحن في هذه الدروس دائماً نبين كيفية رد هذه الشبه(١)، وخلوص مذهب أهل السنة والجماعة بين مذهب القدرية والجبرية كخلوص اللبن من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً للشاربين.

ونقول مثلاً: لو أراد سنيٌّ أن يناظر جبرياً وقدرياً متمسِّكَين بمذهب القدرية والجبرية، القدري [يزعم](٢) أن أفعال العبد القبيحة بمشيئة العبد لا بمشيئة الله، ويزعم الجبري أن الأفعال كلها من الله، فليس للعبد فعل. فلو قال جبريٌّ مثلاً: هذه الأفعال الصادرة من الإنسان، كالإشراك والزنا والسرقة وما جرى مجرى ذلك من الرذائل، هي مكتوبة عليه قبل أن يولد، قدرها الله وكتبها في الأزل، وما قدره الله وكتبه لا يمكن أن يتغير!! يقول الجبريُّ مثلاً: ما سبق في علم الله من أن المشرك يشرك، وأن الزاني يزني، وأن السارق يسرق، سبق به العلم الأزلي، فلا يمكن أن يتغير؛ لأن ما سبق في علم الله لا يمكن أن يتغير!! فإذن يقول هذا الجاهل: إنه مجبور ما دام الفعل كُتب عليه قبل أن يولد، وجفت الأقلام وطويت الصحف، فالواقع واقعٌ لا محالة، فيقول: هو مجبور!!

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «فيقول القدري مثلاً الزاعم...»، فالكلام غير متلائم مع ما بعده.

فيجيب السنيُّ مثلاً فيقول: كل الأسباب التي هدى الله بها المهتدين أعطاكها، فالأبصار التي أبصروا بها آيات الله أعطاك بصراً مثلها، والأسماع التي سمعوا بها آيات الله فاهتدوا أعطاك سمعاً مثلها، والقلوب التي فهموا بها عِظَم الله، وأدلته، وبراهينه فاهتدوا أعطاك عقلاً مثلها، والرسل التي نصحتهم، وبينت لهم، واهتدوا بهديها أرسلها إليك كما أرسلها لهم، فجميع الأسباب التي اهتدى بها المهتدون أعطاكها، ولم يبق فرق بينك أيها الضال وبين المهتدي إلا أن الله تفضل عليه بتوفيقه، ولم يتفضل عليك بتوفيقه، والتفضل بتوفيقه ملكه المحض، إن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل.

ويوضح هذا المقام: مناظرة أبي إسحاق الإسفرائيني وعبد الجبار المعتزلي[1]. وذلك أن عبد الجبار جاء إلى أبي إسحاق متقرباً بمذهب القدرية فقال: سبحان من تنزه عن الفحشاء!! يعني أن السرقة والزنا والإشراك ليست بمشيئته، وأنه يتنزه عن أن يشاء هذا.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل!! ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أتراك تشاؤه جبراً عليه، أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وسد الباب دوني، دعاني ولم يسهل لي طريق الخروج، تراه أحسن إليَّ أم أساء؟

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

فقال أبو إسحاق: إن كان هذا الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء ــ سبحانه عن ذلك ــ وإن كان مُلكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل.

فبُهت عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.

وهذا مفهومٌ من قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] مُلكه التوفيق يتفضل به على من يشاء، ويمنعه ممن يشاء. هو حجته البالغة على خلقه؛ لأن المالك إذا تفضل فأعطى ففضلٌ منه؛ وإذا منع فعدلٌ منه؛ ولذا قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾.

وذكروا عن عمرو بن عبيد، كبير المعتزلة، مع قوته، وذكائه، ومعرفته، أنه جاءه بدوي وقال له: كنتُ أعمل على دابتي فسرقها اللصوص، فادع الله أن يردَّها عليَّ. فقام عمرو بن عبيد يتقرب بهذا المذهب الباطل، فقال: اللهم إنها سُرقت، ولم تُرد سرقتها؛ لأنك أكرم وأجل وأنزه من أن تُريد السرقة. فقال له ذلك البدوي: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث. إن كانت قد سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يريد ردها ولا تُرد[1].

فالحاصل أنه لا يقع في الكون شيءٌ كائناً ما كان إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض، وأنه لا جبر ولا قدر. وأن الله تبارك وتعالى قَدَّر في سابق أزله أن يخلق قوماً مجبولين على الخير والفضل، ويوفقهم إلى ما يرضيه؛ لتظهر فيهم أسرار أسمائه

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام، وسيأتي في مواضع متعددة في هذا التفسير.

وصفاته، من اسمه الكريم، واللطيف، وغير ذلك من أسماء الكرم والجود، وقَدَّر في أزله أن يخلق آخرين مطبوعين على القذارة والنجاسة؛ ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه كالقهار، يظهر فيهم قهره، وجبروته، وعظمته، وشدة عقابه؛ ليجتمع للناس الخوف والطمع؛ لأنه لو كان خوفٌ لا طمع معه فقد يكون هنالك بغض، وإن كان طمعٌ لا خوف معه فقد يكون هنالك أمنٌ يحمل على الدلال وسوء الأدب، فَخَلَق بعض الخلق وقَدَّر لهم الشقاء الأزلي، لِمَا جبلهم عليه من الخُبث، ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته، من قهره، ومُلكه، وقوة بطشه، وإنصافه، وقَدَّر لقومٍ آخرين الهدى ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته من رحمته، وفضله، ولطفه، وكرمه. ولكن قدرة الله وإرادته صرفت قُدر الخلق وإراداتهم إلى ما شاءَه الله وقَدَّره في أزله، فأتوه طائعين. فالله (جل وعلا) بقدرته وإرادته يصرف قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به الكتاب في علمه الأزلي، فيأتيه طائعاً: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: آية ٣٠] هذا هو أصل هذه المسألة. فالله يشاء، ويقدر، ويصرف قُدَرَ العباد وإراداتهم إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتوه طائعين. وله المثل الأعلى، والحكمة البالغة في كل ما يُقَدِّر.

ولا يخفى أن الجبريين الذين يقولون: إن العبد لا فعل له، وإنما هذا فعل الله!! لو جئت إلى جبري وفقأت عينه، أو قتلت ولده، أو أتلفت ماله، وقلت له: أنا مسكين لا فعل لي؛ لأن هذا فعل الله!! لا يقبل منك هذا العذر، ويقول: أنت الذي فعلت وفعلت. وينتقم منك غاية الانتقام، ولكنه بالنسبة إلى التكاليف يتعلل هذا التعلل الباطل. فكل شيء في الكون لا يقع في العالم تحريكه

ولا تسكينه من خير أو شر إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض. وهو يوجه قُدر الخلق وإراداتهم إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتوه طائعين، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير؛ ليظهر فيهم أسرار أسمائه وصفاته.

وبهذا يتضح أن القائلين بالجبر مفترون، وأن النافين للقدر أنهم كذلك مجوس هذه الأمة. فالله يقدر الأشياء في أزله، ويكتب كل شيء، ثم يصرف بقدرته وإرادته إرادات الخلق وقُدرهم، فيأتون ما سبق به العلم الأزلي طائعين.

وهذه المسألة قد سأل أصحابُ النبيِّ عنها النبيَّ ﷺ، فسألوه: هل هذا الذي نعمل له شيءٌ مُؤتَنَف، أو أمرٌ قد قُضي في السابق وانتهى وفُرغ منه؟ فبين لهم ﷺ أنه أمرٌ قُضي وفُرغ منه. فقالوا له: لِمَ لا نترك العمل ونتكل على ما سبق به الكتاب في العلم الأزلي؟ فالنبي ﷺ أجابهم فقال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له**»[1]. فمعنى هذا الحديث: أن الله يخلق الخلق ويجبلهم على ما شاء من خُبثٍ، ومن خيرٍ، ومن شر، ثم يُسهل كل واحدٍ منهم وييسر له ما خُلق له، فييسر للسعيد عمل الخير، وللشقي عمل الشر، يصرف قُدَرهم وإراداتهم بقدرته وإرادته، فيأتوه طائعين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: آية ١٠٧] أي: لو شاء عدم إشراكهم بالله ما أشركوا.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ كان النبي ﷺ بما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة يحزنه عدم إيمانهم، فالله يقول له: أنا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

ما جعلتك حفيظاً عليهم، حافظاً تحفظهم من الوقوع في الشر، وتيسرهم إلى الخير، ولا جعلتك وكيلاً عليهم تحاسبهم بأعمالهم وتجازيهم، بل أنا الذي أوفق من شئت، وأُضل من شئت، وأُحصي عليهم أعمالهم فأجازيهم عليها، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: الآيتان ٢١، ٢٢] وكقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرعد: آية ٤٠]. والمعنى: كأنه يقول له: لست موكلاً بأعمالهم، ولا حافظاً لهم توفقهم، حفظهم ومحاسبتهم على الله، وإنما أنت نذير، وقد قمت بوظيفتك، وبلَّغْت، فأرح نفسك، ولا تحزن، كما قال له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: آية ١٢٧] وقد تقدم في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: فتقهرهم بها على الإيمان فافعل. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝٣٥﴾ [الأنعام: الآيات ٣٣ ـ ٣٥]. وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: آية ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: آية ٦] ومعنى ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكها من الحزن عليهم؛ ولذا قال له هنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝١٠٧﴾ [الأنعام: آية ١٠٧].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنعام: آية ١٠٨].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لما

أنزل الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء: آية ٩٨] اجتمع رؤساء قريش من كفار مكة إلى أبي طالب في آخر أيام حياته وقالوا له: إن ابن أخيك يعيب آلهتنا ويذمها. والله لتنهين ابن أخيك عن سب آلهتنا أو لنهجونَّ إلـٰهه الذي أمره بهذا. فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1].

وقال بعض العلماء: كان المؤمنون يسبون الأصنام بأنها أجرام لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، فأنزل الله نهيهم عن ذلك لئلا يتذرع به المشركون فينتقمون منهم فيسبون ربهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. السب معناه: الذم والثَّلب بذكر المساوىء التي لا تليق. والعرب تقول: سبه يسبه، وتسابّا

---

(١) المعروف أنه لمّا نزلت آية الأنبياء: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ... ﴾ الآية قال المشركون: فإن عيسى وعزيرًا والشمس والقمر يُعبدون!! فنزل قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ وقوله في سورة الزخرف: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾. انظر: أسباب النزول للواحدي ص٣٠٥، تفسير ابن كثير (١٩٧/٣)، أسباب النزول للسيوطي ص١٨٤، الدر المنثور (٣٣٩/٤).

أما آية الأنعام فإن سبب نزولها ما سيذكره الشيخ من أن المؤمنين كانوا يسبون آلهة المشركين، وفي بعض الروايات: القصة المشار إليها في ذهابهم إلى أبي طالب، لكن لا تعلق لذلك كله بآية الأنبياء، اللهم إلا ما ذكره أبو حيان في البحر (٤/ ١٩٩) بقوله: «وقيل: قالوا ذلك عند نزول قوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ... ﴾». اهـ. هكذا ذكره من غير سند، ولم يعزه لقائل معين، والله أعلم. انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٣ ـ ٣٥)، الواحدي في أسباب النزول ص ٢٢١ ـ ٢٢٢، تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٤)، أسباب النزول للسيوطي ص ١٢٠، الدر المنثور (٣/ ٣٨).

سِبَاباً. إذا هجا كل واحدٍ منهما الآخر وقال فيه قولاً قبيحاً. والسِّباب: المهاجاة والمشاتمة. وسِبُّ الرجل هو الذي يكافئه فيرد عليه إذا سبه[1]. ومنه قول حسان بن ثابت (رضي الله عنه)[2]:

لا تَسُبَّنَّنِي فلستَ بِسِبِّي   إن سِبِّي من الرجالِ الكريمُ

والمعنى: لا تهجوا أصنامهم وتقولوا ما هي متصفةٌ به من الخساسة، فيتسبب عن ذلك أن يسبوا الله (جل وعلا). وإذا سبوا الله معناه: أنهم قالوا فيه ما ليس بواقع؛ لأن الله ليس متصفاً إلا بالكمال والجلال، فليس فيه نقصٌ حتى يكون موضعاً للسب. ولكن الكفرة الفجرة يكذبون.

فمعنى: ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ يتكلمون فيه بما لا يليق بكماله وجلاله (جل وعلا).

وقوله: ﴿عَدْوًۢا﴾ العَدْو معناه: الظلم والعدوان. أي: فيسبوه ظلماً وعدواناً، وهو خالقهم ورازقهم المحسن إليهم[3].

وإعراب قوله: ﴿عَدْوًۢا﴾ فيه أوجه من الإعراب معروفة[4]:

أحدها: أنه مصدرٌ منكَّرٌ بمعنى الحال، أي: فيسبوه في حال كونهم معتدين ظالمين.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: سبب) ص ٣٩١، القرطبي (٢/ ١٨١)، بصائر ذوي التمييز (٣/ ١٦٩)، اللسان (مادة: سبب) (٢/ ٧٧).

(٢) البيت في اللسان (٢/ ٧٨)، وقد عزاه لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وانظر: القرطبي (٢/ ١٨١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٥)، القرطبي (٧/ ٦١)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٠)، المفردات (مادة: عدا) ص ٥٥٣.

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٠)، الدر المصون (٥/ ١٠٠).

الثاني: أنه ما ناب عن المطلق من «يسبوا»؛ لأن سب الله عدوان ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ معناه: يَعْتَدُوا بسبِّ الله ﴿عَدْوًا﴾، أي: عدواناً. وعليه فهو ما ناب عن المطلق.

والإعراب الثالث فيه: أنه مفعولٌ من أجله، أي: فيسبوا الله لأجل عدوانهم، وطغيانهم، وظلمهم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الظاهر أن الجار والمجرور في محل حالٍ ثانية[١]، أي: حال كونهم معتدين جاهلين، لا علم لهم بما ينبغي أن يقال في الله، حيث يسبوا الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وهذه الآية الكريمة ـ من آيات الأحكام ـ أخذ العلماء منها أصل (سد الذرائع)[٢]. لأن سب الأصنام بالنسبة إلى ذاته جائزٌ مطلوب، ولكن لما كان هذا الأمر المحمود الطيب ـ وهو سب الأصنام وتقبيحها ـ قد يؤدي إلى أمرٍ آخر لا يجوز، وهو سب الله، مُنع هذا الشيء الطيب سداً للذريعة التي يؤدي إليها مما لا ينبغي.

[١٤/أ] وذريعة الشيء /أصلها طريقه الموصلة إليه[٣].

ومعروف عند علماء الأصول أن الذرائع ثلاثة أقسام[٤]:

قسم منها يجب سَدُّهُ إجماعاً، كما دلت عليه هذه الآية

(١) انظر: الدر المصون (١٠١/٥).

(٢) انظر: القرطبي (٦١/٧)، البحر المحيط لأبي حيان (١٩٩/٤).

(٣) انظر: المصباح المنير (مادة: ذرع) ص٧٩، اللسان (مادة: ذرع)، (١٠٦٤/١ ـ ١٠٦٥)، المعجم الوسيط (مادة: ذرع) (٣١١/١).

(٤) في مسألة الذرائع وأدلتها انظر: الفروق للقرافي (٣٢/٢)، (٢٦٦/٣)، شرح تنقيح الفصول ص٤٤٨، القواعد للمقري (٤٧١/٢ ـ ٤٧٤)، إحكام الفصول =

الكريمة من سورة الأنعام، ودل عليه الحديث الصحيح المتفق عليه[1]. وهذا القسم هو أن يكون هذا الأمر جائزاً أو مطلوباً، وليس في نفسه فساد في ذاته، أو فيه خير، إلا إنه يؤدي إلى شر عظيم، كَسَبِّ الأصنام، فإنه في ذاته طيب مطلوب، إلا أنه لما كان يكون سبباً لسب الله كان محرماً.

ومن هذا النوع، وهي الذريعة التي يجب سدها إجماعاً: حفر الآبار في طرق المسلمين، فلو جاء رجل إلى طريق المسلمين وحفر فيها بئراً ليلاً، وغطى فم البئر بشيء خفيف، فمن جاء مع الطريق وتردى في البئر ففعله وحفره البئر ليس نفس إهلاك لنفس ولا مال، ولكنه ذريعة لذلك يجب سدها ومنعها بالإجماع.

ومن هذا النوع: إلقاء السم في مياه المسلمين وأطعمتهم. فإلقاء السم في مياه المسلمين التي يشربون، وإلقاؤه في أطعمتهم ذريعة للفساد يجب سدها بإجماع المسلمين.

هذا إحدى أنواع الذرائع الثلاث؛ لأن نوعاً منها يجب سده بإجماع المسلمين كما مثلنا له ودلت عليه هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من**

= ص٥٦٧ ـ ٥٧١، تفسير القرطبي (٢/٥٧ ـ ٦٠)، الفتاوى (٢٣/١٨٦ ـ ١٨٧)، إعلام الموقعين (٣/١٣٥ ـ ١٥٩)، إغاثة اللهفان (١/٣٦١ ـ ٣٦٧)، تهذيب سنن أبي داود (٥/١٠٢)، الموافقات (٤/١٩٨ ـ ٢٠٠)، البحر المحيط للزركشي (٦/٨٢ ـ ٨٦)، فتح الباري (١٠/٤٠٤)، إرشاد الفحول ص٢٤٦، نثر الورود (٢/٥٧٥).

(١) سيأتي قريبًا.

العقوق شتم الرجل والديه». قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»(١)، هذا الحديث الصحيح سمى [به] النبي ﷺ(٢) ذريعة السب: (سباً) وهو كالآية يدل على أن ذريعة الحرام حرام.

النوع الثاني من أنواع الذرائع الثلاث: نوع لا يجب سده بإجماع المسلمين، فهو ذريعة يجب إهدارها وإلغاؤها، ولا يجب سدها بإجماع المسلمين. وهذا النوع من الذرائع نوعان:

أحدهما: أن يكون الفساد بعيداً فيه، والمصلحة أرجح من الفساد فيه. ومثال هذا النوع: غرس شجر العنب. فإن غرس شجر العنب ذريعة إلى عصر الخمر التي هي أم الخبائث، قبحها الله، وقبح شاربها، إلا أن الذين يعصرون الخمر من المجتمع ويشربونه قلة في أقطار الدنيا، فمنفعة انتشار العنب والزبيب في أقطار الدنيا مصلحة عظمىٰ أُلغي من أجل هذه المصلحة المفسدة التي قد تكون من شجر العنب بعصر الخمر منه؛ لأن الذي يعصرها أفراد قليلون ويشربونها، ولو ضاعت عقولهم بسبب شربها فمصلحة العالم العامة بوجود العنب والزبيب في أقطار الدنيا أعظم من هذه المفسدة الجزئية، فأُلغيت هذه الذريعة وأُهدرت.

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه، حديث رقم: (٥٩٧٣)، (١٠/ ٤٠٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: (٩٠)، (١/ ٩٢)، وصدر الحديث عند البخاري: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**». وعند مسلم: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**».

(٢) في الأصل: «سمى النبيّ صلَّى الله عليه ــ به ــ وسلم سمى...». وهو سبق لسان.

ومن هذا النوع: إجماع العلماء من زمن النبي ﷺ إلى اليوم في أقطار الدنيا أنه يجوز في البلد الواحد أن يكون ـ يسكن ـ فيه الرجال والنساء. في هذا البيت رجال ونساء، وفي هذا رجال ونساء، مع هذا بناته وأزواجه وأخواته وهكذا، مع أن اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون ذريعة للزنى ـ أعاذنا الله والمسلمين منه ـ من بعض الأفراد؛ لأنه قد يشير إليها من غرفة أو سطح كما هو معروف، وكما قال نصر بن حجاج(١):

ليتني في المؤذنين نهاراً إنهم ينظرون مَنْ في السطوح
فيشيرون أو يُشار إليهم حَبَّذَا كل ذات دَلٍّ مَلِيْحِ

أو تلقي إليه ورقة، أو يلقيها إليها في موعد يجتمعان فيه على القبيح الخسيس قبح الله من يفعله، فاجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد لا شك أنه ذريعة لفعل بعض الفواحش، ولم يقل أحد من المسلمين بسد هذه الذريعة، فلم يقل أحد من العلماء: إنه يجب أن يُجعل جميع النساء في البلد على حدة، ويُجعل عليهن حصن من حديد قوي، وأن يكون الباب قوياً من حديد، والمفتاح عند رجل تقي ورع مأمون ذي شيبة وذي أزواج، لم يقل أحد هذا من الناس!! لأن وقوع الفاحشة ولو وقعت من بعض الأخساء أمر نادر بالنسبة إلى مصالح المجتمع، ومعاونة الرجال والنساء على المجتمع الإنساني في مصالحه الدنيوية والأخروية، فهذه الذريعة أُلغيت لعِظم هذه المفسدة.

---

(١) هذان البيتان يُنسبان للسري بن عبد الرحمن الأنصاري. كما في الأغاني (٢٠/ ١٦٤).

والحاصل أن المفسدة إذا عارضتها مصلحة فلذلك ثلاث حالات:

إما أن تكون المصلحة أعظم وأرجح، والمفسدة أقل وهي مرجوحة.

وإما أن تكون المفسدة أعظم.

وإما أن يستويا.

فإن كانت المصلحة أعظم ـ كما مثلنا ـ أُلغيت الذريعة، وأُهدرت.

وإن كانت المفسدة أعظم، أو استويا فإنه يجب سد الذريعة فيهما.

ومثالهما معاً: ما لو كان من المسلمين أُسارى عند الكفار في الجهاد مع الكفار، فَأَسَر العدو من الكفار أسرى من المسلمين، وطلب إمامُ المسلمين فداءَ الأسرى المسلمين من أيدي الكفار، فقال الكفار: لا نقبل فداءهم إلا بسلاح، وكان هذا السلاح يقدرهم على الفتك بالمسلمين، فإن كان بقدر الظن والتخمين أنهم يقتلون من المسلمين بذلك السلاح قدر الأسارى أو أكثر منهم، فمصلحة فداء الأُسارى تعارضها مفسدة قتل عددهم من المسلمين أو أكثر، فيجب سد هذه الذريعة، ولا يُفدى أولئك الأُسارى.

أما إذا كان السلاح لا يقدر به الكفار على أن يقتلوا المسلمين، فإن هذه المفسدة تكون مرجوحة، ويجوز فداؤهم. هذان نوعان من أنواع سد الذرائع، الأول مجمع على سده، والثاني مجمع على

[عدم][١] سده، وهما طرفان وواسطة، طرف من الذرائع يجب سده إجماعاً، مثلنا له بسب الأصنام إن كان عَبَدَتُها يسبون الله، وكحفر الآبار في طرق المسلمين، وإلقاء السم في مشاربهم ومآكلهم. هذا النوع يجب سده إجماعاً، ونوع لا يجب سده إجماعاً، كما مثلنا له بغرس شجر العنب، ومساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد. وواسطة هي محل الخلاف بين العلماء.

ومثال هذه الواسطة التي هي محل الخلاف بين العلماء: البيوع المعروفة بالفقه المالكي ببيوع الآجال التي يسميها الحنابلة والشافعية: بيوع العينة، فهذه ذريعة لمحرم، والعلماء مختلفون فيها، كما لو باع إنسان سلعة إلى أجل معين بعشرة دراهم مثلاً، ثم اشتراها بثمن أكثر لأبعد من الأول، أو بثمن أقل من الثمن الأول بدون الأجل، فإن ظاهر هاتين البيعتين أن كلاًّ منهما بيعة لسلعة بثمن إلى أجل، وهي في ظاهرها جائزة، إلا أنها يمكن أن تكون ذريعة إلى رباً محرم، لأن السلعة الخارجة من اليد، العائدة إليها ملغاة، فيؤول الأمر إلى أنه أخذ أولاً خمسة دراهم، ثم أخذ عنها في الأجل الثاني عشرة دراهم، وأَخْذُ عشرة مؤجلة بدل خمسة هو ربا الجاهلية بعينه.

فهذه الذريعة الوسطى ذهبت جماعة من العلماء إلى وجوب سدها، وهو مذهب مالك بن أنس وأصحابه، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه، وهو مذهب أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وخالف في هذا النوع من الذرائع الإمام الشافعي، وزيد بن أرقم (رضي الله عنه)(١).

قال الإمام الشافعي: هما بيعتان، كل واحدة منهما بيع سلعة بثمن معلوم، إلى أجل معلوم، وهذا لا شيء فيه.

وقد قالت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) لامرأة زيد بن أرقم: قُولي لزيد: إن لم يرجع عن هذا فإنه يبطل جهاده مع رسول الله ﷺ(٢). ومراد عائشة (رضي الله عنها): أن هذا النوع من الذريعة ذريعة للربا؛ لأن السلعة الخارجة من اليد العائدة إليها ملغاة، فيؤل الأمر إلى أنه عند الأجل الأول دَفَعَ خمسة دراهم مثلاً، وأَخَذَ عند الأجل الثاني عشرة دراهم، وهذا ربا الجاهلية، وإنما قالت عائشة لامرأة زيد: إنه إن لم يرجع عن هذا أبطل جهاده؛ لأن هذا

(١) للوقوف على مذاهب العلماء في هذه المسألة انظر: الأم للشافعي (٣/ ٧٨)، الاستذكار لابن عبد البر (١٩/ ٢٤٧)، المحلى (٩/ ٤٧)، الشرح الكبير (مطبوع مع المغني) (٤/ ٤٥)، إعلام الموقعين (٣/ ١٦٥ ـ ١٦٩)، تهذيب سنن أبي داود (٥/ ٩٩ ـ ١٠٨)، نيل الأوطار (٥/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٨/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، وابن الجعد في مسنده (١/ ٣٧٧)، وأحمد وسعيد بن منصور (كما في نصب الراية) (٤/ ١٥)، والدارقطني (٣/ ٥٢)، والبيهقي (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).
وقد أعله الدارقطني (٣/ ٥٢)، وابن حزم في المحلى (٩/ ٤٩)، والشوكاني في النيل (٥/ ٢٠٦)، وهو ظاهر كلام الشافعي في الأم (٣/ ٧٨).
وقد جَوَّده ابن القيم كما في تهذيب السنن (٥/ ١٠٠)، وقال في إعلام الموقعين (٣/ ١٦٧): «رواه الإمام أحمد وعمل به. وهذا حديث فيه شعبة ـ يعني ابن الحجاج ـ وإذا كان شعبة في حديث فاشدد يديك به، فمن جعل شعبة بينه وبين الله فقد استوثق لدينه». اهـ.

ربا، وآكل الربا محارب الله؛ لأن أَكْل الربا هو محاربة الله، ومن أعظم الدواعي للغَلَبَة في الجهاد أكلُ الربا؛ لأن آكل الربا محارب الله، ومحارب الله لا يفلح ولا ينجح، والله يقول في محكم كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: الآيتان ٢٧٨ ـ ٢٧٩] فلما كان آكل الربا حرباً لله ولرسوله، لا يمكن أن يكون مجاهداً من حزب الله ورسوله؛ لأن الضدين لا يجتمعان. وهذا هو مراد عائشة (رضي الله عنها)؛ لأنه إن لم يرجع عن هذا أبطل جهاده.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨] في هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو أن لفظ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ولفظ: ﴿يَدْعُونَ﴾ من خَوَاصِّ العقلاءِ، ومعبوداتُهُم أصنامٌ وحجارةٌ لا تعقل، فكيف يُعَبَّر عنها بـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ التي هي صفة العقلاء الذكور؟

والجواب عن هذا: أن القاعدة المقررة في علم العربية أن كل شيء غير عاقل إذا نَزَّله بعض الناس منزلة العاقل، أو وَصَفَه ببعض صفات العاقل أنه يُجرى مجرى العاقل(١)؛ ولذا قال تعالى في رؤيا يوسف: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: آية ٤] فجاء بـ ﴿ سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ الذي هو جمع مذكر سالم يختص بالعقلاء، للكواكب والشمس والقمر؛ لأنه وصفهم بالسجود، والسجود من خواص العقلاء؛ ولهذا المعنىٰ قال تعالى عن السماوات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: آية ١١] لأن السماوات

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

سبع والأرضين سبع، فصارت أربعة عشرة جزءاً؛ ولذا قال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ لأنه لما أمرها وخاطبته صارت متصفة بصفات العقلاء. وهذا أمر عام معروف، ومن شواهده في كلام العرب قول الشاعر في هذا المقام(١):

إذا ما الغانياتُ برزْنَ يوماً وَزَجَّجْنَ الحواجِبَ والعيونا
ترى منا الأيور إذا رأوها قياما راكعين وساجدينا(٢)

فَوَصْفُ «ساجدين» و «راكعين» وصَفَ بها ذلك الجزء من الإنسان الذي لا يعقل لَمَّا وصَفَه بصفة العاقل، وهذا أسلوب عربي معروف، والكفار وصفوا الأصنام بصفات العاقل حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: آية ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: آية ١٨] فلما وصفوهم هذه الصفات أُجري عليهم ذلك اللفظ وإن كانوا في الحقيقة أخس شيء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: آية١٠٨] كما زينا لهؤلاء الكفرة الكفر. وهذا التزيين معناه ــ والعياذ بالله ــ: صَرْف قُدَرهم وإراداتهم إلى ما سبق عليهم به الكتاب الأزلي ــ كما كنَّا نبين ــ لكل أمة من الأمم عملهم؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

---

(١) البيت الأول للراعي النميري، وهو في الخصائص (٢/ ٤٣٢)، تأويل مشكل القرآن ص ٢١٣، أوضح المسالك (٢/ ٥٨).

(٢) هذا البيت ليس من القصيدة، وإنما هو لبعض المُجَّان. والبيت الأول للراعي النميري، وهو في الخصائص (٢/ ٤٣٢)، مشكل غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢١٣، الدر المصون (٣/ ١٨٨)، النهاية في غريب الحديث (٢/ ٢٣٧).

ولفظ (الأمة) في قوله هنا: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أُطلق في القرآن العظيم أربعة إطلاقات، كلها لغة صحيحة جاء بها القرآن[1]:

أُطلقت الأمة على الطائفة من الناس المتفقة في دين أو نِحْلَة. وهذا أغلب استعمالاتها، ومنه قوله هنا: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكل طائفة من الناس متفقة في دين أو نِحْلَة. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: آية ٤٧] ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: آية ٢١٣].

الإطلاق الثاني في القرآن للأمة: إطلاق الأمة على الرجل العظيم المُقتدى به، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: آية ١٢٠] أي: إماماً مُقتدى به، كما قال الله له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤].

المعنىٰ الثالث: هو إطلاق الأُمة على البُرهة من الزمن، القطعة من الدهر والبرهة من الزمن تُسمى: أمة، ومنه في القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكر بعد بُرهة من الزمن، ومنه بهذا المعنىٰ قوله في أول هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: آية ٨] أي: إلى قطعة من الزمن معينة.

الإطلاق الرابع: إطلاق الأمة على الشريعة والدين؛ لأن العرب تُسمي الأمة شريعة وديناً[2]، ومنه بهذا المعنىٰ قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: آية ٢٢] أي: على شريعة وملة ودين،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة.

(٢) لعله سبق لسان، إذ الأولى أن يُقال: لأن العرب تُسمي الشريعة والدين (أمة). أو يُقال: «لأن العرب تُطلق الأمة على الشريعة والدين»، والله أعلم.

ومنه بهذا المعنى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: آية ٩٢] أي: شريعتكم وطريقتكم شريعة واحدة. وهذا معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان(١):

حَلفتُ فلم أَتْرُكْ لنفسكَ ريبةً وهل يأثَمَنْ ذو أمةٍ وهو طائعُ

يعني: أن مَنْ كان له دين لا يخالف دينه، فيأثم وهو طائع، هذا لا يمكن.

هذه معاني (الأمة) في القرآن؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨] والعمل هو ما يفعله الإنسان يُجازى عليه بالخير والشر.

وقد دل استقراء الكتاب والسنة على أن العمل الذي يُجازى عليه الإنسان بالخير والشر أربعة أنواع لا خامس لها(٢):

الأول منها: هو الفعل الصريح، كالسرقة والزنى ــ والعياذ بالله ــ.

الثاني منها: القول؛ لأن القول فعل اللسان، وقد سمى الله في هذه السورة الكريمة ــ سورة الأنعام ــ سمى فيها القول (فعلاً)؛ لأنه فعل اللسان، وذلك في قوله: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] فأطلق على قول اللسان (الفعل)؛ لأنه فعل اللسان. هذان اثنان: القول والفعل.

الثالث من هذه الأشياء: إنما هو العزم المُصَمِّم؛ لأن العزم المُصَمِّم على الشيء فعل له، يدخل صاحبه به النار، وقد ثبت في

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من هذه السورة.

الصحيحين من حديث أبي بكرة: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ يعني: بأي ذنب دخل المقتول النار، وهو لم يقتل أحداً. فبين النبي ﷺ أن العمل الذي دخل به النار هو عزمه المُصَمِّم على قتل أخيه؛ ولذا قال مجيباً لقولهم: فما بال المقتول؟ قال لهم النبي ﷺ: «**أنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(١).

فهذا الحديث المتفق عليه يبين أن العزم المُصَمِّم الذي لم يمنع صاحبه منه إلا العجز عنه أنه فعل قلب يؤخذ به صاحبه، ويدخل به النار.

ومن هذا النوع هَمُّ امرأة العزيز، أما هَمُّ يوسف على القول به فهو ميل طبيعي مزموم بالتقوى، فَبَيْن هَمِّه وهَمّها الفرق(٢).

ومن هذا الهَمّ الذي لا يؤاخذ به: ما ثبت في الحديث الصحيح: «**ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة**»(٣) كاملة؛ لأنها خطرات تخطر في القلب يزمها التقوى.

ومن ذلك النوع قوله تعالى في بني سلمة

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) في الفرق بين هَمّ يوسف (عليه السلام) وهَمّ امرأة العزيز كلام كثير للمفسرين، وأحسنه ما قاله الإمام أحمد (رحمه الله): «الهَمُّ همَّان: هَمُّ خطرات، وهَمُّ إصرار. فيوسف (عليه السلام) هَمَّ هماً تركه لله فأُثيب عليه. وتلك همت هَمَّ إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها، وإن لم يحصل لها المطلوب». اهـ مجموع الفتاوى (٦/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥)، وانظر: (١٠/ ٧٣٩ ـ ٧٤٠)، (١٥/ ١٥٠)، قواعد التفسير (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

وبني حارثة[١] يوم أُحد: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ لأن قوله بعده: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: آية ١٢٢] يدل على أن ذلك الهَمّ خَطْرَة قلب[٢] مزمومة بالتقوى لا تُعَد من الذنوب. وكان جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) من بني سلمة، وبنو سلمة ـ وبنو حارثة هما الطائفتان اللتان نزل فيهما قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ـ كان جابر يقول: والله لا أكره أن الله قال فينا: ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ لأنه قال بعدها ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فهذه الأخيرة تُداوي الأولى[٣].

الرابع من الأعمال: هو الترك؛ لأن الترك هو في الحقيقة عمل يدخل صاحبه به النار، ويدخل به الجنة؛ لأن الترك فعل للنفس وكفها وزجرها؛ ولذا الذي ترك الصلاة يُقتل ويدخل النار، وهو لم يفعل شيئاً إلا أنه ترك الصلاة.

وقد قدمنا في سورة المائدة كلام العلماء في الترك هل يُسمى فعلاً، أو لا يسمى فعلاً؟ وبينا أن التحقيق عند العلماء الذي دل عليه القرآن ولغة العرب: أن الترك من الأفعال، وأنه عمل من الأعمال، يدخل صاحبه به الجنة والنار[٤]، وكان ابن السبكي[٥] يقول في بعض

---

(١) انظر: ابن جرير (٧/ ١٦٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٥٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾، حديث رقم: (٤٠٥١)، (٧/ ٣٥٧)، وأخرجه في موضع آخر، انظر: حديث رقم: (٤٥٥٨)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأنصار (رضي الله تعالى عنهم)، حديث رقم: (٢٥٠٥)، (٤/ ١٩٤٨).

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

كتبه في الأصول قال: «طالعت كتاب الله (جل وعلا) من أوله إلى آخره هل نجد فيه آية يُفهم منها أن الترك فعل؟ وقال: ما وجدت آية يُفهم منها ذلك إلا آية من سورة الفرقان، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝﴾ [الفرقان: آية ٣٠] لأن الاتخاذ معناه: التناول. أي: أخذوه في حال كونه مهجوراً. قال: يُؤخذ من هذا: أن الترك فعل»، ونحن نقول: إنَّا طالعنا في كتاب الله فوجدنا في كتاب الله آيات صريحة ــ وإن لم يطّلع عليها ابن السبكي، هي صريحة ــ في أن الترك فعل، وقد نص الله على ذلك مرتين في سورة المائدة وحدها، كما بيناه في هذه الدروس، أحد الموضعين من سورة المائدة الذي دل القرآن الصريح فيه على أن الترك فعل من الأفعال، وعمل من الأعمال، وصنع من الصنائع: هو قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ ثم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝﴾ [المائدة: آية ٦٣] فسمى عدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر سماه (صُنعاً). والصُّنْع أخص من مطلق الفعل؛ لأنه لا يطلق الصُّنع إلا على الفعل الذي يتكرر من صانعه مراراً.

الموضع الثاني من الموضعين الذين بين الله فيهما أن الترك فعل: هو قوله في المائدة أيضاً: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝﴾ [المائدة: آية ٧٩] فهذا الذي كانوا يفعلونه، الذي قال الله فيه: «بئس» هو عدم تناهيهم فيما بينهم عن المنكر، فهو صريح في أن عدم النهي عن المنكر فعل مذموم، فهاتان الآيتان صريحتان في أن الترك فعل، وهو كذلك في لغة العرب، ومنه قول الراجز لما كان الصحابة يبنون هذا المسجد

الكريم، عندما جاء النبي ﷺ وبنى هذا المسجد، كان بعض الصحابة جالساً، والنبي يعمل معهم في المسجد، فقال ذلك[(١)]:

لئن قعدنا والنبيُ يَعْمَلُ لَذاكَ مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّلُ

فسمى قعودهم وتركهم العمل سماه: عملاً مُضَلَّلاً. ومن الأحاديث الدالة على ذلك، قول النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[(٢)] فسمى ترك الأذية (إسلاماً)، وذلك يدل على أن ترك الأذية فعل؛ لأن الإسلام أعمال.

---

(١) السابق.

(٢) وردت هذه الجملة في عدة أحاديث رواها عدد من الصحابة (رضي الله عنهم) وهم كالآتي:

الأول: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند الترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم: (٢٦٢٧)، (٥/ ١٧)، والنسائي في الإيمان، باب: صفة المؤمن، حديث رقم: (٤٩٩٥)، (٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

الثاني: حديث أنس رضي الله عنه عند ابن حبان (الإحسان ١/ ٣٦٤).

الثالث: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما)، عند البخاري في الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم: (١٠)، (١/ ٥٣)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، حديث رقم: (٤٠)، (١/ ٦٥).

الرابع: حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) عند مسلم في الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، حديث رقم: (٤١)، (١/ ٦٥).

الخامس: حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) عند البخاري في الإيمان، باب: أي الإسلام أفضل، حديث رقم: (١١)، (١/ ٥٤)، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، حديث رقم: (٤٢)، (١/ ٦٦).

هذه الأشياء الأربعة هي أنواع العمل، وهي: القول، والفعل، والعزم المُصَمِّم، والترك، وجميعها يدخل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾.

﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾ هنا: مصدر ميمي، ومعناه: رجوعهم. والمقرر في فن التصريف: أن المصدر الميمي أصله (مفْعَل) بفتح العين، إلا إذا كان من مثال. أعني: واوي الفاء، غير معتل اللام، فالقياس أن يقال في (المَرْجِع) ــ بمعنى الرجوع ــ أن يقال فيه: (مَرْجَع) لأن المصدر الميمي في مثل هذا قياسه: (مَفْعَل) بفتح العين، إلا إنه كسر المرجع هنا وقيل فيه: (مَفْعِل) سماعاً لا قياساً، فهو سماع يُحفظ ولا يقاس عليه[1]، وهو مصدر ميمي بمعنى (الرجوع).

وقدم الجار والمجرور على عامله الذي هو المصدر الميمي إيذاناً بالحصر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ لأنه قد تقرر في فن المعاني في مبحث القصر، وفن الأصول في مبحث دليل الخطاب ــ أعني مفهوم المخالفة ــ أن من صيغ الحصر: تقديم المعمول على عامله[2]؛ فقدم المعمول الذي هو الجار والمجرور على عامله الذي هو المصدر الميمي إيذاناً بالحصر.

والمعنى: رجوعهم يوم القيامة إلى الله وحده، فليس هنالك معه ملك آخر يرجع إليه بعضهم، بل يرجعون إليه وحده (جل وعلا).

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ مضارع

(١) انظر: ضياء السالك (٣/ ٤٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(فعَّل، يُفَعِّل) من النبأ، والنبأ في لغة العرب: أخص من الخبر؛ لأن النبأ لا يُطلق إلا على الإخبار بشيء له شأن وخَطْب، تقول: جاءنا نبأ الأمير، ونبَّئنا بخبر الأمير والجيش، ولا تقول: جاءنا نبأ عن حمار الحجام. لأن هذا لا أهمية فيه، فتقول فيه: «خبر» ولا تقول: «نبأ»(١).

فمعنىٰ ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم خبراً عظيماً عندهم له خَطْب وشأن عظيم.

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (ما) موصولة، والعائد محذوف، والمعنى: بالذي كانوا يعملونه في دار الدنيا. وليس المراد بهذه التنبئة والإخبار مجرد التنبئة فقط، لا، وكلا، بل المراد به: الجزاء؛ لأن كل إنسان يوم القيامة يُخبر بجميع ما عمل من جهات متعددة:

أولاً: تشهد على الكافر جوارحه، تشهد عليه يده ورجله، وجلده، كما يأتي في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: آية ٦٥] وكقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: آية ٢٢] وكقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: آية ٢١] ويُنبئه ويشهد عليه المكان؛ لأن البقعة من الأرض الذي عمل الإنسان عليها المعصية تأتي يوم القيامة وتشهد عليه عند ربها، وتقول البقعة: إن فلان بن فلان فعل علي كذا وكذا في ساعة كذا، في يوم كذا، في شهر كذا، في سنة كذا، كما يأتي في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

يعني: الأرض ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾ بما فُعِلَ عليها ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة: الآيات ١ ــ ٥] أمرها بذلك أن تشهد، ومن ذلك، وهو الشيء العظيم: أن كل إنسان يجد جميع ما قدم من خير وشر مكتوباً في كتاب ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: آية ٤٩] ويُقال لكل إنسان في ذلك الوقت: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: آية ١٤] وتلك الكتب تُعطى للناس، آخذ كتابه بيمينه، أو آخذ بشماله، أو من وراء ظهره ــ والعياذ بالله ــ .

وهذه الآيات معناها: اعلم أيها الإنسان أن كل ما عملت من خير وشر هو محفوظ لك مدَّخر عليك، إن كان خيراً فإنما تنفع به نفسك، وإن كان شراً فإنما تضر به نفسك، فعليك أن تجتهد في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، ولا تضيع الوقت؛ لأنه إذا ضاع الوقت ندم الإنسان حيث لا ينفع الندم، فعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن ربنا يخبرنا أن جميع ما عملنا سنجده محفوظاً لنا أمامنا على رؤوس الأشهاد، ونُخبر به، ونُجازى به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فيجب على العبد المسلم في دار الدنيا أن يلاحظ هذا، وأن يخاف الله، ويخشى من أن يجعل في صحيفته الفضائح التي يفتضح بها على رؤوس الأشهاد؛ لأن فضيحة يوم القيامة ليست كفضيحة الدنيا؛ لأن من افتضح في الدنيا ضاع عرضه أمام المجتمع، وهو صحيح يأكل، ويشرب، وينام، وينكح، ويركب!! ولكن من افتضح في الآخرة سيُجر إلى دركات النار ــ والعياذ بالله ــ (جل وعلا)، ففضيحة الآخرة على رؤوس الأشهاد أعظم. وعلى المسلم أن يُحاسِب في دار

الدنيا، وينظر فيما يقول، وفيما يعمل، ولا يقدم لصحيفته إلا شيئاً يعلم أنه يسره يوم القيامة إذا رآه. هذا على العاقل أن يعمل به، ويجتهد فيه، ما دامت الفرصة ممكنة، وعلى كل إنسان أن يعلم أنه ليس متروكاً سدى، فكل إنسان حركاته وسكناته في الدنيا بجميع جوارحه وقلبه، كل هذه الحركات والسكنات محصاة عليه، وكلها بناء مسكنه الذي إليه مصيره النهائي، فإن كانت حركاته وسكناته فيما يرضي الله وجد تلك الحركات والسكنات، بنى بها قصوراً في غرف الجنة مع الحور، والولدان، ومجاورة رب غير غضبان، في نعيم لا ينفد، وملك لا ينفد ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان: آية ٢٠] وإذا كانت حركاته على غير الصراط المستقيم، فإن تلك الحركات والسكنات التي يستعملها في معصية الله، هو يبني بها مصيره النهائي، وهو سجن من سجون جهنم ـ والعياذ بالله ـ ، وقد قال بعض العلماء: إن الكفرة يدخلون منازلهم في جهنم لضيقها كما يُدخل الوتد في الحائط بالقوة(١). وكما سيأتي في قوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: آية ١٣]، فقوله: ﴿ضَيِّقًا﴾ أي: شديد الضيق، وكما هو أحد التفسيرين في قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ [الهمزة: الآيتان ٨، ٩] لأن بعض العلماء يقولون: «يدخلون في أماكن منها ضيقة كما يُدخل الإنسان في العمود المنقور، فيُدخل في وسطه والعياذ بالله»(٢) وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنعام: آية ١٠٨].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣١١).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٠/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] سبب نزول هذه الآية الكريمة(١): أن كفار مكة اقترحوا على النبي ﷺ اقتراحات كثيرة، قصدهم بها التعنت، لا طلب الحق، قالوا له: أنت تزعم لنا أن عيسى ابن مريم يحيي الموتى، وأن سليمان كان يركب الريح، وأن صالحاً خرجت له ناقة عُشَرَاء جَوْفَاء وبْرَاء من صخرة، فأَحْيِ لنا قصياً لنكلمه ونسأله عنك، وائتنا بالملائكة لنسألهم: هل أنت على حق؟ واجعل لنا الصفا ذهباً، وباعِدْ عنا جبال مكة لنزرع بينها، في تعنتات كثيرة سيأتي كثير منها في قوله(٢): ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ يعنون: من ذهب ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٣] هذا من تعنتاتهم، ومنها أنهم قالوا: «اسأل ربك ينزل علينا الملائكة»(٣) ﴿ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الفرقان: آية ٢١] وقدمنا في هذه السورة الكريمة(٤) تفسير قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ

---

(١) ما سيذكره الشيخ (رحمه الله) من سبب النزول ورد نحوه عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً كما في ابن جرير (١٢/ ٣٨ ـ ٣٩)، أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٢، لباب النقول للسيوطي ص ١٢٠.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٢٩٢، لباب النقول ص ١٧٣.

(٣) انظر: ابن جرير (١٩/ ١).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢/ ١٨٤).

مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: آية ٨] وما جرى مجرىٰ ذلك من الاقتراحات، فقالوا له: أَحْيِ لنا قصياً لنكلمه، وائتنا بالملائكة، كما يأتي في قوله: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ كقصي بن كلاب الذي اقترحوا إحياءه ليكلموه ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ أي: ولو جئناهم بالملائكة وجميع المخلوقات جماعات جماعات يشهدون لك ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: آية ١١١] ولما قالوا للنبي ﷺ: اسأل ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، والله لئن جعله الله لنا ذهباً لنتبعنك ولنؤمنن بما جئت به، فطمع قوم من أصحاب النبي ﷺ في إيمانهم، فقالوا له: يا رسول الله ﷺ: اسأل ربك أن يجعل الصفا ذهباً لأجل أن يؤمنوا، فَهَمَّ ﷺ أن يدعو الله ليجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبريل (عليه السلام) وخيَّره قال: إن شئت جعله الله لهم ذهباً، ولكن إن كفروا بعد تلك الآية التي اقترحوها أهلكهم الله، ودمرهم، ولم يُنظرهم، وإن شئت ترك عنهم الآيات المقترحة، وأمهلهم ليتوب تائبهم. فاختار النبي ﷺ الأخيرة[١]؛ لأن قوماً إذا اقترحوا آية عظمى وجاءتهم ولم يؤمنوا أهلكهم الله، كما يأتي في قوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾ [الإسراء: آية ١٩] يعني: فأهلكهم الله ودمرهم فأنزل الله ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] الإقسام معناه: الحلف[٢]. تقول العرب: «أقسم فلان». إذا حلف. وأصل (القسم) الذي هو اليمين من (الانقسام)؛ لأنه لا يكون إلا في طائفتين منقسمتين، كل منهما تُكَذِّب الأُخرى،

(١) مضى تخريجه قريباً.

(٢) انظر: المفردات للراغب (مادة: قسم) ص ٦٧٠، البحر المحيط (٤/ ٢٠١).

فيُقسم أحد الطرفين ليقوي خبره ويؤكده.

ومعنى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ حلفوا بالله قائلين: والله لئن جَعَلْتَ لنا الصفا ذهباً لنؤمنن بك ولنتبعنك.

وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ معناه: أقسموا جهد أيمانهم، أي: غاية ما يمكنهم من تغليظ اليمين وتوكيدها، و (جهد اليمين) معناه: بلوغ غاية ما يمكن من تغليظها وتوكيدها[1].

وفي إعراب قوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أوجه من الإعراب[2]:

أعربها بعض العلماء مفعولاً مطلقاً بالمعنىٰ من ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: فهي ما ناب عن المطلق، كما تقول: ضربه أشد الضرب، وسار أشد السير، وأقسم أشد الإقسام.

فمعنى: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أوكد أقسامهم وأغلظها. وعلى هذا فهو مفعول مطلق بالمعنىٰ، ما ناب عن المطلق من ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ لأن معنىٰ ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشد إقساماتهم وأغلظها وأوكدها.

الوجه الثاني من أوجه الإعراب: أنه حال. أي: أقسموا بالله في حال كونهم جاهدين في تغليظ أيمانهم وتوكيدها. ولا ينافي هذا أن الحال تكون نكرة، وأن المصدر المؤول بالحال هنا مضاف إلى معرفة؛ لأن الحال إن عُرِّفت لفظاً فهي مُنكَّرة معنى، كما قال في الخلاصة[3]:

والحالُ إنْ عُرِّف لفظاً فاعْتَقِدْ تنكيرهُ مَعْنىً كَوَحْدكَ اجْتَهِدْ

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١)، القرطبي (٧/ ٦٢).
(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٦٢)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١)، الدر المصون (٤/ ٣٠٥).
(٣) الخلاصة ص ٣٢، وانظر شرحه في: التوضيح والتكميل (١/ ٤٦٩).

والأيمان: جمع اليمين، وأوكد الأيمان وأغلظها هو ما كان بالله، وهم كانوا يحلفون بآلهتهم وأصنامهم، وإذا أرادوا جهد اليمين وتوكيدها وإغلاظها حلفوا بالله[1].

وقوله جل وعلا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: لئن جاءتهم آية من الآيات التي اقترحوها، أما الآيات التي لم يقترحوها فقد جاءتهم بكثرة، وأعظم الآيات: هذا القرآن العظيم؛ لأنه آية عظمى ومعجزة كبرى باقية تتردد في آذان الناس إلى يوم القيامة؛ ولأجل أنه أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، أنكر الله في سورة العنكبوت على من لم يكتف به، وطلب آية غيره، حيث قال: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ٥٠، ٥١] فإنكاره على من لم يكتف بأكبر الآيات وأعظمها، وهو هذا القرآن العظيم دليل على أنه أعظم آية.

والآيات التي سألوها واقترحوها، إنما اقترحوها تعنتاً وعناداً، لا طلباً للحق؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ هذه صورة إقسامهم حكاها الله من غير حكاية لفظهم؛ لأنه لو حكىٰ لفظهم لقال: «لئن جاءتنا آية لنؤمنن بها» فحكى القصة بالمعنى لا باللفظ. أقسموا جاهدين قائلين: لئن جاءتهم آية من الآيات التي اقترحوها، كأن يجعل الله لهم الصفا ذهباً، أو يبعث لهم قصيّاً ليكلمهم، أو يأتيهم بالملائكة، أو يشق عنهم جبال مكة ويباعدها ليزرعوا في

(١) انظر: القرطبي (٧/ ٦٢).

متسع من الأرض؛ لأنهم يزعمون أن الجبال لا تمكنهم من الزراعة، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: آية ٣١].

/ على حد قوله[1]: [١٤/ب]

لــو طَــارَ ذُو حــافــرٍ قبلهــا لطــارتْ ولكنــه لــم يطــرْ

وقال بعض العلماء: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لكفروا بالرحمن؛ لأنهم ما اقترحوا الآيات طلباً للحق، ولكن اقترحوها عناداً وتعنتاً؛ ولذا قال هنا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أصل الآية في لغة العرب ــ قدمنا في هذه الدروس مراراً[2] ــ أن أصل الآية بالميزان الصرفي، أن وزنها: (فَعَلَة) وأن أصلها (أَيَيَة) فاؤها همزة، وعينها ياء، ولامها ياء، على وزن (فَعَلَة) فكان فيها موجب الإعلال في الحرفين، أعني: الياءين، والقاعدة في التصريف: أن الأغلب أن يكون الإعلال في الحرف الأخير، فلو كانت على الأغلب لقيل: (أَيَاه) وكان المبدل (ألفاً): (الياء) الأخرى، ولكنه هنا وقع الإعلال في الياء الأولى، فأُبدلت (ألفاً)، وهذا يوجد في كلام العرب، وجاء به القرآن، هذا أصلها في الميزان الصرفي.

وهي في لغة العرب[3]: الآية تطلق إطلاقين، وفي القرآن العظيم تطلق إطلاقين، أما أشهر معاني الآية في لغة العرب: فهو

(١) البيت في ديوان الحماسة (١/ ٢١٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

العلامة العرب يقولون: «آية كذا». معناه: علامة كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة ملكه، وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ــ وهو عربي قح جاهلي ــ جاء فيه تفسير الآية بالعلامة، حيث قال[١]:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفْتُها لِسِتَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

ثم بين أن مراده بالآيات: علامات الدار، وآثار رسومها حيث قال مفسراً للآيات[٢]:

رمادٌ ككُحلِ العينِ لأْياً أُبينُه ونُؤيٌ كجذمِ الحوضِ أَثْلمُ خاشعُ

فأشهر معنيي الآية في اللغة: العلامة، وقد تُطلق الآية في لغة العرب على الجماعة، يقولون: «جاء القوم بآيتهم» أي: بجماعتهم، ومنه بهذا المعنى قول بُرج بن مُسْهِر[٣]:

خرجنا من النقبينِ لا حيَّ مِثْلُنَا بآيتنا نُزجي اللقاحَ المطَافلا

أي: بجماعتنا.

هذان المعنيان للآية في لغة العرب: الآية بمعنىٰ (العلامة)، الآية بمعنىٰ (الجماعة).

والآية تُطلق في القرآن العظيم إطلاقين[٤]: تُطلق مراداً بها الآية الكونية القدرية. والكونية القدرية من الآية بمعنىٰ (العلامة) لغة قولاً

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

واحداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلامات واضحات لأصحاب العقول على أن خالق هذا الكون قادر على كل شيء، وأنه رب كل شيء، وأنه المعبود وحده (جل وعلا)، فهذه الآية الكونية القدرية في القرآن من معنىٰ الآية بمعنى العلامة في لغة العرب.

الإطلاق الثاني للآية في القرآن: إطلاق الآية بمعنى الآية الشرعية الدينية، كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] وهذه هي الآيات الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن العظيم. وهذه من الآية أيضاً بمعنى العلامة؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها؛ لما تضمنته من الإعجاز، أو بأن لها علامات تُعرف بها مبادئها ومقاطعها.

وقال بعض أهل العلم: إن الآية بالمعنىٰ الشرعي الديني بمعنى الجماعة؛ لأنها جماعة من كلام القرآن وحروفه اشتملت على بعض مما تضمنه القرآن(١).

إذا عرفتم هذا فالآية في الآية التي نحن بصددها ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ هي الآية الكونية القدرية، الدالة على صدق من جاء بها. أي: علامة خارقة للعادة أنك رسول مرسل من الله (جل وعلا)، كأن يجعل الصفا ذهباً، وكأن يُحيي لنا قصيّاً لنكلمه، وما جرىٰ مجرى ذلك.

وهذا معنى قوله: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ اللام الأولى

---

(١) السابق.

موطئة للقسم، واللام في قوله: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ جواب للقسم؛ لأن القسم قبل الشرط، والقاعدة المقررة في علم العربية: أنه إذا اجتمع شرط وقسم فالجزاء للسابق منهما(١). والسابق هنا: القَسَم. يعني: لئن جاءتهم آية من الآيات التي اقترحوها عليك ليؤمنن بها، ويصدقون بأنها من الله، وأنها معجزة دالة على أنك نبي حقاً. فأمر الله نبيه بأمرين:

أحدهما: أن يقول لهم: إن الآيات عند الله، هو الذي يأتي بها إن شاء، كما قال جل وعلا: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: آية ٤].

الأمر الثاني: أنه يقول: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ فمعنىٰ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الآيات التي اقترحتموها عند الله وبيده، إن شاء أنزلها، وإن شاء لم ينزلها، إنما أنا نذير، وقد جئتكم به من المعجزات ما يوضح الحق، ويقطع الشُّبه، ويثبت لكم ثبوتاً ضرورياً أني نبي كريم. أما التعنتات والآيات المقترحات فهي عند الله، إن شاء أنزلها عليكم فأهلككم إن لم تؤمنوا، وإن شاء لم ينزلها عليكم.

وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ الإشعار في لغة العرب: الإعلام(٢)، أي: ما يعلمكم، وما يدريكم.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا البصري أبا عمرو ﴿وما يُشْعِرُكُم﴾ بضم الراء، ومن يُرقق ـ كَوَرْش ـ يُرقق، ومن يُفَخِّم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٦٤)، القاموس (مادة: شعر) ص ٥٣٣.

يُفَخَّم. وقرأ هذا الحرف أبو عمرو في رواية الدُّوري والسُّوسي: ﴿وَمَا يُشْعِرْكُمْ﴾ بسكون الراء وروى عنه الدُّوري: ضم الراء مُخْتَلَسَة. هذه قراءة أبي عمرو[١]، أما الاختلاس فهو للتخفيف قولاً واحداً، وأما إسكان الراء في قراءة أبي عمرو هذه ﴿وما يُشْعِرْكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فهو على إسكانه الراء. فالراء مُرَقَّقَة؛ لأن الراء الساكنة بعد كسرة مُرَقَّقَة بإجماع القراء، وإجماع أهل اللسان العربي، إلا إذا جاء بعدها حرف استعلاء كما هو معروف.

لطالب العلم أن يقول: ما وجه قراءة أبي عمرو هذه وجَزْمُ مضارعٍ من غير جازم، وأصل المضارع إذا لم يدخل عليه جازم أو ناصب فحكمه الرفع كما هو معروف؟

والجواب عن هذا: أن إسكان بعض الحروف المحركة للتخفيف أُسلوب عربي معروف، جاء ذلك في القرآن وفي لغة العرب في حرف الإعراب، وفي غير حرف الإعراب[٢]، ومثاله في حرف الإعراب قوله هنا: ﴿وما يشعرْكم﴾ الأصل: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ كقراءة الجمهور، إلا أن الراء سُكنت للتخفيف، ونظيره من كلام العرب قول امرىء القيس[٣]:

فاليوم أَشْرَبْ غير مُسْتَحْقِبْ إِثْماً من الله ولا واغِلِ

(١) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ٢٦٥، الكشف المكي (١/ ٢٤٠ ــ ٢٤٢)، إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٦)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

فسكن المضارع تخفيفاً، وكذلك قد تُسكن العرب حرفاً متحركاً غير حرف الإعراب تخفيفاً، وعليه قراءة حمزة[(١)]: ﴿أَرْنا مناسكنا﴾ [البقرة: آية ١٢٨] وقراءة حفص[(٢)]: ﴿ويخشى الله ويَتَّقْه فأولئك هم الفائزون﴾ [النور: آية ٥٢] لأن «أَرْنَا» أصله (أَرِنَا) سُكِّن في قراءة حمزة تخفيفاً، وكذلك في لسان العرب، كقول الشاعر[(٣)]:

أَرْنَا إدَاوَةَ عبد الله نَمْلَؤُها من ماءِ زَمْزَمَ إنَّ القومَ قد ظَمِئُوا

وكذلك قراءة حفص عن عاصم ﴿ويخشى الله ويَتَّقْه﴾ بسكون القاف؛ لأن أصلها (ويتَّقِه) والقاف متحركة، سُكنت للتخفيف، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(٤)]:

ومن يَتَّقْ فإن الله مَعْهُ ورزقُ الله مُؤْتَابٌ وغَادِ

وقول الراجز[(٥)]:

قالتْ سُلَيْمَى اشْتَرْ لنا سويقا وهاتِ خُبْزَ البُرِّ أو دقيقا

هذا توجيه قراءة أبي عمرو ﴿وما يُشْعِرْكُم﴾.

وفي قوله: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ قراءتان

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة. ونِسْبَة هذه القراءة لحمزة وَهْم، وإنما قرأ بها ابن كثير من السبعة، وأما حمزة فقرأها بالكسر. انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٧٠، المبسوط لابن مهران ص ١٣٦.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

سبعيتان[١]: قرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن كثير وشعبة عن عاصم في رواية: ﴿وما يشعركم إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بكسر ﴿إِنَّها﴾ وياء الغيبة في ﴿يؤمنون﴾: ﴿وما يشعركم إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ قراءة أبي عمرو ﴿وما يُشعِرْكم إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وقراءة ابن كثير، وشعبة عن عاصم في رواية: ﴿وما يُشْعِرُكُم إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فاتفق ابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة عن عاصم ــ في رواية ــ على كسر ﴿إِنَّها﴾ وياء الغَيبة في قوله: ﴿يؤمنون﴾.

وقراءة أبي عمرو هذه، وابن كثير، ورواية شعبة هي أوضح القراءات[٢]، واضحة لا إشكال في الآية عليها، فمتعلق الإشعار محذوف[٣]، والمعنىٰ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ما يدريكم ماذا يكون.

ثم بين بخبر مؤكد ﴿إِنَّها إذا جاءت﴾ ﴿إِنَّها﴾ أي: الآية المقترحة إذا جاءتهم لا يؤمنون. كما قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وكما قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: آية ١٥] وكقوله: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١١١] ونحو ذلك من الآيات فقراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وشعبة ــ في رواية ــ لا إشكال في الآية عليها، قراءة أبي عمرو: ﴿وما يُشْعِرْكم

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٠، النشر (٢/ ٢٦١).

(٢) في توجيه هذه القراءات انظر: المُوضح لابن أبي مريم (١/ ٤٩٢)، حجة القراءات ص ٢٦٥، القرطبي (٧/ ٦٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١)، الدر المصون (٥/ ١٠١).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠١).

إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وقراءة ابن كثير، وشعبة عن عاصم ـ في رواية ـ ﴿وما يُشْعِرُكم إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وهذه أوضح القراءات وأظهرها معنى. والمعنى: ما يشعركم، وما يدريكم عن حقيقة الأمر الذي سيكون لو جاءت الآية المقترحة؟ ثم بين بخبر باتٍّ أنها إذا جاءت لن يؤمنوا؛ ولذا قال: ﴿إِنَّها إذا جاءت﴾ أي: الآية المقترحة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم متعنتون معاندون كفرة.

وقرأ هذا الحرف نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم، وشعبة عن عاصم ـ في الرواية الأخرى ـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّهَآ﴾ وياء الغيبة في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقرأ هذا الحرف ابن عامر، وحمزة ﴿وما يُشْعِرُكم أَنَّها إذا جاءت لا تؤمنون﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّهَآ﴾ وتاء الخطاب في قوله: ﴿تؤمنون﴾ فهي ثلاث قراءات سبعيات، وما عداها شاذ: ﴿إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ ﴿أنها إذا جاءت لا تؤمنون﴾.

أما كسر الهمزة مع تاء الخطاب في ﴿تؤمنون﴾ فلم يأت في قراءة سبعية وإن ذكره بعض القراء عن شعبة ـ أبي بكر ـ من رواية الأعشى[1] فهو لم يثبت عن عاصم من طريق شعبة.

أما على القراءة التي قدمنا فمعنى الآية واضح لا إشكال فيه كما بينا.

---

(١) انظر: المحتسب (١/ ٢٢٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١)، الدر المصون (٥/ ١٠٩).

وأما على قراءة نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم، وشعبة عن عاصم في رواية: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ ففي الآية إشكال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: المتبادر إلى الأذهان أن المعنى: وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون حتى ترغبوا في إيمانهم، وتسألوا النبي ﷺ فـ(لا) في هذا المقام كأن المتبادر منها أن (لا) النافية هنا تقلب المعنى، وأن الأصل: وما يدريكم أنها إذا جاءتهم يؤمنون، حتى تطلبوا النبي أن يسألها.

والجواب عن هذا الإشكال من أوجه متعددة معروفة عند العلماء[١]:

أحدها: أن الآية لا إشكال فيها، والمعنى: الله (جل وعلا) علم في سابق أزله أنهم لو جاءتهم الآيات لا يؤمنون، كما دلت عليه قراءة أبي عمرو، وابن كثير التي بيناها الآن ﴿إنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ يعني: الله يعلم أنهم لا يؤمنون لو جاءتهم؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وأنتم حيث إنكم بشر لا تعلمون عواقب الأمور. والمعنى: ما يدريكم، ما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون؟ يعني: أنا الذي أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأنتم لا تعلمون عواقب الأمور؛ ولذلك طمعتم في إيمانهم، فسألتم النبي ﷺ أن يدعو الله أن يأتيهم بالآية المقترحة!! وهذا الوجه من التفسير واضح لا إشكال فيه، واختاره أبو حيان في البحر[٢]

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٩ ـ ٤٣)، القرطبي (٧/ ٦٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١)، الدر المصون (٥/ ١٠٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠١).

والزمخشري في كشافه[١]، وهو أيضاً واضح لا إشكال فيه، وعليه فالمعنى: الله يعلم أنهم لا يؤمنون، وأنتم أيها البشر ما يدريكم بما علم الله به من غيبه قبل أن يقع. والمعنى: لا تعلمون أنهم لا يؤمنون، ولو كنتم تعلمون أنهم لا يؤمنون لما قلتم للنبي: اسأل ربك أن يجعل الصفا ذهباً، طمعاً في إيمانهم. هذا وجه أيضاً لا إشكال فيه على قراءة نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم، وشعبة عنه في رواية.

وكان بعض العلماء يقول[٢]: (لا) هنا صِلَة.

ومعنى قولهم «صِلَة» أن يتأدبوا عن لفظ (زائدة)[٣] وذكر كثير من علماء العربية أن لفظة «لا» قد تزاد في الكلام مقصوداً بها توكيد الإيجاب[٤]، وهي من الأمور العكسية؛ لأن أصلها النفي، وهي ربما أُكِّد بها الإيجاب، كما في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: آية ١] فـ(لا) هنا ليست نافية؛ لأن الله أقسم بذلك البلد في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: آية ٣] وقالوا: إن (لا) قد تأتي في الكلام صِلَة مُؤَكِّدة للثبوت، وأن هذا أسلوب عربي معروف، ومنه قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء:

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٣٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ٤١)، الكشاف (٢/ ٣٤)، القرطبي (٧/ ٦٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٢)، الدر المصون (٥/ ١٠٤).

(٣) انظر: البرهان للزركشي (١/ ٣٠٥)، (٣/ ٧٠)، قواعد التفسير (١/ ٣٥٠).

(٤) انظر: البحر المحيط (٨/ ٢١٣)، البرهان للزركشي (٣/ ٧٨ ــ ٨٢)، فتح القدير (٥/ ١٥٩)، الدر المصون (١٠/ ٢٢٠)، رصف المباني ص ٢٧٣، دفع إيهام الاضطراب ص ٣٢١.

آية ٩٥] على أحدِ الوجهين[١]، ومنه قوله عندهم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: آية ٣٤] أي: والسيئة، ومنه قوله عندهم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: آية ٦٥] قالوا: الأصل: فوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. قالوا: ومنه قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] قالوا: (لا) هنا صِلة، بدليل قوله في ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: آية ٧٥] بحذف (لا).

وكان الفراء يقول[٢]: إن حذف (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد ـ أي النفي ـ هو معروف مطرد في كلام العرب، وأن حذفها في الكلام الذي ليس فيه معنىٰ الجحد ليس معروفاً مشهوراً في كلام العرب.

والحاصل أن زيادة لفظ (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد، ـ أي: النفي ـ فهذا مما لا خلاف فيه، كقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: آية ٦٥] وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] لأن المنع مُشَمٌّ معنى رائحة النفي، وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول أبي النجم[٣]:

---

(١) انظر: الدر المصون (٨/ ١٩٨).

(٢) عبارة الفراء: «المعنى ـ والله أعلم ـ ما منعك أن تسجد. و (أن) في هذا الموضع تصحبها (لا)، وتكون (لا) صلة. كذلك تفعل بما كان في أوله جحد...». اهـ معاني القرآن (١/ ٣٧٤).

(٣) البيت في المحتسب (١/ ١٨١)، الخصائص (٢/ ٢٨٣)، القرطبي (٢/ ١٨٢)، البحر المحيط (١/ ٢٩)، الدر المصون (١/ ٧٣)، والشمط: الشيب، والقفندر: القبيح.

ومـا أَلُـومُ البيـضَ ألاَّ تَسْخَـراَ   لمـا رَأَيْـنَ الشَّمَـطَ القَفَنْـدرَا

ومنه قول الآخر(١):

ما كان يَرْضَى رسولُ الله دينهم   والأطيبـان أبـو بكـر ولا عمـر

الأصـل: أبـو بكـر وعمـر. وهـو معـروف فـي كـلام العـرب، والتحقيـق: أن زيـادة (لا) لتـوكيـد الكـلام المُثْبَت أسلـوب عـربـي مسموع كثيراً في الكلام الذي فيه معنى الجحد، وربما جاء في الكلام المُثْبَت الذي ليس فيه معنى الجحد، ومن شواهده فيه قول ساعدة بن جؤية الهذلي(٢):

أَفَعَنْـكَ لا بـرقٌ كـأنَّ وميضَـه   غـابٌ تَسَنَّمـه ضِـرامٌ مُثْقَـبُ

الأصل: أَفَعَنْكَ برق. و (لا) زائدة، والكلام مُثْبَت لا نفي فيه، ومنه قول الآخر، (قالوا عن ابن عباس إنه أنشده)(٣):

تَذَكَّرْتُ ليلى فاعْتَرَتْني صَبَابَةٌ   وكـادَ ضميـرُ القلـبِ لا يتقطَّـعُ

قالوا معناه: كاد يتقطع. هذان وجهان في الآية.

الوجه الثالث: وقال به سيبويه(٤)، واختاره المفسر الكبير ابن

---

(١) البيت في البحر المحيط (١/ ٢٩)، الدر المصون (١/ ٧٣)، رصف المباني ص ٢٧٣، وفي جميع هذه المصادر: «فعلهم» بدل «دينهم» و «الطيبان» بدل «الأطيبان».

(٢) البيت في البحر المحيط (٤/ ٢٧٣)، الدر المصون (٥/ ٢٦٢)، والغاب: نوع من الشجر، والضرام: النار في الحطب.

(٣) البيت في رصف المباني ص ٢٧٤.

(٤) انظر: الكتاب (٣/ ١٢٣).

جرير(١): أن (أن) هنا في هذه الآية معناها (لعل) ومعروف في كلام العرب بإطباق أهل اللسان العربي: أن (لعل) يقال فيها: (لأنَّ) ويقال فيها: (أنَّ) كما هو معروف، ففي (لعل) لغات عديدة، منها: (لأن) ومنها: (أن) كما هو معروف، وسُمع بالإطباق عن العرب: «اذهب إلى السوق أنك تشتري لنا شيئاً». معناه: لعلك تشتري لنا شيئاً. وهذا أسلوب عربي معروف، ومنه قول امرىء القيس(٢):

عُوْجَا على الطَّلَلِ المُحيلِ لأننا ... نبكي الديار كما بكى ابن خَذَامِ

وقوله: «لأننا»: لعلنا.

قال ابن جرير: ومنه قول عدي بن زيد حيث قال(٣):

أَعَاذِلَ ما يُدريكِ أَنَّ منيَّتي ... إلى ساعةٍ في اليومِ أَوْفي ضُحى الْغَدِ

يعني: ما يدريك لعل منيتي. ومنه قول الآخر(٤):

أَريني جواداً مات هَزْلاً لإنني ... أرى ما ترين أو فقيراً مُخَلَّدا

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٤٣)، وانظر: الكشاف (٢/٣٤)، القرطبي (٧/٦٤)، البحر المحيط (٤/٢٠٢)، الدر المصون (٥/١٠٢).

(٢) ديوان امرىء القيس ص ١٥٦، الكشاف (٢/٣٤)، البحر المحيط (٤/٢٠٢)، مشاهد الإنصاف ص ١١٣، (ملحق بالكشاف ج ٤)، والعَوج: عطف رأس البعير بالزمام. والمُحيل: الذي حال وتغير عن صفة الجِدَّة إلى صفة البِلَى، وابن خذام يقال إنه أول من بكى الديار من شعراء العرب.

ويقال له: ابن خدام، وابن خذام، وابن حذام.

(٣) البيت في ابن جرير (١٢/٤١)، القرطبي (٧/٦٤).

(٤) البيت في ابن جرير (١٢/٤٢)، القرطبي (٧/٦٤)، وفيهما: أو بخيلاً، وانظر: تعليق محمود شاكر على ابن جرير (٣/٧٨)، (١٢/٤٢).

يعني: لعلني. ومنه قول أبي النجم(١):

قلتُ لشيبانَ ادنُ من نَعْمَائِهِ أَنَّ تُغَدِّي القومَ من شِوَائِه

(أن) يعني: لعل.

وعلى هذا القول فالمعنى: وما يشعركم، وما يدريكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. قالوا: و(لعل) تأتي بعد (ما يدريك) و (ما يشعرك) ومن إتيانها بعد (ما يدريك) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: آية ١٧]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: آية ٦٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس: آية ٣] فعلى هذا الوجه الذي اختاره ابن كثير(٢) وقال به سيبويه(٣) أن معنى (أن) هنا: (لعل). والمعنى: وما يشعركم ماذا يكون، لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. قالوا: ويؤيد هذا المعنى: ما في مصحف أُبي بن كعب؛ لأن في مصحف أُبي «وما أدراكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون»(٤) ومثل هذا كالتفسير؛ لأنه ليس بقرآن.

هذه الأوجه الثلاثة في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٩].

---

(١) البيت في الكتاب (٣/ ١١٦)، ابن جرير (١٢/ ٤٣)، القرطبي (٧/ ٦٤)، الدر المصون (٥/ ١٠٣)، وفيها: «ادن من لقائه».

(٢) لعل قوله «ابن كثير» سبق لسان، والمراد: (ابن جرير) كما سبق، ويدل عليه أن ابن كثير لم يرجح هذا القول.

(٣) كما في الكتاب (٣/ ١٢٣).

(٤) انظر: الكشاف (٢/ ٣٤)، القرطبي (٧/ ٦٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٢)، الدر المصون (٥/ ١٠٣).

وعلى هذا القول، فالخطاب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للمؤمنين[(١)].

أما على قراءة ابن عامر، وحمزة: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا تؤمنون﴾ فالأوجُه في (لا) في هذه القراءة كلها هي عين الأوجه التي في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلا أن الخطاب في القراءة الأولى ﴿وما يشعركم﴾ هو للمسلمين، أي: ما يدريكم أيها المسلمون أن الكفار إذا جاءتهم الآيات يؤمنون أو لا يؤمنون.

أما على قراءة ابن عامر، وحمزة فالخطاب للكفار[(٢)] ﴿وما يشعركم﴾ أيها الكفرة المقترحون للآيات الزاعمون المقسمون جهد أيمانكم أنها إن جاءتكم آمنتم، ماذا يدريكم أنها إذا جاءتكم كفرتم ولم تؤمنوا؟ كقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: آية ٧].

فعلى قراءة: ﴿تؤمنون﴾ فالخطاب بـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للكفار. وعلى قراءة ﴿يؤمنون﴾ فالخطاب بـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للمؤمنين.

وبهذا يزول النطاح والخصام المعروف بين علماء التفسير في الخطاب في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ طائفة تقول: هو للمؤمنين، وطائفة تقول: هو للكافرين. والفصل في هذا: أنه على قراءة ﴿تؤمنون﴾ فالخطاب للكفار. وعلى قراءة ﴿يؤمنون﴾ فالخطاب

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٩)، الكشاف (٢/ ٣٤)، القرطبي (٧/ ٦٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١)، الدر المصون (٥/ ١٠٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٩)، القرطبي (٧/ ٦٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٠١)، الدر المصون (٥/ ١٠٧).

للمسلمين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام: آية ١٠٩].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: آية ١١٠].

في هذه الآية الكريمة كلام كثير لعلماء التفسير، وأقوال كثيرة[١]، أظهرها وأولاها بالصواب، وهوالحق ـ إن شاء الله ـ الذي دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يُفسَّر به القرآن القرآن: أن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم بعض الآيات المقترحات ليؤمنن بها، وبين الله أنهم لا يؤمنون، كما هو واضح في قراءة أبي عمرو، وابن كثير، وشعبة في رواية: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بخبر مؤكد بـ (إن) بَاتّ أنهم لا يؤمنون، بيَّن سبب عدم هذا الإيمان، كأنه قال: إني قلت: إنهم لا يؤمنون، والسبب في ذلك: أنهم أول مرة قابلوا رسلي بالكفر، والعناد، والتعنت، فطمست على قلوبهم، وخذلتهم، وطبعت عليها.

وهذا معنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ فلا تعقل حقاً ﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ فلا تبصر حقاً.

فقوله: ﴿كَمَا﴾ هنا تعليلية[٢]: أي: لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة؛ فلأجل ما سبق منهم من العناد والتعنت طمسنا على قلوبهم، وقلَّبنا أبصارهم وقلوبهم، والله (جل وعلا) مقلب القلوب،

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٤٤)، ابن كثير (٢/ ١٦٥)، شفاء العليل ص ٩٩ ـ ١٠٠، بدائع الفوائد (٣/ ١٨٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٣)، شفاء العليل ص ٩٩.

وكل قلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ويصرفها كيف شاء، وفي الحديث: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١). وعلى

(١) رواه عن النبي ﷺ بهذا اللفظ جماعة من الصحابة وهم:
١ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه) عند أحمد (٣/ ١١٢)، (٢٥٧)، والترمذي في القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أُصبعي الرحمن، حديث رقم: (٢١٤٠)، (٤/ ٤٤٨)، وقال: «حسن». اهـ. وابن ماجه في الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ، حديث رقم: (٣٨٣٤)، (٢/ ١٢٦٠)، والحاكم (٢/ ٢٨٨)، وابن أبي عاصم في السنة رقم: (٢٢٥)، والآجري في الشريعة ص ٣١٧.
وقد صححه الألباني كما في ظلال الجنة، حديث رقم: (٢٢٥)، وصحيح الترمذي، حديث رقم: (١٧٣٩)، وصحيح ابن ماجه، حديث رقم: (٣٠٩٢).
٢ ـ عاصم بن كليب عن أبيه عن جده. عند الترمذي في الدعوات، باب: (١٢٥)، حديث رقم: (٣٥٨٧)، (٥/ ٥٧٣)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.
٣ ـ النواس بن سمعان. عند أحمد (٤/ ١٨٢)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم: (١٩٩)، (١/ ٧٢)، وابن أبي عاصم في السنة، حديث رقم: (٢١٩)، (٢٣٠)، (٥٥٢)، والحاكم (٢/ ٢٨٩)، (٤/ ٣٢١)، وابن حبان (الإحسان ٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، والآجري في الشريعة ص ٣١٧.
وقد صححه الألباني كما في ظلال الجنة (١/ ٩٨، ١٠٣ ـ ١٠٤)، وصحيح ابن ماجه، حديث رقم: (١٦٥)، والسلسلة الصحيحة، رقم: (٢٠٩١).
٤ ـ أم سلمة (رضي الله عنها). عند أحمد (٦/ ٩١، ٢٩٤ ـ ٣٠٢، ٣١٥)، والترمذي في الدعوات، باب: (٩٠)، حديث رقم: (٣٥٢٢)، (٥/ ٥٣٨)، وابن أبي عاصم في السنة، رقم: (٢٢٣، ٢٣٢)، والآجري في الشريعة ص ٣١٦، وصححه الألباني كما في ظلال الجنة (١/ ١٠٠، ١٠٤).
٥ ـ عائشة (رضي الله عنها). عند أحمد (٦/ ٩١، ٢٥١)، والآجري في =

هذا فالمعنىٰ المانع الذي يمنعهم من الإيمان لو جاءتهم الآيات المقترحات: أنهم بادروا بتكذيب الرسل أول مرة عندما جاءهم عناداً وتعنتاً، وبسبب ذلك الكفر والعناد قلَّبنا أبصارهم فأزغناها عن الحق، وقلَّبنا أفئدتهم فأزغناها عن الحق. والدليل على هذا: أن المبادرة بالعمل السيء سبب لطمس البصيرة، والطبع، والران على القلوب، كما بينه الله في آيات كثيرة، كقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: آية ١٠]، وكقوله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: آية ١٤]، وكقوله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥]، فقوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في مكان ﴿زَاغُوا﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ في مكان قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾، لأن المعاصي والكفر ــ والعياذ بالله ــ من سبب طمس القلوب، وذلك يقع في المؤمن، الإنسان المؤمن إذا أذنب ــ والعياذ بالله ــ ذنباً، نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء، فإذا كان عاقلاً ذكياً من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠١] وأناب إلى الله وتاب إليه زال ذلك السواد، وصار قلبه صقيلاً؛ لأن القلب كالزجاجة، ونور الإيمان الذي يُبْصَرُ

= الشريعة ص ٣١٧، وابن أبي عاصم في السنة، حديث رقم: (٢٢٤)، (٢٣٣)، وصححه الألباني كما في ظلال الجنة (١/ ١٠١، ١٠٤).

وقد أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ مقارب. انظر: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، حديث رقم: (٢٦٥٤)، (٤/ ٢٠٤٥)، وقد رواه غير هؤلاء من الصحابة كبلال، وجابر (رضي الله عنهم أجمعين).

به الحق والباطل في داخله كأنه النور وسط الزجاجة، والزجاجة إذا تلطخت بالأوساخ انكسف النور داخلها، وإذا كانت صقيلة نظيفة شع النور.

أما ترى الذُّبال في المصباح إذا صفا يرضيك في استصباح
وإن يكن بوسخ مُلَطَّخاً كسف نوره لذلك الطَّخا[1]

فإذا أذنب العبد ذنباً صارت وساخة سوداء على قلبه، فإذا بادر إلى الإنابة والتوبة غسلها، فبقي القلب صقيلاً نظيفاً، فشع نور الإيمان فيه، كالنور في الزجاجة الصقيلة، فإذا كان المسكين مغفلاً جاهلاً، وزاد في الذنوب، لم يزل يزيد في الذنوب، والسواد يزداد حتى يعلو جميع القلب، فيسودُّ جميعه، فيبقى النور لا أثر له، وعلامة هذا من طمس البصائر ــ والعياذ بالله ــ أن ترى من وقع به هذا الاسوداد القلبي، والران المستولي على قلبه، تراه يرتكب فظائع الذنوب وهو يضحك في فرح ولهو؛ لأن البصيرة والنور الذي يرى به شدة ضرر هذا انطمس، فلا يرى ضرراً، وتراه تفوته الصلوات والرغائب العظام في الدين وهو فرح مسرور!! لا يرى هذا الحق حقاً، ولا هذا الباطل باطلاً؛ لأن البصيرة التي يرى بها الحق حقاً والباطل باطلاً، والنافع نافعاً والضار ضاراً، إذا اسودت القلوب انطمس نورها، فلا يبصر بها شيئاً، فكما أن الكفار بادروا إلى تكذيب الأنبياء، وكانوا قبل ذلك قد يكونون على فطرة، وقد يكونون معذورين، اسودت قلوبهم فطبع الله عليها، وختم عليها، وقلبها عن الحق ــ والعياذ بالله ــ ، كما قال جل وعلا: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ

---

(١) البيت من قصيدة للهلالي تُعرف بـ (وصية الهلالي)، كما أفاد بذلك الشيخ (بُدّاه) مفتي موريتانيا حفظه الله.

﴿سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧]، وكما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: آية ٥٧] وقال هنا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] وذلك جزاء وفاق، وعدل؛ لأن المعاصي ترين على القلوب، وتطمسها حتى لا تبصر حقاً.

وهذا هو الأظهر في معنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ حتى تزيغ عن إدراك الحق، ونقلب ﴿أَبْصَٰرِهِمْ﴾ حتى تزيغ عن إدارك الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ لأجل أنهم لم يؤمنوا بهذا القرآن ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جاءهم به الرسول، فكان كفرهم وزيغهم الأول سبباً للطبع على قلوبهم وتقليب قلوبهم، وأبصارهم عن الحق. كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥]، ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] فالباء سببية. وكقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: آية ١٢٥]، ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] فـ ﴿كَمَا﴾ من حروف التعليل، ومعنى نقلبها: لأجل أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، فذلك الكفر يجر إلى الخذلان، وطمس البصيرة، وتقليب القلوب والأبصار، ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم.

وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ معناه: نتركهم.

وقوله: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطغيان في لغة العرب مجاوزة: الحد[1]، ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: آية ١١] أي:

---

(١) انظر: المفردات (مادة: طغى) ص ٥٢٠.

جاوز الحدود التي يبلغها الماء العادي. وطغيان الإنسان: مجاوزته الحدود. ومجاوزتهم الحدود ككفرهم بربهم، وجعلهم له الشركاء والأولاد.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ المضارع جملته حالية[١]، ومعلوم أن جملة المضارع لا تقترن بالواو، وأن الرابط فيها ضمير، هذا معروف[٢].

والْعَمَهُ في لغة العرب[٣]: هو عمى القلب خاصة، العمى: ـ مقصور بالألف ـ يُطلق على عمى البصر، وعلى عمى البصيرة، كما يأتي في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: آية ٤٦] أما العَمَه ـ بالهاء ـ فلا يطلق إلا على عمى البصيرة خاصة، ومن عَمِيَتْ بصيرته لم ير حقاً من باطل، ولم يميز حسناً من قبيح، ولا نافعاً من ضار والعياذ بالله جل وعلا.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: آية ١١١] قد اقترحوا على النبي ﷺ أن ينزل عليهم الملائكة، كما بينه تعالى في قوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: آية ٢١]، وكقوله عنهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: آية ٩٢]، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: آية ٨] هذه الآيات الدالة على اقتراحهم إتيانه بالملائكة، وقد اقترحوا عليه أن يحيي لهم آباءهم الذين ماتوا [ليسألوهم

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ١١٢).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١/ ٤٨٨).

(٣) انظر: القاموس (مادة: العمه) ص ١٦١٣، الكليات ص ٦٥٢.

عنه](١)، كما بينه تعالى في الجاثية، وأوضح كثرة قولهم له: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: آية ٢٥] أحيوا لنا آباءنا وأسلافنا الذين ماتوا لنسألهم عنكم أنتم على حق أم لا، كذلك قالوا له: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: آية ٩٢] قال الله هنا: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ كما اقترحوا أو ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما اقترحوا اقتراحهم لنزول الملائكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: آية ٢١]، ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ [الإسراء: آية ٩٢]، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: آية ٧]، واقتراحهم لتكليم آبائهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: آية ٣٦]، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: آية ٢٥] يعني: لو أتيناهم بما اقترحوا فنزلنا عليهم الملائكة، والملائكة لو نزلت عليهم، لجاءهم العذاب؛ لأن الله لا يمهلهم بعد نزول العذاب، كما يأتي في قوله: ﴿ما تَنزَّلُ الملائكةُ إلا بالحق﴾ وفي القراءة الأخرى(٢): ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر: آية ٨] أي: لو نزل الملائكة لا يُنظرون بعد ذلك، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٢] أي: حراماً محرماً عليكم أن تؤذونا كما سيأتي؛ ولذا قال هنا: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ كما اقترحوا، وأخبرتهم بأنك نبي الله ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كأن أحيينا لهم قصياً فسألوه، وأخبرهم بأنك نبي الله ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾

---

(١) في الأصل: «ليسألوه عنهم» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٥٩.

قرأه الجمهور ﴿قُبُلًا﴾. وقرأه اثنان من السبعة ﴿قِبَلًا﴾[١]. أما على قراءة: ﴿قِبَلًا﴾ فهو من المعاينة. معنى: ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قِبَلًا﴾ أي: معاينةً وجهاً لوجه من غير مواراة بشيء[٢]. وعلى قراءة ﴿قُبُلًا﴾ ففيه وجهان[٣]: أحدهما: أن القُبُل جمع قبيل، أي: جماعات جماعات. كأن تأتيهم الملائكة جماعات.

وقال بعض العلماء[٤]: ظاهر قوله ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ أن تأتيهم الملائكة قبيلاً، وكل نوع من أنواع الحيوانات قبيلاً قبيلاً، فأنطقها الله على خرق العادة، وكَلَّمَتْهُم، كل هذا لو وقع لم يؤمنوا.

وكان بعض العلماء يقول[٥]: ﴿قُبُلًا﴾ و ﴿قِبَلًا﴾ معناهما واحد؛ لأن القُبل: هو ما تستقبله بوجهك وتعاينه. ومنه قيل لما يستقبله الرجل من وجهه: «قُبُل» ولما خلفه «دُبُر» وعلى هذا القول فـ ﴿قِبَلًا﴾ و ﴿قُبُلًا﴾ معناهما واحد، وعلى القول الثاني: أن (القُبُل) جمع قبيل، والمعروف في فن التصريف أن (الفعيل) إذا كان اسماً يُجمع غالباً على (فُعُل) كَقَذَال وقُذُل، وسرير وسُرُر وما جرى مجرى ذلك[٦].

والمعنى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: جمعنا عليهم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من جميع الأشياء قبيلاً

(١) وهما: نافع وابن عامر. المصدر السابق ص ٢٠١.
(٢) انظر: حجة القراءات ص ٢٦٧، ابن جرير (١٢/٤٨ ـ ٤٩).
(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٦٧، ابن جرير (١٢/٤٨ ـ ٤٩).
(٤) انظر: القرطبي (٧/٦٦).
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣٩٦).

قبيلاً، أي: فوجاً فوجاً، وجماعة جماعة، أو: (قِبَلاً) معاينة، لو فعلنا لهم كل هذا ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ هذه اللام هي التي تسمى (لام الجحود) والفعل المضارع منصوب بـ (أن) بعدها[١]، والمعنى: ما كانوا مُريدين لأن يؤمنوا، أو: ما كانوا مستعدين لأن يؤمنوا ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ التحقيق: أن الاستثناء متصل، خلافاً لمن زعم أنه منفصل[٢].

والمعنى: ما كانوا ليؤمنوا في حالة من الأحوال إلا في حالة أن يشاء الله ذلك؛ لأنهم متعنتون.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو (أنَّ) المفتوحة إنما تكون لسد مصدر، فهي بمعنى اسم بالتأويل، و (لو) حرف شرط لا يدخل إلا على الجمل الفعلية، فكيف دخل هنا على الاسم الذي هو المصدر المنسبك من (أنَّ) وصلتها[٣]؟

وهذا السؤال جوابه معروف، لأن إتيان (أنَّ) بعد (لو) كثير جداً في القرآن العظيم ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [لقمان: آية ٢٧]، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: آية ٦٤] فهو كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في كلام العرب قول لبيد[٤]:

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٧)، الدر المصون (٥/ ١١٤)، الكليات ص ٨٧١، معجم الإعراب والإملاء ص ٣٥٤.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٦)، الدر المصون (٥/ ١١٤).

(٣) انظر: ضياء السالك (١/ ١٥٢)، (٤/ ٦٠ ــ ٦١)، مغني اللبيب (١/ ٢١٣)، المعجم المفصَّل في شواهد النحو الشعرية (٣/ ١١٣٧).

(٤) البيت في اللسان (مادة: لعب) (٣/ ٣٧٢)، مغني اللبيب (١/ ٢١٤)، وشطره الثاني: (أدركه ملاعب الرماح).

لَـو أنَّ حَيـاً مُـدْرِكَ الفَـلاَحِ لَنَـالَـهُ مُـلاَعِـبُ الـرمـاحِ

والجواب عند علماء العربية: أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في محل رفع فاعل فعل محذوف، قالوا: تقديره «ولو ثبت أننا نزلنا إليهم الملائكة» أي: لو ثبت ووقع تنزيلنا الملائكة عليهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إيمانهم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ أي: أكثر الكفار.

قال بعض العلماء: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ أي: أكثر الكفار.

وقال بعض العلماء: ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي: أكثر الجميع من الكفار والمسلمين ﴿ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ أنهم لو أنزلت عليهم الآيات التي اقترحوا لم يؤمنوا.

والقول الأول أظهر؛ لأن التعبير بالمضارع في ﴿ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ يدل على أنهم من عادتهم وشأنهم الجهل وعدم المعرفة بالله. وهذا أليق بالكفار.

/ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ [١٥/أ]
إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام: آية ١١٢].

لما كان كفار مكة، أعداءً للنبي ﷺ، عادوه شدة المعاداة، حتى اضطر إلى أن يخرج مهاجراً إلى هذه المدينة حرسها الله، عن مسقط رأسه الذي وُلد به، لما لقي من أذاهم وهمهم بأن يقتلوه كما يأتي في سورة الأنفال في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: آية ٣٠].

أراد الله أن يُسلي نبيه في هذه الآية الكريمة[١]، أن هذا الذي جرىٰ عليه جرىٰ علىٰ إخوانه وآبائه من الرسل الكرام، كإبراهيم وإسماعيل، يعني: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعلنا لك أعداءً كفرة من قومك، يعادونك، ويهمُّون بقتلك، وإخراجك، وحبسك، كما جعلنا لك أعداء، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوًّا﴾ أي: أعداء، يعني لم يبق نبي إلا جعل الله له أعداءً؛ لأن الحق لا يأتي به أحد إلا كان خصوم الحق أعداءً له؛ ولذا تعرفون في حديث البخاري المشهور: أن خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) لما ذكرت أمر النبي لورقة بن نوفل، وقال للنبي ﷺ: (ليتني جَذَع إذ يخرجك قومك أكون معك، فأنصرك نصراً مُؤَزَّراً) لما قال له النبي ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: «أَوَ مُخرِجِيَّ هم؟» أجابه ورقة بقوله: «لم يأت بهذا الدين أحد إلا عُودي»[٢]. لأن الحق لا يأتي به أحد إلا عاداه خصوم الحق، وهم شياطين الإنس والجن، فهم أعداء للحق، وأعداء لمن قام بالحق، كما قال جل وعلا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٤) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي، الباب: (٣)، حديث رقم: (٣)، (١/ ٢٣)، وأخرجه في مواضع أخر. انظر: الأحاديث (٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: (١٦٠)، (١/ ١٣٩).

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: الآيات ١١٢ ـ ١١٥].

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام: آية ١١٢].

لما بين الله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ ما لاقىٰ النبي ﷺ من أذىٰ المشركين، ومن عداوتهم، وعدم انقيادهم إليه ـ كما قدمنا في قوله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ [الأنعام: الآيات ٣٣ ـ ٣٥] أي: إن استطعت ذلك فافعل ـ بين الله لنبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل نبياً من الأنبياء إلا جعل له أعداء كفرة فجرة من شياطين الإنس والجن، والقصد من هذا تسلية النبي ﷺ؛ لأن ما لُوقي به من العداوة إذا كان قد لاقاه إخوانه الكرام من الرسل الكرام هوّن ذلك الأمر عليه، كما قال له: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: آية ٤٣]، ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ ﴾ [الأنعام: آية ٣٤]، ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: آية ٣٥] ونحو ذلك من الآيات.

ومعنىٰ الآيـة الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: كما جعلنا لك أعداء كفرة من كفار قريش يعادونك، ويناصبونك العداوة، كذلك الجعل ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ ﴾ مـن الأنبيـاء قبلـك ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ جعلناهم عدواً للأنبياء، وقد نص الله على هذا في الفرقان حيث قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: آية ٣١] فبين أن أعداء الأنبياء هم المجرمون، وهم شياطين الإنس والجن.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً وحده: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ بالإدغام. وقرأه نافع وحده برواية ورش وقالون: ﴿جعلنا لكل نبيءٍ عدوّاً﴾ ونافع يقرأ جميع ما في القرآن من النبيء والأنبئاء كله بالهمزة في رواية ورش، وكله بالهمزة في رواية قالون عن نافع، إلا حرفين في سورة الأحزاب[١] [٢].

أما على قراءة نافع: ﴿جعلنا لكل نبيء﴾ فالنبيء مشتق من (النبأ)[٣]، والنبأُ: الخبر الذي له خَطْب وشأن، وإنما قيل للنبيء (نبيء) لأنه يُوحىٰ إليه، والوحي: خبر له خَطب وشأن، فكل نبأ خبر، وليس كل خبرٍ نبأً؛ لأن العرب لا تُطلق النبأ إلا على الخبر الذي له شأن وخَطْب، أما الخبر فتطلقه على الحقير والجليل، فلو قلت: جاءنا نبأ الأمير، وجاءنا نبأ عن الجنود، وعن الأمور العظام. كان هذا من كلام العرب، فلو قلت: جاءنا نبأ عن حمار الحجام. لم يكن هذا من كلام العرب؛ لأن قصة حمار الحجام لا خطب لها ولا شأن، فلا يُعبّر عنها بالنبإ، وإنما يُعبر عنها بالخبر[٤].

---

(١) وهما الآيتان (٥٠، ٥٣).

(٢) انظر: الكشف لمكي (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، الإقناع لابن الباذش (١/ ٤٠٣)، النشر (١/ ٤٠٦)، إتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٩٥)، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: الكشف لمكي (١/ ٢٤٤)، إتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٩٥).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

أما على قراءة الجمهور: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ بالإدغام ففيه وجهان معروفان من التفسير:

أحدهما: أن أصله من (النبأ)، إلا أن الهمزة أُبدلت ياءً، وأُدغمت الياء في الياء. وعليه فالقراءة بالنبيء والنبي كالقراءتين السبعيتين ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] ﴿إنما النسيُّ زيادة في الكفر﴾[1] وعلى هذا التأويل فمعنىٰ قراءة الجمهور كمعنى قراءة نافع.

الوجه الثاني: أن النبي على قراءة الجمهور ليس اشتقاقه من (النبأ) بمعنى الخبر، وإنما هو من (النَّبْوَة) بمعنى الارتفاع[2] لارتفاع شأن النبي، وعلى هذا التفسير فأصل النبي على قراءة الجمهور ليس بمهموز، والأظهر أن أصله مهموز، وأن الهمزة أُبدلت ياءً، بدليل قراءة نافع بالهمزة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ اختلف العلماء في إعراب قوله: ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ فذهب بعض العلماء إلى أن ﴿عَدُوًّا﴾ و ﴿شَيَٰطِينَ﴾ هما المفعولان لـ ﴿جَعَلْنَا﴾. أي: جعلنا ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أعداءً، أي: صيرناهم أعداء لكل نبي. وعلى هذا فتكون ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ هو المفعول الأول، وقوله: ﴿عَدُوًّا﴾ هو المفعول الثاني. و (جعل) هنا هي التي بمعنى: (صيّر).

---

(١) انظر: الكشف لمكي (١/ ٥٠٢)، الإقناع لابن الباذش (١/ ٤٠٤)، النشر (١/ ٤٠٥)، إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٩١).

(٢) انظر: الكشف لمكي (١/ ٢٤٥)، زاد المسير (١/ ٩٠).

الوجه الثاني من الإعراب: أن أحد المفعولين هو الجار والمجرور في قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ والمفعول الثاني هو قوله: ﴿عَدُوًّا﴾ وعليه فيكون إعراب ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أنه بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ هذان الإعرابان في الآية[(١)] و (جعل) هنا بمعنى (صيّر) أي: صيرنا شياطين الإنس والجن أعداءً لكل نبي من الأنبياء.

و (جعل) تأتي في كلام العرب على أربعة أنحاء[(٢)]، ثلاثة منها في القرآن، والرابع موجود في لغة العرب وليس في القرآن:

الأول من الأقسام الأربعة: (جعل) التي بمعنى (اعتقد) وهي تنصب المبتدأ والخبر مفعولين، وهي بمعنىٰ (اعتقد) ومنه قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: آية ١٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿الذين هم عند الرحمن إناثاً﴾[(٣)] المعنى: اعتقدوا الملائكة إناثاً. فـ (جعل) هذه بمعنىٰ (اعتقد) وهي تنصب مفعولين، أصلهما مبتدأ وخبر.

الثاني: (جعل) بمعنى (صيَّر) كهذه التي عندنا ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] أي: صيرنا شياطين الإنس عدواً لكل نبي. وهي أيضاً تنصب المبتدأ والخبر مفعولين.

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ٦٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٧)، الدر المصون (٥/ ١١٥)، أضواء البيان (٢/ ٢٠٨).

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر ص ٢٢٨، بصائر ذوي التمييز (٢/ ٣٨٣)، إصلاح الوجوه والنظائر ص ١٠٦، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (١٠٠) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٩٨.

الثالث: (جعل) بمعنىٰ (خلق) وهي تنصب مفعولاً واحداً، وهي التي تقدمت في أول هذه السورة الكريمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور.

هذه الأقسام الثلاثة من معاني (جعل) أعني كونها بمعنى (اعتقد)، وكونها بمعنى (صيّر)، وكونها بمعنى (خلق)، كلها في القرآن العظيم.

أما معناها الرابع فهو في اللغة، وليس في القرآن، وهو إتيان (جعل) بمعنى شرع في الأمر، كقولهم: جعل فلان يفعل كذا. أي: شرع يفعله. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر(١):

وَقَدْ جَعَلْتُ إذا ما قُمْتُ يُثْقِلُني ثَوْبي فَأَنْهَضُ نَهْضَ الشَّاربِ السَّكِرِ

وهذا معنى قوله أي: وكذلك الجعل الذي جعلنا لك يا نبي الله أعداء من كفار قريش في مكة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجعل ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ قبلك من الأنبياء ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يُقال: إن المراد: أعداء؛ لأنهم شياطين الإنس والجن، وهم جماعة، وأعداء الرسل جماعات لا مفرد، وهنا قال: ﴿عَدُوًّا﴾ بصيغة المفرد، ولم يقل: «وكذلك جعلنا لكل نبي أعداء» بل قال: ﴿عَدُوًّا﴾ وجاء في القرآن إطلاق العدو مراداً به الجمع في آيات متعددة كقوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: أعداء لكم.

---

(١) البيت لعمرو بن أحمر، أو أبي حية، أو الحكم بن عبدل. وهو في الخزانة (٤/٩٤).

وكقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي: هم الأعداء فاحذرهم. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً: أن المقرر في علوم العربية: أن المفرد إذا كان اسم جنس جاز إطلاقه مفرد اللفظ مراداً به الجمع إذا دلت على ذلك قرائن(١).

وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب في الحالات الثلاث، أعني بقولي «في الحالات الثلاث»: أن يكون مُنكَّراً، وأن يكون معرَّفاً بالألف واللام، وأن يكون مضافاً.

فمثال إطلاق الجنس مفرداً مراداً به الجمع منكّراً في القرآن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار، بدليل قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: آية ١٥] وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: آية ٥] يعني أطفالاً. وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: آية ٧٤]، أي: أئمة. وقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: آية ٤] أي: أنفساً. وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: آية ٦] أي: وإن كنتم جنبين أو أجنابا فاطَّهَّروا. وقوله جل وعلا: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] أي: سامرين. وهو كثير في القرآن.

ومن أمثلته في القرآن واللفظ مُعرَّف بالألف واللام قوله جل وعلا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] يعني: الغُرف. بدليل قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: آية ٢٠]، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: آية ٣٧]، وقوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [النور: آية ٣١] يعني: الأطفال ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: آية ٤٥] أي: الأدبار.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝﴾ [الفجر: آية ٢٢] أي: والملائكة؛ لأن الملك الواحد لا يكون صفاً صفاً، وكما دلّ عليه قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وهذا كثير في القرآن. ومن أمثلته واللفظ مضاف: قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: آية ٦٨] أي: أضيافي، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله، وأنشد الشيخ سيبويه في كتابه لإطلاق اسم الجنس مفرداً مراداً به الجمع، أنشد له بيتين، أحدهما قول علقمة بن عَبَدَةَ التميمي(١):

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظَامُها   فَبِيْضٌ وأمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيْبُ

يعني: وأما جلودها فصليبة. وقول الآخر(٢):

كُلُوا في بعض بَطْنِكُم تَعفُّوا   فإن زَمَانَكُم زَمَنٌ خَمِيصُ

يعني: في بعض بطونكم. هذان البيتان أنشدهما سيبويه لهذا المعنى في كتابه، وهذا كثير في كلام العرب.

ومنه واللفظ مُنكّر في كلام العرب: قول عقيل بن عُلّفة المري(٣):

وكان بنو فَزَارة شَرَّ عَمٍ   وكُنتُ لهم كَشَرِّ بني الأَخِيْنَا

يعني: شر أعمام.

ومنه واللفظ مضاف: قول العباس بن مرداس السُّلمي(٤):

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

فَقُلْنَـا أَسْلِمُـوا إِنَّـا أخـوكـم وقد سَلِمَت من الإِحَن الصدورُ

أي: إنا إخوانكم. وقول جرير(١):

إذا آبَـاؤُنَـا وأبـوكَ عُـدُّوا أَبَـانَ المُقْـرِفـات مـن العِـرَابِ

وهو كثير جداً في كلام العرب، ومنه قوله هنا: ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ والعدو: هو الذي يعاديك، ويتربص بك الدوائر، وكلما وجد فرصة لضررك ضَرَّكَ [وشياطين الإنس والجن يعادون الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام)](٢) وهم أعداء النبي ﷺ.

وقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الشياطين: جمع الشيطان، والشيطان في لغة العرب: هو كل عاتٍ متمرد في الطغيان. فكل ما زاد وبرز في جنسه بأن زاد طغيانه، وعصيانه، وعُتُوُّه تسميه العرب: (شيطاناً)، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما. فكل عاتٍ متمرد فهو شيطان(٣)، سواء كان من الإنس، كقوله هنا: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤] أي: عتاتهم المتمردين من رؤساء الكفرة من الإنس. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول جرير(٤):

أيامَ يدعُونَني الشيطانَ من غَزَلِ وكُنَّ يَهْوَيْنَني إذْ كُنْتُ شيطانَا

أي: متمرداً عاتياً. هذا أصل الشيطان في لغة العرب، ومن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة ليتشنى ربط أطراف الكلام وأجزائه بعضها مع بعض.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام، مما سبق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

إطلاق الشيطان على المتمرد العاتي من غير الإنس والجن: حديث النبي ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»[١].

وقد قدمنا في تفسير الاستعاذة: أن علماء العربية اختلفوا في وزن الشيطان بالميزان الصرفي[٢]، فذهب جماعة ــ وهو أظهر القولين اللذين ذكرهما سيبويه، كل منهما في موضع من كتابه ــ أن أصل المادة التي منها الشيطان: هي (الشين والطاء والنون)، فحروفُه الأصلية (شطن) والياء والألف زائدتان، وعليه فوزنه بالميزان الصرفي: (فَيْعَال) ففاء مادته: شين، وعينها: طاء، ولامها: نون، أصلها من (شطن)، ومادة (شطن) تستعملها العرب في البُعد، فكل شيء بعيد تطلق عليه هذا الاسم، تقول العرب: «نوىً شطون». أي: بعيدة. و «بئر شطون». أي: بعيدة القعر، ومنه قول الشاعر[٣]:

نأتْ بسعادَ عنك نوىً شَطُون ... فبانَتْ والفؤادُ بها حزين

وعلى هذا القول فوزن الشيطان بالميزان الصرفي (فَيْعَال) واشتقاق مادته من: (شطن) بمعنى: (بَعُد) ووجه المناسبة: هو بُعده عن رحمة الله (جل وعلا) لما سبق له من الشقاء الأزلي. ومما يؤيد هذا ــ أن الشيطان من مادة (شطن)، وأن وزنه (فَيْعَال) ــ هو ما جاء في شعر أُمية بن أبي الصلت الثقفي[٤]، وهو عربي جاهلي قُح:

أيما شَاطِنٍ عصَاهُ عكاهُ ... ثم يُلقى في السجن والأكبال

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) البيت للنابغة، وقد مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.

(٤) السابق.

فأطلق على الشيطان: شاطن. والشاطن: اسم فاعل (شطن) بلا خلاف.

الوجه الثاني في وزن الشيطان بالميزان الصرفي ـ وقد أشار له أيضاً سيبويه في كتابه ـ: أن أصله من (شاط، يشيط). وعلى هذا: فأصل مادته (شَيَط) فاءُ المادة: شين، وعينها: ياء، ولامها: طاء. وعلى هذا فوزنه بالميزان الصرفي: (فَعْلَان) لا (فَيْعَال) والعرب تقول: «شاط يشيط» إذا هلك. ومنه قول الأعشى ـ ميمون بن قيس[(١)] ـ:

قد نَخْضِبُ العيرَ من مكنونِ فائلِهِ وقد يشيطُ على أَرْمَاحِنَا البطلُ

وعلى هذا القول الأخير، أن وزنه (فَعْلَان) وأنه من (شَاطَ يَشِيط) فمعناه: أنه هالك لا محالة، لما سبق له من الشقاء والعذاب، وعلى هذا فمعنى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: عتاتهم المتمردين في الطغيان، الفائقين جنسهم وأمثالهم في الكفر والمعصية.

وقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ فيه وجهان معروفان من التفسير[(٢)]:

أحدهما: وهو الأظهر الصحيح، وقد جاء في حديث مرفوع عن أبي ذر (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال له: «**يا أبا ذر: تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن**» فقال أبو ذر: أَوَللإنس شياطين؟ فقال ﷺ: «**نعم**». وفي بعض رواياته: «**أن شياطين الإنس شر من شياطين الجن**»[(٣)].

---

(١) السابق.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٧١ ـ ١٣٧٢)، ابن جرير (١٢/ ٥١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

وحديث أبي ذر هذا جاء من طرق متعددة، لا يخلو بعضها من مقال، إلا أن مجموعها يقوي بعضها بعضاً، ويدل على أن الحديث له قوة وأصل. وعلى هذا القول فأعداء الرسل شياطين على نوعين: شياطين من العتاة الكفرة من الإنس، وشياطين عتاة كفرة من الجن، كلهم أعداء الرسل. وهذا القول الصحيح.

وقال بعض العلماء: المراد به أن أعداء الرسل شياطين، إلا أن هؤلاء الشياطين منهم شياطين يضللون الإنس، ومنهم شياطين يضللون الجن. ورُوي هذا عن جماعة من العلماء، وجاء فيه حديث ضعيف.

قال بعض العلماء: إن إبليس يُفَرِّق الشياطين يضللون الجن، ويضللون الإنس، فللإنس شياطين يضللونهم، وللجن شياطين يضللونهم. قالوا: فيجتمعون، فيقول بعضهم لبعض: أنا أضللت صاحبي بكذا وكذا فَضَلّ، فاسْتَعْمِل هذا الذي أضللتُ به صاحبي لتُضِلّ به صاحبك.

هذا وجهٌ في الآية. والقول الأول أظهر، للحديث المذكور.

وقوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ﴿يُوحِي﴾ مضارع (أَوْحَى، يُوحي، إيحاءً)، والوحي في لغة العرب: يطلق على كل شيء يُلقى في سرعة وخفاء[١]. فكل ما ألقيته في سرعة وخفاء فقد أوحيت به. ومن هنا كان الوحي يطلق على الإشارة، ويطلق على الكتابة، ويُطلق على الإلهام، ويطلق على ما يلقيه الإنسان لصاحبه

(١) انظر: المفردات (مادة: وحى) ص ٨٥٨، المصباح المنير (مادة: الوحي) ص ٢٤٩.

سراً في خفية. كل هذا يُسمى وحياً. ومن إطلاق الوحي على الإشارة: قوله في قصة زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: آية ١١] أي: أشار إليهم على أظهر التفسيرين. ويؤيده قوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: آية ٤١] لأن الرمز: الإشارة. فدل على أن الوحي في حقه: الإشارة. ويطلق الوحي على الكتابة، وإطلاق الوحي على الكتابة كثير في كلام العرب جداً، ومنه قول لبيد في معلقته[1]:

فمدافعُ الريَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

فـ (الوُحِيَّ): جمع (وَحْي)، وهو الكتابة في الحجارة. وهذا معروف في كلام العرب بكثرة، ومنه قول عنترة[2]:

كَوَحْيِ الصَّحَائفِ من عَهْدِ كسْرى فَأَهْدَاهَا لأَعْجَمَ طِمْطِمِي

ومنه قول غيلان ذي الرمة[3]:

سوى الأربعِ الدهمِ اللواتي كأنَّها بقية وحيٍ في بطونِ الصحائفِ

أي: كتابة. وكذلك منه قول جرير[4]:

كأن أخا الكِتَاب يخطُّ وحْياً بكافٍ في منازِلِها ولام

أي: خطّا.

---

(١) البيت في شرح القصائد المشهورات (١/ ١٣٠)، اللسان (مادة: وحى) (٣/ ٨٩٢).

(٢) البيت في فتح القدير (٣/ ٣٢٤).

(٣) السابق.

(٤) البيت في ديوانه ص ٣٧٥، وشطره الأول: (كأن أخا اليهود...).

وفي إطلاقه على الإلهام: قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: آية ٦٨] أي: ألهمها.

فمعنى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يلقيه إليه في خفاء وسرعة. ولذلك لمّا جاء عن المختار بن أبي عبيد أنه ادعى النبوة، وأنه يُوحى إليه، وكانت أخته صفية بنت أبي عبيد (رضي الله عنها) زوجة عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما). فقيل لعبد الله بن عمر: إن المختار ادعى أنه يُوحى إليه. قال: صدق!! قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾(1) [الأنعام: آية ١٢١] فذلك وحي الشيطان، وهو ما يلقيه الشيطان إلى قرينه من الوساوس والزخارف ليُضل بها الناس. ذلك هو وحي الشياطين. وهذا معنى قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] ذلك صادق بأن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، كما يأتي في قوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ أي: يلقون إليهم الوساوس والأمور. وكذلك يوحي بعض شياطين الإنس إلى بعض شياطين الجن. وهو على ثلاثة أنحاء؛ لأن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، ويوحون إلى شياطين الجن، كما أن شياطين الإنس يوحون إلى شياطين الإنس. فهذا وحي الشياطين بعضهم لبعض.

وعن مالك بن دينار (رحمه الله) أنه قال: إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن؛ لأن شيطان الجن أتعوذ بالله منه فيذهب عني،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٣٧٩)، وأورده ابن كثير في التفسير (٢/ ١٧٠)، نقلاً عن ابن أبي حاتم، كما أخرج ابن أبي حاتم (٤/١٣٧٩) نحوه عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، وأثر ابن عباس هذا أخرجه ــ أيضاً ــ ابن جرير (٨٦/١٢).

وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعصية عياناً[(١)].

واعلموا أن الله (جل وعلا) قد بين علاج ما يريد أن يضرك من شياطين الإنس والجن في ثلاث آيات من كتابه، فبين (جل وعلا) أن الذين يحاولون ضرك وعداوتك من شياطين الإنس لهم علاج سماوي، وأن أمثالهم من شياطين الجن لهم علاج سماوي، وبين علاج هذا وهذا في ثلاثة مواضع من كتابه، فبين (جل وعلا) أن الذي يريد أن يضرك من الإنس، ويجرك إلى ما يضرك كعمل الشياطين، يعاديك ويترقب لك الضرر أن دواءه الوحيد الذي ينجيك منه هو أن لا تتبعه في شر، وأن تعامله مكان السيئة بالحسنة، فإذا أساء إليك سترت إساءته وقابلتها بالإحسان فيندحر وينكسر، ويكون صديقاً بعد أن كان عدوّاً، وأما شيطان الجن فإنه لا علاج له البتة إلا الاستعاذة بالله (جل وعلا) منه؛ لأن المُلاينة لا تزيده إلا طغياناً، وأنت لا تراه لتنتصف منه، فلا دواء له إلا الاستعاذة بالله (جل وعلا) من شره.

الموضع الأول من هذه المواضع الثلاثة: قوله تعالى في أُخريات سورة الأعراف: في شياطين الإنس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٩٩] أي: عاملهم بالعفو واللين والإعراض عن سيئاتهم. ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠].

الموضع الثاني في سورة (قد أفلح المؤمنون)، وهو قوله في الإنسي المعادي: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: ادفع سيئة

(١) ذكره القرطبي في التفسير (٧/ ٦٨)، وأبو حيان في البحر (٤/ ٢٠٧).

الإنسي بالحسنى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ثم قال في نظيره من شياطين الجن: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٩٦ ـ ٩٨].

الموضع الثالث: في سورة (حم السجدة) ـ سورة فصلت ـ: والله (جل وعلا) بين فيها أن هذا العلاج السماوي لا يعطيه الله لكل أحد، بل لا يعطيه إلا لمن جعل له البخت الأعظم، والنصيب الأوفر عنده؛ ولذا قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: ادفع عداوة شيطان الإنس بالتي هي أحسن، ثم قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: صديق في غاية الصداقة، ثم بين أن هذا لا يُعطى لكل الناس، قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: آية ٣٦].

فعلينا معاشر المؤمنين أن نقدر هذا العلاج السماوي، ونعامل من عادانا وأراد ضرنا من إخواننا المؤمنين بالصفح والإحسان، ومقابلة السيِّىء بالجميل، حتى تنكسر شوكة شؤمه، فيرجع خَجِلاً صديقاً حميماً، ونستعيذ من الشيطان بخالق السماوات والأرض ليكفينا شره.

وهذا الذي نقوله فيمن يعاديك من إخوانك المسلمين، وأمثالهم ممن لهم حرمة، كالكتابي الذي تحت ذمة الإسلام، الذي له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم. أما الكفرة الحربيون فلا مُلاينة معهم، وإنما معهم الشدة والغلظة، كما قال الله لنبيه: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] ومَدَحَ المؤمنين

والنبي ﷺ بأنهم في غاية اللين والرحمة للمؤمنين، وفي غاية الشدة والقسوة على الكفرة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: آية ٢٩] وقال جل وعلا: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٢٩] لأن الشدة في محل اللين هي من الحُمْق والخَرَق، واللين في محل الشدة هو من الضعف والخَوَر، والسداد والحكمة أن تكون الشدة في محل الشدة، واللين في محل اللين.

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] الزخرف: هو كل شيء زينته، وزخرفته، ومَوَّهْتَه فهو زخرف[١]. وإنما سماه ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ لأنهم يزينون لهم المعاصي، ويحببون إليهم الشهوات، ويرغبونهم في لذات الدنيا، وتقديم [العاجل على الآجل][٢]، يزخرفون لهم هذا، ويزينونه لهم، أما شياطين الجن فهم يزينونه بالوساوس. وأما شياطين الإنس فقد يزينونه بالكلام الصريح فيزخرفونه، حتى يوقعوا أصحابهم فيه ـ والعياذ بالله ـ .

وقوله: ﴿غُرُورًاۚ﴾ الغرور: مصدر (غَرَّه، يَغُرُّه، غروراً) إذا خدعه. أي: خديعة ـ والعياذ بالله[٣] ـ . والخديعة هي أن يوقع الشخص الإنسان في الضرر من حيث يريه أنه ينفعه.

وإعراب قوله: ﴿غُرُورًاۚ﴾ فيه ثلاث أوجه من الإعراب[٤]:

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٥٥)، القرطبي (٧/ ٦٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٥)، الدر المصون (٥/ ١١٦).

(٢) في الأصل: «الآجل على العاجل» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ٥٦).

(٤) انظر: القرطبي (٧/ ٦٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٧)، الدر المصون (٥/ ١١٦).

أجودها وأظهرها: أنه مفعول لأجله، والقرينة على ذلك أنه عطف عليه بلام التعليل في قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ [الأنعام: آية ١١٣] أي: زخرف القول لأجل أن يغروهم؛ ولأجل أن تصغىٰ إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ ولأجل أن يرضوه؛ وليقترفوا ما هم مقترفون. فهذا أظهر الأعاريب.

وبعض العلماء يقول: ﴿غُرُورًاۚ﴾ مصدر مُنَكَّر وهو حال. أي: يزينون لهم زخرف القول في حال كونهم غَارِّيْن إياهم.

وبعضهم يقول: هو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأن ذلك الإيحاء غرور. فـ (يوحي) كأنه مُضَمَّن معنى: يغرونهم غروراً.

وأجودها: أنه مفعول من أجله؛ لأنه عطف عليه بلام التعليل، حيث لم تتوفر شروط النصب فيما بعده لاختلاف الفاعل؛ لأن المفعول من أجله لا بد أن يكون فاعله وفاعل عامله واحدًا، كما هو معروف في فن العربية[(١)].

وفي هذه الآية ترتيب غريب عجيب، بالغ في الحسن؛ لأن السبب الأول: هو الغرور والخديعة، فتسبب عن الغرور والخديعة: أن صغت إليه قلوبهم ومالت، ثم تسبب عن صوغ القلوب وميلها: أنهم أحبوه ورضوه، ثم تسبب عن كونهم أحبوه ورضوه: أن اقترفوه؛ ولذا رتبها على هذا الترتيب، قال أولاً: ﴿غُرُورًاۚ﴾ أي: لأجل أن يغروهم. ثم نتج من الغرور: صوغ أفئدتهم إليه. قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ثم تسبب عن كونها صغت إليه: أنها رضيته

(١) انظر: التوضيح والتكميل (١/ ٤٢٠).

وأحبته؛ ولذا قال: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ ثم تسبب عن رضاهم ومحبتهم له أنهم فعلوه واقترفوه؛ ولذا جاء بعدها بقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾. وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ هو معطوف على ﴿غُرُورًا﴾ والمعنى: يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول لأجل الغرور. أي: لأجل أن يغروهم؛ ولأجل أن تصغى. و (تصغىٰ) معناه: تميل. تقول العرب: «صَغَى يَصْغُو»، و «صَغَى يَصْغَى»، و «صَغِيَ يَصْغَى» كلها بمعنى: مال إليه، و «أَصْغَى يُصْغِي إصغاء» أيضاً إذا مال[1]. وهذا معروف في كلام العرب، وفي القرآن العظيم: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: آية ٤] أي: مالت إلى أمر تعلمان أن النبي لا يحبه.

وقوله هنا: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ أي: تميل إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ومادة (صغىٰ) تستعمل واوية اللام ويائية اللام. تقول العرب: «صَغَى يَصْغَى»، و «صَغَى يَصْغُو»، و «صَغِيَ يَصْغَى»، كلها بمعنى: مال. وأصغى الإناء: إذا أماله، ومنه: رجل مُصغى الإناء. إذا كان منقوص الحظ. تقول: «بنو فلان يُصغون إناء فلان». إذا كانوا ينقصونه من حقه؛ لأن الإناء المائل لا يحمل من الملء قدر ما يحمله الإناء المعتدل، فالناس إذا وضعت أوانيها لتُملأ لها فالإناء المُصغى ــ أعني المائل ــ لا يحمل كثيراً، بخلاف الإناء المعتدل فإنه يمتلىء. وهذا معنى معروف في كلام العرب[2]، ومنه قول غسان بن وعلة، ويُروى للنمر بن

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٥٨)، القرطبي (٧/ ٦٩)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٥)، الدر المصون (٥/ ١١٩).

(٢) انظر: المفردات (مادة: صغا) ص ٤٨٥.

تولب العكلي قال[١]:

إذا كنتَ في سَعْد وأمكَ منهم فقيراً فلا يغرركَ خالُك من سعدِ
فإن ابن أُخت القومِ مُصْغَىً إناؤُه إذا لم يُزاحِم خَالَه بأبٍ جَلْدِ

معنى «مُصْغًى إناؤه» أي: مُمال إناؤه؛ لأن الإناء المُمَال لا يمتلىء كما ينبغي، فحقه منقوص. هذا معنى المادة في لغة العرب، والعرب تقول: «أَصْغَى إليه» إذا أمال إليه أذنه. ومنه قولهم: «أَصْغَتِ الناقة إلى من يشد الرحل عليها». إذا صارت تميل إلى من يشد الرحل عليها، كالذي يستمع. ومنه قول غيلان ذي الرمة[٢]:

تصغىْ إذا شدها بالكُورِ جانحةً حتى إذا ما استوَى في غَرْزِها تثبُ

والعرب تستعمله رباعياً، (أصغى إليه إصغاءً) إذا مال إليه، ومنه قول الشاعر[٣]:

إن السَّفيه به عن كل مكرمةٍ زَيْغٌ وفيه إلى التَّشْبيهِ إصْغَاءُ

أي: ميل. والمراد بالتشبيه هنا: التخليط.

ومعنى قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: لتميل إليه، أي: ذلك القول المزخرف المزين الباطل، الذي توحيه شياطين الإنس والجن، تميل إليه ﴿أَفْـِٔدَةُ﴾ أي: قلوب. الأفئدة: جمع الفؤاد، والفؤاد: القلب.

---

(١) وقيل: حسان بن وعلة، وقيل: ضمرة بن ضمرة، وهما في بهجة المجالس لابن عبد البر (١/ ٢٢٥)، الكامل ص ٧١٢، والبيت الأول في اللسان (مادة: كيس) (٣/ ٣٢١)، وأول شطره الثاني في هذين المصدرين: «غريباً».

(٢) البيت في القرطبي (٧/ ٦٩)، الدر المصون (٥/ ١٢٠).

(٣) في المصادر التي وقفت عليها: «ترى السفيه». انظر: ابن جرير (١٢/ ٥٨)، القرطبي (٧/ ٦٩)، البحر (٤/ ٢٠٥)، الدر المصون (٥/ ١٢٠).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ مفعول المشيئة محذوف، والمعنى: لو شاء ربك عدم فعلهم إياه ما فعلوه، فالضمير في ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ يرجع في أظهر الأقوال إلى ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الذي يوحونه إليهم، فزخرف القول الذي يوحونه إليهم لو شاء ربك ما فعلوه. والمعنى: لو شاء الله لكف شياطين الإنس والجن عن غرور الناس، وزخرفة الأقوال لها ليغروها، ولكن له (جل وعلا) في ذلك حكمته البالغة، يفتن خلقه ليظهر المطيع من العاصي.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ذرهم: معناه اتركهم. وهذا الفعل لا يوجد منه في اللغة العربية إلا الأمر والمضارع. تقول العرب: «ذر»، وتقول: «يذر». بالمضارع والأمر. ولا يوجد من مادته فعل ماض، ولا مصدر، ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول، فماضي (ذر) هو قولك: «تَرَكَ». واسم فاعله: تارك، واسم مفعوله: متروك. ومصدره: الترك. ولا يُستعمل منه إلا الأمر والمضارع[1]. ومعنى ﴿ذَرْهُمْ﴾: اتركهم.

﴿وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (ما) منصوبة لأنها مفعول معه. ويحتمل أن تكون مصدرية[2] والمعنى: ذرهم وافتراءهم. وعلى أنها موصولة فالمعنى: اتركهم والذي يفترونه على الله. وصيغة الأمر هنا إنما هي للتهديد، والمعنى: خلهم وافتراءهم فسيجدون غِبَّ ذلك، ويعلمون عاقبته الوخيمة. وقد تقرر في فن الأصول في مباحث

---

(١) انظر: المفردات (مادة: وذر) ص ٨٦٢، القرطبي (٧/ ٦٩)، الدرّ المصون (٢/ ٦٣٧).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ١٧٧).

الأمر[١]، وفي فن المعاني في مباحث الإنشاء[٢]: أن من المعاني التي تأتي لها صيغة (افعل) منها: قصد التهديد والتخويف، كقوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: آية ٣] وقوله: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾[الزمر: آية ٨] وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: آية ٢٩] كل هذه صيغ مراد بها التهديد؛ ولذا قال هنا: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ۝١١٢﴾ والافتراء: هو اختلاق الكذب والعياذ بالله جل وعلا.

وقوله: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٣] أي: ليغروهم، ولتميل إليه، أي: إلى ذلك القول المزخرف المزين الباطل؛ ليكون سبباً للضلال، تميل إليه أفئدة: أي: قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ والعياذ بالله ـ لأن المؤمنين يعرفون زخارف الشيطان ووحيه، فيتباعدون منه ويجتنبونه؛ ولذا قال: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ﴾. إذا مالت قلوبهم إليه يرضوه ويحبوه، ثم إذا رضوه وقعوا في الكفر المزين المزخرف والعياذ بالله.

﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ۝١١٣﴾ [الأنعام: آية ١١٣] الاقتراف في لغة العرب: معناه الاكتساب[٣]. والمعنى: وليكتسبوا ما هم مكتسبون إياه من الكفر والمعاصي ـ عياذاً بالله ـ بسبب ذلك القول المزخرف، الذي صغت إليه قلوبهم ورضوه وأحبوه، ووقعوا بسببه بالكفر والمعاصي. والاقتراف: الاكتساب. وتقول: راح فلان يقترف

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ٢٣، ٣٧)، الإيضاح للقزويني ص ١٤٨.

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ٢٣، ٣٧)، الإيضاح للقزويني ص ١٤٨.

(٣) انظر: المفردات (مادة: قرف) ص ٦٦٧.

لأهله أي يكتسب لهم من الدنيا. والمراد بالاقتراف هنا: اكتساب المعاصي هذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٤].

ذكر بعض أهل العلم[١] أن بعض الكفار طلبوا النبي ﷺ أن يتحاكم معهم إلى بعض الكهان، كما كانت عادة العرب إذا تنازعوا واختلفوا تحاكموا إلى بعض الكهنة ـ والعياذ بالله ـ فبين النبي ﷺ أن ربه أمره أن ينكر كل الإنكار على من يبتغي حَكَماً غير خالق السماوات والأرض الذي هو الحَكَم العدل اللطيف الخبير قال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: آية ١١٤].

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن حروف العطف من (الفاء)، و (الواو)، و (ثم) إذا جاءت بعد همزة استفهام أن فيها وجهين معروفين للعلماء:

أحدهما: أن الهمزة تتعلق بجملة محذوفة، وأن الفاء عاطفة على الجملة المحذوفة، وعلى هذا فالتقدير يدل عليه المقام في

---

(١) سيأتي قريباً إن شاء الله.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة، وسيأتي عند الآية (١١٨) من الأنعام، وغير ذلك من المواضع.

الجملة، وعليه فالتقدير هنا: أَأَضِل عن سبيل الله فأبتغي حَكَماً غير الله؟

الوجه الثاني: أن همزة الاستفهام مُزحْلَقة عن محلها وهي مقدمة على حرف العطف لفظاً وهي بعده في الرتبة؛ لأن حرف الاستفهام له صدارة الكلام، وعليه فتكون الفاء عاطفة للجملة المُصَدَّرَة بالاستفهام على ما قبلها، وهذا معروف. والمعنى: قل لهم يا نبي الله ـ لأن النبي مأمور أن يقول هذا ـ أَأَضِل عن سواء الطريق فأبتغي حَكَماً غير الله؟ هذا لا يمكن أبداً.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ همزة إنكار، وهي تدل على إنكار الشيء وتشنيعه والتباعد منه.

والحَكَم: قال بعض العلماء[١]: الحَكَم عند العرب أفضل من الحاكم؛ لأن الحاكم هو الذي يُوقع الحُكم بين اثنين، قد يكون حُكْم عدل وقد يكون حُكْم جور، وأما الحَكَم لا تكاد العرب تطلقه إلاَّ على الذي ينصف في حُكْمه، والمعنى: لا أطلب حَكَماً غير الله؛ لأن الله هو الحَكَم العدل اللطيف الخبير الذي هو الحاكم وحده (جل وعلا).

وفي إعراب (غير) و (حَكَماً) أوجه معروفة[٢]، قال بعض العلماء: (غير) مفعول مقدم لـ (أبتغي)، والمعنى: أبتغي غير الله. وعليه فقوله: ﴿حَكَمًا﴾ قيل: تمييز، وقيل: إنها حال، أبتغي غير الله في حال كونه حَكَماً. أي: مميزة لـ (غير).

(١) سيأتي قريباً إن شاء الله.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٩)، الدر المصون (٥/ ١٢٣).

وقال بعض العلماء: (حَكَماً) هي مفعول (أبتغي)، أبتغي حَكَماً. و (غير الله) في محل الحال. والمعروف في العربية أن نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً[(١)].

ومعنى الآية الكريمة: أن الله أمر نبيه أن ينكر غاية الإنكار ابتغاء حَكَم غير الله، فلا يُطلب ولا يُبتغى حَكَم إلاَّ خالق السموات والأرض.

وهذه الآية الكريمة تبين لنا أن الحاكم هو خالق هذا الكون، هو الحكم وحده (جل وعلا) لا محاكمة إلاَّ إليه، فالحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، لا حَكَم إلاَّ الله، ولا حُكم إلاَّ لله ـ كما قد بينا هذا مرارا[(٢)] ـ والله (جل وعلا) كما يتنزه أن يكون له ولد، ويتنزه عن أن يكون له شريك، كذلك يتنزه عن أن يكون حاكم معه أو مُشرِّع معه، كما في قوله في عبادته: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: آية ١١٠]، وكما قال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦] فحكمه كعبادته، العبادة له وحده، والحكم له وحده (جل وعلا)؛ لأن الله هو الذي له الحكم، وقد بين (جل وعلا) في سورة المؤمن أن الحكم لا يكون إلاَّ لمن هو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، فلا يكون إلاَّ لمن له سلطة عليا قاهرة حاكمة على كل شيء، وقد أشار الله

(١) انظر: النحو الوافي (٢/ ٤٠٢).

(٢) تحدث الشيخ ـ رحمه الله ـ عن موضوع الحاكمية في مواضع كثيرة من هذه الدروس، تقارب العشرة. وقد تقدم بعضها كما عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

لهذا في سورة المؤمن حيث قال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾، ثم قال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢]، فمن لم يكن بهذه المثابة من العلو والكِبَر فهو ضعيف مخلوق محتاج محكوم عليه مأمور منهي، ليس له الحكم، قد بينا هذا مراراً، وعرَّفنا أنه يجب على سائر الناس أن يعرفوا أن الحكم لله وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر[(١)]: ﴿ولا تُشْرِكْ في حكمه أحداً﴾ بصيغة النهي، فالحكم له (جل وعلا) وحده، فهو الذي يحلل، وهو الذي يحرم، وهو الذي يُشرِّع، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فليس لأحد تشريع مع الله، وقد قدمنا مراراً[(٢)] أن الآيات القرآنية بكثرة دلت دلالة واضحة على أن كل من يُحَكِّم غير حكم الله ويتحاكم إلى غير شرع الله معتقداً أن ذلك بمثابة حكم الله أو أنه خير من حكم الله، كالذين يقولون: إن القرآن لا يصلح لهذا الزمن، ولا ينظم علاقات الدنيا بحسب التطور الحادث!! من يقول هذا ويدعيه فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة بإجماع المسلمين، وشهادة القرآن، وربه الذي جعله ربه هو الذي اتبع تشريعه؛ فإن التشريع ووضع النظام من حقوق الربوبية، وكل من اتبع نظام أحد فقد جعله رباً، والآيات القرآنية الدالة على هذا الموضوع لا تكاد أن تحصر في المصحف، وقد جاء موضحاً

---

(١) تقدمت عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

(٢) سيأتي عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف.

كثيراً في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام ـ السورة العظيمة ـ لأن الله بين فيها أن المشركين لما جاءهم الشيطان وأوحى إلى كفرة قريش وحي الشياطين أن يقولوا للنبي ﷺ: الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ رجل تكون عنده الغنم فتصبح منها شاة ميتة، قالوا: من هو الذي قتل هذه الشاة؟ فقال لهم: الله قتلها. فقالوا: كيف تقولون: إنها ميتة جيفة مستقذرة وهي ذبيحة الله؟ ما ذبحتموه بأيديكم تقولون: حلال مستلذ طيب، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون: جيفة ميتة حرام مستقذر!! فأنتم إذاً أحسن من الله!! فأنزل الله (جل وعلا) في ذلك ـ بإجماع المفسرين(١) ـ هذه الآية الآتية عن قرب من سورة الأنعام، وهي قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١]، يعني: لا تأكلوا الميتة وإن زعموا أنها ذبيحة الله، وأنه ذبحها بيده الكريمة بسكين من ذهب. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل الميتة لفسق، أي: خروج عن طاعة الله. ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١]، إن أطعتم أتباع إبليس في قانون إبليس ونظام إبليس أن الميتة حلال، وأنها ذبيحة الله، وأن ذبيحة الله أحسن من ذبيحتكم، إن اتبعتم في هذا النظام الإبليسي والقانون الشيطاني الذي يبيح الميتة التي حرمها الله على لسان سيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إن اتبعتم في هذا النظام الإبليسي، والتشريع الشيطاني إنكم لمشركون، فالله صرح بأن من اتبع نظام إبليس في تحليل مضغة من لحم هي لحم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

الميتة حرمها الله على لسان نبيه، صرح الله بأنه مشرك حيث قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وهذا شرك ربوبية حيث اتبعتم تشريع الشيطان، والتشريع من خصوص الربوبية، فقد جعلتم الشيطان هو ربكم ــ والعياذ بالله ــ وهؤلاء الذين يتبعون تشريع إبليس وقانون الشيطان ونظامه الذي يشرع على ألسنة أوليائه من الكفرة الفجرة، هم الذين يوبخهم الله يوم القيامة في السورة الكريمة سورة يس، ويبين مصيرهم كما بينه في قوله: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ يعني: ألم أوصكم في دار الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان؟ وعبادة الشيطان الذي عهد إليهم فيها: ألَّا يتبعوا نظامه وقانونه في تحليل المعاصي والكفر ــ والعياذ بالله ــ ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾ واتبعوا تشريعي الذي أنزلته على ألسنة أنبيائي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾. ثم بين للذين اتبعوا طرق الشيطان ونظامه وشرعه فاتبعوا المعاصي والكفر في تحليل الشيطان وتزيينه، قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢﴾ ثم بين المصير النهائي لمتبعي نظام الشيطان وتشريع إبليس بقوله: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: الآيات ٦٠ ــ ٦٥]، ولذا قال نبي الله إبراهيم الخليل ــ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ــ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ ﴾ [مريم: آية ٤٤]، يعني: لا تعبد الشيطان، لا تتبع النظام الذي يزينه لك ويزخرفه من زخرف القول غروراً، من عبادة الأوثان،

والكفر بالله والمعاصي ـ والعياذ بالله ـ وقد قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلاَّ شيطاناً، وعبادتهم للشيطان هي اتباعهم ما يشرع لهم ويحلل لهم ـ والعياذ الله ـ وقد سمى الله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ سمى الذين يطاعون في معصية الله سماهم شركاء لله حيث أُطيعوا في معصيته؛ وذلك في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم شركاء لما قالوا لهم: اقتلوا أولادكم فقتلوهم. وقد ثبت عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١]، قال: يا نبي الله كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال: ألم يُحلوا لهم ما حرم الله ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً[1]. وقد أوضح الله (جل وعلا) في السورة الكريمة ـ سورة النساء ـ أن الذي يدعي الإيمان ويُحكِّم شرعاً غير شرع الله أن دعواه الإيمان إنها بالغة من الكفر والكذب والفجور ما يمكن التعجب منها، وذلك في قوله مُعجِّباً نبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠] يضلهم ضلالاً بعيداً عن طريق الصواب الذي شرَّعها خالق الكون على لسان سيد الخلق، يضلهم ضلالاً بعيداً ليتبعوا تشريع

(١) السابق.

إبليس ونظام الشيطان الذي شرَّعه على ألسنة أوليائه الكفرة الفجرة ـ والعياذ بالله ـ فهذه الآيات وأمثالها تُعْلمنا أن التشريع من خصائص الربوبية، وأن الأمر والنهي والتحليل والتحريم لا يكون إلاَّ لمن له السلطة العليا التي هي فوق كل شيء، وهي سلطة خالق هذا الكون (جل وعلا) فهذا الكون له مدبر هو الذي رفع هذه السماوات ونصب هذه الأرض، ووضع هذه الجبال، وصبغها بألوان مختلفة، وفتح هذه العيون في أوجهكم، وصبغ بعض عيونكم بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وجعل لكم في أجوافكم الكبد والرئة والكليتين والطحال، ووضع كُلاًّ في موضعه، ووكَّلَه بوظيفته البدنية، ولو شُرِّح عضو واحد من أعضاء الإنسان لاطُّلع فيه من غرائب صنع الله وعجائبه على ما يبهر العقول، وهذا الذي فعل في كل واحد منكم فعله فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم لم يحتج أن يبنج أمهاتكم، ولا أن يشق بطونها حتى يعمل هذه العمليات فيكم، بل عملها وبصره نافذ، وعلمه محيط ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝ ﴾ [الزمر: آية ٦] هذا الذي رفع السماوات ودحا الأرضين والبحار، وخلق الآدميين وأودع فيهم من غرائب صنعه وعجائبه(١)، هذا هو الرب، وهو المعبود، وهو المشرع،

(١) تحدث الشيخ ـ رحمه الله ـ في مواضع كثيرة من هذه الدروس عن عجيب صنع الله وخلقه في الإنسان وغيره، انظر على سبيل المثال ما تقدم عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

وهو الحاكم، فالحلال ما أحله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، فمن تمرد على نظامه وجاء بنظام الشيطان وإبليس فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾ [يس: آيتان ٦٣، ٦٤].

قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا حفصاً، وابن عامر: ﴿مُنْزَلٌ من ربك بالحق﴾ بصيغة اسم مفعول (أَنْزَل). وقرأه حفص عن عاصم، وابن عامر ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بصيغة اسم المفعول من (نَزَّله) مُضَعَّفاً[1].

كان كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: احْتكِم معنا إلى علماء اليهود والنصارىٰ، الذين عندهم بقية علم من التوراة والإنجيل، ليخبرونا أأنت رسول حقاً أم لا[2].

وقال بعضهم[3]: قالوا له: نحن وأنت اختلفنا فلنتحاكم إلى بعض الكهنة. فبين الله جل وعلا ـ أَمَرَ نبيه أن يبين ـ أنه لا يبتغي حَكَماً غير الحَكَم العدل، خالق السماوات والأرض، الذي أنزل هذا الكتاب وفصَّله. وأهل الكتاب الذين تريدون أن نتحاكم معكم إليهم يعلمون أن هذا الكتاب حق، وأنه منزّل من الله، وأن النبي ﷺ

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠١.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، ولم أقف على ذلك في غيره.

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، ولم أقف على ذلك في غيره.

رسول حقاً. كما أُخذ عليهم بذلك العهد في كتبهم، كما قدمناه مراراً.

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٦] وقد أخذ الله العهد على جميع الرسل، وعلى أممهم أن من أدرك [منهم][١] النبي ﷺ أن يؤمن به ويصدقه، كما قدمنا بيانه في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: آية ٨١] ومعنى الآية الكريمة: قل لهم يا نبي الله: أأضل عن سواء الطريق ضلالاً بعيداً في الحكومة فأبتغي حَكَماً غير الله؟! لا يكون ذلك مني أبداً.

قال بعض العلماء: والحَكَم: أعظم من الحاكم؛ لأن الحَكَم لا تكاد العرب تطلقه إلا على من هو معروف بالإنصاف والعدالة في حكومته، أما الحاكم فيطلق على كل من يحكم، سواءً حكم بجور أم بحق[٢].

والهمزة للإنكار. أي: لا أبتغي حَكَماً غير الله. وقد قدمنا بعض الكلام في الليلة الماضية على بعض هذه الآية وأوضحنا إعراب (غير) و (حَكَماً).

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي: لا يكون ذلك؛ لأن الهمزة إنكار، بمعنى النفي[٣]. أي: وهو الذي أنزل، الحَكَمُ الذي

---

(١) في الأصل: «أن منهم من أدرك النبي».

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٧٠)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٩)، الدر المصون (٥/ ١٢٣).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٩).

لا أبتغي حَكَماً سواه هو الله الذي أنزل إليكم على لساني هذا الكتاب ـ القرآن العظيم ـ الذي جمع الله فيه ثمرات الكتب المنزلة، وجمع فيه علوم الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿مُفَصَّلاً﴾ أي: موضحاً مبيناً، آياته توضح فيها العقائد، والحلال والحرام، والأمثال، والمواعظ، والآداب، والمكارم؛ لأنه في غاية الإيضاح والتفصيل، والذي فصَّله هو الحكيم الخبير ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: آية ١].

وقوله: ﴿مُفَصَّلاً﴾ حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾[1] أي: أنزله إليكم في حال كونه مُفصَّلاً، أي: موضَّحاً مبيناً فيه العقائد، مُبيناً فيه الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، وما يقرِّب إلى الله، وما يوصل إلى جنته، وما يُبعد من الله ويسخطه، ويوصل إلى ناره، وبين مصير الفريقين، وما أعدَّ لأوليائه، وما أعدَّ لأعدائه، كل هذا موضح مفصل في القرآن، وإن كان في القرآن بعض الآيات المتشابهات، فإنها تُرد إلى المحكمات، ويُعرف إيضاحها بردها إلى المحكمات.

كما قدمنا في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: آية ٧].

يعني: أن المحكمات هن أم الكتاب التي يُرَدُّ إليها ما أشكل من متشابهاته. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: آية ١١٤] التفصيل: ضد الإجمال، وهو الإيضاح

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٠٩)، الدر المصون (٥/ ١٢٣).

والبيان[١]. وقول من قال: ﴿مُفَصَّلاً﴾ أي: بَيْنَه فَتَرَات وفَصْل؛ لأنه ينزل أنجماً مُنَجَّماً. هو غير الصواب، والتحقيق: أن معنى قوله: ﴿مُفَصَّلاً﴾: أنه مُبَيَّن مُوَضَّح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، ومصير أهل الجنة، ومصير أهل النار، وكل شيء يحتاج إليه الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: آية ٨٩] فالقرآن فيه تبيان كل شيء، ولكن الناس [كل منهم][٢] يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفهم، فهو بحر، وكل يغرف منه بحسب ما عنده، كما بينه حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه)، كما ثبت عنه في صحيح البخاري[٣]: أنه لما سأله أبو جحيفة: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أجاب علي (رضي الله عنه): لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة. قال: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر. ومحل الشاهد من الحديث: قول علي (رضي الله عنه): «إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله» فهو يدل على أن من أعطاه الله فهماً في كتاب الله فَهِمَ علوماً خصه الله بها لم تكن عند أحد؛ لأن القرآن يتضمن جميع الأشياء، والناس في فهمه بحسب ما أعطاهم الله من المواهب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلاً﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ معناه: أعطيناهم

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٣٩٦)، (١٢/٦٠)، البحر المحيط (٤/٢٠٩).

(٢) في الأصل: كلهم.

(٣) تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد بالكتاب: جنس الكتاب الصادق بالتوراة والإنجيل، وصيغة الجمع في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ للتعظيم. والمعنى: والإسرائيليون والنصارى الذين أعطيناهم علماً من علم التوراة والإنجيل يعلمون أن هذا القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أن الله نزله عليك في حال كونه متلبساً بالحق؛ لأن كل ما فيه حق، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهىٰ إلا عن شر، ولا يخبر إلا بصدق، إلى غير ذلك من أمور أحقيته.

ومعنى الآية: علماء اليهود والنصارىٰ الذين تطلبون أن نتحاكم إليهم هم يعلمون أن هذا الكتاب الذي أنزله الله عليّ حق، وأني رسول الله، ولأنهم يعلمون أن الكتاب حق [وأنه][1] ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه في محل حال. أي: في حال كونه متلبساً بالحق[2]، والحق: ضد الباطل. ومعناه: أن هذا القرآن لا باطل فيه، كله حق، وكله هدىٰ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: آية ٣٢] كما يأتي إيضاحه في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] وهذا معنى قوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٤] (الفاء) كأنها سببية. أي: يتسبب عن كون هذا القرآن حقاً لا شك فيه ألا يمتري أحدٌ فيه.

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة لربط أجزاء الكلام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢٤).

وقوله: ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ هو جمع الممتري. والممتري: اسم فاعل امترى، يمتري، فهو ممتري: إذا كان شاكّاً[١]. وأصله: (ممتريُ) من المِرْيَة، والمِرْيَة: الشك.

[ومعلوم أن النبيّ ﷺ لم يكن شاكاً فيما أوحى الله إليه، وإنما هذا كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: آية ٢٤] وكقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤] وكقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: آية ١] ولا يخفى أن رسول الله صلوات الله][٢] وسلامه عليه أنه متق لله وأنه لا يطيع منهم آثماً ولا كفوراً، وأنه لا يشرك. وقد قدمنا مرارا[٣] أنه جرت العادة في القرآن أن الله (جل وعلا) يأمر نبيه ﷺ وينهاه ليُشرِّع ذلك الأمر والنهي لأمته على لسانه ﷺ؛ لأنه هو القدوة لهم، المُشَرِّع لهم بقوله، وفعله وتقريره، ومن أكبر الأدلة على ذلك: هو ما قدمنا في آية بني إسرائيل، وهي قوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: آية ٢٣] هذا خطاب للنبي ﷺ على التحقيق؛ لأن كل الخطابات في الآيات له، يقول له الله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ يعني: إن يبلغ عندك والداك الكبر أو أحد والديك ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ومعلوم أن وقت نزولها أن والديه قد ماتا من زمان؛ لأن أباه مات وهو حَمْل، وأمه ماتت وهو (صلوات الله عليه

---

(١) انظر: المفردات (مادة: مرى) ص ٧٦٦.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من هذه السورة.

وسلامه) صغير، فعُرف أنه أَمَرَه بأنه إن بلغ والداه أو أحدهما الكِبَر أن يبرهما، وهما قد ماتا، لا يمكن برهما، عرفنا من ذلك أنه يأمره ليُشرِّع للناس على لسانه ﷺ، وقد بينا مراراً أن من أساليب اللغة العربية المعروفة: / أن الإنسان يُخاطب إنساناً والمراد عنده بالخطاب [١٥/ب] غيره(١)، وذكرنا فيه مراراً المثل المعروف: (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)(٢) وبينا فيما مضى أنه من رَجَز لرجل من بني فزارة، يُسمىٰ: سهل بن مالك، نزل في بيت حارثة بن لأم الطائي، ووجده غائباً، فأكْرَمَتْه أخته، وأُعجب بجمالها، فأراد أن يُعَرِّض لها بالخطبة فخاطب أُخرىٰ غيرها قائلاً:

يا أُختَ خير البدو والحضَارة كيـف تـريـن فـي فتـى فَـزَارة
أصبـح يهـوى حُـرةً مِعْطَـارة إيـاكِ أعنـي واسمعـي يـا جـارة

فَعَلِمَت بنتُ(٣) حارثة بن لأم الطائي أن الخطاب مُوَجَّه إليها وإن كان يخاطب غيرها حيث قال: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

فأجابت قائلة:

إنـي أقـولُ يـا فتـى فَـزَارة لا أبتغـي الـزوجَ ولا الـدعـارَة
ولا فـراق أهـل هـاذي الحـارة فـارحـل إلـى أهلـك بـاستحـارة

والشاهد من هذا الرَّجَز قوله: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة»

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/ ٤٨٥ ــ ٤٨٧، ٥٠٠)، (٣/ ١٩١)، بصائر ذوي التمييز (١/ ١٠٩)، فتح الباري (٣/ ١٧٤، ٣٥٥).

(٢) انظر: المثل ومناسبته في كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم ص ٦٥، وانظر معه في الهامش رقم (٢): مجمع الأمثال للميداني (١/ ٨٠ ــ ٨١).

(٣) هذا من سبق اللسان. وإلا فهي أخته.

فهو أُسلوب عربي، يخاطب الإنسان إنساناً لينقل الخطاب بواسطته إلى غيره، والقرآن بلسان عربي مبين، ولا سيما أن النبي ﷺ هو المشرِّع، فما أُمر به أو نُهي عنه صار مُشَرَّعاً لأمته (صلوات الله وسلامه عليه)؛ ولذا قال هنا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٤] وقالت جماعة من أهل العلم: الخطابات في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: آية ٦٥] كالخطاب العام المُوَجَّه لجميع الناس وإن كان لفظه مفرداً[(١)]، كما هو معروف، كقول طَرَفَة بن العبد[(٢)]:

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

فإن هذا الخطاب لفظه كأنه مفرد، ومعناه عام مُوَجَّه لكل من يصح منه الخطاب. هذا معنى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: لا تكونن يا نبي الله. أي: يا مخاطب ممن يصح منه الخطاب ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: في الشاكين في أن هذا الكتاب منزل من الله. أي: لا تكونن من الممترين في أن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٥]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا الكوفيين الثلاثة، قرأه من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، كلهم قرؤوا: ﴿وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً﴾ بصيغة الجمع، وقرأه الكوفيون، أعني: عاصماً، وحمزة، والكسائي: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٩).

(٢) البيت من معلقته. وهو في شرح القصائد المشهورات (١/ ٩٤).

بالإفراد(١). ومعنى القراءتين واحد؛ لأن (الكلمة) أُضيفت إلى معرفة فتعمُّ، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كلمات ربك. وقد بين الله (جل وعلا) في آيات من كتابه أن كلماته (جل وعلا) لا حصر لها ولا نهاية، كما قال في قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: آية ٢٧] وكقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: آية ١٠٩] والمراد بالتمام هنا: الكمال التام من جميع الجهات، والمعنى: أن كلمات الله ــ ومنها هذا القرآن العظيم ــ أنها بالغة غاية الكمال والتمام.

وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال بعضهم(٢): هما تمييز مُحوَّل عن الفاعل. أي: تم صدقها وعدلها.

وقال بعض العلماء(٣): هما مصدران حالان. أي: تمت في حال كونها صادقة عادلة.

وأعربهما بعض العلماء بأن كليهما ما ناب عن المطلق؛ لأن التمام يتضمن معنى الصدق والعدالة، أي: تمت، أي: صَدَقَت وعَدَلَت. ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ والمعنى أنها كاملة صدقاً في أخبارها، وعدلاً في أحكامها. وقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي: في جميع الأخبار ﴿وَعَدْلًا﴾ أي: في جميع الأحكام. فما في القرآن من أحكام فهو في

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢١٠.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢٤).

(٣) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢٤).

غاية العدالة، والإنصاف، ومراعاة مصالح البشر في دنياهم وأُخراهم، وما فيه من الأخبار فهو صحيح حق مطابق للواقع، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يعني أن ما تُخبرون فيه من الأخبار هو حق، وما تُؤمرون فيه وما تُنهون عنه فيه من الشرائع فهو في غاية العدالة والكمال، وإذا كانت كلمات الله بهذه المثابة من الكمال والصدق في الأخبار، والعدالة في الأحكام، فليس لأحد أن يطلب عنها غيرها، فالله (جل وعلا) كلماته تامة في عدالتها، كل شرعه في غاية العدالة، والإنصاف، والإحكام، وكل أخباره في غاية الصدق؛ ولذا فإن هذا القرآن العظيم جاء للبشرية بخير الدنيا والآخرة، أما في دار الدنيا: فجاء فيه تنظيم علاقاتها، أُمر فيه الفرد بأن يكونْ لبنة صالحة لبناء المجتمع، بأن يكون سخياً باذلاً لما لديه، وأن يكون شجاعاً مضحياً، وأن يكون مخلصاً لأمته لا يغشها، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق. وعَلَّم الإنسان كيف يعاشر أقرب الناس إليه، زوجته، وأبنائه، وأُسرته الأدنين، أمره أن يتحفظ منهم غاية التحفظ لدينه ودنياه؛ لأنهم ربما أوقعوه فيما لا ينبغي، ثم أمره إذا وجد منهم ما لا يحب أن يعاملهم باللين والصفح والمغفرة، كما قال في التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] فمن شدة حكمته يُعَلِّم الإنسان كيف يعاشر أُسرته الأدنين، وأن يحذر من شر امرأته وأولاده؛ لئلا يضيّعوا عليه دينه أو دنياه، ثم إذا عثر منهم علىٰ ما لا ينبغي أمره ألا يعاملهم بالشدة والمكروه؛ ولذا قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ثم قال ـــ إذا رأىٰ منهم ما يكره ـــ: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ وعلم الإنسان

كيف يعاشر مجتمعه، وبين له ما يعاشر به مجتمعه من الوفاء، والإخلاص، والبذل، والسخاء، والتضحية، وأمر الرؤساء أن يلينوا للمرؤوسين، وأن يسعوا في مصالحهم، وينصفوهم، ويلينوا لهم الجانب ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٥٩]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: آية ٨٨] وأمر المرؤوسين أن يُطيعوا الرؤساء، ويعاونوهم على الخير، والسمع والطاعة، لتتحد جهود الجميع إلى ما فيه مصلحة الدنيا والآخرة. وأحاط الجواهر الست التي عليها مدار المظالم والإنصافات في دار الدنيا؛ لأن جميع المظالم والإنصافات في دار الدنيا إذا تأملتها فهي راجعة إلى ستة جواهر، اعتنىٰ دين الإسلام بالإحاطة بها، وهذه الجواهر الست - أعني بها - الدين، والنفس والنسب، والعقل، والمال، والعِرْض. هذه الجواهر الست التي تدور حولها المظالم والإنصافات في الدنيا[1]، وأعظمها: دين الإنسان. فهؤلاء الذين يأتون البلاد متمسكة بدين، ويدسون لهم السموم، والمذاهب الهدامة، والتعاليم الخبيثة، حتى يضيعوا دينهم، ويفصلوا بينهم وبين خالقهم، هذا أكبر عدوان، وأعظم جريمة عرفها التاريخ. كذلك الأنفس بعد ذلك، الذي يظلم إنساناً فيقتله ظلماً، ثم بعد ذلك تكون العقول، كالذي يضيع عقل الإنسان، أو إنسان يضيع عقل نفسه، كالذي يشرب الخمر. فالله (جل وعلا) حمى الدين، كما قال ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه»[2] حماية للدين. وقال الله جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

---

(١) انظر: المستصفى (١/ ٢٨٧)، أضواء البيان (٣/ ٤٤٩).

(٢) البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، حديث رقم: (٦٩٢٢)، (١٢/ ٢٦٧).

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: آية ٣٩] وقد حمىٰ الله الأنفس؛ ولذلك شرع القصاص حياطة لأنفس الناس؛ لأن من أعظم السد دون القتل هو شرعية القصاص، والله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] هذا من مراعاة القرآن لمصالح البشرية في دينها ودنياها؛ لأن القاتل إذا احترق قلبه من الغضب فأخذ الآلة ليقتل تذكر إيقافه للقصاص على الخشبة للقتل فارتعدت فرائصه، وخاف من ذلك الموقف الهائل، فَسَلِم هو من القتل، وسلم من كان يريد أن يقتله، كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] وقد جعل على العقول حمىٰ، حيث حرم شرب كل ما يضر بالعقل من مسكر ونحوه، قال ﷺ: «كل مسكر حرام»[1]

---

(١) هذه الجملة رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:
١ ـ عبد الله بن عمر (رضي الله عنه): أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام برقم: (٢٠٠٣)، (٣/ ١٥٨٧).
٢ ـ أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر، برقم: (٢٤٢)، (١/ ٣٥٤)، وأطرافه في: (٥٥٨٥، ٥٥٨٦)، ومسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم: (٢٠٠١)، (٣/ ١٥٨٥) بلفظ: (كل شراب أسكر فهو حرام).
٣ ـ جابر بن عبد الله (رضي الله عنه): أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام برقم: (٢٠٠٢)، (٣/ ١٥٨٧).
٤ ـ أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه): أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم: (٤٣٤٣، ٤٣٤٤، ٤٣٤٥)، (٨/ ٦٢)، وأطرافه في (٦١٢٤، ٧١٧٢)، وأخرجه مسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، برقم: (١٧٣٣)، (٣/ ١٥٨٦).
=

«مـا أسكـر كثيـره فقليلـه حـرام»(١) . . . .

= ٥ ــ بريدة (رضي الله عنه): أخرجه مسلم في الأشربة، باب النهي عن الانتباذ في المزفت، حديث رقم: (٩٧٧)، (٣/ ١٥٨٥).
وفي البـاب ــ في غيـر الصحيحيـن ــ عـن ابـن مسعـود، وأشـج عبـد القيـس، وأبـي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأبـي وهب الجيشاني، ووائل بن مُحبر، وابن عباس، وأنس، وعبد الله بن عمرو، وقيس بن سعد بن عبادة، وبريدة، وفيروز بن الديلمي، وأبـي سعيد الخدري، وعلي، وعبد الله بن المغفل، وقرة بن إياس، وميمونة (رضي الله عنهم أجمعين).

(١) الحديث جاء عن جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:
١ ــ عائشة: أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٧١، ٧٢، ١٣١)، وأخرجه في كتاب الأشربة كذلك ص ٩٧، وأبو داود في السنن، كتاب الأشربة، باب ما جاء فـي السكـر، بـرقـم: (٣٦٧٠)، (١٠/ ١٥١)، والتـرمـذي فـي السنـن، أبـواب الأشـربـة، بـاب مـا جـاء أن مـا أسكـر كثيـره فقليلـه حـرام، بـرقـم: (١٨٦٦)، (٤/ ٢٩٣)، وابن الجارود في المنتقى كما في الغوث (٣/ ١٥٤)، وأبو يعلى في المسنـد (٧/ ٣٢٢)، والطحـاوي فـي شـرح معـانـي الآثـار (٤/ ٢١٦ ــ ٢١٧)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٧/ ٣٧٩)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٩٤، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٤٩)، (٩/ ١٣٠)، وأخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٥٥)، (٣/ ٩٩٤)، (٤/ ١٦٢٤)، وأخرجه الدارقطني في السنن بألفاظ مختلفة (٤/ ٢٥٤ ــ ٢٥٦)، وأخرجه ابن حزم في المحلى (٧/ ٥٠٠، ٥١٠)، والبيهقي في السنن (٨/ ٢٩٦)، وفي الشعب (١٠/ ١٩١)، والجوزجاني في الأباطيل والمناكير (٢/ ٢٣٨)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠)، والألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٤٠٧)، وصحيح أبـي داود (٢/ ٧٠٣).
٢ ــ زيد بن ثابت: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ١٣٩)، وفي الأوسط (٦/ ٢٩١)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠). =

. . . .

= ٣ ـ سعد بن أبي وقاص: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم: (٣٨١٥)، والنسائي في الكبرى، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٥١١٨، ٥١١٩)، (٣/ ٢١٦) بلفظ: (نهى عن قليل ما أسكر كثيره)، وأخرجه في السنن الصغرى، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٥٦٠٨ ـ ٥٦٠٩)، (٨/ ٣٠١)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٩)، وابن الجارود (٣/ ١٥٤)، وأبو يعلى في المسند (٢/ ٥٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢١٦)، وابن حبان في الصحيح (كما في الإحسان ٧/ ٣٧٥)، والدارقطني (٤/ ٢٥١)، وابن حزم في المحلى (٧/ ٥٠٠)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٩٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وهو في الدراية (٢/ ٢٥٠).

٤ ـ ابن عمر: أخرجه أحمد (٢/ ٩١)، وابن ماجه في السنن، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، برقم: (٣٣٩٢)، (٢/ ١١٢٤)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٩٧)، (٤/ ١٥٥)، (٥/ ١٠٦)، (٨/ ٥٢)، وفي الكبير (١٢/ ٣٨١)، وابن عدي (١/ ٣٨٧)، (٤/ ١٥٨٩)، (٦/ ٢٢٥٤، ٢٣٨٩)، (٧/ ٢٥١٩)، والدارقطني في العلل (٢/ ١٧)، وانظر: السنن له (٤/ ٢٦٢)، وابن حزم في المحلى (٧/ ٥٠٠)، والبيهقي (٨/ ٢٩٦)، وهو في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وفي التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدارية (٢/ ٢٥٠)، وصحيح ابن ماجه (٢/ ٢٤٥).

٥ ـ جابر بن عبد الله: أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٣)، وأخرجه في كتاب الأشربة برقم: (١٤٨)، وأبو داود في السنن، كتاب الأشربة، باب ما جاء في السكر، برقم: (٣٦٦٤)، (١٠/ ١٢١)، والترمذي في السنن، كتاب الأشربة، باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرام، برقم: (١٨٦٥)، (٤/ ٢٩٢)، وقال: وفي الباب عن سعد، وعائشة، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر، وخَوَّات بن جبير، وأخرجه ابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، برقم: (٣٣٩٣)، (٢/ ١١٢٥)، وابن الجارود (٣/ ١٥٣)، والطحاوي في شرح معاني =

. . . .

= الآثار (٤/ ٢١٧)، وابن حبان (كما في الإحسان ٧/ ٣٧٩)، وابن عدي (٣/ ١١٧٧)، وابن حزم في المحلى (٧/ ٥٠٠)، والبيهقي في السنن (٨/ ٢٩٦)، وفي شعب الإيمان (١٠/ ١٩٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٢٥٥)، والبغوي (١١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١)، والجوزجاني في الأباطيل (٢/ ٢٣٧)، والمزي في تهذيب الكمال (٨/ ٣٧٧)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠)، والألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٤٠٦)، صحيح أبي داود (٢/ ٧٠٢)، صحيح الترمذي (٢/ ١٧٠)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٢٤٥).

٦ ـ خَوَّات بن جبير: أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٥)، وفي الأوسط (٢/ ١٧١)، والدارقطني في السنن (٤/ ٢٥٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٦٦)، وابن الأثير في الاستيعاب (١/ ٤٤٥)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدارية (٢/ ٢٥٠).

٧ ـ أنس بن مالك: أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، وأبو يعلى (٧/ ٥٠)، وذكر الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، والهيثمي في المجمع (٥/ ٥٦) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى. . . والبزار باختصار، ورجال أحمد رجال الصحيح». اهـ، وذكره ابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠).

٨ ـ عبد الله بن عمرو: أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧، ٢/ ١٧٩)، والنسائي في الكبرى، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٥١١٧)، (٣/ ٢١٦)، وفي كتاب الأشربة المحظورة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٦٨٢٠)، (٤/ ١٨٦)، وأخرجه في الصغرى في كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره. برقم: (٥٦٠٧)، (٨/ ٣٠٠)، وابن ماجه في السنن، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام. برقم: (٣٣٩٤)، (٢/ ١١٢٥)، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢١٧)، والدارقطني (٤/ ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨)، وابن حزم في المحلى (٧/ ٥٠٠)، والبيهقي

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وتحريم هذه المسكرات كلها محافظة من النظام السماوي على عقول الناس؛ لأن من شرب فضاع عقله ارتكب كل فاحشة وكل سوء ــ والعياذ بالله ــ لأن نور العقل هو النور الذي يميز الإنسان به بين الحسن والقبيح، والنافع والضار، فربما إذا سكر ربما وقع على ابنته، وربما ضرب جاره. وذكر بعضهم في تفسير آية الخمر في سورة المائدة: أنه رأى شائباً شارباً ــ والعياذ بالله ــ يبول في يديه ــ يتخيل للخبيث أنه يتوضأ ــ ويستنشق ويتمضمض بالبول، ويغسل وجهه ولحيته بالبول، ويقول: الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً، والماء طهوراً(١)!! وهو لا يدري أنه يغسل وجهه بالبول والعياذ بالله!! فالخمر أم الخبائث، ولمحافظة دين الإسلام على العقول حرم كل ما يضر بالعقل، فحرم شرب الخمر، وأوجب النبي ﷺ الحد في شربها، كذلك حافظ القرآن العظيم على أنساب الناس، فمنع الزنى صيانة للأنساب، وتطهيراً للفُرش من التقذير؛ لئلا تتقذر فُرش المجتمع، وتختلط أنسابه. ولذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ

= (٨/ ٢٩٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في الدراية (٢/ ٢٥٠)، وفي التلخيص (٤/ ٧٣)، وانظر: صحيح ابن ماجه (٢/ ٢٤٥)، صحيح النسائي (٥١٨٠).

٩ ــ علي بن أبي طالب: أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٥٠)، والبيهقي (٨/ ٢٩٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠) وقال فيه: «إسناده ساقط». اهـ.

١٠ ــ ابن عباس: أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٥٦).

(١) انظر: التفسير الكبير (٦/ ٤٦)، روح المعاني (١/ ١١٤)، تفسير المنار (٢/ ٣٢٧)، وانظر: ما يشبه هذه الحكاية في القرطبي (٣/ ٥٧).

فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: آية ٣٢] وأوجب في الزنا الجلد الرادع ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: آية ٢] كل هذا محافظة على الأنساب ومكارم الأخلاق؛ لئلا تتقذر فرش المجتمع، وتختلط أنسابه. وفي آية محكمة الحكم منسوخة التلاوة: أن الزاني المحصن أنه يرجم؛ لأن جريمته عظمىٰ، والذي اعتاد النساء لا يصبر عنهن، فكان الزجر في جنبه أغلظ؛ لأنه ارتكب أخس جريمة، وتعرض لاختلاط أنساب الناس، وتقذير فرش المجتمع، فَقَتَلَه القرآن أشد قتلة، في آية منسوخة التلاوة، باقية الحكم «الشيخ [والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فهذا الحد](١) يطهر به البدن.

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام. وقد جاء في بعض الروايات زيادة: «بما قضيا من اللذة».
وأصل الخبر المشار فيه لآية الرجم ــ دون لفظها ــ ثابت مشهور، أخرجه الشيخان وغيرهما من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس.
وقد رواه عن الزهري: ابن عيينة، ومعمر، ويونس، ومالك، وصالح بن كيسان، وعقيل، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهُشيم، وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الملك بن أبي بكر، والحسن بن محمد بن الصبَّاح.
وكلهم يرويه من غير هذه الزيادة (والشيخ والشيخة. . .) إلخ، سوى سفيان بن عيينة عند بعض من أخرج الحديث من طريقه؛ كما في ابن أبي شيبة (١٠/ ٧٥، ٧٦)، وابن ماجه، كتاب الحدود، باب الرجم، حديث رقم: (٢٥٥٣)، (٢/ ٨٥٣)، والنسائي في الكبرى، باب: تثبيت الرجم، حديث رقم: (٧١٥٦)، (٤/ ٢٧٣)، والبيهقي (٨/ ٢١١).
وأما رواية البخاري ومسلم للحديث من طريق سفيان فمن دون هذه الزيادة، وهو عند عبد الرزاق في المصنف (٧/ ٣٣٠)، عن ابن عباس من غير طريق =

وهذه نُبَذٌ قليلة يفهم بها الإنسان كيف حافظ دين الإسلام على مصالح البشر، وأحاط أديانهم، وأحاط أنفسهم، وحفظ عقولهم،

= الزهري.

وقد أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، (ما جاء في الرجم)، حديث رقم: (١٥٠١)، ص ٥٩٢، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٦/ ٣٢٣)، وفي الكبرى (٨/ ٢١٢ ــ ٢١٣)، من طريق سعيد بن المسيب ــ منقطعاً ــ عن عمر بهذه الزيادة. مع أن هذه الرواية أخرجها أحمد والترمذي من غير الزيادة السابقة.

والحديث ــ بهذه الزيادة ــ له عدة شواهد وهي:

١ ــ من حديث زيد بن ثابت (رضي الله عنه) عند أحمد (٥/ ١٨٣)، والدارمي (٢/ ١٠٠)، والنسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم: (٧١٤٥)، (٧١٤٨)، (٤/ ٢٧٠ ــ ٢٧١)، والبيهقي (٨/ ٢١١)، والحاكم (٤/ ٣٦٠)، وابن حزم (١١/ ٢٣٥).

٢ ــ من حديث أُبي بن كعب (رضي الله عنه) عند أحمد (٥/ ١٣٢)، وعبد الرزاق (٧/ ٣٢٩ ــ ٣٣٠)، والنسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم: (٧١٥٠)، (٤/ ٢٧١)، والبيهقي في السنن (٨/ ٢١١)، وفي المعرفة (٣/ ٤٧٣)، والضياء في المختارة (٣/ ٣٧٠ ــ ٣٧١)، والطيالسي ص ٧٣، وابن حبان (٦/ ٣٠١ ــ ٣٠٢)، والحاكم (٢/ ٤١٥)، (٤/ ٣٥٩)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٤).

وقال ابن كثير (٣/ ٤٦٥): «هذا إسناد حسن». اهـ، وقال ابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٥): «هذا إسناد صحيح كالشمس لا مغمز فيه». اهـ.

٣ ــ من حديث أبي أمامة (سهل بن حنيف) عن خالته العجماء، عند النسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم: (٧١٤٦)، (٧١٤٧)، (٤/ ٢٧٠ ــ ٢٧١)، والحاكم (٤/ ٣٥٩).

وهذه الزيادة قد صححها بعض أهل العلم وضعفها آخرون. انظر: الإرواء (٨/ ٣)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٨١).

وأنسابهم، وأعراضهم، وأموالهم، كل هذا تشريع رب العالمين، ينظم فيه علاقات الدنيا على أكمل الوجوه، ويهذب أرواحها لتتقي. والقرآن العظيم اعتنى بالإنسان من ناحيتيه: من ناحيته الجسدية، وناحيته الروحية؛ لأن هذا الحيوان المسمىٰ بالإنسان هو مركب من عنصرين مختلفين في الحقيقة أشد الاختلاف، أحدهما: يُسمى الروح. والثاني: يُسمىٰ الجسد. ولا بد لكلٍّ منهما من متطلبات، فللروح متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الجسد، وللجسد متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الروح. فالقرآن العظيم جاء للإنسان بمتطلباته الجسدية، ومتطلباته الروحية، فَنَظَّم له جميع العلاقات التي بها تَقَدُّمه وقوته في الدنيا في جميع الميادين من حيث إنه جسد حيواني، وبين له طرق الصلة بالله لتتهذب روحه على ضوء النور السماوي؛ لأن الروح هي التي لها الأهمية، والمادة إذا طغت وقويت ولم تقدها روح مهذبة كانت ويلة عظمىٰ على البشرية. وأنتم تشاهدون هذا في الدنيا، تشاهدون الكتلة الشرقية والغربية، كلتاهما نجحت غاية النجاح في خدمة الإنسان من حيث إنه جسد حيواني، وأفلستا كل الإفلاس في خدمة الإنسان من ناحيته الروحية، وصارت هذه المادة لم تقدها روح مرباة مهذبة على ضوء تعليم سماوي، فكانت ويلة عظمى على البشرية، وخطراً داهماً يهدد الإنسان، ولذلك تجدونهم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر، والمجلس بعد المجلس ليُدمِّروا القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس خوفاً منها، وكل منهم يبيت في قلق وخوف من القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس!!

كل ذلك إنما جاءهم من إهمالهم الناحية الروحية؛ لأن أرواحهم لو كانت مرباة على ضوء نور سماوي من تعاليم رب

العالمين كان البشر في أمن وطمأنينة أن تلك الروح المهذبة المرباة لا تقود تلك المادة الطاغية، والقوة الهائلة إلا قيادة طبيعية لخير البشرية، وخير الدنيا والآخرة. فإهمال الناحية الروحية هو من أعظم البلايا والويلات.

ونحن دائماً ننبه أبناءنا معاشر المسلمين؛ لأنا نأسف كل الأسف أنهم أضلتهم الحضارة الغربية، فانفصلوا عن تعاليم السماء، وقطعوا الصلة بينهم وبين من فتح أعينهم، ونحن نبين لهم الحقائق، ونضرب لهم الأمثال؛ لأن الحضارة الغربية بالاستقراء التام الذي لا يمكن أن يكابر فيه إلا مكابر جاحد للمحسوس جمعت بين نافع لاَ مِثَال لنفعه، وبين ضار لاَ مِثَال لضره. أما الذي حصلته من النفع: فهو ما حصلت عليه من التقدم المادي، والتقدم التنظيمي في جميع ميادين الحياة، فهذا الأمر كماء المُزْن، والتواكل عنه عجز، وضعف، وتمرد على نظام السماء؛ لأن نظام السماء يأمر المسلم أن يكون قوياً متقدماً في جميع الميادين العملية، سابحاً في جميع الميادين العملية ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] هذا الأمر كأنه يقول: أعدوا ما يكون في المستطاع من القوة كائناً ما كان، مهما تطورت القوة، ومهما بلغت، فالمتواكلون العَجَزَة الذين لا يُعِدون القوة متمردون على نظام السماء، مخالفون لأمر خالق السماوات والأرض ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] ومن نظر في القرآن وجده جامعاً بين الأمرين: الأمر بالقوة والتقدم، مع المحافظة على الآداب الروحية.

ونحن دائماً نضرب بعض الأمثال: اقرؤوا آيتين من سورة النساء: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ﴾ إلى آخر الآيتين. [النساء: الآيتان ١٠٢، ١٠٣] هذا وقت التحام الكفاح المُسَلَّح، والرؤوس تنزل عن الأعناق، وفي هذا الوقت الحَرِج نظام السماء والقرآن العظيم يدبر الخطة العسكرية على أكمل الوجوه، في الوقت الذي يُحافظ فيه على الاتصال بخالق هذا الكون، وتربية الروح بأدب سماوي من آداب السماء، وهو الصلاة في الجماعة، والله (جل وعلا) يقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: آية ٤٥] وقوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ تعليم عسكري سماوي، يأمر به خالق السماوات والأرض بالصمود في الميدان في خطوط النار الأمامية. وفي هذا الوقت الضنك يقول الله (جل وعلا): ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ هكذا فليكن المؤمن، قوياً في جميع الميادين، محافظاً على آدابه الروحية متصلاً بربه صلة روحية؛ لأن الروح المهذبة على ضوء التعليم السماوي تقود المادة والقوة قيادة طبيعية حكيمة، ليس بها ويلة على البشر.

وما أنتجته الحضارة الغربية من المنافع، وما جنته من المضار نضرب له في المناسبات مثلاً يصير به المعقول كالمحسوس، مثال ذلك[1]: هو أن رجلاً بعيداً من العمران، منقطعاً في آخر رمق من الحياة، وجد ماءً عذباً زُلالاً وسماً قاتلاً فتاكاً، فحاله مع هذا السم القاتل والماء العذب الزلال، حاله لا بد أن تكون واحدة من أربع حالات: إما أن يشربهما معاً، وإن شربهما معاً لم ينتفع بالماء الزلال؛ لأن السم الفتاك يقتله، وإن تركهما معاً انقطع عن الركب،

---

(١) انظر: الأضواء (٤/ ٣٨١).

ومات في الطريق. وإن شرب السم وترك الماء فهذا رجل أحمق أهوج لا يبين نافعاً من ضار، وإن كان رجلاً عاقلاً شرب الماء وترك السم.

فالحضارة الغربية فيها ماء عذب زلال، وفيها سم فاتك قتّال. أما ما فيها من الماء الزلال: فهو ما أنتجته من القوة المادية؛ والقوة التنظيمية في جميع ميادين الحياة. وأما ما فيها من السم الفاتك القتَّال: فهو التمرد على نظام السماء، والطغيان والعصيان لخالق هذا الكون (جل وعلا)، والإفلاس الكلي في الآداب الروحية السماوية.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نتنبه لهذا، ونفرق بين السم والماء، فنأخذ من الحضارة الغربية ما استطعنا من قوتها المادية، ونجتنب كل التجنب، ونتباعد كل البعد عن سمها الفتاك القتَّال، مما جنته من التمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون، والانحطاط الخلقي، وضياع الأخلاق والقيم الروحية الإنسانية.

والذي يؤسف كل الأسف أن أغلب ـ إلا من شاء الله ـ من يُحَرِّكُون الدَّفَّات ربما أخذوا منها ضارها من الانحطاط الخلقي؛ والزهد في الإسلام، وقطع الصلة بالله، وعدم صلة السماء بالأرض، في الوقت الذي هم فيه مفلسون كل الإفلاس من مائها الزلال، ومنافعها الدنيوية، فعكسوا القضية والعياذ بالله.

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا   وأقبحَ الكفر والإفلاسَ بالرجلِ(١)

فعلى المسلم أن يفرق بين ما يضر وما ينفع، ويفرق بين ضار الحضارة الغربية ونافعها، ويستفيد من نافعها من القوة المادية

(١) هذا البيت يُنسب لأبـي دلامة الأسدي، وهو في ديوانه ص ٧٧.

والتنظيمية، ويحذر كل الحذر من ضارها من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا إذا فقد صلته بخالق السماء الذي فتح عينيه، وجعل له فيهما النور، وأبدعه من غرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، مَنْ خسر صلته بالله خسر كل شيء، ولم يبق له في الدنيا شيء، فعلى المسلمين أن يحافظوا على تراثهم الروحي، وآدابهم السماوية من طاعة خالق هذا الكون، في الوقت الذي هم فيه ينتفعون بالمادة والقوة.

ونحن نبين لإخواننا مراراً أن دين الإسلام يأمر بالمحافظة على التعاليم السماوية، والآداب الروحية، ويأمر بالتقدم الدنيوي في جميع الميادين، حتى ولو كان ذلك التقدم الدنيوي العقولُ الذي أنتجته: عقولُ كفرة فجرة، وكذلك كان سيد البشر، مربي هذا الخلق، ومبين الطريق له ـ نبينا ﷺ ـ كان كذلك يفعل[1].

أنتم تعلمون في التاريخ أنه لما حاصره الأحزاب في غزوة الخندق ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم المنصوص في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] لما وقع هذا قال له سلمان الفارسي (رضي الله عنه): كنا إذا خفنا خَنْدَقْنا[2]. فالخندق خطة عسكرية، العقولُ التي ابتكرتها عقولُ فارس، وهم مجوس يعبدون النار، فالنبي ﷺ لم يقل: هذه الخطة العسكرية نجسة قذرة؛ لأن

---

(١) انظر: الأضواء (٤/ ٣٨٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٤).

العقول التي ابتكرتها عقول كفرة. لا، بل أخذ الخطة الكافرية التي مبدؤها من الكفار، واستعان بها في دنياه، وهو مُرْضٍ ربه فيما بينه وبين الله، متمسك بالآداب السماوية، والتصفية الروحية.

وكذلك لمَّا تكالبت عليه قوىٰ الشر، واضطُر إلى أن يخرج من وطنه مهاجراً إلى هذه المدينة حرسها الله، والناس كلهم حرب عليه، واضطر إلى أن يدخل هو وصاحبه الصدِّيق (رضي الله عنه) إلى أن يدخلا في غار خوفاً من المشركين، كما بينه الله في سورة براءة ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: آية ٤٠] وجد رجلاً كافراً يُسمىٰ عبد الله بن الأُريقط الدؤلي(١)، ولكنه عنده خبرة دنيوية، فهو خبير دنيوي كافر، يعرف الطرق، والطرق المعهودة بين مكة والمدينة جعل الكفار عليها الرَّصَد والعيون، إذا سلكوها أُخذوا، فصار هذا الخبير الكافر ــ عبد الله بن الأُريقط الدؤلي ــ يعلم طرقاً غير معهودة. ساحَلَ به إلى جهة البحر، وجاء به من طرق غير معهودة، حتى أوصله المدينة بسلام(٢) [فلم يمنعه كفره من الانتفاع بخبرته الدنيوية](٣) على حد قولهم: (اجتنِ الثمار، وألق الخشبة في النار). لم يمنعه من ذلك كونه كافراً، وهو فيما بينه وبين ربه مرضٍ ربه، محافظ على الآداب السماوية، والتهذيب الروحي على ضوء تعليم السماء.

(١) هناك بعض الاختلاف في اسمه. انظر: الفتح (٧/ ٢٣٧ ــ ٢٣٨).

(٢) انظر: البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم: (٣٩٠٥)، (٧/ ٢٣٠).

(٣) وقع في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ همَّ أن يمنع وطء النساء إذا كانت ترضع أولادهن؛ لأن العرب كانوا يظنون أن المرأة إذا أتاها زوجها وهي ترضع أن ذلك الوطء يُضعف عظم ولدها ويضره، هذا كان مشهوراً عند العرب، وكانوا إذا رمىٰ الرجل بالسيف فنَبَا سيفه عن الضريبة، ولم يقطع، قالوا: هذا رجل وُطئت أُمه وهو يَرْضَع، كما قال شاعرهم[1]:

فوارسُ لم يُغالوا في رضاعٍ فتنبُو في أكفهم السيوفُ

فلما أخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم أخذ هذه الخطة الطبية من الكفار[2].

والقصد أن ننبه إخواننا على أن دين الإسلام دين تقدم في الميدان، ودين قوة، ليس دين جمود، ولا دين إخلاد إلى الأرض، بل هو دين كفاح، وقوة، وجهاد، وتقدم في الميدان، وَقَود الدنيا وإضاءتها بالنور إلى ما ينفعها في دنياها ودينها، وقد نظم الله فيه ــ في كتابه ــ علاقات البشر في الدنيا والآخرة، وأوضح لهم ما يَحْيَون به في الدنيا حياةً سعيدةً، ويَحْيَون به الحياة الأبدية بعد الموت حياة سعيدة، فعلى المسلم أن يعلم أن دين الإسلام دين كفاح وتقدم في الميدان، إلا أنه يجب فيه المحافظة على طاعة خالق هذا الكون؛ لأن هذا الكون له خالق هو الذي خلقه، ومَلِكٌ هو الحكم العدل فيه، ولم يترك الناس سدى. أَمَرَهَمُ ونهاهم، فلا بد أن تُطاع أوامره، وتُسلك طرقه التي أمر بها، وكل ذلك ما فيه للإنسانية إلا خير الدنيا

---

(١) البيت في الكامل ص ١٧٧ .

(٢) مسلم، كتاب النكاح، باب: جواز الغَيلة، حديث رقم: (١٤٤٢)، (١٠٦٦/٢).

والآخرة؛ ولذا قال (جل وعلا) هنا: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: آية ١١٥] صدقاً في كل ما تخبر به من الأخبار، وعدلاً في كل ما تحكم به من الأحكام، وكل ما تشرعه للبشرية.

وقوله جل وعلا: ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ قوله: ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ لأن كلمات الله (جل وعلا) هي في غاية الحق، والصدق، والعدالة، لا يمكن أحدًا أن يبدلها ويُحوِّل عدالتها جوراً، أو يُحَوِّل صدقها كذباً، لا يمكن أحدًا أن يفعل ذلك، فهي في غاية العدالة والصدق والكمال، لا يمكن أحداً أن يغيرها فيجعل عدلها جوراً، ولا أن يجعل صدقها كذباً أبداً.

ثم قال: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ هو السميع لكل ما يقوله خلقه، العليم بكل ما يعمله خلقه، وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً(١): أنه جرت العادة في القرآن: أن الله لا يذكر آيات تتضمن أوامر ونواهي إلا وترى بعدها الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم؛ لأنه لا خلاف بين العلماء أنه لا يوجد واعظ أكبر، ولا زاجر أعظم من زاجر المراقبة والعلم. وهو أن يعلم هذا الإنسان المسكين أن خالق السماوات والأرض مطلع عليه، يعلم ما يسر وما يُعلن، حتى ما يخطر في قلبه فهو يعلمه (جل وعلا). إن الله يعلم خطرات القلوب وكيف يجهل خطرات القلوب من هو خالق خطرات القلوب؟! ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: آية ١٤] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق: آية ١٦] فالله يقول لنا في كل موضع من كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم (سميع عليم)، (عليم حكيم)، (سميع بصير) يعلم كذا. لا تكاد تجد ورقة إلا فيها أن الله يعلم ما نفعل، وهذا أكبر واعظ، وأعظم زاجر، وقد ضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا: لو فرضنا أن في هذا البراح من الأرض مَلِكاً عظيماً شديد البأس، عظيم النكال، شديد الغضب إذا انتُهكت حرماته، قتّالاً للرجال، سفاكاً للدماء، وحوله سيافه، والنطع مبسوط، والسيف يقطر دماً، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أيخطر في البال أن أحداً من الحاضرين يُطل بريبة، أو غمزة، أو إشارة عين؟! لا، وكَلَّا، كلهم خاضع الطرف، خاشع الجوارح، أُمنيته السلامة(١).

ونحن نؤكد لكم أن خالق السماوات والأرض أعظم اطلاعاً، وأشد بطشاً، وأفظع فتكاً إذا انتُهكت حرماته جل وعلا.

فعلىٰ الإنسان أن يعلم أن هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم، أن ربه يسمع ما يقول، ويعلم ما ينوي وما يفعل، إذا علم الإنسان هذا فإنه يُحاسِب ويطيع ربه، فلو علم أهل بلد من البلاد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس والدسائس باتوا متأدبين، كَافِّين عن كل ما لا ينبغي. وهذا خالق السماوات والأرض ـ مع عظمته وجلاله ـ يبين لخلقه أنه مطلعٌ عليهم، عالم بما يفعلون، ومع هذا لا يتأدبون، ولا ينزجرون!! فهذه وقاحة عظمىٰ، وجهل كبير؛ ولأجل هذا أنتم تعلمون في آيات من كتاب الله أن الله بين أن الحكمة التي خلق من أجلها الخلائق، والموت والحياة، والسماوات والأرض، هي أن يبتليهم على ألسنة رسله، أيهم يحسن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

العمل ممن لا يحسنه، كما قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] وإذا عرف العاقل أن خالق السماوات والأرض خلقه ليبلوه ويختبره: أهو يحسن العمل أم لا يحسنه؟ وربنا يقول: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: (أيكم أكثر عملا) فلا بد أن يقول الإنسان: يا ليتني عرفت الطريق التي أنجح بها في هذا الاختبار، ويكون عملي حسناً؛ ولأجل هذه المهمة العظمى لَمَّا غفل عنها أصحاب النبي ﷺ جاء جبريل (عليه السلام) في صفة أعرابي في حديثه المشهور الصحيح(١)؛ ليبين لهم هذه المهمة الكبرى، والواعظ الأكبر، ولذا قال للنبي ﷺ في ضمن حديثه المشهور: يا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) أخبرني عن الإحسان. يعني: والإحسان هو الذي خُلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فالنبي ﷺ بين أن الإحسان الذي خُلق الخلق للاختبار فيه لا يمكن أن يحصل إلا بهذا الزاجر الأعظم والواعظ الأكبر (...)(٢).

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. ولاستيفاء النقص راجع كلام الشيخ (رحمه الله) في هذا الموضوع عند تفسير الآيات: (٥٩، ١٢٨) من سورة الأنعام، (٥٦، ٦١) من سورة الأعراف، (٤٣، ٧١) من سورة الأنفال.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام: آية ١١٦ ـ ١٢٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: آية ١١٦].

أخبر الله في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ ليبين على لسانه لأمته أن من أطاع أكثر الناس أضلوه عن سبيل الله، وهذه الآية الكريمة تدل علىٰ أن أكثر الخلق ضالون مضلون، وهو كذلك، كما جاء مبيناً في أحاديث كثيرة صحيحة، وآيات من كتاب الله(١)، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [هود: آية ١٧]، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: آية ١٠٣]، ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الصافات: آية ٧١]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الشعراء: آية ٨] وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن نصيب الجنة من الناس واحدٌ من الألف، وأن نصيب النار تسعةٌ وتسعون وتسعمائة. هذا ثابت في الصحيحين عن

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٨).

النبـي ﷺ. وفي الصحيح: أن الله يقول لآدم يوم القيامة: يا آدم. فيقول آدم: لبيك ربـي وسعديك، والخير كله في يديك. فيقال له: يا آدم أخرج خلق النار. فيقول: يا ربـي، وما خلق النار؟ فيخبره ربه أنه تسعة وتسعون وتسعمائة من كل ألف، ولما ذكر النبـي ﷺ هذا ضاق على الصحابة، وحزنوا من هذا لقلة نصيب أهل الجنة، وكثرة نصيب النار، فبين لهم النبـي ﷺ كثرة الكفرة الفجرة، وأن يأجوج ومأجوج يمكن أن يكون منهم الألف ومنكم الواحد(١)؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] المراد بالأرض على التحقيق: جميع أهل الدنيا الذين هم في الأرض، خلافاً لمن زعم أن المراد بها أرض مكة، وأن المراد أكثر أهلها من رؤساء الكفرة. التحقيق هو التعميم(٢).

وقوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ هو جزاء الشرط، منصوب بحذف النون، مضارع (أضله، يُضِلُّه) إذا جعله ضالاً، وتسبب له في الضلال عن طريق الصواب.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً: أن الضلال ــ أعاذنا الله والمسلمين منه ــ يُطلق في القرآن العظيم وفي اللغة العربية إطلاقات متعددة على ثلاثة أنحاء(٣): يطلق الضلال في اللغة والقرآن على

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم: (٣٣٤٨)، (٦/ ٣٨٢)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث (٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: قوله: (يقول الله يا آدم أخرج بعث النار...)، حديث رقم: (٢٢٢)، (١/ ٢٠١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢١٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

الذهاب عن طريق الحق إلى طريق الباطل، كالذي يذهب عن طريق الهدىٰ إلى طريق الكفر، وعن طريق الجنة إلى طريق النار. وهذا الاستعمال أكثر استعمالات الضلال. ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: آية ٧] وهذا أكثر معناه في القرآن. ويطلق الضلال في القرآن، وفي لغة العرب: على الغيبوبة والاضمحلال. فكل شيء غاب واضمحل وذهب تقول العرب: «ضل». ومنه قول العرب: «ضل السمن في الطعام» إذا طُبخ فيه وغاب فيه، ومنه بهذا المعنى في القرآن: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٤] أي: غاب وبطل واضمحل، ومنه بهذا المعنى في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون: أن عظامهم أكلتها الأرض، فاختلطت بالتراب، فذهبت واضمحلت فيها كما يضمحل السمن في الطعام؛ ومن أجل هذا المعنىٰ كانت العرب تسمي الدفن (إضلالاً)، إذا دفنوا الميت في قبره تقول العرب: «أضلوه». أي: غيبوه في قبره؛ لأن مآله إلى أن تأكله التراب، كما قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] ومن إطلاق العرب الإضلال على الدفن كما ذكرنا، قول المُخَبَّل السعدي يرثي قيس بن عاصم المنقري التميمي(١):

أَضَلَّتْ بنُو قيسِ بن سعدٍ عميدَهَا وفارِسَهَا في الدهرِ قيسَ بن عاصمِ

فقوله: «أضلت» يعني: دفنت عميدها قيس بن عاصم لمّا مات. ومنه بهذا المعنى: قول نابغة ذبيان يرثي النعمان بن

(١) البيت في اللسان (مادة: ضلل) (٢/ ٥٤٦).

الحارث بن أبي شمر الغساني[1]:

فإنْ تحيا لا أملكْ حياتي، وإن تمتْ فما في حياتي بعد موتكَ طائلُ
فـآبَ مُضِلُّوه بعينٍ جَلِيَّةٍ وغُودِر بالجَولان حَزْمٌ ونائلُ

فقوله: «آبَ مُضِلُّوه» يعني: رجع دافنوه في قبره. (بعين جَلِيَّة) أي: بخبر يقين أنه قد مات. ومن هذا المعنى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: آية ١٠]، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنعام: آية ٢٤] أي: غاب واضمحل. وقول الشاعر[2]:

ألم تسألْ فتخبركَ الديارُ عن الحي المُضَلَّلِ أين ساروا

يعني بالحي المضلل: الذين ذهبت بهم الأيام والليالي فماتوا وغابوا.

ويطلق الضلال أيضاً في القرآن، وفي لغة العرب على: الذهاب عن معرفة حقيقة الشيء، فكل من لم يعرف حقيقة شيء تقول العرب: «ضل». وهذا ليس من الضلال في الدين، وإنما هو الذهاب عن علم معرفة الشيء. وهذا الإطلاق كثير في القرآن، ومنه على أصح التفسيرات: قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: آية ٧] أي: ذاهباً عما تعلمه الآن من العلوم والأسرار، فهداك إليه بالوحي؛ لأنه لا يُعلم إلا بالوحي. ومنه بهذا المعنى: قول أولاد يعقوب في حق أبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: آية ٩٥] ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: آية ٨] يعنون: لفي ذهاب عن حقيقة الأمر، حيث فضل ابنين على عشرة بنين، وحيث

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

رجا يوسف أنه حي وهو قد مات، فهو ذاهب عن علم الحقيقة في زعمهم، ومن الضلال بهذا المعنى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: آية ٥٢] أي: لا يخفىٰ عليه علم شيء، ولا تذهب عليه حقيقة شيء، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] أي: تذهب عن علم حقيقة المشهود به بنسيان ونحوه ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ ومن الضلال بهذا المعنى قول الشاعر(١):

وتظـن سلمـى أننـي أبغـي بهـا بـدلاً أراهـا فـي الضـلال تهيـمُ

يعني بالضلال: عدم معرفتها للحقيقة حيث ظنت أنه يبغي بها بدلاً، وهو لا يبغي بها بدلاً. هذه معاني الضلال في القرآن وفي لغة العرب.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ هو من المعنىٰ الأول. أي: يُذْهِبُوك عن طريق الصواب إلى طريق الباطل، عن طريق الهدىٰ إلى طريق الجَور، وعن طريق الجنة إلى طريق النار.

وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] السبيل في لغة العرب: الطريق(٢). وهي تُذَكَّر وتؤنث، فمن تأنيثها في القرآن: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: «هذا سبيلي».

ومن تذكيرها في القرآن: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] فهي من أسماء الأجناس التي تُذَكَّر

---

(١) السابق.

(٢) انظر: المفردات (مادة: سبل) ص ٣٩٥.

وتؤنث[١]. والسبيل: الطريق. وسبيل الله معناه: طريق الله. وأضاف تلك الطريق إلى الله؛ / لأنه هو الذي شرّعها، وبين معالمها، وأمر [١٦/أ] بسلوكها، ووعد من سلكها خير الدنيا والآخرة[٢]. فسبيل الله ـ التي هي الحق، التي أمر بها، وبعث بها أنبياءه ـ من أطاع أكثر من في الأرض أضلوه عنها إلى سبيل الشيطان، وطريق الجور عن الحق. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ثم بين (جل وعلا) أن أكثر أهل الأرض الضالين المضلين لم يكن عندهم مُستند علمي في ضلالهم، وإنما هي ظنون وتخمينات، حيث قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني: ما يتبعون إلا الظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٦] (إن) هنا نافية بمعنىٰ: (ما)[٣]، والمعنى: ما يتبعون شيئاً إلا الظن، وما هم إلا يخرصون.

والخَرْص معناه: الكذب، وأصل الخَرْص: هو الحَزْر والتخمين[٤]، ومنه: «خَرَص ما على النخلة فَحَزَرَه». لأن الكاذب لا يتحرىٰ في الأمور، بل يُخمِّن ويحزُر، ولا يتحرى الحقائق، ومن هنا قيل للكذب خرص. ومنه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: آية ١٠] أي: لُعن الكذَّابون؛ لأن الخارص يظن ويحزُر، ولا يتحرى ويتحقق.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ١١).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ٧١)، الدر المصون (٥/ ١٢٥).

(٤) انظر: المفردات (مادة: خرص) ص ٢٧٩، القرطبي (٧/ ٧١)، البحر المحيط (٤/ ٢١٠)، الدر المصون (٥/ ٦٥).

والظن يُطلق في القرآن وفي لغة العرب يُطلق إطلاقين[١]:

أحدهما: يُطلق (الظن) على الشك المستوي الطرفين. وكون الظن جُل الاعتقاد اصطلاح حادث للأصوليين والفقهاء، أما لغة العرب فتُطلِقُ الظن إطلاقين، وهما في القرآن: أحدهما: إطلاق الظن بمعنى الشك، ومنه قوله هنا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: آية ٢٨] الشك في تقليد آبائهم، وهذا الظن ـ الذي هو شك ـ هو المراد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: آية ٢٨]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: آية ٣٦].

الثاني من إطلاق (الظن) في القرآن: هو إطلاق الظن مراداً به اليقين، وهذا كثير أيضاً في القرآن، وفي كلام العرب، فمن إطلاق الظن مراداً به اليقين في القرآن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٤٩] أي: يوقنون أنهم ملاقو الله ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقـرة: آيـة ٤٦]، ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة: آية ٢٠] أي: أيقنت ذلك ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: آية ٥٣]. ومن إطلاق الظن في لغة العرب بمعنى اليقين: قول دُريد بن الصِّمَّة الجُشَمي حيث قال[٢]:

فقلتُ لهم ظُنُّوا بألْفَي مُدَجَّج ... سَرَاتُهم في الفارسيّ المُسرَّدِ

فقوله: «ظنوا» أي: أيقنوا بألف فارس مُدَجَّج بالسلاح. ومنه بهذا المعنى قول عمْيرَة بن طارق[٣]:

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

بأَنْ تَغْتَزُوا قومي وأَقْعدَ فيكم وأجعلَ مني الظنَّ غيباً مُرَجَّمَا

يعني: أجعل مني اليقين غيباً مُرَجَّماً.

ومن إطلاق (الظن) في كلام العرب بمعنى (الشك) قول طَرَفَة بن العبد[1]:

وأَعْلَمُ علماً ليس بالظنِّ أنَّه إذا ذلَّ مولى المرءِ فهو ذَليْلُ

فقوله: «ليس بالظن»: ليس بالشك. هذه إطلاقات (الظن) في القرآن وفي لغة العرب، والمراد بالظن في الآية: الشك. والمعنى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] أي: ما يتبعون إلا الشك حيث قلدوا آباءهم في أَمْرِ جهل لا يعلمون حقيقته ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾: يكذبون؛ لأن الخرص الحَزْر والتخمين من غير معرفة الحقيقة؛ ومن هنا أُطلق على الكذب[2]، كقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: آية ١٠] أي: لُعن الكذَّابون. وقوله هنا: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٦] أي: ما هم إلا يكذبون في قولهم: إن الميتة حلال؛ لأنها ذبيحة الله، وفي ادعائهم الشركاء والأولاد لله ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ . ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [يونس: آية ٦٦] أي: لا يتبعون شركاء في نفس الأمر، ولا في الحق، إن يتبعون إلا ظناً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٧] لما بين الله لنبيه أن أكثر أهل الأرض ضالون

---

(١) ديوانه ص ٨٤، اللسان (مادة: حظرب)، (١/ ٦٦٦).

(٢) انظر: المفردات (مادة: خرص) ص ٢٧٩.

مضلون، وأنه إن أطاعهم أضلوه، بين إنه (جل وعلا) عالم بمن سبق له الضلال في الأزل، ومن سبق له الهدى في الأزل، فييسر كُلًّا منهما لما خلقه له؛ لأن أصحاب النبي ﷺ لما سألوه وقالوا: هذه الأعمال التي نسعى لها، وجزاؤها، وما نصير إليه، هل هو أمر مُؤتَنَف، أو أمر قُضي، وكُتب، وفُرغ منه؟ فلما بين لهم أن الله قَدَّر ما سيكون، قالوا: أفلا نتكل على الكتاب السابق، ونترك العمل؟ فمن قَدَّر الله له الجنة لا بد أن يدخلها، ومن قدر له النار لا بد أن يدخلها؟ فأخبرهم ﷺ أن كُلًّا مُيَسَّر لما خُلِقَ له[1]. فهو يخلق الخلق ويجبلهم على ما يشاء، من خُبْث وطيْب ثم ييسر كُلًّا لما خلقه له. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: آية ٢]، ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: آية ٧]، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: آية ١٠٥] فهو جل وعلا يخلق الناس وييسر كُلًّا لما خلقه له من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٧] الذي سبق له الهدى في الأزل فييسره للهدى. وأعلم بالمعتدي الضال الذي سبق له الضلال في الأزل فييسره للعسرى ـ والعياذ بالله ـ كما قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: الآيات ٥ ـ ١٠] ولذا قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (أعلم) هنا ليست في معنى صيغة التفضيل، بل هي هنا بمعنى الوصف[2]؛ لأن صيغة التفضيل لا بد أن يشترك فيها المُفضَّل والمُفضَّل عليه في نفس المصدر، ثم يكون المُفضَّل أكثر فيه من المُفضَّل عليه[3]، فإذا قلت: «زيد أعلم

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من هذه السورة.

من عمرو» معناه: أنهما مشتركان في العلم إلا أن هذا يفوق هذا فيه، ولا يجوز أن تقول: «زيد أعلم من الحمار»؛ لأن الحمار لا يشاركه في العلم. وكذلك قوله هنا: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لا يشارك الناس ربهم في علم عواقب الناس، وما يؤولون إليه من ضلال وهدى؛ لأن ذلك لا يعلمه إلا الله؛ ولذلك صيغة التفضيل هنا بمعنى الوصف، وقد تقرر في علوم العربية: أن صيغة التفضيل تأتي بمعنى الوصف ليس مراداً بها التفضيل، كقولهم[١]: «الناقص والأشج أعدلا بني أُمية»[٢] أي: هما العادلان منهم. وهذا موجود في كلام العرب، ومنه قول الفرزدق[٣]:

إنَّ الـذي رفَـعَ السمـاءَ بنـى لنـا بيتـاً دعـائِمـهُ أَعـزُّ وأَطْـوَلُ

يعني: دعائمه عزيزة طويلة. وقول الشَّنْفَرَى[٤]:

وإنْ مُدَّتِ الأيدي إلى الزَّادِ لم أكنْ بأعجلهم إذْ أجْشَعُ القومِ أعجلُ

يعني: لم أكن أنا هو العَجِلُ منهم. وكذلك هنا: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ هو العالم مَنْ يضل عن سبيله.

واختلف علماء العربية في إعراب (مَنْ) في قوله هنا: ﴿مَن

---

(١) انظر: الدر المصون (٢/ ١٠)، ضياء السالك (٣/ ١٢٠)، التوضيح والتكميل (٢/ ١٣٣).

(٢) الناقص: هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، سُمي بذلك لنقصه أرزاق الجند. والأشج: هو عمر بن عبد العزيز، سُمي بذلك لشجة كانت في وجهه من ضرب دابة. انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ١٣٣).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من هذه السورة.

(٤) البيت في شرح الأشموني (٢/ ٥٥)، التوضيح والتكميل (٢/ ١٣٣).

يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١] فعلماء الكوفة يقولون: إنها مفعول به لـ (أعلم)؛ لأنهم يجيزون عمل صيغة التفضيل في نصبها للمفعول، هذا قول الكوفيين. وخالفهم عامة نحاة البصرة زاعمين أن صيغة التفضيل لا يمكن أن تنصب المفعول؛ ولذا اختلفوا في إعراب بيت العباس بن مرداس السُّلمي المشهور حيث قال[٢]:

فلم أرَ مثلَ الحيِّ حياً مُصَبَّحَا ... ولا مثلنا يومَ التقينا فَوَارِسَا
أكــرَّ وأَحمــىٰ للحقيقــةِ منهــم ... وأَضْربَ منا بالسيوفِ القَوَانِسَا

فالكوفيون يقولون: (القوانس) مفعول به لـ (أَضْرَب) التي هي صيغة التفضيل. والبصريون يقولون: لا يمكن أن تُنْصَب بصيغة التفضيل فهي منصوبة بفعل محذوف دلت عليه صيغة التفضيل، أي: نضرب القوانس. وعلى قول البصريين فيكون قوله: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ منصوب بفعل محذوف دلت عليه صيغة التفضيل، أي: يعلم من ضل عن سبيله. وقال قوم: هو منصوب بنزع الخافض؛ لأن الأصل: (هو أعلم بمن ضل عن سبيله) فحُذف الباء ونُصِب بنزع الخافض، قالوا: ويدل لهذا قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ فجاء بالباء في قوله: ﴿بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وقوله في أُخريات النحل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النحل: آية ١٢٥] فجاء بالباء. وهذا الإعراب ضعفه الكوفيون؛ لأن النصب بنزع الخافض لا يكون إلا بعامل يعمل، وصيغة التفضيل لا تعمل في المفعول ونحوه. هذا قول العلماء.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٦٥)، القرطبي (٧/ ٧٢)، البحر المحيط (٤/ ٢١٠)، الدر المصون (٥/ ١٢٦).

(٢) البيتان في الخزانة (٣/ ٥١٧)، البحر المحيط (٤/ ٢١٠)، الدر المصون (١/ ٢٦١)، الأشموني (٢/ ٦٠).

والذي يظهر لنا في القواعد العربية: أن هذه المسألة الصواب فيها مع الكوفيين لا مع البصريين، وأن صيغة التفضيل تنصب المفعول، وأنه لا مانع من ذلك؛ لأن صيغة التفضيل مستندة على مصدر، فقوله: «وأَضربَ منا بالسيوفِ القَوَانِسَا» في معنى قولك: يَزِيدُ ضَرْبُنَا القَوانِسَ على غيرنا. وهذا لا مانع من عمله، فالمصدر الكامن فيها؛ القياس أن يعمل عمل فِعْلِه. وخالف البصريون في ذلك، وهذا معنى كلام علماء العربية في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: آية ١١٧] عالم بالضالين في الأزل وهو ميسرهم لما خلقهم له، وعالم بالمهتدين في الأزل وميسرهم لما خلقهم له، وهو يعلم أنك يا نبي الله ومن اتبعك من المهتدين، وأن من خالفك من الضالين المعتدين. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هذه الآيات كلها إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١١٨ ـ ١٢٠] نزلت لما قال الكفار للنبي ﷺ: كيف تأكلون ما قتلتموه بأيديكم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنون الميتة. ذبيحتكم التي قتلتموها تأكلونها، وتقولون: هي طيبة حلال مُسْتَلَذَّة، والتي قتلها الله تقولون: هي ميتة جيفة قذرة حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! فجاءت هذه الآيات رداً عليهم(١). فقال لهم الله (جل وعلا):

(١) أبو داود، كتاب الضحايا باب في ذبائح أهل الكتاب، حديث رقم: (٢٨٠١)، (١٣/٨)، وانظر: حديث رقم: (٢٨٠٢)، والترمذي كتاب التفسير، باب: ومن سورة الأنعام، حديث رقم: (٣٠٦٩)، (٢٦٣/٥)، والنسائي، كتاب الضحايا، باب تأويل قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، =

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٨] لأن المسلمين إذا أرادوا أن يذبحوا سمّوا الله جل وعلا على ذبائحهم عند الذبح، وكذلك إذا أرادوا أن يعقروا الوحش سمّوا عند ذلك، وإذا أرادوا أن يرسلوا جوارحهم كالكلاب، والصقور، والبزاة، أرسلوها وسموا الله على الصيد عند إرسالها؛ ولذا قال لهم الله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

قوله: ﴿كُلُوا۟﴾ أصله (اؤكلوا) لأنه مضارع (أكل)(١) ومعروف في لغة العرب ثلاثة أفعال من فعل الأمر هي الأمر من (أَخَذ)، و (أَمَر)، و (أَكَل) كلها يجوز حذف الهمزة في الأمر(٢)، فتقول في (أَخَذ) في أَمْرِها: (خُذ)(٣)، وفي أَمْرِ (أَكَل): كُل، وفي أَمْرِ (أَمَرَ) مُر(٤). أما (أَمَر) إذا كان قبلها حرف عطف فالأجود ردها إلى الأصل(٥)، كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: آية ١٣٢]

= حديث رقم: (٤٤٣٧)، (٧/ ٢٣٧)، من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، وانظر: صحيح الترمذي رقم: (٢٤٥٤)، وصحيح أبي داود رقم: (٢٤٤٤)، (٢٤٤٥)، وصحيح النسائي رقم: (٤١٣٤).

وقد أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس (رضي الله عنهما) كما أخرجه عن غيره مرسلاً. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٧٨، ١٣٨٠)، وابن جرير (١٢/ ٧٨) فما بعدها، أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٣، وراجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٢١.

(٢) انظر: شرح الكافية (٤/ ٢١٦٦)، الدر المصون (١/ ٢٨٠)، التوضيح والتكميل (٢/ ٤٧٨).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣١٥.

(٤) انظر: شرح الكافية الشافية (٤/ ٢١٦٦).

(٥) المصدر السابق (٤/ ٢١٦٧)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٢٣، ٣١٥.

وأما إذا كان ليس قبلها حرف عطف فإن الهمزة تُحذف، كقوله ﷺ: «مره فليراجعها»[(١)]، «مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم لعشر»[(٢)]. أما (أَخَذ) و (أكل) فالأجود فيهما حذف الهمزة في الأمر، تقول: «خُذ» ولا تقول: «أُخذ» وتقول: «كُل» ولا تقول: «ءُأكل» وردُّهُما إلى أصلهما لغة قليلة.

---

(١) البخاري في الطلاق، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ . . .﴾ الآية، حديث رقم: (٥٢٥١، ٥٣٣٣)، (٩/ ٣٤٥)، ومسلم في الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، حديث رقم: (١٤٧١)، (٢/ ١٠٩٣).

(٢) ورد هذا الحديث مرفوعاً عن ثلاثة من الصحابة، وهم:

١ ــ سبرة بن معبد (رضي الله عنه) عند ابن أبي شيبة (١/ ٣٤٧)، والدارمي (١/ ٢٧٣)، وأبي داود في الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم: (٤٩٠)، (١/ ١٦١)، والترمذي في الصلاة، باب: ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة، حديث رقم: (٤٠٧)، (٢/ ٢٥٩)، وابن خزيمة (٢/ ١٠٢)، والدارقطني (١/ ٢٣٠)، والبيهقي (٢/ ١٤)، (٣/ ٨٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٢٣١)، وصحيح ابن خزيمة رقم: (١٠٠٢)، وانظر: صحيح أبي داود رقم: (٤٦٥)، وصحيح الترمذي رقم: (٣٣٤)، ومشكاة المصابيح رقم: (٥٧٢)، والإرواء (١/ ٢٦٦).

٢ ــ عبد الله بن عمرو (رضي الله عنه). عند أحمد (٢/ ١٨٠، ١٨٧)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٤٧)، وأبي داود في الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم: (٤٩١)، (١/ ١٦٢)، والدارقطني (١/ ٢٣٠)، والحاكم (١/ ١٩٧)، والبيهقي (٣/ ٨٤)، وانظر: صحيح أبي داود رقم: (٤٦٦)، والمشكاة رقم: (٥٧٢)، والإرواء (١/ ٢٦٦).

٣ ــ أنس بن مالك (رضي الله عنه) عند الدارقطني (١/ ٢٣١)، وفي سنده داود بن المُحبَّر، قال أحمد: لا يدري ما الحديث. اهـ، وقال ابن المديني: ذهب حديثه. اهـ، وقال الدارقطني: متروك. اهـ الميزان (٢/ ٢٠).

والأمر في قوله هنا: ﴿فَكُلُوا﴾ أمر إباحة، وقد تقرر في فن الأصول أن من صيغ (افْعَل) التي تأتي لها: الإباحة[١]. يعني: فكلوا. والفاء هنا مُسَبِّبَة عما قبلها، إن زعموا أن الميتة ذبيحة الله، وأنها خير من ذبيحتكم؛ فكلوا مما ذكيتم وذكرتم اسم الله عليه عند الذكاة، ولا تأكلوا من الميتة، ومما ذبحه الكفار وذكروا عليه اسم الأصنام. كما يأتي في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فإنه قابل بين الأمر والنهي، أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٨] ونهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

ومعنى ذكر اسم الله عليه: هو أن يُسمَّى على الذبيحة عند الذكاة، أو على العقيرة عند الاصطياد، أو على الجارح إذا أُرسل إلى الصيد، كل هذا يُسمى الله عليه ويُؤكل منه، وسيأتي ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وسنتكلم عليه هناك، وحاصله أن للعلماء فيه ثلاثة مذاهب[٢]:

أحدها: أن كل ما ذبحه مسلم ولم يذكر اسم الله عليه، أو صاده ولم يذكر اسم الله عليه، أو أرسل عليه جارحه من كلبه أو صقره أو بازه ولم يسمّ الله عليه؛ أنه لا يُؤكل، سواء ترك التسمية عمداً أو نسياناً. وهذا قال به طائفة قليلة في الذبيحة، وقال به جماعة في الصيد، وهو رواية قوية عن أحمد بن حنبل. وجمهور العلماء

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ١٨)، مذكرة الأصول ص ١٨٩.

(٢) انظر: المجموع (٩/ ١٠٢)، المغني (١٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩١)، المحلى (٧/ ٤١٢ ـ ٤١٤)، القرطبي (٧/ ٧٥)، ابن كثير (٢/ ١٦٩).

على أنه إن ترك التسمية نسياناً فالذبيحة تُؤكل؛ لأنه ما تركها إلا نسياناً، والنسيان معفو عنه، وإن تركها عمداً فلا تُؤكل عند جماهير العلماء، خلافاً للإمام الشافعي وعامة أصحابه في مشهور مذهبه أنه إن ترك التسمية وهو مسلم أُكلت ذبيحته مطلقاً، سواء تركها عمداً أو نسياناً؛ لأن الشافعي يفسر قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بما أُهل به لغير الله، أما المسلم عنده فذبيحته حلال سواء سمَّى الله أو لم يسمِّ، سواء تركها عمداً أو نسياناً. وسيأتي تفاصيل هذا في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقوله هنا: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: مما ذكيتم وذكرتم اسم الله عليه. والآية على التحقيق في الذكاة، خلافاً لبعض العلماء القائل: هي عامة. أي: كل طعام: من خبز، أو لحم، أو غيره، أو فاكهة تسمي الله عليه وأن تأكل منه[1]. وعلى هذا فلا ينبغي للإنسان أن يأكل من شيء كائناً ما كان إلا إذا سمى الله عليه. والتحقيق أنها في الذكاة كما يقتضيه السياق. وهذا معنى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هذه (إنْ) الشرطية هي كثيرة في القرآن وفي السنة، وفيها إشكال معروف كثير؛ لأنهم يؤمنون قطعاً. وقد تقرر في فن المعاني: أن تعليق فعل الشرط بجزاء الشرط بأداة الشرط التي هي (إنْ) لا تكون إلا فيما لا يُتحقق وقوع الشرط فيه[2]، فلو قلت لعبدك وهو عارف باللغة العربية: «إن جاءك زيد فأعطه درهماً». هو يعلم أن معنى كلامك: أن زيداً قد يأتي وقد لا يأتي؛ لأن (إنْ) لا تدل على تحقيق وقوع الشرط، بل قد

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٦٧)، القرطبي (٧/ ٧٢).

(٢) انظر: الكليات ص ٦٩، ٧٠، ٧١، ١٩٣، ٨٣٩، جواهر البلاغة ص ١٣٣.

يقع الشرط فيقع الجزاء، وقد لا يقع الشرط فلا يقع الجزاء. وقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١١٨﴾ يُفهم من «إنْ» الشرطية أنهم قد يكونون مؤمنين وقد يكونون غير مؤمنين، وهم مؤمنون حقاً قطعاً، فَمِن هذا جاء الإشكال في (إنْ) هذه، وهذا كثير في القرآن، كقوله للمؤمنين: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٩١﴾ وكقول النبي ﷺ في حديث زيارة القبور: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون»[1] وهم لاحقون بهم قطعاً يقيناً. وكقوله جل وعلا: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: آية ٢٧] وهم داخلوه قطعاً بلا شك، فما وجه التعليق بأداة الشرط التي هي (إنْ) التي تدل على أن جزاء الشرط قد يقع، وقد لا يقع، مع أنها أمور مُحققة؟ هذا وجه الإشكال. وهذه مسألة عربية معروفة، وهي من مسائل العربية الكبار المشهورة التي اختلف فيها علماء البصرة وعلماء الكوفة من النحاة[2]، فذهب عامة علماء الكوفة إلى أن (إنْ) في جميع هذه الآيات بمعنى (إذْ) التعليلية، قالوا: وتأتي (إنْ) بمعنى (إذْ) التعليلية،

---

(١) ورد في هذا المعنى ثلاثة أحاديث:

الأول: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند مسلم في الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، حديث رقم: (٢٤٩)، (١/ ٢١٨)، وهو اللفظ المطابق لما ذكر الشيخ (رحمه الله).

الثاني: حديث عائشة (رضي الله عنها) عند مسلم في الجنائز، باب ما يُقال عند دخول المقابر، حديث رقم: (٩٧٤)، (١/ ٦٦٩).

الثالث: حديث بريدة (رضي الله عنه) عند مسلم في الجنائز، باب ما يُقال عند دخول المقابر، حديث رقم: (٩٧٥)، (١/ ٦٧١).

(٢) انظر: مغني اللبيب (١/ ٢٤)، الدر المصون (٤/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، خزانة الأدب (٣/ ٦٥٥).

وعليه ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم﴾ أي: لأجل كونكم مؤمنين بآياتي. قال الكوفيون: ومن هذا المعنى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝﴾ [الأعلى: آية ٩] قالوا معناها: إذْ نفعت الذكرى ذَكِّر؛ لأجل أن الذكرى تنفع. قالوا: وهذا أسلوب عربي معروف. واستدلوا له من أشعار العرب بقول الفرزدق ـ وهو عربي فصيح قُح[1] ـ :

أَتَغْضَبُ إنْ أُذْنا قُتيبة حُزّتا ... جِهاراً ولم تَغْضَبْ لقَتْل ابن خَازمِ

قالوا: (إن) هنا بمعنى (إذ)، أتغضب إذْ حُزَّت أُذنا قتيبة. ولذا كله أَجْرَوه على سَنَن واحد. «وإنا إن شاء الله» قالوا: وإنا لاحقون إن شاء الله ذلك. ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] أي: إن شاء الله ذلك. وهذا قول الكوفيين. وأما البصريون ففصلوا بين الأمرين، قالوا: أما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ فهي أداة شرط جيء بها للتهييج والإلهاب؛ لأن من عادة العرب أن يُهَيِّجُوا المُخَاطب، تقول للرجل: «إن كُنتَ ابن الكرام، ابن فلان وفلان، فافعل لي كذا». وليس مقصودك تعليق الشرط بالجزاء، بل مقصودك تهييجه وبعثه للفعل، وهذا أسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول أحد أولاد الخنساء الشاعرة[2]:

لسْتُ لخنسَاءَ ولا للأَخْزَمِ ... ولا لعمرو ذي السَّنَاءِ الأقدمِ

إن لم أَرِدْ في الجيش جيش الأعجمي ... ماضٍ على الهَولِ خِضَم خِضْرِمِ

---

(١) البيت في الكتاب لسيبويه (٣/ ١٦١)، مغني اللبيب (١/ ٢٤)، خزانة الأدب (٣/ ٦٥٥)، الدر المصون (٤/ ١٩٣).

(٢) البيتان في الاستيعاب (٤/ ٢٩٧)، الإصابة (٤/ ٢٨٨).

يقول: لست لأبـي ولا لأمي إن لم أَرِد في الجيش. ليس يعني التعليق، وإنما يعني تحريض نفسه.

قالوا: قوله: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] قال علماء البصرة: المراد بالتقييد بالمشيئة في هذا الأمر المُحَقَّق: هو تعليم الخلق ألا يتكلموا عن أمر مستقبل إلا معلقين بمشيئة الله. وإنما جيء بالأمر المُحَقَّق لتوكيد ذلك، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتحدث عن مستقبل أنه سيقع أو سيفعل إلا إذا قيد بمشيئة الله، كما قال الله لنبيه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: الآيتان ٢٣، ٢٤] وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

و (الآيات) جمع تصحيح مؤنث، مفرده (آية)، وقد بينا[1] أن الآية أصلها عند المحققين من علماء التصريف أن أصلها (أَيَيَة) اجتمع فيها موجبا إعلال، فوقع الإعلال في الحرف الأول، على خلاف القاعدة الكثيرة المُطَّرِدَة، وهو جائز، فلو جرى على الأغلب لكان الإعلال في الحرف الأخير. وقيل: (أَيَاه) ولكن الإعلال وقع هنا في الحرف الأول، فصار (آية) ووزنه بالميزان الصرفي: (فَعَلَة) وحروفه: فاؤه همزة، وعينه ولامه كلاهما ياء. هذا أصل وزنها وصرفها.

وهي في لغة العرب ـــ قد بينا مرارا[2] ـــ أن (الآية) في لغة العرب تطلق إطلاقين، وذكرنا هذا كثيراً في هذه الدروس.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

أما الإطلاق الأول المشهور: فهو إطلاق الآية بمعنى (العلامة). تقول العرب: «الآية بيني وبينك كذا». أي: العلامة بيني وبينك كذا. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة ملكه أن يأتيكم التابوت. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو عربي جاهلي ـ تفسير الآيات بالعلامات حيث قال[1]:

تَوَهَّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها لِسِتَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سَابعُ

ثم بين أن مراده بالآيات: (علامات الدار) فقال:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأياً أُبينُه ونُؤْيٍ كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمُ خَاشِعُ

إطلاق الآية الآخر في لغة العرب: تُطْلِق العرب الآية على (الجماعة)، وهو إطلاق عربي مشهور، يقولون: «جاء القوم بآيتهم». أي: بجماعتهم، ومنه بهذا المعنى: قول بُرج بن مُسْهِر الطائي[2]:

خَرجْنَا من النَّقبينِ لا حَيَّ مثلنا بآيتنا نُزجي اللِّقَاحَ المَطَافِلاَ

أي: بجماعتنا.

إذا عرفتم أن (الآية) تُطلق في لغة العرب: إطلاقين، تطلق بمعنى (العلامة)، وتطلق بمعنى (الجماعة)، فاعلموا أن (الآية) في القرآن تُطلق أيضاً إطلاقين:

تطلق على الآية الكونية القدرية، وهي: ما نصبه الله كوناً وقدراً

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

دالاً على ربوبيته، وأنه المعبود وحده، وهي بهذا المعنى من الآية بمعنى (العلامة) قولاً واحداً. كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: علامات واضحات لأصحاب العقول على أن لهذا الكون مُدَبِّراً هو رب كل شيء، وهو المعبود وحده جل وعلا.

الإطلاق الثاني في القرآن: إطلاق الآية بمعنى الآية الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم، كقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] فهي بهذا من الآية الشرعية الدينية، والآية الشرعية الدينية قيل: من الآية بمعنى (الجماعة)؛ لأن الآية جمعت كلمات من القرآن اشتملت على بعض معانيه ومقاصده.

وقال بعض العلماء: الآية الشرعية الدينية أيضاً من الآية بمعنى (العلامة)؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها؛ لما فيها من الإعجاز؛ ولأن لها علامات: مبادىء، ومقاطع تدل على انتهاء هذه الآية وابتداء هذه.

وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

والإيمان في لغة العرب: التصديق(١)، ومنه قوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدق لنا في أن يوسف أكله الذئب. ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: آية ١٧].

والإيمان في اصطلاح الشرع في مذهب أهل السنة والجماعة: هو التصديق الكامل من جميع الجهات، أعني: تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل؛ ولذا ثبت في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة البقرة.

الصحيح أن: «أن الإيمان بضع وستون» وفي بعض الروايات: «بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[١] فسمى إماطة الأذى عن الطريق (إيماناً). وفي الحديث الصحيح: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»[٢] فسمى الصوم (إيماناً) «من قام ليلة القدر إيماناً»[٣] فسمى القيام (إيماناً). وقد قدمنا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] أن معناه: وما كان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس قبل نسخ القبلة، كما قدمناه مراراً. وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٩].

في هذه الآية الكريمة قراءات سبعيات[٤]: قرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ببناء الفعلين للفاعل.

وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿وقد فُصِّل لكم ما حُرِّم عليكم﴾ ببناء الفعلين للمفعول، والتركيب للنائب.

وقرأ هذا شعبة عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وقد فَصَّل لكم ما حُرِّم عليكم﴾ ببناء «فَصَّل» للفاعل، و «حُرِّم» للمفعول. فتحصَّل أنها ثلاث قراءات سبعيات: ﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ﴾ لنافع،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٢.

وحفص، ﴿فُصِّلَ لكم ما حُرِّم﴾ لابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، ﴿فَصَّل لكم ما حُرِّم﴾ لحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم.

والجمهور ــ غير الكوفيين ــ قرؤوا: ﴿وإن كثيراً ليَضِلُّون﴾ بفتح الياء. وقرأ الكوفيون الثلاثة ــ أعني: عاصماً، وحمزة، والكسائي ــ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ بضم الياء[1] ﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. هذه القراءات في الآية.

ومعنى الآية الكريمة[2] ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (ما) استفهامية، أَيُّ شيء ثبت لكم يمنعكم من أن تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه؟ والاستفهام هنا بمعنى الإنكار[3]، أي: لا يوجد شيء يمنعكم من ذلك. وقال بعض العلماء: هو بمعنى التقرير بأن يقولوا: ليس هنالك شيء يمنعنا مما ذُكر اسم الله عليه. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أيُّ شيء ثبت لكم يمنعكم من ذلك؟ والمعنى: لا شيء يمنع من ذلك؛ لأنكم ذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه، وفعلتم فيه الطريقة الشرعية التي أُمرتم بها، فأيُّ مانع يثبت يمنعكم من أكل هذا؟ والمعنى: لا مانع منه، وإنما جاء المانع في الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: والحال أنه حلال كماء المزن؛ لأن الله فصَّل لكم ما حرم عليكم، أي: أوضحه وبينه غاية البيان والإيضاح، ولم يجعل مما حرم عليكم ما ذبحتموه، وذكيتموه، وسميتم الله عليه؛ فإذا كان الله فصَّل لكم ما حرمه عليكم

(١) المصدر السابق ص ٢٠١.
(٢) انظر: الأضواء (٢/٢٠٨ ــ ٢٠٩).
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢١١).

بالتفصيل والبيان، ولم يكن منه أنه حرم ما ذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه، فما لكم ألَّا تأكلوا منه؟ لا مانع من الأكل منه.

واعلم أن هذه الآية غلط فيها كثير من المفسرين[١] فقالوا: ﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فصَّله بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] وهذا غلط لا شك فيه؛ لأن هذه الآية التي نفسرها من سورة الأنعام، وهي من القرآن النازل بمكة بإجماع العلماء، إلا آيات معروفة منها[٢]، كقوله: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات [الأنعام: آية ١٥١]، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: آية ٩١] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] فهي آيات معدودة مدنية في سورة مكية، أما جُل سورة الأنعام فهي نازلة في مكة قبل الهجرة بلا خلاف بين العلماء، وهي نازلة قبل النحل بلا شك، والنحل من القرآن المكي على التحقيق، وقد دل القرآن في موضعين أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النحل[٣]:

أحدهما: قوله في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: آية ١١٨] فهذا المحرم المقصوص من قبل المُحال عليه هو النازل في سورة الأنعام بالإجماع في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٦].

الثاني: أن الله قال في سورة الأنعام هذه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٦٩)، القرطبي (٧/ ٧٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٨] فبين أنهم سيقولونه في المستقبل بدلالة حرف التنفيس الذي هو السين، ثم بين في سورة النحل أن ذلك الموعود به في المستقبل وقع وثبت في سورة النحل حيث قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: آية ٣٥] فدل على أنها بعدها، وإذا كانت سورة الأنعام التي فيها: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٩] نازلة في مكة قبل الهجرة، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] من سورة المائدة نزلت بعد الهجرة في المدينة في آخر ما نزل من القرآن؛ لأن المائدة من آخر ما نزل من سور القرآن، وفيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] المُؤْذِنَة بكمال الدين، وقرب انقضاء الوحي، كيف يكون هذا التفصيل المذكور في الأنعام في سورة المائدة، والمائدة لم تنزل إلا بعد ذلك بسنين كثيرة؟ والتحقيق أن قوله هنا: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٩] أنه هو التفصيل المذكور في سورة الأنعام؛ لأنها نزلت جملة واحدة، وهذا مما فَصَّله في الأنعام، وهو قوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] فقوله: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] هذا التفصيل للحرام يدل على أن ما ذبحتم، وذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه أنه ليس من المحرم الذي فُصِّل لكم، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (ما): موصولة، وهي في محل المفعول، والعائد إلى الصلة محذوف، والتقدير: وقد فصل لكم ما حرمه

عليكم. وعلى قراءة (حُرِّم) فالرابط هو ضمير النائب المحذوف أي: ما حُرِّمَ هو عليكم وهذا معنى قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ جرت العادة في القرآن أن الله إذا ذكر هذه المحرمات الأكل، أنه يستثني منها حالة الضرورة كما قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] وقال في النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾ [النحل: آية ١١٥].

وقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: آية٣] وقال هنا: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يعني: أن هذا الذي حرمه عليكم، وفصل تحريمه، إذا ألجأتكم الضرورة إليه فهو حلال عليكم للضرورة؛ لأن الضرورة تبيح المحظورات.

ومن يأتِ الأُمورَ على اضْطرارِ فليسَ كمثلِ آتيهَا اختيارًا[1]

فالميتة حرام بالإجماع، ولكن الإنسان إذا خاف على نفسه الهلاك ولم يجد إلا الميتة أو الخنزير أو ما جرىٰ مجرى ذلك فإنه يباح له ذلك الحرام. وقد قدمنا في سورة البقرة كلام العلماء في الضرورة التي تبيح الميتة، وفي القدر الذي يباح منها، هل هو ما يسد الرمق ويمسك الحياة، أو هو الشبع والتزود حتى يجد غيرها؟ كما قدمناه موضحا[2].

---

(١) البيت لسيدي محمد بن الشيخ سيدي من أدباء شنقيط، وهو ضمن قصيدة له مذكورة مع ترجمته في كتاب: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص ٢٤٧.

(٢) انظر: المجموع (٩/ ٣٩)، المغني (١٣/ ٣٣٠)، المحلى (٧/ ٤٢٦)، القرطبي (٢/ ٢٢٥)، الأضواء (١/ ١٠٧).

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ يدل على أن هذه المحرمات التي فصلها الله، وبين أنها حرام إذا اضطر الإنسان إليها، وألجأته الضرورة إليها كانت حلالاً عليه؛ لأن نبينا ﷺ بُعث بالحَنِيفيَّة السمحة، وسُهِّل له فيها كل التسهيل، ورُفعت عنا على لسانه الآصار ـ وهي أثقال التكليف التي كانت على من قبلنا ـ وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ الآيات [البقرة: آية ٢٨٦]. أن الله قال: «قد فعلت» في رواية ابن عباس عند مسلم، وأن الله قال: «نعم» في رواية أبي هريرة عند مسلم[١]. ولذا كان من علامات نبوته ﷺ أنه يحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع الآصار، والأغلال، وأثقال التكليف التي كانت على من قبلنا؛ لأن ذلك من صفاته في الكتب المتقدمة كما يأتي في سورة الأعراف في قوله: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] والآصار والأغلال هي: الأثقال التي كانت شديدة في التكليف على من قبلنا؛ لأن من قبلنا ربما إذا أذنب الواحد منهم ذنباً لا تقبل توبته حتى يقدم نفسه للموت والقتل، كما قدمناه في البقرة[٢] في قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ [البقرة: آية ٥٤] وما كانوا تصح صلاتهم إلا في المساجد، ولا تصح صلاتهم إلا بالماء،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

ولا طهارتهم من الخبث إلا بالماء، فهي آصار، وتكليفات، وأثقال شديدة رفعها الله عنا على لسان نبينا ﷺ حيث قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: آية ٧٨] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: آية ١٦] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] ونحو ذلك من الآيات؛ ولذا قال هنا: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ والطاء في قوله: ﴿مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أصلها مبدلة من تاء الافتعال، وقد تقرر في فن العربية(١): أن تاء الافتعال إذا جاء بعد واحد من حروف الإطباق أنه يُبدل طاء، والحقيقة أصل مادة هذا الفعل (ضَرَرَ). ففاء المادة: ضاد، وعينها: راء، ولامها: راء. فدخلها تاء الافتعال، كما تقول في قَرُب: اقترب، وفي كَسَب: اكتسب، وفي ضرر: اضترر فأُبدلت تاء الافتعال طاء، ثم بُني الفعل للمفعول ورُكب للنائب، فقيل: اضطررتم(٢).

والمعنى: أن هذه المحرمات التي فصلها الله لنا أن محل تحريمها علينا ما لم تلجئنا إليها ضرورة، فإن ألجأتنا إليها ضرورة فهي حلال لنا.

وقد قدمنا كلام العلماء في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فالإنسان إذا خاف على نفسه الهلاك جاز له أكل الميتة إن لم يجد غيرها، وجاز له أكل الخنزير إن لم يجد غيره، وجاز له ما حُرم عليه للضرورة. وأعظم الأشياء هو كلمة الكفر إذا أُلجىء الإنسان، وأُكره

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٥١١).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٤)، القرطبي (٢/ ٢٢٥)، شرح الكافية (٤/ ٢١٥٨)، البحر المحيط (١/ ٣٧٣)، الدر المصون (٢/ ١١٣)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٢٥.

عليها، وقالها إكراهاً، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يؤاخذه الله بها؛ لأن الله قال كما يأتي في سورة النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: آية ١٠٦] وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ قرأه القراء[١]: ﴿وإن كثيراً ليَضلون﴾ وقرأه الكوفيون[٢]: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ فعلى قراءة ﴿يَضلون﴾ فالفعل لازم لا مفعول له. والمعنى: أنهم يَضِلُّون ويذهبون عن طريق الحق. وعلى قراءة الكوفيين ﴿يُضلون﴾ فهو متعد للمفعول، والمفعول محذوف. والمعنى: كثيراً من الناس ليُضلون الناس عن طريق الحق بأهوائهم[٣]. وحَذْفُ المفعول إذا دل المقام عليه سائغ أسلوب عربي معروف مشهور.

﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الأهواء: جمع الهوى، وأصل الهوى: (هَوَيٌ) بواو وياء، اجتمع فيه موجبا إعلال فوقع الإعلال في الحرف الأخير الذي هو الياء على القاعدة الأغلبية[٤].

وأصل (الهوى) في لغة العرب ميل النفس. وكثيراً ما يُطلق على ميلها إلى ما لا ينبغي[٥]، وربما أُطلق نادراً على ميلها لما ينبغي[٦].

---

(١) وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.

(٢) وهم: عاصم، وحمزة، والكسائي. انظر: السبعة ص ٢٦٧.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٦٩، الدر المصون (٥/ ١٣٠).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

(٥) السابق.

(٦) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٣٨).

والهمزة في قوله: ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ مبدلة من الياء؛ لأن مادة (الهوى) مما يسميه الصرفيون «اللفيف المقرون»[(١)] معتل الواو واللام. والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل واو أو ياء تطرفت بعد ألف زائدة وجب إبدالها همزة[(٢)]. فهمزة (الأهواء) مبدلة من ياء الهوى، أصلها: (هَوَيٌ) بالياء؛ لأن لام الكلمة ياء، فأُبدلت همزة لتطرفها في الأخير بعد ألف.

والمعنى: أن كثيراً من الناس ليُضلون الناس. على قراءة حمزة، والكسائي، وعاصم. أو ليَضلون في أنفسهم فيكونون ضالين. وذلك الإضلال ــ على قراءة الكوفيين ــ والضلال ــ على قراءة غيرهم ــ إنما هو بسبب أهوائهم، أي: ميول أنفسهم إلى الباطل والكفر ــ والعياذ بالله ــ وهو ميل الهوى واتباع النفس في الحرام والكفر، لا إلى الشَّرع، ولا إلى بيان، ولا إلى دين. وهذا معنى قوله: ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا علم لهم بذلك الذي سلكوه وضلوا به وأضلوا، وإنما اتبعوه جهلاً منهم؛ ولذا قال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (أعلم): كـ (أعلم) التي قبلها. والمعتدون: جمع المعتدي، والمعتدي (مُفْتَعِل) من العُدوان، وأصل العُدوان: مجاوزة الحد، فكل من جاوز حده فقد اعتدى. قال بعض العلماء: أصل العدوان مشتق من العُدْوَة، والعُدوة: شاطىء الوادي؛ لأنه كأنه جاوز شاطىء الحلال والحق إلى شاطىء الحرام والضلال، فالعدوان: مجاوزة

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

الحد[١]. وهذا معنى قوله: إن الله جل وعلا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ۝١١٩﴾ الذين سبق لهم الضلال في أزله، ويسرهم لما خلقهم له، فهو أعلم بهم. وكأن هذا فيه تسلية للنبي ﷺ، كأنه يقول له: ربك أعلم بالضالين المضلين، ولا بد أن ييسرهم لما خلقهم له، فلا تحزن عليهم إذا لم يؤمنوا وهذا معنى قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ۝١١٩﴾.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ۝١٢٠﴾ [الأنعام: آية ١٢٠] ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (ذروا) معناه: اتركوا. و (ذر) بمعنى: اترك. وهذا الفعل ــ الذي هو (ذَر) ــ لم يستعمل منه في لغة العرب إلا الأمر والمضارع[٢]، تقول العرب: (ذر) بمعنى: اترك، و (يَذَر) بمعنى: يترك. ولم يُستعمل منه ماضٍ، ولا مصدر، ولا اسم فاعل، ولا اسم مفعول، ولا صيغة تفضيل، لم يُستعمل منه إلا المضارع والأمر خاصة. ومعنى (ذَر): اترك. ومعنى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ اتركوا ظاهر الإثم وعلماء العربية يقولون: إن الحرف المحذوف في مكان الفاء إنها واو، وإن أصل (ذَر) أن أصل ماضيه (وَذَرَ) بواو[٣]، إلا أن هذه الواو لم تثبت؛ لأن (فَعَل) إذا كانت مفتوحة العين تُحذف فاؤها في المضارع والأمر، ويُحذف في المصدر، وذلك إنما ينقاس في (فَعَلَ يَفْعَل) وأما (وَذَر يَذَر) فليس مقيساً فيها؛ إلا أن العرب لم تنطق بالواو ولم تنطق بها إلا في المضارع والأمر[٤]. وعلى كل حال فـ(ذَرُوا) معناه: اتركوا.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: عدا) ص ٥٥٣ ــ ٥٥٤، بصائر ذوي التمييز (٤/ ٣١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من هذه السورة.

(٣) انظر: الدر المصون (٢/ ٦٣٦ ــ ٦٣٧)، (٣/ ٥٠٨)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٨٦.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٨٦.

وقوله: ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الظاهر: كل ما ظهر وعلن. والباطن: كل ما خفي واستتر(١). والإثم: أصله ضد الطاعة، فكل ما هو خلاف التقوى والطاعة من الوقوع في المعاصي يُسمى: (إثماً)(٢). وقد قال الشاعر(٣) ــ وصدق ــ:

إنـي رأيـتُ الأمـرَ أعجبـه تقـوى الإلـه وشـره الإثـمُ

فقابل الإثم بالتقوى.

واعلموا أن ظاهر الإثم وباطنه فيهما أقوال [(٤)وأنها كلها ترجع إلى شيءٍ واحد، فقال بعضهم: الفواحش الظاهرة هي الزنىٰ مع البغايا ذوات الرايات، والفواحش الباطنة هي الزنىٰ مع الخليلات والصديقات التي يُزنى بهن سراً في البيوت. وقال بعض العلماء: ما ظهر من الفواحش: كنكاح زوجات الآباء، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النساء: آية ٢٢] وأن ما بطن منها هو الزنىٰ. والتحقيق: أنّ الآية الكريمة تشمل جميع المعاصي والذنوب، لا تفعلوا شيئاً منها ظاهراً علناً بين الناس، ولا شيئاً باطناً في خفية لا يطلع عليه أحد، وهو يشمل جميع التفسيرات الواردة عن الصحابة وغيرهم.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧٢)، ابن كثير (٢/ ١٦٨)، البحر المحيط (٤/ ٢١٢).

(٢) انظر: المفردات (مادة: أثم) ص ٦٣، اللسان (مادة: أثم) (١/ ٢٢).

(٣) البيت للمخبل السعدي، وهو في ديوانه ص ٣١٦.

(٤) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وللوقوف على الأقوال المشار إليها راجع: القرطبي (٧/ ٧٤)، ابن كثير (٢/ ١٦٨)، وقد تم استدراك النقص هنا من كلام الشيخ رحمه الله عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأعراف.

والفواحش ظاهرها وباطنها تشمل جميع الذنوب؛ إلا أن الله عطف بعضها على بعض عطف خاصٍ على عام. وقد تقرر في المعاني: أن عطف الخاص على العام، وعطف العام على الخاص، إن كان في كل منهما في الخاص أهمية لا تكون في غيره من أفراد العام أنه سائغ، وأنه من الإطناب المقبول لأجل الخصوصية التي في الخاص. فكأن تميزه بخصوصيته جعله كأنه قسم آخر من أقسام العام فحسن عطفه عليه[1]. وهنا عطف الخاص على العام لأن المعطوفات الآتية كلها داخلة في الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقول من قال: إن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو الزنىٰ مع البغايا ذوات الرايات، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنىٰ مع الخليلات الصديقات التي يُزنى بهن سراً. أو: إن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ هو نكاح زوجات الآباء، وأن ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنىٰ إلى غير ذلك من الأقوال كله يشمله التفسير العام الذي هو الصواب، وإن الله نهى عن ارتكاب جميع المحرمات سواء كان ذلك ظاهراً أمام الناس، أو خفية بحيث لا يطلع عليه الناس].

[١٦/ب] / يقول الله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢٨].

---

(١) انظر: فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٤، الإكسير للطوفي ص ٢٥٦، المدخل للحدادي ص ٢٩٥، البرهان للزركشي (٢/ ٤٦٤)، الإتقان (٣/ ٢١٢، ٢١٣)، قواعد التفسير (١/ ٤٢٩، ٤٣٠).

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا حفصاً عن عاصم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وقرأه حفص ـ وحده ـ عن عاصم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ بالياء التحتية(١).

أما قراءة الجمهور ففاعل الفعل ضمير محذوف تقديره: نحن. أي: نحشرهم نحن. وصيغة الجمع في (نحشرهم) وفي (نحن) للتعظيم، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: آية ٩] ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: آية ١٢] وهو جل وعلا واحد إلا أنه يعبر عن نفسه بصيغة الجمع؛ لأجل التعظيم والإجلال. وعلى قراءة حفص: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فالفاعل ضمير يرجع إلى الله. (يحشرهم) هو. أي: الله.

وقوله هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قال بعض العلماء: هو منصوب بـ (اذكر) مقدراً، أي: اذكر يوم نحشرهم. وقال بعض العلماء: هو منصوب بالقول المحذوف الذي دل عليه المقام(٢). والمعنى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: نقول: يا معشر الجن قد استكثرتم. نقول ذلك القول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

والحشر في لغة العرب معناه: الجمع. وكل شيء قد جمعته فقد حشرته(٣). ومنه قول قوم فرعون لفرعون: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الأعراف: آية ١١١] ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٣٦] أي: قوماً جامعين يجمعون السحرة، ويحشرونهم

(١) انظر: السبعة ص ٢٦٩، الموضح (١/ ٥٠٣)، النشر (٢/ ٢٦٢).
(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢١٩)، الدر المصون (٥/ ١٤٨).
(٣) انظر: القاموس (مادة: الحشر) ص ٤٨٠.

من أطراف مصر. فالحشر في لغة العرب: الجمع؛ لأن الله يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، إنسهم وجنهم، في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: آية ٩] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [النساء: آية ٨٧] ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٤٩، ٥٠] ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: آية ٤٧] والمعنى: يقول الله جل وعلا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] يقول ذلك القول حين يحشرهم جميعاً.

وقد بين الله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ أنه يحشر جميع المخلوقات مما يدب على رجلين، ومما يطير في السماء، وسائر المخلوقات كما تقدم في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٨] فبين أنه يحشر كل دابة وكل طير ـ جل وعلا ـ ، والذي يُجَازَى من هذا إنما هو الثقلان: الإنس والجن.

وقوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: نجمعهم جميعاً يوم القيامة بعد أن نخرجهم من قبورهم أحياء يمشون بعد أن كانوا عظاماً رميماً.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يُعرب حالاً[1]، ومعناه: التوكيد، بدليل أنك لو حذفت التنوين وأضفته لكان توكيداً محضاً، لو قلت: «نحشرهم جميعهم». لكان توكيداً، فلما حُذفت الإضافة أُعرب حالاً

(١) انظر: الدر المصون (١٤٨/٥).

ومعناه التوكيد. أي: نحشرهم في حال كونهم مجتمعين فلم يشذ منهم أحد.

﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ فسره بعض العلماء[١]: (يُقال). قال: لأن الله ليس هو القائل؛ لأن كفرة الإنس لا يكلمهم الله، لأن الله يقول عن الكفار: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ﴾.

والتحقيق: أن الله يكلم الكفار كلام توبيخ وتقريع، الذي هو من جنس العذاب، كقوله لما قالوا: ﴿ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون: الآيتان ١٠٧، ١٠٨] لأن هذا التكليم لهم ليس تكليم تشريف، إنما هو تكليم توبيخ وتقريع، وهو من أنواع عذابه لهم، ولا مانع منه.

يقول الله ذلك اليوم مُخَاطِباً عُتاة الشياطين الذين أضلوا بني آدم حتى أغووهم وأدخلوهم النار: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ المَعْشَر في لغة العرب[٢]: الجماعة، كل جماعة تُسمى مَعْشَراً، ويُجمع على: مَعَاشِر. كان بعضهم يقول: لأن بعضهم يُعَاشِر بعضاً. وقد يُطلق المَعْشَر على الجماعة المتفقين في نِحْلَة أو ناحية وإن لم يُعَاشِر بعضهم بعضاً، كما في الحديث: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»[٣]

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢٠)، الدر المصون (٥/ ١٤٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢٠)، الدر المصون (٥/ ١٤٨ ـ ١٤٩)، القاموس (مادة: العشرة) ص ٥٦٦.

(٣) روى هذا الحديث عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة. وممن رواه منهم:

١ ـ عمر (رضي الله عنه): عند البخاري في الفرائض، باب: قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة»، حديث رقم: (٦٧٢٨)، (١٢/ ٦)، وأخرجه في =

والنبـي ﷺ لم يدرك منهم أحداً، ولـم يُعَاشِر منهم أحداً.

والحـاصـل أن المَعْشَر: الجمـاعـة، أي: يـا جـمـاعـة الجن.

وأصل (الجن) مشتق من الاجتنان، وكل ما يخفى عنك ويجتن فهـو مجنـون عنـك، أي: مغيـب. ومنـه: جَـنَّ عليـه الليـل، وقيـل للجنين: (جنين) لأن بطن أمه يُجِنُّه، ومنه سُمي المجنون (مجنوناً) لغيبوبة عقله[(١)]. وبعضهم قال: تُسمي العرب الملائكة (جِنّاً)؛ لأنهم محجوبون عن الأبصار، وهو أحد التفسيرين في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

= مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (٢٩٠٤، ٣٠٩٤، ٤٠٣٣، ٤٨٨٥، ٥٣٥٧، ٥٣٥٨، ٧٣٠٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: حكم الفيء، حديث رقم: (١٧٥٧)، (٣/ ١٣٧٦).

٢ ـ عائشة (رضي الله عنها): عند البخاري في فضائل الصحابة، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ، حديث رقم: (٣٧١١ ـ ٣٧١٢)، (٧/ ٧٧)، وانظر: الأحاديث (٦٧٢٥، ٦٧٢٧، ٦٧٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**»، حديث رقم: (١٧٥٩)، (٣/ ١٣٨٠)، وانظر: حديث رقم: (١٧٥٨).

٣ ـ أبو هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الوصايا، باب: نفقة القيم للوقف، حديث رقم: (٢٧٧٦)، (٥/ ٤٠٦)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر: حديث رقم: (٣٠٩٦، ٦٧٢٩)، ومسلم في الجهاد، باب: قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**»، حديث رقم: (١٧٦٠)، (٣/ ١٣٨٢).

وقد أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٣)، بنفس اللفظ الذي أورده الشيخ رحمه الله هنا.

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[1] [الصافات: آية ١٥٨] والعرب تعرف ذلك، ومنه قول الأعشى يمدح سليمان[2]:

وسَخَّرَ من جِنِّ الملائِكِ تِسْعَةً   قِيَاماً لديْهِ يَعْملونَ بلا أَجْرِ

والمراد بالجن هنا: عُتاتهم وشياطينهم الذين كانوا يضلون الآدميين ويغوونهم في دار الدنيا، يقول لهم الله يوم القيامة: ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ أعني: يا جماعة الشياطين ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ والمعنى: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾، أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم[3] ـ والعياذ بالله ـ حتى أضللتم منهم أعداداً طائلة وجبلاً كثيراً ضخماً، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢].

وهذه الآيات يبينها الله لنا في دار الدنيا لنحذر من أن تكون الشياطين تستهوينا وتضلنا لتدخلنا النار، وقد بين القرآن أن هذا العدد الكثير من الإنس الذي أضلتهم شياطين الجن الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أن منهم الذين يتبعون تشريع الشيطان، ويحيدون عن تشريع الله فيتبعون ما نَظَّمه الشيطان من النُّظُم على ألسنة أوليائه، صرح القرآن بأن هؤلاء داخلون في هذا الاستكثار وما أكثرهم؛ لأن الله يقول في السورة الكريمة ـ وكل سورة من القرآن كريمة ـ أعني سورة يس: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: آية ٦٠]

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٣/ ١٠٨)، القرطبي (١٥/ ١٣٤).

(٢) البيت في ابن جرير (١/ ٥٠٦)، القرطبي (١/ ٢٩٥)، البحر المحيط (١/ ١٥٣)، اللسان (مادة: جنن) (١/ ٥١٧).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ١١٥).

ومعنى عبادتهم للشيطان ليست أنهم سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان، ولا صاموا للشيطان، ولا حجوا للشيطان، وإنما عبادتهم للشيطان: هي اتباعهم ما شرعه من النُّظُم على ألسنة أوليائه، كما قدمنا في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالله ـ مثلاً ـ يقول: إن الميتة حرام ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالميتة حرام ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] هذا من تشريع الله الذي شرعه على لسان نبيه. فيأتي الشيطان فيشرع نظاماً آخر غير هذا ويقول: ما قتله الله بيده الكريمة بسكين من ذهب أحل وأكرم مما قتله الإنسان بيده؟ فالميتة ذبيحة الله، وهي أحل من ذبيحة الناس!! فهذا تشريع إبليس على ألسنة أولياء إبليس، فصرح الله بأن من اتبع تشريع إبليس وقال: بأن الميتة حلال: أنه مشرك بالله، وهو قوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وهذا الشرك بالله هو عبادة الشيطان التي نهى الله عنها في يسٓ في قوله: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ وليس المراد بعبادته أنهم يسجدون له ويركعون، لا؛ وإنما بطاعته فيما شرع، واتباعه في نُظُمِه وقوانينه، ثم بين أن الذين يتبعون ذلك من هذا الاستكثار المذكور في (الأنعام) حيث قال في (يس): ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ أي: ومنهم الذين عبدوه باتباع نظامه وشرعه وقانونه ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾ فتتركون تشريع خالق السماوات والأرض إلى عبادة الشيطان باتباع نظامه وقانونه، ثم بين مصير هؤلاء فقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠، ٦٢ ــ ٦٥] هؤلاء عابدي الشيطان باتباع تشريعه. ومن هذا المعنى قول خليل الله إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: آية ٤٤] وما كان أبوه يسجد للشيطان، ولكنه كان يتبع نظام الشيطان، وشرع الشيطان، وقانون الشيطان الذي شرعه من عبادة الأوثان، ومعاصاة الرسل. فليعلم كل إنسان أن للشيطان مذهباً وقانوناً وشرعاً وضعه على ألسنة أوليائه من مَرَدَة الإنس، ولخالق السماوات والأرض نظاماً وشرعاً: نوراً منزلاً من السماء شرعه على ألسنة أوليائه، فالذين يعدلون عن نور الله الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلى تشريع الشيطان الذي شرعه على ألسنة أوليائه داخلون في قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وداخلون في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢] سواء سموا ذلك قانوناً، أو سموه نظاماً، أو تشريعاً؛ لأن خالق السماوات والأرض لا يقبل أن يُعبد إلا بما شرع؛ لأنه ملك الملوك لا يقبل غير شرعه وتشريعه، كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: آية ٥٩] فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وكل من يتبع نظاماً شيطانياً وضعه الشيطان على مردة شياطين الإنس من أوليائه فإنه يوم القيامة صائر إلى النار، داخل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: آية ٦٢] وفي قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨].

والنبي ﷺ قد بين هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه، فإنه لما قال له: يا نبي الله: قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ فقال: ألم يُحلوا لهم ما حرّم الله، ويُحرِّموا عليهم ما أحلَّ الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً(١). وذلك هو عبادتهم إياهم. فكل تشريع غير تشريع الله، وكل نظام غير نظام السماء الذي يمشي عليه كأنه يقول: تشريع خالق السماوات والأرض أفضل منه تشريع غيره!! فهو ينزل درجة الخالق ـ جل وعلا، سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ـ إلى أن أوضاعاً ملفقة من أذهان الكفرة الفجرة الخنازير أنه أحسن من تشريع الله!! ولذا يعدلون عن نور القرآن والسنة النبوية الصحيحة إلى ما يسمونه قانوناً ونظاماً وضعه أبناء الكلاب القردة الخنازير من اجتهاداتهم، تارة يحرمون ما أحل الله صريحاً، ويحللون ما حرم الله صريحاً، يزعمون أن الهدى في هذا!! هذا ـ والعياذ بالله ـ من أشنع الكفر والطغيان على الله، والتمرد على نظام السماء، واحتقار الخالق ـ جل وعلا ـ حيث كان تشريعه لا ينفع، وتشريع غيره من سفلة الخنازير أحسن من تشريعه!! وهذا إنما وقع ـ والعياذ بالله ـ بسبب طمس البصيرة؛ لأن نور البصيرة إذا طُمس من قلب الإنسان صار يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، والذين يعدلون عن نور الله يطلبون النور في تشريع المخلوقين هم في الحقيقة ـ بالكلمة التي هي بمعنى الحرف الصحيح ـ هم خفافيش البصائر، أعماهم ضوء القرآن فصاروا يطلبون الضياء في ظلام أفكار الكفرة الفجرة.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

خفافيشُ أعماهَا النهارُ بضوئِهِ ووافَقها قِطْعٌ من الليلِ مظلمُ(١)

مثل النهار يزيدُ أبصارَ الورى نوراً ويُعمي أعينَ الخفاشِ(٢)

والله (جل وعلا) يقول: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] وفي بعض التفسيرات: تكاد أنوار القرآن تعمي بقية بصائرهم، والله يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] لأن النور الساطع الشديد يقضي على البصر الأعشى الضعيف، وقد بين الله تعالى في السورة الكريمة ـ سورة الرعد ـ أن الذي لا يعلم أحقية القرآن، ومنزلته، وكونه هو الذي ينبغي أن يُتبع أن ذلك إنما جاءه من قِبَل عماه؛ لأن الله يقول: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح بأن الذي منعه من ذلك عماه، وعدم رؤية الأعمى للشمس لا يجعل الشمس فيها ريب.

إذا لم تكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصبح مُسفرُ(٣)

والذين عموا عن نور القرآن ونور السنة النبوية التي نظمت حياة البشرية على أكمل الوجوه وأبدعها وأنصفها، وميزت الأوضاع على ضوء نور السماء، فجمعت بين خير الدنيا والآخرة يرفضونها وينصرفون عنها ذاهبين إلى النظام الذي شرعه إبليس ـ عليه لعائن

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه (١/ ١٥٧)، تحقيق حسين نصار، ولفظه هناك:
خفافيش أعشاها نهار بضوئه ولاحمها قطع من الليل غيهب

(٢) البيت في المغني لابن قدامة (١٣/ ٣٢٣)، حياة الحيوان للدميري (١/ ٢٩٦)، صبح الأعشى (٢/ ٨٨)، الأضواء (٢/ ٢٧٤).

(٣) البيت ذكره الشيخ في «رفع الإيهام والاضطراب».

الله ـ علىٰ ألسنة أوليائه إنما جرهم إلى ذلك أنهم خفافيش، والخفاش يعميه نور الشمس، وإذا كان النهار وانتشر ضوء الشمس صار الخفاش أعمى لا يرى شيئاً، ولا يقدر أن يقوم من محله، وإذا جاء الليل وأرخى الظلام سدوله قام الخفاش يسرح ويمرح؛ لأن هذا عنده ضياء!! فهذا مثلهم ـ ولله المثل الأعلى ـ .

وعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن الله خصنا بسيد الرسل، وسيد الخلق، وأشرف الأنبياء، وجعل معجزته باقية، وهي هذا النور المنزل الذي يتردد في أسماع البشر إلى يوم القيامة. وفي الحج تلتقي ببعض الحجاج من جميع أقطار الدنيا، ترى الذين يعرفون القرآن منهم على الحقيقة لا يختلف اثنان منهم في حرف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: آية ٨٢]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: آية ٩] بين الله لنا فيه العقائد، وأصول الحلال والحرام، وطريق الجنة، وطريق النار، وتهذيب النفوس، وتربيتها، ومعالي الأمور، والتنزه عن سفسافها، وبين لنا فيه كيف نستعد لأعدائنا، وكيف نواجههم في حالة الحرب، وحالة الصلح والهدنة، وقد بينه النبي ﷺ بياناً شافياً كافياً، حتى تركها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فعلينا أن نعمل به، ونترك آراء الكفرة الفجرة؛ لأن اتباع نظام الشيطان دلت هذه الآيات على أنه كفر بالله.

واعلموا أن الأنظمة ليست سواء، منها نظام إداري، ومنها نظام شرعي، والأنظمة الإدارية التي لا تصادم الشرع وإنما تجري على المصالح المرسلة لضبط أمور الرعية وأوطانها، فهذا النوع لا بأس به، وقد فعل الصحابة كثيراً منه؛ فإن المسلمين لم يكن عندهم ديوان

للجند تكتب فيه أسماء الجند في زمن النبي ﷺ وأبي بكر، ولَمَّا تخلف كعب بن مالك (رضي الله عنه) في غزوة تبوك لم يعلم النبي ﷺ بأنه تخلف حتى بلغ تبوك؛ لأنه لم يكن عنده ديوان يكتب فيه أسماء الجند، وقام عمر بن الخطاب لما أفضت الخلافة إليه، وكتب أسماء الجند في ديوان؛ فصار جميع الجند المقاتلين مكتوبة أسماؤهم في دواوين، إذا تخلف واحد عُرِف الوقت الذي تخلف فيه ووجههم إلى الجهاد، وأعد لكل جهة قدراً معيناً بأسمائه. فهذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ، ولا أبو بكر، ولكنه إداري لا يخالف شيئاً من الشرع.

ولم يكن في زمن النبي ﷺ ولا زمن أبي بكر سجن يُوقَف فيه المجرمون حتى يُحقق معهم فيعاقبوا فيه، حتى كان في زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فاشترى دار صفوان بن أمية في مكة، واتخذها سجناً.

ومثل هذا من الأنظمة الإدارية لضبط أمور الرعية مما لا يخالف الشرع، هذا أمر كان يفعله الصحابة، وأجمع عليه جميع المسلمين في قرونهم الماضية، وليس كلامنا عليه، وإنما كلامنا على الذين يتبعون نظام الشيطان في التحليل والتحريم، ويتركون نظام الله، كالذين يقولون: إن المرأة أضعف من الرجل، وصلتهما بالميت واحدة، فلا بد أن يكونا سواء، وتفضيله عليها غلط وحيف عليها!! وكالذين يقولون: إن قطع يد السارق إنه عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظُم الإنسانية!! وكالذين يقولون: إن الرجم والقتل بالحجارة عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظُم الإنسانية!! ونحو هذا مما يقوله الكفرة، وأتباع الكفرة، حتى تركوا تشاريع

السماء لآراء الكفرة، وخفيت عليهم الحِكَم.

أما قطع اليد مثلاً الذي يقولون: إنه عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في نظام سماوي، ولا أن يعامل به الإنسان. فإنما هو لجهلهم؛ لأن اليد الواحدة إذا لم تُعَاقَب عقوبة رادعة قد تُقَطِّعُ آلاف الأيادي بسرقتها، وإن الله (جل وعلا) خلق هذه اليد وفَرَّق أصابعها، وأبعد إبهامها عن أصابعها؛ لأنه لو جعل الإبهام قريباً من السبابة لما قدر صاحبها أن يحل ولا أن يعقد، وشد رؤوسها بالأظفار لتكون أداة فعَّالة عاملة في الخير، وفي الإعانة على ما يرضي الله، على غرار: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: آية ٢] فلما مدَّها هذا الخائن الخبيث الخسيس ليأخذ أموال الناس على أخس وجه وأدناه وأردئه صارت هذه اليد في نظر من خَلَقَها وفي شرعه صارت كأنها قذرة نجسة، وإن استمرت بالبدن قَذَّرت ذلك البدن كله ونجّسته، فقُطع عضو فاسد، كعملية تطهيرية؛ ليصح بها بقية البدن من ذلك التنجيس، وتلك الرذيلة، ولتطمئن الناس على أموالها؛ ولذا ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ما يدل على أن الحدود كفارات(١)، وأنه إن قُطعت يده الخبيثة النجسة الفاجرة المجرمة أنه يطهر بذلك بقية بدنه(٢).

وقد يحصل في ذهن طالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: العدوان على المال ذو وجوه كثيرة؛ لأنه قد يكون بالغصب، وقد

(١) البخاري في الحدود، باب: الحدود كفارة، حديث رقم: (٦٧٨٤)، (١٢/ ٨٤)، ومسلم في الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها، حديث رقم: (١٧٠٩)، (٣/ ١٣٣٣).

(٢) انظر: الأضواء (٣/ ٤٣١).

يكون بالاختلاس، وقد يكون بالتعدي، وقد يكون بالمطل، وما جاء القطع إلا في نوع واحد منه وهو السرقة، فما الحكمة في أن يكون قطع اليد في خصوص السرقة دون غيرها من الاعتداءات المالية(١)؟!

والجواب عن هذا: أن غير السرقة من الاعتداءات المالية الغالب على حاله أن صاحبه لا بد أن يرى الشهود؛ لأنه لا يكون غالباً في خصوص ومفارقة، وإذا جاء الشهود رفع بهم صاحب الحق إلى من بسط الله يده فاستخرج له حقه، وعاقب الجاني بقدر ما يستحق. أما السرقة: فإن السارق يتحرى أخفى الأوقات، وأبعدها عن اطلاع الناس بحيث لا يشعر به أحد، ولا يطلع عليه أحد، ولو لم يعاقب صاحبها بعقوبة رادعة لَمَا اطمأن أحد على سبيل مالي؛ لحذق اللصوص في الحيل الخفية التي يسرقون بها أموال الناس، والمال شريان الحياة؛ لأن المال هو أساس هذه الحياة الدنيا، فهو شريانها في جميع المجالات، إذ لا عسكرية إلا بالمال، ولا سياسة إلا بالمال، ولا اجتماعية إلا بالمال، ولا ثقافة إلا بالمال، فهو شريان الحياة، والله (جل وعلا) جعل هذه العقوبة لأمرين:

أحدهما: تطهير الجسد الذي أنجسه ذلك الجزء النجس كعملية تطهيرية بقطع عضو فاسد لتصح بقية البدن.

والثاني: لتطمئن الناس على مالها، فإذا قُطعت يد واحدة طهر صاحبها من تلك الرذيلة، وصار إنساناً طيباً بعد أن صار قذراً نجساً، وسَلِمَ المسلمون من أذاه بعد ذلك، ومن أذى غيره؛ لأن من علم أنه إذا سرق قُطعت يده كف عن الناس؛ ولذلك ترى أقل البلاد أن يوجد

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٣٢).

فيها حوادث السرقة هي هذه البلاد ـ نرجوا الله أن يوفق ولاتها إلى ما يحبه ـ وإنما ذلك بفضل الله ثم بفضل قطع يد السارق، وإن الإحصاءات العالمية إذا أُحصيت تجد آلاف حوادث السرقة بل ملايينها في كل محل، وأقل ما يوجد فيه هذا المحل، الذي يُقام فيه هذا الحد من حدود الله؛ وذلك مما يبين أن حكمة الله في تشريعه هي الحكمة الكفيلة للمخاليق بجميع مصالحهم.

ولا يسعنا في الوقت أن نتبع هذه التي ينكرون فنُظْهِر حِكَمَها الواضحة بفلسفة عقلية لا تخفى على أحد، كتعدد الزوجات، وكتفضيل الرجل في الميراث، وكالرجم، وما جرى مجرى ذلك، فإنها أحكام عادلة في تشريعات سماوية، وكمسألة الرق، إلى غير ذلك من المسائل، فهي في الحقيقة من أبرز المسائل وأظهرها. ومن أشد ما ينكره الفجرة على الإسلام: مسألة الرق، وهم في الحقيقة يرتكبون أعظم منها!! وسنبين حكمتها تنبيهاً بها على غيرها[1]. وإنما أوجب الإسلام الرق لأن الله خلق هذا الإنسان وأمره أن يكون إعانة وعضواً صالحاً في المجتمع ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: آية ٥٦] وقد وضع الله نظاماً أراد به الخير لخلقه، هو نظام السماء الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ، يريد للناس إذا اتبعته أن يسودهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق، إلى غير ذلك من أنواع الخير، فقام الكافر واستعمل جميع نعم الله في كل ما يسخط الله، وخرج على نظام السماء ليقلب الحكم السماوي إلى غيره!! ومعلوم أن كل دولة من هذه الدول التي تنكر الرق لو أَغْدَقَت النعم على رجل منها، ثم تمرد عليها وحاول إسقاط حكمها، وقَلْبَ

---

(١) انظر: الأضواء (٣/ ٤٢٤)، (٧/ ٤١٩).

نظام الحكم، ثم تمكنت منه أن تقتله شر قِتْلَة فالكافر تمرد على نظام مَنْ خَلَقَه، واستعمل نعم الله في معصية الله، يريد بذلك قَلْبَ نظام حُكْم السماء، لعدم رضاه بنظام السماء، فأصحاب الدولة الإسلامية الذين هم وكلاء الله في أرضه، ويستعملهم في طاعته؛ لينفذوا ما يريد من خير، وينهون عما ينهى عنه من شر قاتلوا هذا الكافر قتالاً مريراً، فبعد أن أمسكوه كان لهم أن يقتلوه؛ لأنه كان عدواً لهم يريد أن يقلب نظام السماء، فأَمَرَ من خَلَقَه بِقَتْلِه قِتْلَةً دون قِتْلَة، وهي أنه طرده عن مرتبة الإنسان إلى مرتبة تَقْرُب من مرتبة الحيوان، بل هي مرتبة الحيوان؛ لأنه يباع، ويُشرى، ويُوهب، مع أنه لم يقتله من الدنيا، بخلاف الدولة التي تنشر الكفر لو تمكنت من المتمرد عليها الذي يريد قلب نظامها لشنقته وقتلته شر قِتْلَة!! فالله أمر بِقَتْلِه قِتْلَةً دون قِتْلَة، وأنه تُنزل منزلته عن درجة الإنسان الكامل إلى درجة الحيوان، ويبين حقوقه كاملة، فيأمر سيده بالإحسان إليه، وألا يكلفه من العمل إلا ما يطيق، وإن كَلَّفه أعانه.

نعم، هنا يبقى سؤال: وهو أن يقول طالب العلم: ما دام كافراً متمرداً على نظام السماء فَقَتْلُه قِتْلَةً دون قِتْلَة هذا أمر معقول، ولكن إذا أسلم وصار أخاً لنا يصلي معنا في المساجد، ويصوم معنا رمضان، ويعبد الله معنا، فما الحكمة إذاً وما المُسَوِّغ بأنَّا نشتريه، ونبيعه وقد زال الموجب المُسَوِّغ لذلك؟

والجواب عن هذا: هي قاعدة معروفة لدى جميع العقلاء، وهي أن الحق الثابت لا يرفعه الحق اللاحق، فالمجاهدون عندما وضعوا عليه أيديهم وهو كافر ثبتت لهم ملكيته، فلما أسلم استحق رفع الملكية، ولكن كان حقه متأخراً، فقُدم عليه الحق السابق،

وتقديم الحق السابق على الحق المتأخر أمر يقرُّ به جميع العقلاء، نعم لطالب العلم أن يقول: إن كان هذا الحق قبل هذا الحق، والحق الأخير لا يرفع الحق الأول، لكن يجدر بالمسلم أن يُعتق أخاه، ويُسقط حقه الأول لحق أخيه الأخير!!

فنقول: نعم بهذه جاء القرآن، ورَغَّب المؤمن بعتق أخيه، وأنه يعتق كل عضو منه بعضو منه، وفتح الأبواب الكثيرة للعتق: من كفارة الأيمان، والظهار، وغيره، إلى غير ذلك، فهذه حِكَم الله في تشريعه لا يضل عنها إلا من خذله الله، وجعله كالخفاش.

ومعنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أي: قد أكثرتم من إغواء الإنس، وإضلالهم باتباعهم تشاريعكم ونُظُمكم، وقد يُضِلُّون لو لم تتبع تشريعهم، فيُضِلُّون المسلم الذي هو على تشريع السماء بأن يزينوا له المعاصي كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ويتبعهم في ذلك، ويغوونه بذلك مع أنه لم يكفر، ولم يقر بتشريع غير تشريع الله؛ لأن الذي يشرب الخمر، ويزني، ويسرق ــ والعياذ بالله ــ إن كان يعتقد أن ذلك حلال فهو كافر متبع نظام الشيطان داخل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: آية ٦٢] أما إذا زين له الشيطان الزنى، والسرقة، وهو يعلم أنه مرتكب خسيسة، وأنه فاعل أمراً حراماً، وأن هذا لا يجوز، فهذا لا يخرج عن دين الإسلام، بل هو مسلم من عصاة المسلمين، مرتكب كبيرة تُرجى لهم التوبة. والشياطين قد يستكثرون من الآدميين بالنوعين، يستكثرون باتباع تشاريعهم كما هو جار الآن في أقطار الدنيا، ويستكثرون بتزيين الشهوات، كالزنا، والسرقة، والمعاصي ــ والعياذ بالله ــ مع أنه مسلم. وهذا معنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾

[الأنعام: آية ١٢٨] ثم إن أولياءهم من الإنس، والمراد بأوليائهم: هم الذين كانوا يتبعون تشريعهم في الدنيا، أو يطاوعونهم فيما زينوا لهم من المعاصي كالزنى، وشرب الخمر، وما جرى مجرى ذلك. هؤلاء أولياؤهم؛ لأنهم يوالونهم، هؤلاء يوالونهم في التشريع، وهؤلاء يوالونهم في الطاعة، والفاجر ولي الفاجر، والكافر ولي الكافر، والمؤمن ولي المؤمن.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] معناه: يا خالقنا ومدبر شؤوننا، ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] الاستمتاع: هو التمتع، والتمتع في لغة العرب: الانتفاع، وقد انتفع بعضنا في دار الدنيا من بعض.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أما انتفاع الإنس بالشياطين: فهو أنهم يدلونهم على لذات الدنيا الحرام، ويزينونها لهم، فيستمتعون بالزنا، والتلذذ بالنساء الجميلات زنا، وبشرب الخمر، بقتل الأعداء ظلماً، حتى يتشفوا ويشفوا غيظهم، ومن جنس المظالم التي يزينونها لهم ينتفعون ويتمتعون بها في الدنيا. وأما انتفاع الشياطين: فهو أنهم يكونون سادة مطاعين؛ لأن لذة الطاعة والرياسة أمرٌ عظيمٌ، أكثر من لذة ما يناله ذلك. وكان بعض العلماء[1] يقول في انتفاع الإنس بالجن، والجن بالإنس: إنه كان قبل الإسلام إذا نزل الرجل بواد في الليل، وخاف من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الحي من سفهاء قومه. فيعيذه ذلك السيد، فينتفع الإنسي بأن كبير الشياطين منعهم من الدنو، وينتفخ كبير الشياطين،

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١١٦)، القرطبي (٧/ ٨٤)، ابن كثير (٢/ ١٧٦)، البحر المحيط (٤/ ٢٢٠).

وينتفع، ويقول: نحن صرنا سادة الجن والإنس، الإنس يعوذون بنا، والجن سدناهم، وإلى هذا الإشارة بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: آية ٦] ولكن هذا لا تفسر الآية به؛ لأن هذا يقع قليلاً؛ والله يقول: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فدل على أنه كثير، وأنه اتباع تشريعهم، أو ما زينوا من المعاصي، والشهوات ــ والعياذ بالله جل وعلا ــ . هذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أظهر الأقوال أن أجلهم الذي أَجَّل لهم: الموت؛ لأن كل إنسان حياته محددة بدقائقها، لم يزالوا ــ والعياذ بالله ــ في تزيينهم لهم المعاصي، والشهوات، والكفر، واتباعهم إياه ــ إلى أن ــ حتى انتهى الأجل وماتوا.

وقال بعض العلماء: إن الأجل الذي أَجَّله لهم هو يوم القيامة؛ لأنه هو اليوم الذي أَجَّله لمعاقبة الجميع بما يليق بكل منهم[(١)]. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال الله مجاوباً لهم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ ــ والعياذ بالله ــ يعني أن عذركم هذا عذر بارد غير مقبول، لا حجة لكم فيه، وأنتم وإياهم في النار (. . .)[(٢)].

و (النار) ــ عياذاً بالله ــ هي نار الآخرة. وأَلِفُ النار ــ التي بين النون والراء ــ مبدلة من واو، أصلها: (نَوَر) بدليل تصغيرها على (نُويرة)، ولو كانت يائية العين لقيل فيها: (نُييرة) ويقال: «تَنَوَّرْتُ النار» إذا نظرتها من بعيد.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢٠).

(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح ولعله بيت من الشعر.

تنـورتُهـا مـن أذرعـاتٍ وأهلُهـا بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالِ[١]

ولـو كـانـت يـائيـة العيـن لقـال: تَنَيَّرْتُهـا بـاليـاء، ولـم يقـل: «تَنَوَّرْتُها»،[٢] واشتقاق النار من «نارت الظبية» إذا ارتفعت جافلة؛ لأن عادتها إذا أُوقدت الارتفاع. ونار الآخرة ـ والعياذ بالله ـ أشد حراً من هذه بسبعين ضعفاً.

وقوله: ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ المثوى: مكان الثَّوَاء. والثَّوَاء: الإقامة علـى الـدوام. ومنـه قـولـه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: آية ٤٥] أي: مقيمـاً فيهـم[٣]. وهـو معـروف فـي كـلام العرب، ومنه قول الحارث بن حِلِّزَة[٤]:

آذنتنَـــا بِبَيْنِهـــا أسمــــاءُ ربَّ ثَـــاوٍ يُمـــلُّ منـــه الثَّـــوَاءُ

فالمثوى: مكان الثَّوَاء. وهو مفتوح الواو على القياس؛ لأن المقرر في فن التصريف أن الفعل المعتل اللام الثلاثي يبقى مصدره الميمي، واسم مكانه، واسم زمانه على (المَفْعَل) بفتح العين. وهذا مُطَّرد[٥]. والمثوى: مكان الثَّوَاء.

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال، ويُشْكِل العامل في الحال؛ لأن المَثْوى اسم مكان، والمكان لا يعمل في الحال.

---

(١) البيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص ١٢٤.

(٢) انظر: المفردات (مادة: نور) ص ٨٢٨، اللسان (مادة: نور) (٣/ ٧٣٩)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٦٣.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ١١٧)، المفردات (مادة: ثوى) ص ١٨١.

(٤) شرح القصائد المشهورات (٢/ ٥١).

(٥) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٨٣)، الدر المصون (٣/ ٤٣٦)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٧٦.

قال بعضهم: العامل في الحال فعل محذوف، تقديره: النار مثواكم تدخلونها خالدين فيها. وقال بعض العلماء: العامل في الحال معنى الإضافة[١].

ومعنى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لابثين فيها على الدوام.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية ونظيرتاها في القرآن هما اللتان أخذ منهما بعض أهل العلم أن النار تفنى[٢]، وقد جاءت في القرآن ثلاث آيات يفهم من بعض ظاهرها بعض الشيء:

أولها: آية الأنعام هذه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

الثانية: آية هود: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا﴾ [﴿مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآيتان ١٠٦ ــ ١٠٧].

الثالثة: آية النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: الآية ٢٣]][٣].

[١٧/أ] /(...)[٤] وجاء عن جماعة من الصحابة منهم[٥] عمر بن

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢٠)، الدر المصون (٥/ ١٤٩).

(٢) في مسألة فناء النار راجع: حادي الأرواح ص ٢٤٨، الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية، كشف الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للصنعاني، دفع إيهام الاضطراب ص ١٢٢ ــ ١٢٨.

(٣) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل، وتم استدراك النقص من كلام الشيخ رحمه الله عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأعراف، وللاستزادة راجع كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة في دفع إيهام الاضطراب ص ١٢٢ــ ١٢٣، ومعارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص ٢٥٤.

(٤) في هذا الموضع جملة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

(٥) انظر: ابن جرير (١٥/ ٤٨٤)، ابن كثير (٢/ ٤٦٠)، الدر المنثور (٣/ ٣٥٠)، =

الخطاب[١]، وابن مسعود[٢]، وعبد الله بن عمرو بن العاص[٣] أنهم

= الرد على من قال بفناء الجنة والنار ص ٥٣، ٦٩، رفع الأستار ص ٦٤ ــ ٨٧، حادي الأرواح ص ٢٤٩، ٢٥٢.

قال الصنعاني بعد أن ذكر بعض هذه الآثار وأجاب عنها: «فعرفت بطلان نسبة هذا القول إلى ابن مسعود وأبي هريرة، كما عرفت بطلان نسبته إلى عمر» إلى أن قال: «وبعد تحقيقك لما أسلفناه، وإحاطتك علماً بما سقناه تعلم أن هؤلاء الأربعة من الصحابة الذين هم: عمر، وابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد... هم بريئون من هذا القول، ومن نسبة فناء النار إليهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب...». اهـ رفع الأستار ص ٧٧، ٨٠.

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٤٨٤)، وأشار له ابن كثير (٢/ ٤٦٠)، وذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص ٢٥٢، ٢٥٣، وعزاه في الدر (٣/ ٣٥٠) لابن المنذر وأبي الشيخ.

وقال الألباني عن إسناده عند ابن جرير: «وهذا إسناد مظلم». اهـ رفع الأستار ص٧٦.

(٢) ذكره البغوي في التفسير (٢/ ٤٠٣) وابن تيمية في كتاب «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» ص ٥٣، وعزاه لعبد بن حميد، كما ذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص ٢٤٩، وعزاه لعبد بن حميد، وأشار له ابن كثير (٢/ ٤٦٠)، وعزاه في الدر (٣/ ٣٥٠) لابن المنذر، وعزاه الحافظ كما في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ١٤٩) لمسند الحارث بن أبي أسامة، وعقبه بقوله: «منقطع، ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد...». اهـ، والأثر ضعفه الصنعاني في رفع الأستار ص ٦٥، وكذا الألباني في التعليق على رفع الأستار ص ٦٥، والسلسلة الضعيفة (٢/ ٧٣).

(٣) ذكره البسوي في تاريخه (٢/ ١٠٣)، وأورده القرطبي في التذكرة ص ٤٣٧، وابن تيمية في «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» ص ٦٩، من طريق حرب الكرماني، كما نقله ابن القيم في حادي الأرواح ص ٢٥٢، والذهبي في الميزان (٤/ ٣٨٥) في ترجمة أبي بَلْج الفزاري الواسطي، وعَدَّ هذا الأثر من بلاياه!! وبعد أن ساق الأثر عقبه بقوله: «وهذا منكر. قال ثابت البناني: سألتُ الحسن =

قالوا: «يأتي يوم علـى النـار ــ زمان ــ تصفق أبوابها ليس فيها أحد».

وهذه النار هي في الحقيقة يجب حملها علىٰ الطبقة التي كان بها عصاة المسلمين؛ لأنه ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النار يدخلها بعض عصاة المسلمين ثم يُخرجون منها. هذا ثابت متواتر عن النبي لا نزاع فيه. والنار طبقات وأبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: آية ٤٤] وبيَّن أنها دركات، وأن المنافقين في الدرك الأسفل منها، فالطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين إذا أُخرجوا منها هي التي تفنىٰ، أما النار التي فيها الكفار فالتحقيق أنها باقية لا تفنىٰ، وأنه لم يدل كتاب ولا سنة علىٰ أنها تفنىٰ، فهي باقية لا تزول أبداً؛ لأن الله صرح بذلك في آيات كثيرة، فصرح بأنها لا تفنىٰ حيث قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: الآية ٩٧] ومعلوم أن (كلما) تتكرر بتكرر الفعل بعدها[(١)]. ولو قلت لعبدك: كلما جاءك زيد فأعطه درهماً. وجاءه زيد عدة مرات. فعليه في كل مرة أن يعطيه درهماً؛ لأن (كلما) تتكرر دائماً بتكرر الفعل، فمن ادّعىٰ أن للنار خَبْوَة نهائية ليس بعدها زيادة سعير يُـرد عليه بقـولـه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ وبيـن أنهـم لا يخرجون منها بقوله جل وعلا: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

= عن هذا فأنكره». اهـ، وأشار له ابن كثير (٢/ ٤٦٠)، وذكره الحافظ في التهذيب (١٢/ ٤٩) في ترجمة أبي بَلْج، وانظر: تخريجه لأحاديث الكشاف (٢/ ١٤٨)، وقد ضعفه الألباني في الضعيفة (٢/ ٧٢)، وفي التعليق على «رفع الأستار» ص ٨١، ٨٢.

(١) انظر: البرهان للزركشي (٤/ ٣٢٤)، الكليات ص ٧٤٤.

أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: الآية ٢٠]، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المائدة: الآية ٣٧] وبين أنهم لا يخفف عنهم عذابُها قال: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ [فاطر: الآية ٣٦]، ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ: الآية ٣٠] إلى غير ذلك من الآيات[١]. وهنا سؤالان: أحدهما سؤال علىٰ بابه، سؤال إسلام، والثاني سؤال إلحادي معروف.

أما السؤال الإلحادي المعروف فهو أن يقول الملحد: أنتم تقولون: إنّ ربكم في غاية العدالة والإنصاف ــ ونحن نقول: بلىٰ هو في غاية الكمال والعدالة والإنصاف ــ والمعاصي التي فعلها[٢]، والكفر الذي كان عليه، كان في أيام معدودة، وجزاء النار الذي تقولون إنه لا ينقطع في ملايين السنين، فأين العدالة والإنصاف؟ المعصية كانت في وقت قليل معين، والجزاء بهذا الصنف، فأين المعادلة بين العذاب، والذنب، والجزاء، والإنصاف أن يكون العقاب بقدر الفعل؟ هذا سؤال إلحادي معروف، يُدْلي به هنا كل ملحد. والجواب عن هذا السؤال[٣] أن نقول: إن الله (جلّ وعلا) بيّن أن خبثهم وكفرهم الذي جُبلوا عليه باق دائم لا يزول، ولو مرت عليه ملايين السنين، فكان جزاؤه دائماً لا يزول. ومن الآيات الدالة على بقائه أبداً أنهم لما عاينوا العذاب، ورأوا النار، وندموا على الكفر وقالوا: ﴿يا ليتنا نرد ولا نكذِّبُ بآيات ربنا ونكونُ من المؤمنين﴾

(١) انظر: حادي الأرواح ص ٢٥٤.
(٢) أي: الكافر.
(٣) انظر: كشف الأستار ص ١٢٦.

[الأنعام: الآية ٢٧] وفي قراءة أخرىٰ(١): ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآية. فالله لما تمنوا أنهم يُرَدُّون إلىٰ الدنيا مرة أُخرى لِيُصَدِّقوا الرسل بين أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا مرة أخرى وأُمهلوا، وأُرسلت لهم الرسل لبقوا علىٰ خبثهم الذي لا ينفك عنهم أبداً، قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: الآية ٢٨]. وقال في سورة الأنفال: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿خَيْرًا﴾ نكرة في سياق الشرط فهي تعمّ(٢)، فهي تدل علىٰ أنّ الله لو يعلم فيهم خيراً ما، في وقت ما، كائناً ما كان، فهم منفي عنهم جميع الخير لا يطلبونه أبداً، والخبث باق فيهم أبداً، فكان الجزاء دائماً أبداً، ومن هنا تطابق الجزاء والعمل.

أما السؤال الثاني: وهو السؤال الذي علىٰ بابه، وهو أن يقول: إذا قررتم أن النار باقية، وأن الكفار باقون فيها، مخلدون، عذاباً سرمدياً، فما الحكمة في الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨]، وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآية ١٠٧]، وفي قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبأ: الآية ٢٣]؟ وفي هذا أوجه كثيرة(٣)، وبحوث كثيرة، نقتصر منها على القليل، وسنبينها جميعاً ـ إن شاء الله ـ في سورة هود. من أحسن الأجوبة: الذي اختاره

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من هذه السورة.

(٢) انظر: المسودة ص ١٠٣، شرح الكوكب المنير (٣/ ١٤١)، البرهان للزركشي (٢/ ٦)، أضواء البيان (٣/ ٣٢٢)، (٤/ ١٧٤)، قواعد التفسير (٢/ ٥٦٠).

(٣) انظر: ابن جرير (١٥/ ٤٨١)، ابن كثير (٢/ ٤٦٠)، رفع الأستار ص ٩٠ فما بعدها، حادي الأرواح ص ٢٥١ فما بعدها.

كبير المفسرين محمد بن جرير الطبري[(١)]، ونسبه لقتادة، والضحاك، وخالد بن معدان، وأبـي سنان: أن (ما) بمعنىٰ: (مَن) وعليه فلا إشكال، فخالدين فيها إلا من شاء الله عدم خلوده من العصاة الذين أُدخلوا فيها لتمحصهم وتطهرهم من الذنوب، وغاية ما في الباب أنه أطلق (ما) وأراد (من)[(٢)]، وإطلاق (ما) مراداً بها (من) كثيرٌ في القرآن، كقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: الآية ٣] أي: مـن طـاب لكـم. وقـولـه: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: الآية ٦] أي: من ملكت أيمانهم.

والآيات موجودة كثيرة غير هذا. أما آية النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [عم: الآية ٢٣] فالآية التي بعدها تبينها، بقرينة آيةٍ في سورة (ص) فهي بيان قرآني واضح، وخير ما يُفسر به القرآن القرآن؛ لأن معنىٰ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: لابثين فيها أحقاباً في حال كونهم لا يذوقون فيها برداً وشراباً، إلا حميماً[(٣)] وغساقاً. [فالآية بينت][(٤)] أحقاب الحميم والغساق [مع كونهم يُعذبون][(٥)] بأشكال أُخر وأنواع أُخر، غير أنواع الحميم والغسَّاق، وهذا التفسير دلت عليه آية (ص) دلالة واضحة؛ لأن الله قال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ ثم قال:

---

(١) انظر: ابن جرير (١٥/ ٤٨١ ـ ٤٨٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢١)، الدر المصون (٥/ ١٥١).

(٣) يحتمل أن تكون عبارة الشيخ هكذا: «لا يذوقون فيها إلا برداً وشراباً وحميماً وغساقاً». ولضعف التسجيل لم أجزم بذلك.

(٤) في الأصل قدر كلمتين غير واضحتين. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يستقيم بها الكلام.

(٥) في الأصل كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يستقيم بها الكلام.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص: الآيات ٥٥ ـ ٥٨]، وقوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ المذكورة في سورة (ص) بينت أن آية: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [عم: الآيات ٢٣ ـ ٢٦] أنها الأحقاب المقصورة عليها الحميم والغساق، وأن هنالك أشكالاً وأزواجاً أُخر لا نهاية لها، كما قال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥﴾ قال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾. وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾ الحكيم: هو الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، فالله لا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه، فلا يشرع شرعاً إلا لمصلحة، ولا ينهىٰ عن شيء إلا وهو ضار، ولا يعذب إلا من يستحق، ولا يجازي بالخير إلا مَنْ مجازاته له واقعة موقعها. فأحكامه كلها عدل، وأفعاله، وتشريعاته، وجزاؤه. لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لأنه حكيم خبير، والحكمة إنما [تتم وتتحقق][(1)] بوصف العلم، فترى الرجل القُلَّب الحكيم الخبير يفعل الأمر ويظنه سداداً ثم ينكشف الغيب عن أن فيه غيره، ويقول: يا ليتني لم أفعل، ولو لم أفعل لكان خيراً!! كما قال الشاعر[(2)]:

ليتَ شعري وأينَ مني ليتُ ... إن لَيْتاً وإن لَوّاً عَناءُ

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) البيت لأبي زبيد الطائي، وهو في الشعر والشعراء ص ١٩١، وفي الكتاب لسيبويه (٣/ ٢٦١)، فتح الباري (١٣/ ٢٢٦).

ونهىٰ النبي عن (لو)، وبيّن أنها تفتح باب الشيطان، وقال الشاعر[1]:

ألامُ على (لوٍّ) ولو كنتُ عالماً بأذناب (لوٍّ) لم تفتني أوائله

فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: (ليتني لم أفعل) أو: (لو فعلت كذا لكان كذا) لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تؤول إليه، فحكمته لا اختلال فيها. بخلاف المخلوقين، فقد يفعل الإنسان بوصف يظنه حكمة لجهله بما تنكشف عنه الغيوب؛ ولذا كان الحكيم الحكمة التامة هو وحده جل وعلا. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ قوله: ﴿عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ صيغة مبالغة؛ لأنه (جل وعلا) يحيط علمه بكل شيء.

واعلموا أيها الإخوان أن وصف ربنا لنفسه بأنه عليم هو من أكبر المواعظ، وأعظم الزواجر، فعلينا أن نتبعه، وهو واعظ أكبر، وزاجر أعظم، لا تكاد تخلو ورقة من المصحف منه، كأنه يقول: ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ اعلموا يا عبادي أني حكيم في تشريعي، وأني ما أمرتكم إلا بما فيه الخير لكم، وما نهيتكم إلا عمّا فيه الشر لكم، وأنني تقتضي حكمتي أن أُعذب من عصاني، وأُدخل الجنة من أطاعني، واعلموا أني عليم لا يفوتني شيء مما تفعلون، وما تقولون، وما تحدثون به أنفسكم ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: الآية ١٩]. وقد قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦].

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وقد أطبق العلماء أنه لم ينزل من السماء إلى الأرض واعظ أكبر، ولا زاجر أعظم من واعظ العلم والمراقبة[(١)]، وقد ضرب العلماء لهذا مثلاً ــ ولله المثل الأعلىٰ ــ قالوا: لو فرضنا أن هذا البراح من الأرض فيه ملك قتَّال للرجال، سفاك للدماء، عظيم الغضب والنكال إذا انتُهكت حرماته ــ ولله المثل الأعلىٰ ــ وحول هذا الملك زوجاته، وبناته، وجواريه، هل يخطر في قلب أحد من الحاضرين، يمكن أحداً منهم أن يغمز إلىٰ واحدة من تلك النساء أو يشير أو يهم بريبة؟ لا، وكَلَّا. كلهم خاضعة أبصارهم، خائفة جوارحهم، غايتهم السلامة. ونحن نقول ــ ولله المثل الأعلىٰ ــ إن خالق السماوات والأرض أشد اطلاعاً، وأعظم بطشاً في سخطاته، وأشد فتكاً عند سخطه؛ لأن حماه في أرضه محارمه، وأنه لا تخفىٰ عليه خافية. فأهل هذا البلد وغيرهم من البلاد لو خافوا أن أمير البلد يعلم كل ما يفعلونه من الخسائس بالليل لباتوا متأدبين هائبين لا يعملون إلا خيراً.

وهذا ملك السماوات والأرض، العظيم الجبار، يُعلم خلقه بأنه مُطَّلع علىٰ كل ما يفعلون من الخسائس، فهذا أكبر واعظ، فعليهم أن يعلموا مراقبة الله، ويعلموا أن الله عليم بما يعملون، فلا يفعلون إلا ما يرضيه، وهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم كان جبريل عليه السلام يعرف قيمته حق المعرفة.

فجبريل يعلم أن الله خلق هذه الخلائق ليبتليها في خصوص إحسان العمل، حيث قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ـ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال في أول الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: الآية ٧] ثم قال في المُلْك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] فعرفنا أنا خُلقنا لنُبتلىٰ في إحسان العمل، ومن عرف أنه خُلق ليُختبر في شيء تاقت نفسه إلىٰ أن يعرف النجاح في ذلك الشيء ما هو طريقه؟؟. فجاء جبريل يبين هذه النقطة العظيمة للصحابة، لما جاء في صورة الأعرابي، في حديث جبريل المشهور فقال: «يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان؟» المهم الذي خُلقوا من أجل الاختبار فيه. فالنبي ﷺ بيّن له أن الإحسان لا يقع إلا بملاحظة هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم. فقال له: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١). فعلينا جميعاً أن نعرف ربنا في القرآن من أن الله عليم خبير، يعلم خائنة الأعين، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: الآية ١٦]. فهذا أكبر زاجر وأعظم واعظ، فعلىٰ المرء إذا همّ بشيء أن يراقب خالق السموات والأرض، ويعلم أنه حاضر يرىٰ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: الآية ٧] ليُحاسب.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٢٩ ـ ١٣٤].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

في هذه الآية الكريمة أوجه متقاربة من التفسير معروفة عند العلماء، لا يكذب بعضها بعضاً، بل كلها حق. قوله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما سلّطنا شياطين الجن علىٰ شياطين الإنس حتى أغووهم واستكثروا منهم فأدخلوهم النار، كما تقدم في قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ في قوله: ﴿نُوَلِّى﴾ أوجه معروفة[(١)]:

أحدها: أن معنىٰ: نوليهم عليهم أي: نوليهم ولاية تسليط، أي: نسلط بعض الظالمين علىٰ بعض فيضره ويؤذيه، ثم ننتقم من الجميع.

ومَا مِنْ يدٍ إلا يدُ اللّهِ فوقَها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالمِ[(٢)]

فكما سلطنا شياطين الجن على شياطين الإنس فأغووهم وأضروهم حتى أدخلوهم النار، كذلك نسلط بعض الظالمين علىٰ بعض، فننتقم من بعض الظالمين ببعضهم، ثم ننتقم من الجميع. واختار أبو جعفر بن جرير الطبري أن معنىٰ: ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١١٨)، القرطبي (٧/ ٨٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٢٢).

(٢) هذا البيت أورده ابن كثير في التفسير (٢/ ١٧٦).

أي: نجعل بعضهم أولياء بعض، فالكافر ولي الكافر حيثما كان، وأينما كان[١]. واستدل له بقوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] وكان قتادة يقول: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: نتابعهم طائفة بعد طائفة في النار يوم القيامة[٢]، كما سيأتي في قوله لمّا ذكر الجن والإنس: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] وكونه يوم القيامة بالموالاة في النار ليس بأظهرها، بل إنما هو تسليط بعضهم علىٰ بعض، فيؤذيه انتقاماً من الله من بعض الظلمة ببعض، أو يُولّي بعضهم لبعض؛ لأن الكافرين بعضهم أولياء بعض، كما صرحوا به لله في قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] وجاء في حديث أخرجه ابن عساكر: «من سلط ظالماً أعانه الله عليه»[٣] وهو من تولية بعض الظالمين علىٰ بعض. والحديث فيه غرابة معروفة (غريب). ولما سمع عبد الله بن الزبير بقتل عبد الملك للأشدق[٤] ذكر هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٢٠).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ١١٩).

(٣) لفظه: «من أعان ظالماً سلّطه الله عليه» وقد أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق ٣٤/ ٤)، (وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٤/ ١٥٣)، وأورده القرطبي في التفسير (٧/ ٨٥)، وابن كثير في التفسير (٢/ ١٧٦)، وقال: «هذا حديث غريب». اهـ.
وانظر: كشف الخفاء (٢/ ٢٩٧)، مختصر المقاصد الحسنة ص ١٨٦، وقال: (ضعيف جداً). اهـ. وضعيف الجامع رقم: (٥٤٥٣)، السلسلة الضعيفة رقم: (١٩٣٧) وقال: موضوع.

(٤) وهو: عمرو بن سعيد بن العاص. انظر ترجمته في: مختصر تاريخ ابن عساكر =

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾[١] يريد أن معناها عنده: أن الله ينتقم من بعض الظالمين ببعض. هذا جُلّ أقوال العلماء في معنىٰ: ﴿نُوَلِّي﴾.

وأما (الظالمين) فهو جمع تصحيح للظالم، والظالم: اسم فاعل الظلم، والظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير موضعه، وكل من وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم في لغة العرب[٢]، ومنه يقولون للذي يضرب لَبَنَه قبل أن يروب: هذا ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضَرْبه قبل أن يروب يضيع زبده، وفي لُغَز الحريري[٣] في مقاماته: هل يجوز أن يكون القاضي ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً. يعني بكونه ظالماً: أنه يضرب لبنه قبل أن يروب. وهذا المعنىٰ مطروق في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٤]:

وقائلة: ظَلَمتُ لكم سقائي ... وهل يخفَىٰ علىٰ العَكَد الظَّليم؟

(ظلمت لكم سقائي) تعني: أنها ضَرَبَتْه لهم فشربوه قبل أن يروب. وقوله: «وهل يخفىٰ علىٰ العَكَدِ الظليم» العَكَد: عَصَب اللسان، لا يخفىٰ عليه اللبن المضروب قبل أن يروب من غيره. ومنه بهذا المعنىٰ قول الآخر في سقاء له فيه لبن[٥]:

وصاحبِ صدقٍ لم تَرِبْني شَكَاتُه ... ظلمتُ وفي ظَلْمي له عَامِداً أَجْرُ

= لابن منظور (١٩/ ٢١٤).

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

يعني أنه سقى الناس به قبل أن يروب. وفي هذا الضرب هو يريد الأجر؛ لأنه صدقة منه؛ ولذا قال:

وصاحبِ صدقٍ لم تَرِبْني شَكَاتُه ظَلَمتُ، وفي ظَلمي له عامداً أجرُ

ومن هنا كانت العرب تسمي الأرض التي لم تُحفر، وليست محلاًّ للحفر، إذا حُفِرَت: (مظلومة) لأن الحفر وُضِعَ في غير موضعه. ومنه علىٰ التحقيق قول نابغة ذبيان[1]:

إلاّ الأَوَاريَّ لأْياً ما أُبَيِّنُهَا والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

أي: بالأرض التي ليست محلاًّ لأن يُحفر فيها، وحفر النؤي فيها حفر في غير محله؛ لأنَها في فلاة من الأرض. هذا هو التحقيق، دون قول من قال: إن الأرض المظلومة: التي تأخر عنها المطر. هذا ليس بالصحيح في معنىٰ البيت. ومنه تقول العرب للتراب الذي يُخرج من القبر إذا حُفر، تقول له: ظليم، (فَعِيل) بمعنىٰ (مَفْعُول) أي: مظلوم؛ لأن العادة أن القبور إنما تُحفر في المَحَالِّ التي ليس من شأنها أن يُحفر فيها سابقاً، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر يذكر ميتاً[2]:

فأصبحَ في غبراءَ بعد إشاحةٍ من العيشِ، مردودٍ عليها ظَلِيمُها

يعني بـ (غبراء): القبر و (مَرْدُود عليها ظَلِيْمُها) أي: الأرض التي أُخرجت منها عند الحفر رُدّت عليها عند الدفن. هذا أصل الظلم في لغة العرب، هو وضع الشيء في غير موضعه. وقد جاء في القرآن في موضع واحد معناه: النقص، وهو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: الآية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً. إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب هو وضع الشيء في غير موضعه، اعلموا أنّ وضع الشيء في غير موضعه على نوعين:

أحدهما: أن يكون بالغاً في غاية القباحة والشناعة.

والثاني: أن يكون دون ذلك.

أما وضع الشيء في غير موضعه البالغ غاية الشناعة: فهو وضع العبادة في غير خالق السماوات والأرض، فمن عَبَد غير الذي خَلَقَه ورَزَقَه فقد وضع الأمر في غير موضعه، فهو أعظم الظالمين، وأخبث الواضعين للشيء في غير موضعه؛ ولهذا المعنى[1] كثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم مراداً به الكفر، وهو أخبث أنواعه، ومنه قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٠] وقوله: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٦] وقال عن العبد الحكيم لقمان: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسر قوله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: معناه لم يلبسوا إيمانهم بشرك[2].

النوع الثاني من أنواع الظلم: هو وضع الطاعة في غير

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

موضعها، والمعصية في غير معصيتها[١] بما لا يؤدي إلى الكفر، كأن يزين لك الشيطان أن تعمل عملاً يخالف الشرع فتطيع الشيطان، وتعصي الله، وأنت عالم أنك عاص مجرم، وأنك فعلت قبيحاً، فهذا ظلم دون ظلم، ووضع للطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها، وليس بكفر، وهو ظلم دون ظلم. ومنه بهذا المعنىٰ: قوله تعالىٰ في سورة فاطر لما نَوَّه بشأن القرآن العظيم، وأنه أعظم فضل أُعطيه الخلق، وأن جميع الأمة التي أُعطي لها هي قد اصطفاها الله، وأن كلها في الجنة، قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢] وبين أن هذا النور المنزل لا يعطيه الله إلا لمن اصطفاه واختاره، وهو النصيب الأعظم الأكبر الذي يعطيه الله، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهذا ظلم دون ظلم، كالذي يعصي تارة ويطيع أُخرىٰ، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٢] والعلماء يقولون: «عسى» من الله واجبة[٢]. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم هو الفضل العظيم عليهم منا؛ فلذا علَّمنا الله أن نحمده علىٰ هذا الفضل العظيم في قوله في أول سورة الكهف:

---

(١) أي: تكون طاعته تبعاً للنفس، والهوى، والشيطان. وتكون معصية لله بدلاً من أن يعصي هواه وشيطانه.

(٢) انظر: ابن جرير (٨/ ٥٧٩)، (١٤/ ١٦٧، ٤٤٧)، حجج القرآن ص ٨٣، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٧)، البرهان للزركشي (٤/ ٥٧، ١٥٨، ٢٨٨)، الإتقان (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، الكليات ص ٢٩٧، ٦٣٥، فتح البيان (٧/ ١١٠ ـ ١١١، ١٦٩).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف: الآية ١] أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ما، لا في معانيه، ولا في ألفاظه، ولا في أحكامه، ولا في أخباره. أخباره كلها حق، صدق، وأحكامه كلها عدل، وهو في غاية الاستقامة، لم يجعل الله فيه اعوجاجاً ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً في غاية الاستقامة. ثم لما ذكر هذه الأصناف الثلاثة التي انقسمت إليها أمة الكتاب الذي أُورثت إياه بدأ بالظالم لنفسه في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ثم وعد الجميع بوعده الصادق الذي لا يُخلف دخول الجنة، قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر: الآيات ٣٣ ــ ٣٥] فهذا الظالم المعدود ممن أُورثوا الكتاب، الموعود بالجنة، ظُلْمُه: ظُلْمٌ دون ظُلْم. وأصح التفسيرات في (الظالم)، و (المقتصد)، و (السابق)(١)، فيما يظهر:

أن (الظالم) هو من يطيع الشيطان مرة، ويعصيه أُخرىٰ، ويطيع الله مرة، وربما عصاه، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: الآية ١٠٢].

والمقتصد: هو الذي يمتثل أوامر الله، ويجتنب نواهي الله، ولكنه لا يتقرب بزيادة الطاعات الغير الواجبة.

وأما السابق بالخيرات: فهو الذي يجتنب محارم الله، ويمتثل أوامر الله، ويستكثر من القربات والطاعات الغير الواجبة مرضاةً لله.

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

وفي آية فاطر هذه ــ التي ذكرناها استطراداً ــ فيها سؤال معروف، وهو أن يُقال: كيف بدأ الله بالظالم في هذه الآية، وقدّمه على المقتصد، وأخّر السابق بالخيرات، مع أنهما خير من الظالم، وخيرهم السابق بالخيرات، ثم المقتصد، ثم الظالم. فَلِمَ قدم هذا الذي غيره أفضل منه؟(١)

وللعلماء عن هذا التقديم أجوبة معروفة، منها:

أن هذا إظهار كرم من الله يستدعيهم بالقرآن بفضل آثاره علىٰ الأمة التي أُورثت إياه، فبدأ بالظالم لئلا يقنط، وأخّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الخَطَّاؤون الذين يظلمون أنفسهم، يخالفون مرة ويُنيبون إلىٰ الله. وأما السابقون بالخير فقليل جداً، والمقتصدون أقل من الظالمين؛ ولذا لما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن معنىٰ هذه الآية قالت: المقتصد الذي ربما خالف، مثلي ومثلك(٢). ــ جعلت نفسها من الظالمين ــ فقدّم الظالمين لأنفسهم لأنهم أكثر أهل الجنة، والأكثرية لها شأن، فعُلم من هذه الآية أن الظلم قد يكون ظلماً دون ظلم، والظلم معناه: وضع الشيء في غير موضعه، تارة يَعْظُم فيكون كفراً، وتارة يكون ظلماً دون ظلم فلا يكون كفراً. وهذا معنىٰ قوله:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ٢٠٩ رقم: (١٤٨٩)، والحاكم (٢/ ٤٢٦)، والطبراني في الأوسط رقم: (٦٠٩٠)، (٧/ ٥٦)، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٢٥١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه. وسنده ضعيف جداً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ أي: نولي البعض منهم البعض الآخر، كما بينّا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ وهذه التولية بينهم هي: تسليط بعضهم علىٰ بعض ليؤذيه ويضره، أو: جعل بعضهم ولياً للآخر أو قريناً له، كلها بسبب ما كانوا يعملونه، فعلىٰ أنها تسليط فهي انتقام منه لعمله السيىء، وعلىٰ أنها ولاية بعضهم البعض فهي بسبب اتحادهم بالعمل الخبيث والعمل السيِّئ؛ لأن الخبيث ولي الخبيث، والكافر ولي الكافر، والناس يوم القيامة أزواج، أي: أصناف، كل خبيث يُحشر مع من يطابقه من الخبثاء. كما سيأتي في قوله: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: الآية ٢٢] أي: أصنافهم وأشكالهم الملائمين لهم بالخبث ـ والعياذ بالله ـ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠].

هذا يُقال لهم يوم القيامة، يُقال لأهل النار يوم القيامة من الجن والإنس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يا جماعة الجن وجماعة الإنس، الذين طغيتم وكفرتم في دار الدنيا حتى دخلتم النار، وقيل لكم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] ألم تصلكم في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة رسلٌ ينذرونكم من هذا اليوم، ويحذرونكم من العذاب الذي أنتم فيه، ويبينون لكم طرق النجاة من هذا قبل أن تضيع الفرصة، فتكونوا قد حذرتم هذا العذاب، ونجوتم مع من

نجىٰ؟ وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾.
قال بعض[(١)] علماء التفسير: كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بـ (لم) إذا تقدمته همزة الاستفهام؛ فيه وجهان معروفان من التفسير في جميع القرآن:

أحدهما: أن الاستفهام استفهام تقرير، وهو الظاهر في هذه الآية. ومعنىٰ استفهام التقرير: هو الاستفهام الذي لا يريد المخاطِب به أن يُفْهِم الشيء، وإنما يريد أن يَحْمِل المخاطب علىٰ أن يُقر ويقول: بلىٰ، ويُقر بالحقيقة، كقول جرير لعبد الملك بن مروان[(٢)]:

ألستُم خيرَ من ركبَ المطايَا وأندىٰ العالمينَ بُطُونَ رَاحِ

مقصود جرير أن يقول عبد الملك: بلىٰ، فيقول: هذه [منزلتكم][(٣)] ما دمتم بهذه المثابة، هذا قصده.

الثاني: أن يَخْتَلج المُضَارَعَة مَاضَوِيَّة، وينقلب النفي إثباتاً، فيصير المضارع المنفي بـ (لم) معناه الماضي المُثْبَت، كقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الانشراح: الآية ١] معناه: شرحنا لك صدرك، وقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨﴾ [البلد: الآية ٨] جعلنا له عينين، ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أتاكم رسل منكم. وطالب العلم يعرف أن انقلاب المُضَارَعَة مَاضَوِيَّة أنه هنا واضح لا إشكال فيه؛ لأن لفظة (لم) حرف قلب، تقلب المضارع من معنىٰ الاستقبال إلىٰ معنىٰ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.
(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

الماضي. وهذا معروف، كقولك: «لم يأت زيد». بمعنىٰ: ما جاء زيد في الماضي. وهذا معروف، فقلب المضارع ماضَوِيّاً ظاهر، ولكن قلب النفي إثباتاً هو الذي يُشكل علىٰ طالب العلم، وإيضاحه علىٰ هذا التفسير: أن همزة الاستنكار المتقدمة علىٰ حرف (لم) أصلها حرف إنكار، فهو مشتمل علىٰ معنىٰ النفي، ويتسلط النفي الكامن في الهمزة علىٰ النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات، ويرجع النفي إلىٰ الإثبات، والمُضَارَعَة إلىٰ المَاضَوِيَّة. ومعنىٰ القولين واحد.

ومعنىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يجئكم في دار الدنيا رسل منكم. الرُّسل: جمع الرسول، والرسول: (فَعُول) بمعنىٰ (مُفْعَل) والمراد بهم هنا: من أرسله الله، فالرسول ــ طبعاً ــ يكون من الإنس، ومن الملائكة، كما سيأتي في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: الآية ٧٥] أما الجن فسنذكر الخلاف فيهم ــ الآن ــ المعروف عند العلماء، فالرسل: جمع رسول، وهو (فَعُول) بمعنىٰ (مُفْعَل) أي: مُرسل، وأصله مصدر، وإتيان المصادر علىٰ (فَعُول) قليل جداً، كالرسول، فأصله من معنىٰ الرسالة، وكالقبُول، والوَلُوع، وكون الرسول أصله مصدر فيه فوائد، تفيد في التفسير؛ لأن أصل الرسول مصدر، تقول العرب: «أرسلتُه رسولاً». أي: رسالة. و«ما أرسلتُه برسول». أي: برسالة: فأصله: مصدر، ومنه قول الشاعر(١):

(١) البيت لكُثَيِّر عزة. وهو في ديوانه ص ١٧٦، اللسان (مادة: رسل) (٣/ ٧١)، ولفظه في الديوان:

لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهم بِلَيْلى ولا أرسلتُهم برسولِ=

لقد كذبَ الواشون ما فُهْتُ عندهم بقولٍ ولا أرسلتهُم برسولِ

أي: برسالة. والمصدر إذا نُعت به ــ بأن أُجري مجرى الوصف ــ جاز إفراده، وربما جاز جمعه وتثنيته نظراً إلىٰ وصفيته العارضة[1]. وتارة يُنظر إلىٰ أصله وهو المصدر، فلا يُجمع ولا يُثنىٰ، وتارة يُنظر إلىٰ ما عرض له من الوصفية فيُجمع ويُثنىٰ. وبهذا التقرير يزول الإشكال في قوله عن موسىٰ وهارون في الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الشعراء: الآية ١٦] وفي طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: الآية ٤٧] فثنّىٰ في آية، وأفرد في أخرىٰ، وهما رجلان: موسىٰ وهارون، فإفراد الرسول نظراً إلىٰ أصله وهو المصدر، وتثنيته في قولهم: ﴿إِنَّا رَسُولَا﴾ نظراً إلىٰ الوصفية العارضة له؛ ولذلك جمع الرسل هنا في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾، وفي قوله: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣] فيجوز إطلاق الرسول مراداً به الجمع أيضاً، كما أُريد به الاثنان، لكن إطلاق الرسول مراداً به الجمع ما جاء في القرآن، وإنما جاء في كلام العرب بكثرة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في رائيته المشهورة[2]:

أَلِكْنِي إليها وخَيْرُ الر سولِ أَعلَمُهم بنواحي الخَبَر

فرد علىٰ الرسول ضمير الجمع؛ لأن أصله مصدر.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ظاهر قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أن من الإنس رسلاً ومن الجن رسلاً، هذا هو المتبادر من الآية؛ ولأجل هذا

= مشاهد الإنصاف ص ٩٩ وفيه (بِسِرٍّ) بدلاً من (بقول).

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

الظاهر تمسك قوم قليلون بأن الله بعث من الجن رسلاً إلىٰ الجن[١]. وزعم بعضهم أنه ما أرسل للجن منهم إلا رسولاً واحداً، واسمه يوسف. والذي عليه جماهير العلماء، خلفاً وسلفاً، أن الرسل جميعهم إنما هم من الإنس، وإنما قال: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ لمجموع الإنس والجن، نظراً إلىٰ أن العرب تطلق المجموع وتريد بعضه. أي: من مجموعكم الصادق بالإنس دون الجن. وهو كثير في القرآن، وفي كلام العرب[٢]، فمنه في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: الآيتان ١٥، ١٦] أي: في مجموعهن الصادق بواحدة منها. وأظهر الآيات الدالة عليه في القرآن قراءة حمزة، والكسائي[٣]: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُم﴾ [البقرة: الآية ١٩١] لأنَّ المراد هنا: بأنه لا يصح أن تقول: «فإن قتلوكم ومتم وخرجتم من الدنيا، فاقتلوهم» [وعلى هذا المعنى يُحمل قول الشاعر:

فإن تقتلونا عند حرة واقم ... فلسنا على الإسلام أول من قُتل][٤]

هو حي يتكلم، ويقول: «فإن تقتلونا» يعني: تقتلوا بعضنا. هذا هو المعروف في كلام العرب، أي: من مجموعكم الصادق بالإنس، بناء علىٰ أن الجن لم تُرسل منهم رسل.

---

(١) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (١٢/ ١٢١)، القرطبي (٧/ ٨٦)، ابن كثير (٢/ ١٧٧)، (٤/ ١٧٠)، البحر المحيط (٤/ ٢٢٢)، أضواء البيان (٢/ ٢١٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٤) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وجمع بعض العلماء بين القولين فقال: رسل الإنس هم الذين يرسلهم الله بواسطة الملك، ورسل الجن هم الذين ينذرون قومهم بما سمعوا من الأنبياء، فهم رسل الرسل / ولذا أطلق عليهم (الرسل) [١٧/ب] هنا. ويطلق عليهم (النُّذر)، كما يأتي في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] فالنُّذر كأنهم جاؤوهم منذرين مُرْسَلين من النبي ﷺ، وقد ثبت في الأحاديث ـ وكما يأتي في سورة الجن ـ أن الجن جاؤوا النبي ﷺ وكادوا يكونون عليه لبداً، وأنه دعاهم إلىٰ الإسلام، وعلمهم الدين، وأمرهم أن يبلغوا قومهم. ومن هنا قال جمهور العلماء: الرسل من الإنس، والجن ليسوا برسل [وإنما يكون منهم نُذر][1] إلىٰ قومهم، كما قال: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقد أجمع جميع المسلمين أن نبينا ﷺ مرسل إلىٰ الجن والإنس معاً، وأنه بلّغ الرسالة لمن استطاع أن يبلغه من الجنسين، وأمر كُلًّا منهم أن يبلغ من لقي، وقال: «**فليبلغ الشاهد الغائب**»[2]، وقد يأتي صريحاً في سورة الرحمٰن لما قرأ علىٰ الجن سورة الرحمٰن، وقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمٰن: الآية ٣٣] كلما قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٣٢] والتثنية للجن والإنس، والجن

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) هذه الجملة جزء من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، وسيأتي عند تفسير الآيتين (٨٩ ـ ٩٠) من سورة التوبة.

يقولون: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب[١]. وذكر الله كثيراً من قصصهم في سورة الجن، وبيَّن أنهم ما كانوا يظنون أن الله يُمَكِّنُ أحداً أن يفتري عليه، قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ [الجن: الآية ٥] وبينوا أن منهم طيبين وخبثاء: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [الجن: الآية ١١] وتحصَّل أن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ جمهور العلماء علىٰ أن الرسل كلهم من الإنس، وأنه أُطلق المجموع مراداً بعضه، لا أن الجن رسل أُرسلوا إلىٰ قومهم. وخالف بعض قليل من أهل العلم وقالوا: أُرسلت للجن رسل منهم لظاهر هذه الآية الكريمة، قالوا: ولأن كون الرسل منهم أدرىٰ بأحوالهم، وأقدر علىٰ تبليغهم، وذلك ليس بقاطع؛ لأن النبي ﷺ لما جاءه جن نصيبين تكلم معهم، وخاطبوه في كل ما يفيد، وأباح لهم ما أباح لهم من الزاد، كما هو معروف في الأحاديث الصحيحة، ودعاهم إلى الإسلام[٢]. وهذا معنىٰ قوله:

---

(١) ورد ذلك في حديث مرفوع أخرجه الترمذي في التفسير، باب «ومن سورة الرحمٰن»، حديث رقم: (٣٢٩١)، (٥/ ٣٩٩)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، من حديث جابر رضي الله عنه، وللحديث شاهد من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند البزار (كشف الأستار ٣/ ٧٤)، وابن جرير (٢٧/ ١٢٣ ـ ١٢٤)، وانظر: السلسلة الصحيحة رقم: (٢١٥٠)، صحيح الترمذي (٣/ ١١٢).

(٢) جاء في وفد نصيبين من الجن عدة أحاديث، منها:
١ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في مناقب الأنصار، باب ذكر الجن، حديث رقم: (٣٨٦٠)، (٧/ ١٧١).
٢ ـ حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، عند الطبري في التفسير (٢٦/ ٣٠، ٣١، ٣٣).
=

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ معنىٰ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي التي أُنزلت، ويبينون لكم ما فيها من العقائد، ومن الحلال والحرام، ومما أمرت به وبيّنت أنه يُدْخِل الجنة، ومما بينت في آياتي أنه سبب لدخول النار ــ وهي التي أنتم فيها ــ وحذرت جميعكم علىٰ ألسنة الرسل من ذلك الفعل الذي يكون سبباً لدخولها.

وقد أجمع جميع العلماء علىٰ أن الكفرة من الجن في النار، هذا لا نزاع فيه بين العلماء، والآيات الدالة عليه كثيرة في القرآن العظيم، كقوله جلّ وعلا: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] فصرح بأن أُمماً منهم كثيرة في النار في آيات كثيرة، وقالوا لقومهم: إنهم إن لم يجيبوا داعي الله يعذبهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾ إلى أن قال: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] فلا خلاف أن الجن يُعذب كافرهم وعاصيهم، كما يُعذب كافر الإنس وعاصيهم، وإنما

= ٣ ــ حديث الزبير بن العوام (رضي الله عنه)، عند الطبراني في الكبير (١/ ١٢٥)، وحسنه الهيثمي في المجمع (١/ ٢١٠).

٤ ــ حديث ابن مسعود (رضي الله عنه)، وقد جاء بروايات وطرق كثيرة بألفاظ متفاوتة، وممن أخرج حديثه: الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٥٨)، وابن جرير في التفسير (٢٦/ ٣٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٧٧، ٧٩، ٨٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦١١)، والخطيب في تاريخه (٢/ ٣٩٨)، وللوقوف على بعض روايات أحاديث استماع الجن للنبي ﷺ. انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٢٥ ــ ٢٣٣)، مجمع الزوائد (٨/ ٣١٣ ــ ٣١٤)، فتح الباري (٧/ ١٧١ ــ ١٧٢)، الدراية (١/ ٦٣ ــ ٦٧)، نصب الراية (١/ ١٣٩ ــ ١٤٧).

الخلاف المشهور بين العلماء: هل الجن يدخلون الجنة أو لا يدخلون الجنة؟؟[١] وهذا خلاف معروف قديم بين العلماء، ويُروى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه من الطائفة الذين يقولون: لا يدخل الجن الجنة، وأن الجنة لا يدخلها أحد من الجن. وغالب ما استدل به هؤلاء: أن الله جعل جزاءهم هو الإجارة من العذاب فقط، وغفران الذنوب فقط، حيث قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] ولم يقل: ويدخلكم الجنة. بخلاف الإنس، فإنه إذا ذُكر ثواب الطاعة تُذكر الجنة جزاء لها، ولم يذكر الله في القرآن جزاءً للجن إلا غفران الذنوب، والإجارة من العذاب الأليم. ومن هنا قال من قال: إن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة.

والتحقيق الذي عليه جمهور العلماء: أنهم كما أن كافرهم في النار فمؤمنهم المطيع في الجنة، وقد دلت علىٰ هذا بعض ظواهر الآيات، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن: الآية ٥٦] فعُلم أن في الجنة جاناً يطمثون النساء، ومن أصرح الأدلة في ذلك: قوله تعالىٰ مُخَاطِباً الجن والإنس: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٤٦] ثم قال مبيناً دخول الجن والإنس فيه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٤٧]. فلو لم يكن من الآلاء على الجن دخولهم الجنة لما قال فيهم وفي الإنس معاً: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ بعد قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ

(١) انظر: القرطبي (١٦/ ٢١٧ ـ ٢١٨)، ابن كثير (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١)، طريق الهجرتين ص ٤١٧ ـ ٤٢٧، أضواء البيان (٧/ ٤٠٢ ـ ٤٠٧)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٦٣ ـ ٢٦٨.

جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فدل قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ الصادق على الجن والإنس، على أن قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: للجن والإنس. وهذا هو الأظهر. وهذا معنى قوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾. (ينذرون) هو مضارع فعل الإنذار. والإنذار في لغة العرب: هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، وكل إعلام اقترن بتخويف وتهديد فهو المسمى بالإنذار[١]. ومعنى: ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي: يُعلمونكم بما في هذا اليوم من الأهوال والأوجال وشدّة عذاب النار، في حال كونهم مهددين لكم ومخوفين من الأعمال التي تُؤدي إليه. وهذا [معنى][٢] قوله: ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ وعبّر عن اليوم باللقاء لأنهم يُلاقون ما فيه من الأهوال والأوجال، وعادة العرب أن تذكر اليوم ومرادها ما فيه من البلايا والأوجال[٣]، كقول نبي الله لوط: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود: الآية ٧٧] والزمن بنفسه كسائر الأزمان، وإنما المراد ما فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المزمل: الآية ١٧] والذي يجعل الولدان شيباً إنما هو ما فيه من الأهوال الأوجال؛ لأن نفس اليوم ظرف من الظروف كسائر غيره من الظروف. ومنه قول الشاعر[٤]:

---

(١) انظر: المفردات (مادة: نذر) ص ٧٩٧، القاموس (مادة: النذر) ص ٦١٩، الأضواء (٢/ ٢٨٨).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: المزهر (١/ ٣٣٦).

(٤) البيت لعدي بن زيد. وهو في تفسير ابن جرير (١٥/ ٤٠٩)، تاريخ دمشق (٤٠/ ١١٩)، الدر المصون (٦/ ٣٦١)، وقوله: «الزاز» أي: ملازم. وقوله: «لم أُعرد» أي: لم أُحجم.

وكنت لـزاز خصمـكَ لـم أُعَـرِّد وقـد سلكُـوكَ فـي يـومٍ عَصِيْـبِ

(. . .)[١] هذه عادة العرب والقرآن نزل بلسان عربـي مبين.

لما وبخهم الله هذا التوبيخ، وقرعهم هذا التقريع، أقرّوا نادمين حيث لا ينفع الندم، فبين (جلّ وعلا) في سورة الملك أن ذلك الاعتراف في الوقت الذي لا ينفع فيه الاعتراف والندم ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك: الآية ١١]. ﴿ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾ أقروا في ذلك الموضع علىٰ رؤوس الأشهاد ﴿ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠] أن الرسل بلغونا، وحذرونا، وأنذرونا لقاء هذا اليوم، فحذرونا مما نحن فيه من البلايا غاية التحذير، لكنهم ــ والعياذ بالله ــ عَصَوا، وأَبَوا وتمردوا، فأقروا بالحقيقة كما هي.

ثم بيّن الله السبب الذي كذبوا به الرسل ولم يعتنوا بالإنذار، قال: ﴿ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ لأن الدنيا دار الغرور، تغر الجاهل فيشتغل بشهواتها ولذاتها وراحتها عن موجبات الجنة؛ لأن ما يُدخل الجنة فيه تكاليف شاقة، تشقّ علىٰ من لم يهدهم الله، وإن الصلاة يقول الله فيها: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة: الآية ٤٥] فالرجل يكون عزيزاً مطاعاً، فإذا دخل الإسلام كان واحداً من عامة الناس، مأموراً مرؤوساً من غيره، فيشق هذا عليه، وكذلك أوقات التكاليف يتكاسلون عنها ويختارون عنها لذات الدنيا، فالذي يصوم، ويجوع، ويعطش، يفضل علىٰ ذلك أن يأكل، ويشرب، ويجامع، إلىٰ غير ذلك من لذات الدنيا، فلذات الدنيا عاجلة، وتشغل الإنسان عن معاده، حتى يضيع عمره فيما لا ينبغي، فيدخل النار، فيندم

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

حيث لا ينفع الندم. وهذا [معنى][1] قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ والعياذ بالله ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ في دار الدنيا، مع أن الرسل أنذرتهم وحذرتهم الكفر، وقد نص الله على أنهم شهدوا على أنفسهم بالدنيا بالكفر، والظاهر أنها شهادة صريحة منهم، ونص علىٰ شهادتهم في دار الدنيا بالكفر أيضاً حيث قال في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [التوبة: الآية ١٧] وهذه الشهادة قيل: هي شهادة لسان الحال، وقيل أيضاً: شهادة مقال[2]، ونظيره قوله في العاديات: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات: الآيتان ٦، ٧]. بناءً على التحقيق من أن الضمير عائد إلى الإنسان[3].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: الله في آية الأنعام هذه بيّن أنهم لما سُئلوا اعترفوا، وهذا جاء في مواضع كثيرة ــ هذا الاعتراف ــ كقوله في سورة الزمر التي وصف فيها يوم القيامة كأنك تنظر إليه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: الآية ٦٩]، وقال فيه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يعنون في دار الدنيا ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الزمر: الآية ٧١] ولما قالوا في سورة المؤمن لخزنة النار:

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.
(٢) انظر: فتح القدير (٢/ ٣٤٤).
(٣) انظر: أضواء البيان (١/ ١٢)، قواعد التفسير (١/ ١١٦، ٢٧٩، ٤١٩).

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: الآيتان ٤٩، ٥٠] وهذه الآيات تدل علىٰ أنهم أقرّوا بما كانوا فيه. ونظيرها قوله في النساء: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: الآية ٤٢] بل يُقرون بكل ما فعلوا. قد يقول طالب العلم: هـذه الآيـات وأمثالها تدل علىٰ أنهم أخبروا بالواقع ففي القرآن آيات أُخر تـدل علىٰ إنكارهم وحلفهم علىٰ الإنكار، كقوله عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٣]، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل: الآيــة ٢٨]، وقـولـه جلّ وعلا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: الآية ٧٤]. فهذه الآيات تدل علىٰ إنكارهم لِمَا جاؤوا به من الكفر، وهذه تدل علىٰ إقرارهم. وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: الآية ٤٢] مع قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] فأجاب ترجمان القرآن عبد الله بن عباس قال: إنهم إذا رأوا أهـل الـشرك لا خلاص لهم قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فعند ذلك يختم الله عـلىٰ ألسنتهم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون(١). فهذه الأسرار التي يقولها ويفصح عنها إنما هي أيديهم، وألسنتهم، وجـلودهم، كما قال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: الآية ٢٢]، وقال: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: الآية ٢١]، ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٨/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)، وهو في الدر المنثور (٢/ ١٦٤).

أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: الآية ٦٥] قال ابن عباس: فالاثنان من جهة اللسان، والإقرار والإيضاح من جهة الجوارح، والجلود، والأرجل، والأيدي.

وقال بعض العلماء: وجه الجمع بين الآيات: أن يوم القيامة يوم طويل؛ لأن الله قال فيه: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج: الآية ٤] ولا خلاف بين العلماء أن اليوم الذي قيل فيه خمسين ألف سنة أنه يوم القيامة(١). أما يوم الألف السنة في الحج، ويوم الألف السنة في السجدة، ففيهما أقوال غير هذا(٢)؛ لأن الله يقول في الحج: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج: الآية ٤٧] ويقول في السجدة: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة: الآية ٥]، وقال في سورة المعارج: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: الآيتان ٤، ٥] ويوم الخمسين ألف سنة: هو يوم القيامة بلا خلاف(٣)، إلا أن العلماء ذكروا أنه إنما يطول هذا الطول علىٰ الكافرين خاصة أما علىٰ المؤمنين فهو كنصف نهار، وجاءت آية في سورة الفرقان تدل علىٰ ذلك، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفرقان: الآية ٢٤] لأنه سمّاه ﴿ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ والمقيل: الاستراحة بالقيلولة في

(١) ذكر فيه ابن كثير (رحمه الله) أربعة أقوال. انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٨ ــ ٤٢٠)، القرطبي (١٨/ ٢٨١ ــ ٢٨٣).

(٢) انظر: القرطبي (١٢/ ٧٨)، (١٤/ ٨٧)، ابن كثير (٣/ ٢٢٨، ٤٥٧)، أضواء البيان (٥/ ٧١٨).

(٣) في الجمع بين هذه الآيات انظر: الأضواء (٦/ ٥٠٣).

وسط النهار(١). وأتبع هذه الآية بأن هذا لخصوص المؤمنين دون الكافرين حيث قال بعد آية الفرقان هذه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: الآية ٢٦] وقال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: الآيتان ٩، ١٠]. فيُفهم منه أنه على المؤمنين يسير. فإذا كان علىٰ الكافرين مقداره خمسين ألف سنة فهذه أزمان ومواطن متعددة، ففي بعضها ينكرون، وفي بعضها يقرون، ومثل هذا الإقرار الذي أقروا به في بعض المواطن، والإنكار الذي أنكروا به في بعض المواطن، والكلام إذا كان في أزمنة مختلفة لا تناقض بينه أبداً؛ لأن هذا الإثبات في وقت، والنفي في وقت آخر، فلا تناقض بين الآيات(٢). وهذا معنىٰ قوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٣١ ــ ١٣٤].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١].

---

(١) انظر: القرطبي (١٣/ ٢٢)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٢٢، أضواء البيان (٦/ ٣٠٨ ــ ٣١١).

(٢) انظر: ابن عطية (٦/ ١٥٣)، البحر المحيط (٤/ ٢٢٣)، دفع إيهام الاضطراب ص ٨١، ٨٢، أضواء البيان (٥/ ٧٩٨)، (٦/ ٣٠٨ ــ ٣١١).

اختلفوا في موقع (ذلك) من الإعراب[١]، فعن سيبويه: أنها تتعلق بمحذوف، جملة ــ مبتدأ وخبر ــ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم. وذهب بعضهم إلىٰ أنها في محل نصب، أي: فعلنا ذلك؛ لأجل أن لم يكن ربك مهلك القرىٰ بظلم. و (أَنْ) هنا زعم بعضهم أنها المصدرية الناصبة للمضارع. وزعم بعضهم أنها المُخَفَّفة من الثقيلة. والمعنىٰ متقارب[٢].

ومعنىٰ الآية الكريمة: ذلك الذي ذكرنا من أَنَّا أرسلنا إلىٰ معاشر الجن والإنس رسلنا في دار الدنيا لينذروهم ويحذروهم حتىٰ شهدوا علىٰ أنفسهم أن الرسل بلغتهم في دار الدنيا، وأنهم كانوا كافرين، ذلك الإنذار والإعذار علىٰ ألسنة الرسل في دار الدنيا واقع من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرىٰ بظلم، أي: ليهلكها بظلمها بكفرها ومعاصيها. والقول الذي يقول: «ليهلك القرىٰ بظلمه لها قبل أن ينذرها» ليس علىٰ الصحيح، وإنما التحقيق أن المعنىٰ: ذلك الإنذار والإعذار علىٰ ألسنة الرسل في دار الدنيا؛ لأجل أن ربك لم يكن ليهلك القرىٰ بظلمها، أي: بكفرها ومعاصيها، والحال: هم غافلون، لم يُنبهوا برسول ولا بكتاب. بل لا بد من إزالة الغفلة في دار الدنيا بإرسال الرسول والكتاب[٣].

وهذه الآية الكريمة صرح الله فيها بأنه لم يكن ليهلك القرىٰ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٢٥)، القرطبي (٧/ ٨٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٢٤)، الدر المصون (٥/ ١٥٥).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٢٤)، القرطبي (٧/ ٨٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٢٤)، ابن كثير (٢/ ١٧٧ ــ ١٧٨)، طريق الهجرتين ص ٤١٣.

بظلمها وهي غافلة غير مُنَبَّهَة علىٰ ألسنة الرسل، مُنْذَرَة مُحَذَّرة علىٰ ألسنة الرسل.

فمعنىٰ قوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أي: غافلون عن حجج الله وتوحيده، لم يُنبَّهوا عليها بإنذار الرسل، بل لا بد من إنذار الرسل. والنفي هنا في قوله: ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ مُنْصَبٌّ علىٰ الحال؛ ولأن المنفي هنا إهلاكهم في حال كونهم غافلين، فالنفي مُنْصَبّ علىٰ الحال لا علىٰ إهلاك القرىٰ؛ لأن القرىٰ أُهلكوا، فالنفي مُنْصَبّ علىٰ الحال[1]، ونظيره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: الآية ٣٨] فالنفي منصب علىٰ اللعب الذي هو الحال لا علىٰ خلق السماوات والأرض.

وهذه الآية الكريمة تدل علىٰ أن الله لن يعذب قوماً لا بهلاك مستأصل في الدنيا، ولا بعذاب في الآخرة، حتىٰ ينذرهم علىٰ ألسنة رسله في دار الدنيا، ويكذبوا. والآيات الدالة علىٰ هذا المعنىٰ كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٥] فبين (جلّ وعلا) أن حكمة إرسال الرسل هي قطع حجة البشر عن خالقهم، حيث قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]. وهذه الحجة التي كانت تكون للناس علىٰ الله لو لم يرسل الرسل، أوضحها في أخريات (طه)، وأشار لها في (القصص)، قال في (طه): ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢١١).

قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: الآية ١٣٤]، وقال في (القصص): ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: الآية ٤٧] فهذه الآيات جاءت آيات تُصدقها، أن الله ما عذّب أحداً بالنار إلا بعد إنذارهم في دار الدنيا علىٰ ألسنة الرسل، ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ في سورة (الملك): ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا﴾ إن كلمة (كلما) تعمّ أزمنة الإلقاء كلها، فتُعمّ جميع المُلْقَيْن من الأفواج في النار، أنهم جاءهم نذير في الدنيا. ونظيرها من الآيات أن الله لما قسم أهل المحشر في سورة الزمر قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ و (الذين) موصولٌ، وقد تقرر في علم الأصول(١) أن الموصولات من صيغ العموم؛ لأنها تعمّ كل ما تشمله صِلاتها، قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وظاهر النص أنه شامل لكل من صدق عليه اسم الكافر. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: الآية ٧١] فمعنىٰ قولهم: (بلىٰ) أي: قد جاءنا نذير، والله ذكره عنهم في معرض التصديق والتسليم، ونظيره في سورة (فاطر) أنه لما قسم الأمة إلىٰ من أُورثوا القرآن، وقسمهم إلىٰ الطوائف الثلاثة: مقتصد، وسابق بالخيرات، وظالم، ووعد جميعهم الجنة، لم يبق إلا الكفار، قال في جميعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١/ ١٢٣)، نشر الورود (١/ ٢٥١).

يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: الآيتان ٣٦، ٣٧] وقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ راجع لجميع الذين كفروا، المذكورين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ ونظيرها من الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [غافر: الآيتان ٤٩، ٥٠] أي: جاءتنا رسلنا بالبينات، والآيات بنحو هذا كثيرة.

وهذه الآيات تدل علىٰ أن أهل الفترة معذورون؛ لأن الله يقول: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١] ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وتمسك بظاهر هذه الآيات جماعات من أهل العلم.

وذهب جماعات آخرون، إلىٰ أن الكفر وعبادة الأوثان لا يُعذر فيه أحد، وأن كل من مات كافراً يعبد الوثن، أنه في النار، وإن لم يأته نذير. واستدلوا بظواهر آيات من كتاب الله، وبأحاديث جاءت عن النبي ﷺ.

والحاصل أن هذه المسألة مسألة اصطدمت فيها عقول الفحول، واختلف فيها العلماء، وجاء كل منهم بحجج وأدلة، وسنذكر طرفاً من أدلة الجميع، ومناقشة أدلتهم، ثم نذكر ما يرجحه الدليل إن شاء الله تعالىٰ[1].

---

(١) في هذا المسألة راجع: مجموع الفتاوى (١٧/٣٠٨ ـ ٣١٠)، أحكام أهل الذمة =

أما الذين قالوا: إن من مات في الفترة معذور، فدلالة قوله: الآيات ــ التي ذكرنا ــ القرآنية، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: الآية ١٥]، ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾ [الأنعام: الآية ١٣١]، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]، ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾ [طه: الآية ١٣٤] وأن الله بيّن أنه ما أدخل أحداً النار إلا بعد الإنذار والإعذار في دار الدنيا ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] إلىٰ آخر ما ذكرنا من الآيات.

أما الذين قالوا: إن الكفر وعبادة الأوثان لا يُعذر فيها أحد، وأن كل من مات كافراً يعبد الأوثان فهو في النار ــ فاعلموا أولاً: أن الفروع كالصيام، والحج، والصلاة، والواجبات، والمحرمات، فهذا محل إجماع بين العلماء أن الله لا يؤاخذ به أحداً إلا بعد إبانة الرسل، وإنما الخلاف في شهادة أن لا إلـه إلا الله وعبادة الأوثان من دون

= (٢/ ٦٤٨ ــ ٦٥٦)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٩٨)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨ ــ ٣٢)، دفع إيهام الاضطراب ص ١٧٨ ــ ١٨٦، نثر الورود (١/ ٤٥)، أضواء البيان (٣/ ٤٧١ ــ ٤٨٤)، نواقض الإيمان الاعتقادية (١/ ٢٩٤ ــ ٣٠١)، الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه ص ٢٠٩ ــ ٢١٥، منهج الجدل والمناظرة (٢/ ٨٢٧).

ومما يتصل بهذا الموضوع: مسألة (أطفال المشركين)، وقد أطال الكلام عليها الحافظ ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٩٦ ــ ١٤١)، وفي الاستذكار (٨/ ٣٩٠ ــ ٤٠٨)، وابن القيم في طريق الهجرتين ص ٣٨٨ فما بعدها، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٧٢).

الله. هذا محل خلاف العلماء، الذين قالوا: إن كل من مات مشركاً بالله يعبد الأصنام أنه في النار، ولو لم يأته نذير ـ استدلوا بظواهر آيات دلت على ذلك، وبأحاديث، وناقشهم فيه خصماؤهم مناقشات سنُلم ببعضها. قالوا: قال الله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [النساء: الآية ١٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾ [آل عمران: الآية ٩١]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: الآية ٣١]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: الآية ٧٢]، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ [الأعراف: الآية ٥٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

واستدلوا بأحاديث ثابتة في الصحيح، صرح فيها النبي بتعذيب بعض من مات في الفترة، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبيّ ﷺ سأله رجل فقال: أين أبي؟ قال: «في النار»، فلما ولّى الرجل دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار»(١) فهذا ثابت من لفظ النبي في صحيح مسلم. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ استأذن ربه أن يزور أمه فأذن له أن يزورها، واستأذنه أن يستغفر لها فلم يُؤذن له. وفي بعض رواياته عند مسلم: فزار قبرها فبكىٰ وأبكىٰ، وقال:

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (بيان أن من مات على الكفر فهو في النار...)، حديث رقم: (٢٠٣)، (١/ ١٩١).

«فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة»[١].

وأمثال هذا من الأحاديث الثابتة في تعذيب بعض أهل الفترة. وهذا القول: أن كل من مات في الفترة علىٰ الإشراك، وعلىٰ دين الآباء، كما قال أبو طالب في آخر كلامه: «إنه علىٰ دين الأشياخ» الذين عاشوا في الفترة، وأنزل الله فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: الآية ٥٦] ولما استغفر له النبي ﷺ وقال: (لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك) واستغفر المسلمون لموتاهم، أنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ الآية[٢] [براءة: الآية ١١٣]. ولما قالوا: «لنا في إبراهيم أسوة حسنة، وقد استغفر إبراهيم لأبيه». أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾[٣] [التوبة: الآية ١١٤] والموعدة التي وعدها إياه: هي المذكورة في سورة (مريم): ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه (عزّ وجلّ) في زيارة قبر أمه، حديث رقم: (٩٧٦)، (٢/ ٦٧١).

(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث رقم: (١٣٦٠)، (٣/ ٢٢٢). وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر: الأحاديث رقم: (٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت...، حديث رقم: (٢٤، ٢٥)، (١/ ٥٤ ــ ٥٥) من غير الزيادة التي في آخره، وهي قوله: (فاستغفر المسلمون...) وهي عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٦١ ــ ٢٦٢.

(٣) أخرج ابن جرير في هذا المعنى جملة من المراسيل عن مجاهد (١٧٣٢٦)، وعمرو بن دينار (١٧٣٢٧).

مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: الآيتان ٤٦، ٤٧] ثم إن الله في سورة الممتحنة استثنىٰ الاستغفار للمشركين من أسوة إبراهيم، حيث قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ثم استثنىٰ من هذه الأسوة: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] فلا أسوة لكم بإبراهيم فيه.

وهذا القول الذي يقول: إن كل من مات مشركاً دخل النار، ولو لم يأته نذير، جزم به النووي في شرح مسلم(١)، وحكىٰ عليه القرافي الإجماع في شرح التنقيح في الأصول(٢).

وأجاب من قال بهذا عن الآيات التي ذكرنا من أربعة أوجه:

قال: قوله مثلاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٥] قالوا: يعني عذاب الدنيا، كما وقع لقوم نوح من الإغراق، وقوم هود من الريح العقيم، وقوم لوط من أن الله رفع أرضهم إلىٰ السماء فجعل عاليها سافلها. أما عذاب الآخرة فلم يُقصد، وحكىٰ القرطبي وأبو حيان علىٰ هذا أن عليه إجماع المفسرين(٣).

---

(١) عبارة النووي: «وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم». اهـ شرح مسلم (١/ ٤٨٢).

(٢) انظر: شرح تنقيح الفصول ص ٢٩٧. ولا يخفى أن الإجماع لم ينعقد على ذلك.

(٣) تتبعت جميع الآيات التي لها تعلق بهذا الموضوع في التفسيرين المذكورين فلم أجد لهذا الإجماع ذكراً، ولعله وهم من الشيخ ـ رحمه الله ـ بدليل أنه ذكر جميع هذه التفاصيل في أضواء البيان، وفي هذه الجزئية قال: «ونسب هذا القول=

الوجه الثاني: قالوا: إن الواضح الذي لا يلتبس علىٰ أحد، وهو عبادة الأوثان، لا عذر فيها؛ لأن عابديها يعلمون في قرارة أنفسهم أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها حجارة، ومثل هذا لا يُعذر فيه أحد؛ ولذا لما قال إبراهيم لقومه: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝﴾ [الأنبياء: الآية ٦٣] أجابوه فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥] قالوا: والدليل علىٰ أنهم يعلمون أن الأصنام لا تنفع ولا تضر، وأنها جمادات لا يُعذر أحد في عبادتها: أنهم إذا نزلت بهم شدائد، أو قامت عليهم كُربات، تركوا دعاء الأصنام، وأخلصوا الدعاء لله وحده؛ لأنهم يعرفون في أنفسهم أنه النافع الضار، المحيي المميت، الذي بيده الخير والشر، والآيات الدالة علىٰ ذلك كثيرة جداً، كقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: وخافوا الهلاك في البحر ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: الآية ٣٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أي: وهاجت عليهم أمواج البحر، وخافوا الهلاك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ۝ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] وقال جلّ وعلا: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ

= القرطبي، وأبو حيان، والشوكاني، وغيرهم في تفاسيرهم إلى الجمهور». اهـ الأضواء (٣/٤٧٦)، وانظر: القرطبي (١٠/٢٣١)، والبحر المحيط (٦/١٦).

مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣] والآيات في مثل هذا كثيرة، ومعلوم في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: أن النبي ﷺ لما فتح مكة خرج عكرمة بن أبي جهل لشدة عداوته للنبي ﷺ؛ لأنه قتل أباه يوم بدر. شرد هارباً إلىٰ الحبشة، فركب في قومٍ سفينةً من البحر الأحمر إلىٰ الحبشة، فلما توسطوا داخل البحر هاجت عليهم الريح، واضطربت أمواج البحر، ورأوا الهلاك، وظنوا الموت، فإذا جميع من في السفينة يتنادون ويقولون من أطراف السفينة: ألا فليحذر كل أحد منكم أن يدعو في هذا الوقت غير الله؛ فإنه لا ينقذ من هذه الكربات إلا هو وحده، ففهمها عكرمة، ثم قال: والله إن كان لا ينقذ من كربات البحر إلا هو، فلا ينقذ من ظلمات البر إلا هو. ثم قال: اللّٰهم لك علي عهداً إن أنقذتني من هذه لأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فهدأ البحر وسكنوا، فرجع إلىٰ النبي ﷺ وأسلم، وصار من فضلاء الصحابة(١). قالوا: كون الكفار يعلمون أن الله هو النافع الضار، وأن الأصنام جمادات لا تنفع ولا تضر، وأنهم إذا كان وقت الشدائد لجؤوا إلىٰ من بيده الأمر والنهي، هذا يدل علىٰ أنهم غير معذورين في عبادة الأوثان.

الوجه الثالث: زعموا أن عندهم بقية نذارة من إرث دين إبراهيم والرسل الذين أُرسلوا قبل محمد ﷺ.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ــ ٤١) من سورة الأنعام.

الوجه الرابع: هو ما ذكرنا من الأحاديث عن النبي ﷺ، من أنه ذكر أن بعض أهل الفترة في النار.

وأجاب القائلون [بعذرهم بالفترة](١) عن هذه الأوجه الأربعة رادّين لها، مجيبين عن كل واحد، فقالوا: قولكم: «إن العذاب يختص بالدنيا». فالدليل علىٰ أنه باطل أمران:

أحدهما: أنه خلاف ظاهر القرآن، والله لم يخصص بعذاب الدنيا دون عذاب الآخرة. فلم يقل: وما كنا معذبين في الدنيا. حتى تقصروا الظاهر عليه، وظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه(٢)، ولا دليل عندكم من ظاهر القرآن.

الوجه الثاني قالوا: إن الله صرح لنا في كتابه أن الذين عذبهم في النار أنذرهم في دار الدنيا علىٰ ألسنة رسله، كقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] إلى آخر الآيات التي ذكرناها آنفاً.

وأجابوا عن كون الأمر الواضح لا عذر فيه بأمرين:

أحدهما: أن ظاهر القرآن لم يفرق بين الأمر الواضح وغيره، ولا يجوز العدول عن ظاهره إلا بدليل.

الثاني: أن الله صرح بأنه ما عذب علىٰ ذلك الأمر الواضح أحداً إلا بعد إنذار الرسل في دار الدنيا ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩].

أما قول من قال: إنهم كانت عندهم بقية نَذارَة من نَذارَة

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.

إبراهيم وغيره من الرسل الذين كانوا قبل نبينا ﷺ، فهذا الوجه جزم به النووي في شرح مسلم[١]، ومال إليه ابن قاسم العبادي في الآيات البينات[٢]، وهو قول باطل بشهادة القرآن، وأنا أستغرب كيف يقوله عالم كالعبادي والنووي؟! مع أن الآيات القرآنية صريحة في بطلانه غاية الإبطال؛ لأن معناه أن الأمة التي بُعث فيها النبي كان مَنْ مات منها يُعذب بسبب نَذَارَة إبراهيم، والله يصرح في آيات كثيرة أن الأمة التي بعث فيها محمداً ﷺ لم تكن عندها نذارة البتة من أحد، من ذلك قوله في سورة (يس): ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: الآية ٦] و (ما) في قوله: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ نافية قطعاً. ومن قال: إنها موصولة فهو غالط. والدليل علىٰ أنها نافية أنه قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: الآية ٦] ولو كانت موصولة لما قال: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾. ومنها قوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: الآية ٤٦] فصرح بأنهم ما أتاهم من نذير، وقد تقرر في علم الأصول: أن النكرة في سياق النفي إن زيدت قبلها لفظة (مِنْ) كانت نصاً صريحاً في العموم[٣]، وقاله شيخ النحو سيبويه[٤] إنها إن زيدت قبلها (مِنْ) كانت صريحاً في العموم، فهي تعم نفي كل نذير. ومنه قوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾ [سبأ: الآية ٤٤] ومنه قوله في سورة

---

(١) انظر: شرح مسلم (١/ ٤٨٢).

(٢) انظر: الآيات البينات (٤/ ٢٦٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٤) الكتاب (٢/ ٣١٥، ٣١٦)، (٤/ ٢٢٥).

السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [السجدة: الآية ٣] إذ الله تعالى يصرح بأنهم لم يأتهم نذير، فليس لأحد أن يقول: إن عندهم نَذَارَة باقية يعاقبون / عليها. ويقول [١٨/أ] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: الآية ١٩] فصرح بأنها فترة.

أما الوجه الرابع، وهو ذَكَرَتْهُ بعض الأحاديث، كحَدِيثَي مسلم الذي ذكرنا، وهو محل مناقشة طويلة عريضة بين العلماء.

أجاب المخالفون قالوا: حديثا مسلم هما خبرا آحاد، فلا يُقَدَّمان على القاطع؛ لأن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٥] دليل قاطع متواتر محفوظ لا يمكن أن يكون كذباً بحال، وهو صريح الدلالة ظاهرها، وحديث مسلم وما جرىٰ مجراه أخبار آحاد، والمتواترات تُقدم على الآحاد.

وأجاب المخالفون عن هذا، قالوا: لا نُسَلِّم هذا؛ لأن حديثي مسلم ونحوهما أحاديث خاصة، والآيات التي ذكرتم عامة، والخاص مقدم على العام؛ لأن المقرر في الأصول: أنه لا يتعارض عام وخاص، بل يقدم الخاص على العام، إلا عند الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله[١] ـ فإن المقرر في أصوله: أن الخاص لا يقدم علىٰ

(١) في مسألة تقديم الخاص على العام انظر: الفروق للقرافي (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٢)، البرهان للجويني (٢/ ٧٧٣، ٧٧٤)، نهاية السول (٢/ ١٦٢)، (٣/ ٢٣٩)، إحكام الفصول ص ١٦٠، إيثار الحق على الخلق ص ١٠٢، وانظر هذه المسألة وما ينبني عليها من الفروع في كتاب: أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء ص ٢١٥ ـ ٢٢٩، وتفسير النصوص لمحمد أديب الصالح (٢/ ٨٣) فما بعدها.

العام؛ لأن دلالة العموم عنده قطعية، فيرجح بينهما[(١)]؛ ولذا كان جمهور العلماء، منهم الأئمة الثلاثة، يخصصون عموم: «فيما سقت السماء العشر»[(٢)] بخصوص: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»[(٣)] وكان أبو حنيفة يقول: هذا الحديث خاص: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة» لا أقدمه علىٰ العام الذي هو: «فيما سقت السماء العُشر» وقد جهلنا التاريخ، فلم نعرف أيهما المتأخر حتىٰ نقدمه؛ ولذا أوجب الزكاة في كل شيء خرج من الأرض قليلاً أو كثيراً، تبرئة للذمة، وعدم تقديم للخاص علىٰ العام[(٤)].

وأجاب المخالفون عن هذا بمناقشة أُخرى، قالوا: لو سلمتم هذا الخاص، وقلتم: إن النبي ﷺ ثبت عنه في بعض الأحاديث أن الله عذب أحد أهل الفترة ـ لو قدمنا هذا الخاص ـ لانتفت الحكمة التي تمدَّح الله بها، وأثنى بها علىٰ نفسه، لأن الله تمدَّح وأثنىٰ على نفسه بأنه بالغ من العدل والإنصاف ما لم يُعَذِّب

(١) انظر: تيسير التحرير (١/ ٢٦٧، ٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب العشر فيما يُسقى من السماء...، حديث رقم: (١٤٨٣)، (٣/ ٣٤٧) من حديث عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) بلفظ مقارب لما ذكر الشيخ (رحمه الله) هنا. وأخرج مسلم نحوه من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، كتاب الزكاة، حديث رقم: (٩٨١)، (٢/ ٦٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ما أُدي زكاته فليس بكنز، حديث رقم: (١٤٠٥)، (٣/ ٢٧١) وأطرافه: (١٤٤٧، ١٤٥٩، ١٤٨٤)، ومسلم في الزكاة، حديث رقم: (٩٧٩)، (٢/ ٦٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، كما أخرجه من حديث جابر (رضي الله عنه) (٩٨٠)، (٢/ ٦٧٥).

(٤) انظر: المبسوط للسرخسي (٣/ ٣).

[معه][1] أحداً إلا بعد الإنذار في دار الدنيا، وأنه لو عذب أحداً لكان بذلك لأحد حجة، حيث قال: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] قالوا: فلو عذب إنساناً واحداً لانحرمت هذه الحكمة، وقال له ذلك الإنسان: لولا أرسلت إليَّ رسولاً فأتبع آياتك قبل أن أذل أو أخزىٰ، وصارت حكمة آية (طه) منخرمة أيضاً، ولا يمكن هذا.

وأجاب المعارضون عن هذا أيضاً، قالوا: كل ما أخرجه الدليل الخاص يخرج من العام، ولا يقدح في حكمة العلّة؛ لأنه قد يكون في ذلك الإنسان خصوصية يعلمها الله، فأخرجه من العموم لأجلها. وهذا مبني على مبحث أصولي عظيم: هل عدم اطراد العلة نقض لها؟ أو هو تخصيص لعمومها[2]؟ إلى غير ذلك من الأبحاث. فهذا نموذج قليل من مناظرات العلماء في هذه المسألة.

والتحقيق في هذه المسألة ـ إن شاء الله ـ هو ما حققه العلامة ابن كثير في شرح قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وغيره من المحققين: أن الله (جل وعلا) يعذر أهل الفترة في دار الدنيا، ثم إنه يوم القيامة يمتحنهم بالنار، ويقول لهم: اقتحموا في هذه النار، فمن اقتحم فيها دخل الجنة، وهو الذي كان يطيع الرسل لو جاءته، وهو المؤمن في علم الله الداخل للجنة، ومن تمرد وعصاه، وامتنع أن يدخلها دخل النار، وهو الذي كان

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٥/ ١٣٥ ـ ١٤٢، ٢٦١) فما بعدها، المذكرة في أصول الفقه ص ٢٧٨، ص ٢٩٢، نثر الورود (٢/ ٥٢٧)، الأضواء (٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨١).

يعصي الرسل لو جاءته ولا يصدقها، وهو الكافر في علم الله، والله أعلم بما كانوا إليه صائرين. وهذا المعنىٰ جاء عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، منها أحاديث صحاح بشهادة أئمة الحديث الحفاظ، ومنها أحاديث حسان، ومنها أحاديث ضعاف تعتضد بالصحاح والحسان، وهذه الأحاديث الواردة بهذا هي نصٌّ في محل النزاع تجتمع عليها الأدلة. وقد أنكرها ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ[(١)] قال: هذه الأحاديث لا يمكن أن تصح؛ لأن القيامة دار جزاء وليست دار عمل حتى يُكلفوا فيها فيدخلوا الجنة والنار بالتكليف فيها؛ لأنها دار جزاء لا دار عمل، وهذا الذي قاله ابن عبد البر لا تُرد به النصوص الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وقد دلّ القرآن والسنة الصحيحة أن الله يكلف خلقه في عرصات المحشر بعض التكاليف، وقد ثبت في سورة القلم أنه يأمر جميعهم بالسجود، وأَمْرُهُم بالسجود تكليف في عرصات المحشر، كما سيأتي في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: الآيتان ٤٢، ٤٣] لأنه قد جاء في الأحاديث الصحيحة أن الله يدعوهم ذلك اليوم إلىٰ السجود، كما دلت عليه الآية. فأما المؤمنون فيسجدون فيرفعون من السجود وعلىٰ وجههم نضرة النعيم، وأما الكافر فيكون ظهره كالصفيحة فلا يستطيع أن يسجد، وإذا أراد تَكَلُّفَ السجود خرَّ على

(١) انظر: التمهيد (١٨/ ١٣٠)، الاستذكار (٨/ ٤٠٤)، وفيما يتعلق بالتكليف في الآخرة انظر: الفتاوى (١٧/ ٣٠٩)، (٢٤/ ٣٧٣)، مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٥، أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٦)، طريق الهجرتين ص ٣٩٧ ـ ٤٠١، تفسير ابن كثير (٣/ ٣١)، فتح الباري (٣/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، أضواء البيان (٣/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

قفاه[١]؛ لأنه لا يستطيع السجود، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الأحاديث الصحاح في قصة الرجل المشهورة الذي هو آخر أهل النار خروجاً من النار أنه يقول: «يا رب أخرني عن النار. يقول: يا ابن آدم إن أخرتك لعلك تطلب غير ذلك. فيقول: لك علي من العهود والمواثيق أن لا أطلبك غير ذلك. ثم يمكث ما شاء الله، ثم يقول له: افعل لي كذا، أو: إلىٰ هذه الشجرة. ويقول له: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك!! فيعطيه من المواعيد والمواثيق أنه لا يطلب شيئاً سوىٰ ذلك، حتى يقول له: رب اصرف وجهي عن النار. إلىٰ أن يدخله الجنة»[٢]. والتكاليف إنما هي عهود ومواثيق تؤخذ علىٰ الإنسان أن يفعل أو أن لا يفعل. فهذا هو الصواب في هذه المسألة، أنهم معذورون في الدنيا بشهادة الآيات، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم بالدخول فيها، فمن دخلها دخل الجنة[٣]، وظهر فيه علم الله أنه كان يطيع الرسل لو جاءته،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، حديث رقم: (٧٤٣٩)، (١٣/ ٤٢٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم: (١٨٣)، (١/ ١٦٧) من حديث أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، حديث رقم: (٧٤٣٧)، (١٣/ ٤١٩)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٦٥٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم: (١٨٢)، (١/ ١٦٣) من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ورد في ذلك عدة أحاديث من أشهرها:

١ ــ حديث الأسود بن سريع (رضي الله عنه) عند أحمد (٤/ ٢٤)، وأبـي نعيم =

. . . .

= في معرفة الصحابة، (٢/ ٢٨١)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٧)، وابن حبان (الإحسان ٩/ ٢٢٥)، والبيهقي في الاعتقاد ص ٧٦، والبزار (كشف الأستار ٣/ ٣٣)، والضياء في المختارة (٤/ ٢٥٤، ٢٥٦)، وقد صححه البيهقي في الاعتقاد ص ٧٧، وابن القيم في طريق الهجرتين ص ٣٩٧، والهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٦)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٤١٩).

٢ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند أحمد (٤/ ٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧٦)، والضياء في المختارة (٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، والبيهقي في الاعتقاد ص ٧٧، والبزار (كشف الأستار ٣/ ٣٣ ـ ٣٤)، وقد صححه البيهقي في الاعتقاد ص ٧٧، وابن تيمية في الدرء (٨/ ٣٩٩)، وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٥٤)، والهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٦)، والألباني في تخريجه لكتاب السنة (١/ ١٧٦)، والسلسلة الصحيحة (٣/ ٤١٩).

وللحديث طرق وشواهد عن عدد من الصحابة منهم: أبو سعيد الخدري، ومعاذ بن جبل، وأنس بن مالك. انظر في ذلك: مسند أبي يعلى (٧/ ٢٢٥)، المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٦٠٥)، التمهيد (١٨/ ١٢٧ ـ ١٣٠)، كشف الأستار عن زوائد البزار (٣/ ٣٤)، الاعتقاد للبيهقي ص ٧٧، مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٣، طريق الهجرتين ص ٣٩٨، أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٥٠ ـ ٦٥٣)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩ ـ ٣٠)، مجمع الزوائد (٧/ ٢١٥ ـ ٢١٧)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٦٠٣).

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية (رحمه الله): «وقد رُوي بأحاديث حسان عن النبيّ ﷺ أن من لم يكلف في الدنيا من الصبيان والمجانين، ومن مات في الفترة، يُمتحنون يوم القيامة...». اهـ مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٣، وقال ابن كثير في التفسير (٣/ ٣١): «إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها». اهـ، وقال الحافظ في

ومن امتنع دخل النار، وظهر فيه علم الله أنه لو جاءته الرسل لكذبها. وقول ابن عبد البر: إن هذا تكليف بمحال، وأن القول للرجل: «ادخل النار» هذا تكليف بما لا يطاق!! هذا لا يردّ ـ أيضاً ـ الأحاديث الصحيحة، وقد جاء أمثاله في الشرع، فقد ثبت في الأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ في علامة الأعور ـ المسيح الدجال ـ أن معه جنة وناراً، والنبي يأمر المؤمنين أن يقتحموا في ناره التي معه؛ لأنهم إن اقتحموها وجدوها ماء عذباً وشربوا منه، وأن ماءه نار[1]، ففي هذه الأحاديث الصحيحة أمر النبي ﷺ باقتحام النار التي مع الدجال، وقد أمر الله بني إسرائيل ـ قد بيّنا أنه لا يتوب عليهم حتى يقتلوا أنفسهم، كما قدمناه في سورة البقرة ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤] فلم يقبل توبة أحد منهم إلا بعد أن يُقدِّم نفسه للموت فيُقتل، فمعنىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فَلْيَقْتُل الذين لم يعبدوا العجل منكم الذين عبدوه، وليس المعنىٰ: أن

= الفتح (٣/ ٢٤٦): «وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة». اهـ.

(١) ورد هذا المعنى في عدة أحاديث، منها:

١ ـ حديث أبي هريرة عند البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، حديث رقم: (٣٣٣٨)، (٦/ ٣٧٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، حديث رقم: (٢٩٣٦)، (٤/ ٢٢٥٠).

٢ ـ حديث حذيفة عند البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، حديث رقم: (٧١٣٠)، (١٣/ ٩٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال، حديث رقم: (٢٩٣٤)، (٤/ ٢٢٤٨).

٣ ـ حديث أبي مسعود الأنصاري عند البخاري (٧١٣٠)، ومسلم (٢٩٣٥) بمثل حديث حذيفة.

الإنسان يقتل نفسه بيده. حتى تاب الله عليهم، ورفع القتل عن بقيتهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢].

قرأه عامة القراء، غير ابن عامر: ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ وقرأه ابن عامر: ﴿عما تعملون﴾[١] والمعنىٰ واحد.

وقوله (جل وعلا): ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ﴾ التنوين: تنوين عِوَض. أي: ولكل الناس من كافرين ومؤمنين على التحقيق. خلافاً لمن خصّه بالكافرين[٢]. لكل واحد منهم درجات.

والدرجات: جمع الدرجة، وهي المرتبة والمنزلة[٣]. أي: لكل عامل مطيع وعاص، لكل واحد من المطيعين والعاصين درجات. أي: منازل ومراتب يستحقونها بأعمالهم، فمنهم من هو بدرجته في أعلىٰ الجنان، ومنهم من هو بأعماله في دركات النار، وقد بين (جل وعلا) أن الآخرة يتفاوت أهلها بدرجاتهم[٤]، كما في قوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: الآية ٢١] وبين أن أهل النار يتفاوتون في دركاتهم قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: الآية ١٤٥] وفي

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٢.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(٣) انظر: المفردات (مادة: درج) ص ٣١٠.

(٤) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢١١).

القراءة الأخرى: ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[١] فهم يتفاوتون، ففي أعمال أهل الشر تفاوت، تتفاوت بها منازلهم في النار. ولأعمال أهل الخير تفاوت، تتفاوت بها منازلهم في الجنة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾.

والآية فيها موعظة عظيمة، يعني: أيها المخاطبون ما دمتم في دار الدنيا فاعلموا أن الدركات في النار والدرجات في الآخرة إنما تُنال بالأعمال في الدنيا، فراقبوا الله واجتهدوا في أن تكون أعمالكم صالحة، لأَن تكون درجاتكم ومنازلكم في الجنة عالية. وكذلك يُحذِّر من أن تكونوا في دركات النار ــ والعياذ بالله ــ وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٣٢﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و (ما) نافية، والباء في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ هي لتوكيد النفي؛ لأن للإسناد الخبري المنفي توكيداً كما للإيجابي توكيداً، فلو قلت مثلاً: «زيدٌ قائم». فهذا ليس فيه توكيد، ولو قلت في الإثبات: «إن زيداً لقائم». فقد أكَّدت إثبات قيامه بـ (إن) واللام. ولو قلت: «ما زيد بقائم». فقد أكدت نفي قيامه بـ (الباء)، والباء في النفي تفيد التوكيد الذي تفيده (إنَّ) في حالة الإثبات. وهي توكيد للنفي، والجار والمجرور في مثل هذا هو مفرد، وليس بشبه جملة؛ ولذا لا يُقدَّر له الكون ولا الاستقرار، فلا يجرىٰ على قول ابن مالك[٢]:

وأَخْبَرُوا بظرفٍ أو بحرفِ جَرْ ... نَاوِينَ مَعْنَى (كائنٍ) أو (اسْتَقَرْ)

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٨٢ ــ ١٨٣.

(٢) الخلاصة ص ١٧، وانظر شرحه في: التوضيح والتكميل (١/ ١٦٢).

فهذا لا يُقدَّر فيه كَوْنٌ ولا استقرار؛ لأنه مفرد زِيْدَت به (باء) للتوكيد، ليس بِشِبْه جملة.

والغفلة هي: الغفلة عن الشيء وخروجه عن الذهن للاشتغال بغيره، فالله لا يغفل عما يعمله الظَلَمة، فهو (جل وعلا) لا يغفل عن شيء، ولكنه يُمْهِل ولا يُهْمِل. وقد نهىٰ الله خلقه أن يظنوا به هذه الغفلة، قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٢] يعني: على قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾(١) [الأنعام: الآية ١٣٢] ليس بغافل عما يعملونه من الكفر، فهو مُدَّخِرُه لهم، ومجازيهم عليه، ومخلدهم به بالنار. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ ليس الله غافلاً عما تعملون أيها المسلمون من الخير والحسنات، فهو مُدَّخِرُه لكم ومجازيكم عليه، فجميع الأعمال تُحفظ عند الله، لا يغفل عن شيء منها، يجازي بها أهلها يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٣].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾ قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، وأضاف لفظة الرب إليه إضافة تشريف وتكريم.

---

(١) «يعملون» على قراءة ابن عامر.

والرب في لغة العرب: يطلق على عشرة معان[١]: منها: السيد الذي يسوس الناس ويُدبر شؤونها، وكل من يسوس بلداً ويدبر شؤونه تقول العرب: هذا ربه. وتقول العرب: فلان رب بني فلان. أي: سيدهم الذي يسوسهم ويدبر شؤونهم. والعرب تقول: ربَّه يربُّه. إذا أصلح شؤونه، وساسه، وأصلح أموره. فالفاعل: رب، والمفعول: مربوب. ومن إطلاق العرب الرب علىٰ الذي يسوس الأمور ويدبرها: قول علقمة بن عَبَدَة التميمي، قال لرجل ساد قومه[٢]:

وكُنْتَ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رِبَابَتِي وقَبْلَكَ رَبَّتْني فَضِعْتُ ربُوبُ

أي: سادتني قبلك سادة وساسة، وضيعوني، والآن أفضت إليك ربابتي، فَصِرْتَ ربي الذي يُدبر شؤوني، فلا تضيعني. وتعرفون في السيرة، أن صفوان بن أمية بن خلف كان عدواً للنبي ﷺ؛ لأن النبي قتل يوم بدر أباه أُمية بن خلف، وقتل أخاه علي بن أُمية بن خلف يوم بدر، وقتل عمه أُبي بن خلف يوم أُحد، وهو من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فلما فتح النبي مكة ـ ﷺ ـ وطلب منه إعارة السلاح، المشهورة الثابتة في الحديث، طلب صفوان النبي ﷺ أن يعطيه مهلة ينظر فيها في أمره، فأعطاه النبي مهلة ينظر فيها في أمره، ويتدبر فيما يفعل، وكان في تلك المهلة أن غزىٰ النبي ﷺ هوازن ـ غزوة حنين ـ المذكورة في القرآن، وكانت الرياسة في ذلك الوقت صارت من دُريد بن الصِّمَّة

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

إلىٰ مالك بن عوف النصري، وكان دُريد شائباً أعمىٰ، وكانت فكرته: أن هوازن يفعلون مثل ما فَعَلَت ثقيف، يبقون في ديارهم، ويُخرجون النبال والرماح من كوى الحصون، ويحاصرهم القوم فيرامونهم وهم في مقرهم. وأبى عن هذه الفكرة مالك بن عوف النصري سيد هوازن في ذلك اليوم، وقال: إن لم تطيعوني لأتكئنَّ على سيفي (في قصة حنين المشهورة). فخرج بهوازن، بنسائهم، وأطفالهم وأموالهم، حتىٰ نزل بهم في مضيق وادي حنين، في طريق النبي ﷺ، وكان دريد أعمىٰ، فقال: ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير؟ يظن أن الخارجين جيش فقط. فقيل له: خرج مالك بن عوف النصري بالمال، يقول: إن الرجل إذا كان معه أهله وماله وزوجاته لا يفر. فحرك بشفتيه استهزاءً برأيه، وقال: إن الرجل إذا انتفخ سحره ـ أي: رئته ـ من الخوف لا يلوي على مال ولا ولد. ونزلوا مضيق حنين، وصلىٰ النبي ﷺ الصبح في غَلَس من ظلام الليل، ثم انحدر مع وادي حنين هو وأصحابه، فلم يعلموا بشيء حتى أتوا هوازن، وهم أمامهم في مضيق الوادي، فصبوا عليهم النبال والسهام كأنها مطر تزعزعه الريح، فوقع ما وقع، وقصّه الله في سورة براءة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٥] وفي ذلك الوقت لم يبق مع النبي ﷺ إلا أحد عشر رجلاً، ونزل عن بغلته (دُلْدُل)، بغلة لا تصلح لِكَرٍّ ولا لِفَرّ، وهو يقول:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

والشاهد: أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين في أول وهلة، وصفوان بن أُمية حاضر، ومعه رجل يرافقه، قال ذلك الرجل: بطل الآن سحر محمد!! يعني: أن هوازن غلبوه، وأن قومه انهزموا، وأن ما كان عنده سحر، وأنه بطل. فقال له صفوان ـ وهو محل الشاهد ـ : اسكت فُضّ فوك، لئن يربّني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربّني رجل من هوازن[1]!! ومعناه: أن يسودني ويسوسني قرشي، ابن عمي، أحب إليَّ من أن يسودني واحد من ثقيف، أهل الطائف. فهذا يبين أن معنىٰ (ربّه يربّه) أي: ساده وساسه ودبر أموره، وهو بالنسبة إلى الله (جل وعلا): السيد الذي يدبر شؤون الناس، ويسوس أمورها، فلا يستغني عنه العَالَم طرفة عين.

وقوله: ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ معناه: هو الذي عنده الغِنَى، والله (جل وعلا) غني بذاته غِنىٰ مطلقًا، لا يحتاج إلى خلقه، وخلقه محتاجون إليه. والنكتة في الآية: أن الله بما مضى أَمَرَ ونهىٰ، وبيّن ما يُدخل الجنة وما يُدخل النار، ثم نبّه خلقه، فكأنه يقول: يا عبادي: لا تظنوا أنني آمركم وأنهاكم لأجل أن أجرَّ بذلك لنفسي نفعاً أو أصرف عنها ضراً، لا، أنا الغني بذاتي الغِنَىٰ المطلق، وإنما النفع لكم لا لي، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: الآية ١٥] وفي الحديث القدسي، الثابت في صحيح مسلم، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه، أن الله (جل وعلا) يقول: «**يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم،**

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» الحديث[١]. فهو (جل وعلا) لا ينتفع بطاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: الآية ٨] ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: الآية ٦] ولذا قال هنا: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي لا تنفعه طاعة من أطاع منكم، ولا تضره معصية من عصىٰ منكم، وهو غني بذاته غِنىً مطلق.

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾: هو الرحيم الذي يرحمكم ــ إن اتبعتم أوامره ــ يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣] أي: يدعوكم إلى طاعته ــ وهو رحيم ــ ليرحمكم ويدخلكم جنته.

وقد قدمنا أن (الرحمٰن) هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، و (الرحيم) هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة[٢]، ومن رحمانيته (جل وعلا): لطفه بالطير الصافات، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ [الملك: الآية ١٩] أي: ومن رحمانيته: لطفه بالطير صافات وقابضات في جوّ السماء، وإمساكه لها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾ يعني: ومن شدة غناه عنكم وعن أعمالكم، وعدم حاجته إليكم،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: (٢٥٧٧)، (٤/ ١٩٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) في الفرق بين (الرحمٰن) و (الرحيم) انظر: ابن جرير (١/ ١٢٦)، القرطبي (١/ ١٠٥)، ابن كثير (١/ ٢٠)، مدارج السالكين (١/ ٧٥)، بدائع الفوائد (١/ ٢٤)، أضواء البيان (١/ ٣٩ ــ ٤١).

ولا إلى طاعتكم، ولا إلىٰ معصيتكم، فهو في قدرته أن يذهبكم جميعاً ويجعلكم أثراً بعد عين، ويأتي بقوم آخرين غيركم، كما جاء بكم أنتم من ذرية قوم آخرين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم﴾: أي: يجعل خلفاء في الأرض بعدكم خلفاً منكم ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ من خلقه. وهذا المعنى تكرر في القرآن، يبين الله للناس أنه قادر علىٰ أن يزيلهم عن بكرة أبيهم، ويستبدل قوماً غيرهم، وقد يكون المستبدلون خيراً منكم أيها المخاطبون، كقوله في سورة النساء: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: الآية ١٣٣] وقوله (جل وعلا): ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾ [هود: الآية ٥٧] إذا استخلف غيركم فما عليه في ذلك من ضرر، وقوله في سورة فاطر: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: الآيات ١٥ ـ ١٧] أي: ليس فيه صعوبة عليه ولا مشقة، بل هو هين عليه يسير. وقوله في أُخريات سورة القتال ـ سورة محمد ـ حيث قال فيها: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: الآية ٣٨] وقد قال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] وقد قال في الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] يعني: فذهابكم جميعاً والإتيان ببدل منكم، سهل علي، خفيف عندي، لا يضرني شيئاً، فأنتم إنما تنتفعون بطاعتكم

وتتضررون بمعصيتكم، وأنا الغني بذاتي عنكم، القادر علىٰ أن أُذهبكم، وآتي بغيركم، وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ المراد هنا: الإذهاب بوقت واحد، بأن يذهبهم جميعاً، وليس المراد أن يذهبهم تدريجاً بالموت(١)، كما هي عادته في القرون أن يفني قرناً تدريجاً بالموت، ثم يأتي بعده بقرن آخر تدريجاً بالولادة؛ لأن هذا هو الواقع، فلو كان هو المراد لما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ لأنه مُذْهِبُهم قطعاً ومستخلف بعدهم ما يشاء على التدريج، هذا واقع قطعاً.

وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ عبّر بـ (ما) هنا للإبهام في الشيء، وإن كان قد يقع على العاقل؛ لأن المقرر في علم النحو: أن الشيء إذا أُبهمت صفاته ـ أي: كان المراد صفاته مثلاً ـ أنه يُعبَّر عنه بـ (ما)(٢). وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ كما أنه كان في الأرض قبلكم ناس غيركم ـ قال بعضهم: هم الذين كانوا في سفينة نوح، وقال بعضهم: يعمّ ما قبلهم من القرون. كان قبلكم ناس أهل ثروة وأهل غنى في الدنيا، وأهل تمدن ومكانات(٣) ـ أذهبناهم جميعاً، وجئنا بكم، وجعلناكم خلفاء في الأرض بعدهم، كما أذهبنا أولئك وجعلناكم خلفاً بعدهم، فنحن قادرون أيضاً علىٰ أن نفعل بكم مثل ذلك، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٢٥).

(٢) انظر: الكوكب الدري ص ٢١٠، التوضيح والتكميل (١/ ١١٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٢٥).

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٤].

(ما) هنا موصولة، وعائد الصلة محذوف[(١)]، والتقدير: إن الذي توعدونه لآت لا محالة. اعلموا أولاً: أن ﴿تُوعَدُونَ﴾ هنا يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الإيعاد، والوعد: هو الوعد بالخير، والإيعاد: هو الوعيد بالشر[(٢)]، كما قال الشاعر[(٣)]:

وإني وإن أوعدتُه أو وَعَدتُه لَمُخلفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

فقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ بناء على أنه من الوعد، فالله (جل وعلا) لا يخلف وعده أبداً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ٩] أما إخلاف الوعيد ففيه تفصيل غلط فيه جماعات من العلماء، حتى كان من يقول من العلماء بفناء النار، أن الله لو صرّح بأنها [لا] تفنى[(٤)] أن ذلك وعيد، وإخلاف الوعيد من المدح لا من الذم، إذ إنَّ مَنْ أوعدك بشرّ ثم عفا عنك وأعطاك الخير فهذا من الجميل، وإنما المذموم القبيح هو إخلاف الوعد بالخير.

والتحقيق في هذا المقام: أن الله (جل وعلا) إن وعد بخير فإنه

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ١٥٧).

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٨٨).

(٣) البيت لعامر بن الطفيل. وهو في اللسان (مادة: وعد) (٣/ ٩٥١)، وانظر: المعجم المفصَّل في شواهد النحو الشعرية (١/ ٢٥٥).

(٤) في الأصل: «بأنها تفنى» وهو سبق لسان.

لا يخلف وعده أبداً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ وإن أوعد بشر فإيعاده بالشر له حالتان:

تارة يكون وعيداً للكفار. وهذا لا يُبدّل بحال، ويدل عليه قوله هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾؛ لأن الكلام في الكفار الذين يهددهم الله. أي: ما يوعدكم الله من العذاب واقع لا محالة، يدل عليه قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤﴾ كما سنفسره، وقد صرح الله في آيات من كتابه أن وعيده للكفار لا يُخلف حيث قال في سورة (ق): ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: الآيتان ٢٨، ٢٩] والمراد به على التحقيق: ما وعد الكفار به من عذاب النار. وقال جل وعلا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق: الآية ١٤] حَقَّ: معناه ثبت ووجب، وما قال الله فيه: «إنه ثبت ووجب» لا يمكن أن يتخلف، و (الفاء) في قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ من حروف التعليل، وقد تقرر في الأصول في (مسلك النص) وفي (مسلك الإيماء والتنبيه) أن (الفاء) من حروف التعليل[1] كما تقول: «سها فسجد»، أي: لعلّة سهوه. و «سرق فقُطعَت يده» أي: لعلّة سرقته. و «أساء فأدّب». أي: لإساءته. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ أي: وجب الوعيد لأجل تكذيب الرسل، ونظيره قوله في (ص): ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ [ص: الآية ١٤].

أما الوعيد الذي يجوز أن يُخلف: هو وعيد الله لعصاة المسلمين، فإن الله أوعد مرتكبي الذنوب الكبائر بأنه يعذبهم، وهذا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

الوعيد إن شاء الله أنفذه، وإن شاء الله عفا عن أهله. وصرح الله بهذا في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: الآية ٤٨] فجعل غير الشرك من الكبائر تحت مشيئته، إن شاء عفا، وإن شاء عذّب. هذا هو تحقيق المقام في الوعد والوعيد(١).

قوله هنا: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ﴾ أي: ما يوعد به من ثواب وخير فهو آتٍ لا محالة، وما يُوعد به الكفار المكذبون للرسل من العذاب والتنكيل فهو آتٍ لا محالة.

ثم قال: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ المعجزون: جمع تصحيح للمعجز، والمعجز: اسم فاعل الإعجاز، ومفعول اسم الفاعل هنا محذوف. والمعنىٰ: وما أنتم بمعجزين ربكم. أي: لستم بفائتيه حتىٰ تعجزوه فيعجز عن التمكن منكم وتعذيبكم، بل أنتم في قبضة يده، وتحت قهره وسلطانه، لا تعجزونه ولا تفوتونه، بل أمره واقع فيكم، نافذ فيكم، ليس لكم مفر ولا ملجأ، ولا يمكن أن تُعجزوا ربكم وتفوتوه حتى لا يعذبكم. فعُرف من هذا أن المفعول محذوف، العرب تقول: «طلب فلاناً فأعجزه». أي: فاته ولم يقدر علىٰ إدراكه، والله يقول: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ لا تعجزونني فتسبقونني حتىٰ لا أُنفذ فيكم ما أُوعدتكم به، بل أنتم تحت قهري وسلطاني، وفي قبضة يدي، وسأنفذ فيكم ما أشاء من وعيدي الذي قلت: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ﴾ وهذا معنىٰ قوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٤٦ ـ ٦٤٩).

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٥].

قرأ هذا الحرف عامة القراء، ما عدا شعبة عن عاصم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأه شعبة ـ وحده ـ عن عاصم: ﴿اعملوا على مكاناتكم﴾ بمدّ النون جمع مكانة. وكذلك قرأ شعبة في جميع القرآن. وقرأ عامة القراء أيضاً ما عدا حمزة والكسائي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ بالتاء الفوقية في قوله: ﴿مَن تَكُونُ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فسوف تعلمون من يكونُ له عاقبة الدار﴾(١).

ولا إشكال في قراءة شعبة، ولا في قراءة حمزة والكسائي؛ لأن قراءة شعبة أن كل واحد له مكانة يعمل عليها، فَجُمعت المكانات اعتباراً بتعدد المخاطبين. وعلىٰ قراءة الجمهور: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ فالمكانة أُضيفت إلىٰ معرّف وهي مفرد فعمّت جميع المكانات؛ لأن المقرر في الأصول: أن المفرد إذا أُضيف إلى معرَّف صار صيغة عموم يشمل جميع الأفراد(٢)، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١٨] أي: نعم الله. وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: الآية ٦٣] أي: عن أوامره ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: الآية ٦٨] أي: ضيوفي كما هو معروف. فكلتا القراءتين

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٣، وانظر توجيه هذه القراءات في: حجة القراءات ص ٢٧٢، البحر المحيط (٤/ ٢٢٦)، الدر المصون (٥/ ١٥٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

معناهما واحد، وكذلك قراءة حمزة والكسائي: ﴿مَن يَكُونُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ يجوز فيه التذكير بأمرين:

أحدهما: أن العاقبة تأنيثها مجازي، والتأنيث المجازي إذا كانت (الفَاعِلَة) تأنيثها مجازياً جاز في الفعل التذكير والتأنيث[١].

الثاني: أنه فَصَلَ بين الفعل وفاعله فَصْلٌ، وهو قوله: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ والفَصْلُ بين الفعل وفاعله يُسَوِّغُ تذكير الفعل، ولو كان فاعله مؤنثاً حقيقياً، كما هو معروف في علم النحو[٢].

ومعنىٰ الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) أمر نبيه ﷺ أن يهدد الكفار تهديداً عظيماً بأُسلوب لطيف في غاية الإنصاف واللطافة، مع اشتماله على أعظم التهديد، وأشنع التخويف، وهو قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾. ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ أصله: (يا قومي) حُذفت ياء المتكلم، وحَذْفُ ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة لغة فصحىٰ مطّردة في القرآن وفي لغة العرب[٣].

وقد قدمنا في الدروس الماضية[٤] أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأن معناه في لغة العرب: جماعة الرجال دون النساء، وأن النساء ربما دخلن في اسم (القوم) تبعاً. أما الدليل علىٰ أن لفظ (القوم) في النطق العربي يختص بالرجال دون النساء: فقوله تعالىٰ في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾

(١) انظر: حجة القراءات ص ٢٧٢، الكليات ص ٨١٨.
(٢) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ (. . .)[١] [الحجرات: الآية ١١].

(. . .)[٢] فيها الربا إجماعاً، التي هي: القمح والشعير والتمر والزبيب، قالوا: كل واحدة من هذه الأربع مُقتاتة مدخرة، معناه أنها قوت يتقوت به الإنسان، وأنه يدخرها أزماناً فلا تضيع، فكل مُقتات مدخر من الحبوب والثمار تجب فيه الزكاة عند مالك والشافعي[٣]. وأنهما اتفقا أيضاً على أن الأشجار ليس في ثمارها شيء مُقتات مدخر إلا الزبيب والتمر خاصة، ولم يوجب مالك والشافعي الزكاة إلا في التمر والزبيب خاصة، أما غيرهما من ثمار الأشجار فليست عندهما مما يُقتات ويُدخر[٤]، ولم يوجبا فيها شيئاً إلا الزبيب والتمر. وأما الحبوب فإن مالكاً والشافعي اتفقا أيضاً على أن كل ما يُقتات ويُدخر من الحبوب أنه تجب فيه الزكاة، وهي العشر ونصف العشر على ما قررنا، والحبوب المُقتاتة المُدَّخرة: كالقمح والشعير اللذين ـ مثلاً ـ دل الإجماع والنص عليهما، ونحوهما من السُّلْت[٥]،

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتمام الآية لا يخفى، ويمكن استدراك باقي النقص فيما يتعلق بمعنى القوم بمراجعة ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الموضع السابق.

(٢) هذا المقطع يتعلق بتفسير الآية رقم: (١٤١)، ولاستدراك ما ذهب من التسجيل عليك بمراجعة ما كتبه الشيخ رحمه الله في الأضواء (٢/ ٢١٣ ـ ٢٤٦).

(٣) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٠، المهذب (١/ ١٦٣).

(٤) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٠، المهذب (١/ ١٦٠).

(٥) السُّلْت: قيل: نوع من الشعير ليس له قشر. وقيل: نوع من الشعير رقيق القشر، صغار الحب. وقيل: حب بين الحنطة والشعير، ولا قشر له كقشر الشعير، فهو كالحنطة في ملامسته وكالشعير في طبعه وبرودته. وهي أقوال متقاربة. انظر: المصباح المنير (مادة: سلت) ص ١٠٨، حلية الفقهاء ص ١٠٥.

والعَلَس[١]، والأرز، والذرة، وأنواع القطاني الثمانية[٢]: كالبَسِيْلَة[٣]، والجُلُبَان[٤]، والحِمَّص، والتُّرْمُس[٥]، والفول، إلى غير ذلك من أنواع القطاني الثمانية؛ لأن القطاني ثمانية أنواع. وضابطها: ما يثبت فيه الربا من الفول، والحِمَّص، والتُّرْمُس، واللوبيا، والجُلُبَان، والجُلْجُلَان[٦]، والبَسِيْلَة. أما الكِرْسِنَّة[٧]: فالمشهور في مذهب مالك، أنها لا زكاة فيها لأنها علف، خلافاً لأشهب من أصحاب مالك، إلا أن مشهور مذهب مالك أن الكِرْسِنَّة

(١) العَلَس: قيل هو نوع من الحنطة، يكون في القشرة منه حبتان، وقد تكون واحدة أو ثلاث. وقيل هو حبة سوداء تؤكل في الجدب. وقيل: مثل البر إلا أنه عسر الاستنقاء. انظر: المصباح المنير (مادة: علس) ص ١٦١، حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٢) القطاني: اسم جامع للحبوب التي تُطبخ، كالعدس، والباقلاء، واللوبياء، والحمص، والأرز، والسمسم ويقال لها ـ أيضاً ـ: القِطْنِيَّات، واحدتها قِطْنِيَّة. انظر: المصباح المنير (مادة: قطن) ص ١٩٤، حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٣) قال في اللسان: «والبسيلة: الترمس». اهـ (مادة: بسل) (١/ ٢١٥).

(٤) هو حب أغبر أكدر على لون الماش، إلا أنه أشد كدرة منه وأعظم جرماً. انظر: اللسان (مادة: جلب) (١/ ٤٧٨).

(٥) هو حَمْلُ شجر له حب مضلَّع محزَّر. أو الباقلاء المصري. انظر: القاموس (مادة: الترمس) ص ٦٨٨.

(٦) يطلق على السمسم في قشره قبل أن يُحصد، وعلى ثمرة الكزبرة. انظر: المعجم الوسيط (مادة: جلجل) (١/ ١٢٨).

(٧) قال في القاموس: «شجرة صغيرة لها ثمر في غُلُف، مُصدِّع مُسهِّل مُبوِّل للدم، مسمِّن للدواب، نافع للسعال، عجينه بالشراب يُبرىء من عضّة الكلب، والأفعى، والإنسان». اهـ القاموس: (مادة: الكرسنة) ص ١٥٨٤.

من أنواع القطاني في باب الربا لا في باب الزكاة(١). وزعم قوم أن الكِرْسِنَّة هي البَسِيْلَة من أنواع القطاني. هذه الحبوب هي التي تُقتات وتُدخر، وتجب فيها الزكاة: القمح، والشعير، والسُّلْت، والعَلَس، والذرة، والأرز، والدخن، وأنواع القطاني: كالتُّرْمُس، والحِمَّص، والبَسِيْلة، والفول، والجُلُبَان، والجُلْجُلان، واللوبيا، إلى غير ذلك، هذه الحبوب التي تُقتات وتُدخر تجب فيها الزكاة عند مالك والشافعي. وإنما اختلفا في شيئين: أحدهما: أن مالكاً يقول(٢): إن القطاني يُضم بعضها إلى بعض في الزكاة، وإن القمح والشعير والسُّلْت يُضم بعضها إلى بعض، فمن حصد عند مالك وسقاً من فول، وحصد وسقاً من جُلُبَان، وحصد وسقاً من بَسِيْلَة، ووسقاً من لوبيا، ووسقاً من حِمَّص فإنه تجب عليه الزكاة؛ لأنها خمسة أوسق من جنس واحد. وإن اختلفت أنواعها يضم بعضها إلى بعض ويُخرج من كل نوع بحسبه. والشافعي يقول(٣): لا يُضم شيء منها إلى شيء، فلا يضم فول إلى لوبيا، ولا تُرْمُس إلى حِمَّص؛ بل كل في جرابه، وإذا حصد خمسة أوسق من واحد وجبت الزكاة، وإلا فلا. كما أن الشافعي يقول: لا يضم قمح إلى الشعير، ولا الشعير إلى القمح، ولا السُّلْت إلى واحد منهما. ومالك يقول: إنه إذا قطع وسقين من قمح، ووسقين من شعير، ووسقاً من سُلْت، أنها تكون

---

(١) انظر: المنتقى للباجي (٢/ ١٦٨)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/ ٤٤٧)، أضواء البيان (٢/ ١٩٢).

(٢) انظر: المدونة (١/ ٣٤٨)، الكافي في فقه أهل المدينة ص ١٠٣، القرطبي (٧/ ١٠٧)، الأضواء (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

(٣) انظر: المجموع (٥/ ٥٠٥ ـ ٥١٣).

خمسة أوسق، يُضم بعضها إلى بعض، فتجب فيها الزكاة، فيخرج عن كلٍ بحسبه.

أما العَلَس عند مالك فلا يُضم إلى هذه الثلاثة.

والحاصل أن مالكاً لا يضم عنده إلا أنواع القطاني الثمانية. يُضم بعضها إلى بعض، ويضم عنده القمح، والشعير، والسُّلْت، هذه الثلاثة بعضها إلى بعض. وأما غير هذا فلا ضمّ، فلا يُضم تمر إلى قمح، ولا سُلْت إلى ذرة، ولا ذرة إلى أرز، بل كل بحسبه. والشافعي لا يرى ضم شيء من هذا إلى شيء. هذا حاصل مذهب مالك والشافعي.

وقد اختلفا في أشياء: منها الزيتون هل فيه زكاة أو لا؟ فمشهور مذهب الإمام مالك (رحمه الله) أن الزيتون تجب فيه الزكاة إذا بلغ حبه خمسة أوسق، ولكنه لا يُخرج إلا من زيته، فإذا كان حب الزيتون خمسة أوسق وجبت الزكاة فيه، ولكن الإخراج من زيته، وهو العُشر أو نصف العُشر. فالوجوب في الحب، والإخراج من الزيت. هذا مشهور مذهب مالك، ومثل الزيتون عند مالك في هذا ــ من أنه يُنظر نصاب الأوسق من الحب، ثم يُخرج من الزيت مثل الزيتون عنده ــ السمسم، وبذر الفجل الأحمر، والقرطم. والقرطم: حب العصفر. هذه الأربعة التي هي: الزيتون، والسمسم، والقرطم، وبذر الفجل الأحمر خاصة، هي عند مالك إذا كانت حبوبها تبلغ النصاب وجبت فيها الزكاة، وأُخرج العشر أو نصفه من زيتها، هذا مشهور مذهبه (رحمه الله)[1]، ولا زكاة

(١) انظر: المدونة (١/ ٢٩٤، ٣٤٩)، الكافي في فقه أهل المدينة ص ١٠٠، الاستذكار (٩/ ٢٥٢)، القرطبي (٧/ ١٠٣، ١٠٤)، أضواء البيان (٢/ ٢١٥).

عند مالك في كتان ولا في غيره مما ذكرنا.

ومذهب الإمام الشافعي مختلف ـ أيضاً ـ في الزيتون[١]، فقال في القديم: إن الزيتون فيه زكاة إن صحَّ أثر عمر الذي ورد فيه. وقد ورد عن عمر[٢] وابن عباس[٣] أثران أن في الزيتون زكاة، والأثران ضعيفان لا تقوم حجة بواحد منهما؛ ولذا كان مذهب الشافعي في الجديد: أن الزيتون لا زكاة فيه[٤]. والخلاف عنده في القِرْطُم[٥] ـ أيضاً ـ كالخلاف في الزيتون، فيه الزكاة في القديم، وفي الجديد لا زكاة فيه، وهذا معروف عندهم[٦].

واختلاف العلماء في زكاة العسل معروف، يُذكر في هذا المحل عند الآيات الدالة على هذا، وإن كان العسل ليس في نفسه مما تنبته الأرض، ولكن نحله ترعىٰ فيما تنبته الأرض فتخرجه.

---

(١) انظر: المجموع (٥/ ٤٥٢)، أضواء البيان (٢/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البيهقي (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، وعقبه بقوله: «حديث عمر رضي الله عنه في هذا الباب منقطع، وراويه ليس بقوي». اهـ، وقال الحافظ في التلخيص (٢/ ١٦٦): «رواه البيهقي بإسناد منقطع، والراوي له: عثمان بن عطاء، ضعيف». اهـ، وضعفه النووي في المجموع (٤/ ٤٥٣)، وانظر: ابن أبي شيبة (٣/ ١٤١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٤١)، وقال الحافظ في التلخيص (٢/ ١٦٧): «وفي إسناده ليث بن أبي سُليم». اهـ، وضعفه أيضاً: النووي في المجموع (٤/ ٤٥٣).

(٤) انظر: المجموع (٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٥)، أضواء البيان (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٥) هو حب العُصْفُر، كما في المهذب (١/ ١٦١)، القاموس (مادة: القرطم) ص ١٤٨٢.

(٦) انظر: المجموع (٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣، ٤٥٦)، أضواء البيان (٢/ ٢١٨).

وزكاة العسل الخلاف معروف فيها بين العلماء[١]، فعند مالك لا زكاة في العسل، والخلاف عن الشافعي، في القديم: يُزَكّى العسل، وفي مذهبه الجديد: لا يُزكىٰ، ومذهب الإمام أحمد زكاة العسل، ومذهب أبي حنيفة أنه إن كان في أرض العُشر زُكّي وإلا فلا.

وقد وردت في زكاة العسل أحاديث متعددة، كحديث بني شبابة، وهم بطن من بني فهم، أنهم كانوا يؤدون زكاة عسلهم إلى النبي ﷺ[٢].

وقال البخاري وغير واحد من المحدثين: إن زكاة العسل لم يثبت فيها حديث واحد قائم، ولم يصح فيها شيء عن النبي ﷺ،

(١) انظر: بدائع الصنائع (٢/ ٦١)، الاستذكار (٩/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧)، المجموع (٥/ ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥ ـ ٤٥٦)، المغني (٢/ ٥٧٧)، أضواء البيان (٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢).

(٢) ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١٤١)، وأبو عبيد في الأموال ص ٤٤٤، وأبو داود في الزكاة، باب زكاة العسل، حديث رقم: (١٥٨٥ ـ ١٥٨٧)، (٤/ ٤٨٨ ـ ٤٩١)، وابن ماجه في الزكاة، باب زكاة العسل، حديث رقم: (١٨٢٤)، (١/ ٥٨٤)، والنسائي في الزكاة، باب زكاة النحل، حديث رقم: (٢٤٩٩)، (٥/ ٤٦)، والبيهقي (٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧).
قال ابن عبد البر في الاستذكار (٩/ ٢٨٦): «فأما حديث عمرو بن شعيب فهو حديث حسن». اهـ، وقال ابن الملقن في تحفة المحتاج (٢/ ٥١): «رواه ابن ماجه بإسناد جيد». اهـ.
والحديث له طرق وشواهد متعددة، انظر ذلك في: تنقيح التحقيق (٢/ ١٤١٣)، التلخيص (٢/ ١٦٧، ١٦٨)، الدراية (١/ ٢٦٤)، نصب الراية (٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٢)، إرواء الغليل (٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦)، صحيح ابن ماجه (١/ ٣٠٦)، صحيح النسائي (٢/ ٥٢٦).

وجميع الأحاديث الواردة في زكاة العسل لا يخلو إسناد شيء منها من قادح وكلام[١]. قالوا: والأصل براءة الذمة، وعَضَّدُوا عدم الزكاة في العسل بالقياس على اللبن، قالوا: إن العسل واللبن كلاهما مائع خارج من حيوان، واللبن لا زكاة فيه، والعسل كذلك.

والحاصل أن العسل وردت في الزكاة فيه أحاديث متعددة. قال بعضهم: بعضها يشدّ بعضاً. وأخذ بمضمونها الإمام أحمد في طائفة من العلماء، فأوجب الزكاة في العسل، والجمهور: منهم الشافعي في الجديد، ومالك، قالوا: لا زكاة في العسل؛ لأنه لم يثبت فيه شيء، والأصل براءة الذمة، وليس هو مما تنبته الأرض مباشرة حتى يدخل في عموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧].

أيضاً كذلك اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في الزيتون[٢]، وروىٰ عنه بعض أصحابه أن فيه الزكاة، وروىٰ بعضهم أنه ليس فيه الزكاة.

وليس عند الإمام أحمد زكاة في العُصْفُر، ولا في

---

(١) وقال الترمذي (السنن ٣/ ١٦): «ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق. وقال بعض أهل العلم: ليس في العسل شيء». اهـ. وقال ابن المنذر: «ليس فيه شيء ثابت». اهـ. انظر: التلخيص (٢/ ١٦٨)، تنقيح التحقيق (٢/ ١٤١٢)، وللوقوف على كلام العلماء على الأحاديث الواردة في هذا الباب، انظر: تنقيح التحقيق (٢/ ١٤١١ ــ ١٤١٤)، التلخيص (٢/ ١٦٧ ــ ١٦٨)، الدراية (١/ ٢٦٤)، نصب الراية (٢/ ٣٩٠ ــ ٣٩٣)، الإرواء (٣/ ٢٨٤ ــ ٢٨٧).

(٢) انظر: المغني (٢/ ٥٥٣).

الكتان[١]، وإنما الزكاة عند أحمد ــ رحمه الله ــ بما استوجب ثلاثة أشياء؛ لأن علّة الزكاة عنده مركبة من ثلاثة أوصاف، وهي: أن يكون الشيء مكيلاً، وأن يكون ييبس، لا يبقىٰ مبلولاً دائماً، وأن يكون يبقىٰ ويجوز ادخاره لبقائه، فكل ما جمع هذه الأوصاف الثلاثة، بأن كان يُكال، وييبس، ويبقى، ففيه الزكاة عند الإمام أحمد[٢]؛ ولذا قال: إن بعض الأشجار ثمارها تُكال وتيبس وتبقىٰ، ولا يُشترط كونها قوتاً، سواء كانت قوتاً أو غير قوت؛ ولذا أوجب الإمام أحمد الزكاة في بعض ثمار الأشجار التي لم يوجبها مالك والشافعي؛ لأن مالكاً والشافعي اشترطا الاقتيات والادخار، وأحمد لم يشترط الاقتيات، قال: إن كان الشيء يُكال وييبس ويبقىٰ وجبت فيه الزكاة؛ ولذا أوجب الزكاة في بعض ثمار الأشجار؛ لأنها تيبس وتبقىٰ، وإن كانت لا يمكن أن تكون قوتاً، فأوجبها في بعض ثمار الأشجار، كالفستق، والبندق، وما جرىٰ مجراهما. هذا مذهب الإمام أحمد. وكذلك أوجب الزكاة في كل حبّ ييبس ويبقىٰ ويكال، وإن كان لا يُقتات، وتجب الزكاة عنده في الأبازير التي تُصلح الطعام، كالكمون بنوعيه: الأحمر والأسود، والكراويا، واليانسون، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وتجب عنده في كل بذر يزرع، وتجب عنده الزكاة في بذر الكتان، وفي بذر الخيار والقثاء، وكل ما جرىٰ مجرىٰ ذلك؛ لأنها حبوب تيبس وتُكال وتبقىٰ، هذا مذهب الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ[٣].

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٥٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٤٩).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٤٩).

وهؤلاء الأئمة الثلاثة لا تجب عندهم الزكاة إلا فيما بلغ الخمسة الأوسق[١]. أعني: مالكاً والشافعي والإمام أحمد؛ لأن عموم «فيما سقت السماء العُشر»[٢] وعموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] يخصصه عندهم حديث: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»[٣] فأقل نصاب الحبوب والثمار أن يبلغ خمسة أوسق.

والوسْقُ ـ بالفتح والكسر ـ ستون صاعاً بإجماع العلماء[٤].

والصاع الشرعي النبوي بالتقريب: ملء اليدين المتوسطتين، لا مقبوضتين ولا مبسوطتين[٥]،

(١) انظر: المدونة (١/ ٣٣٩)، الكافي لابن عبد البر (١/ ١٠١، ١٠٣)، المجموع (٥/ ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩)، المغني (٢/ ٥٥٣)، القرطبي (٧/ ١٠٧)، أضواء البيان (٢/ ٢٢٥، ٢٢٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، المجموع (٥/ ٤٥٨)، المغني (٢/ ٥٦٠)، حلية الفقهاء ص ١٠٣، المحلى (٥/ ٢٤٠)، القرطبي (٧/ ١٠٧).

(٥) في الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، والمحلى (٥/ ٢٤٠)، والأضواء (٢/ ٢٣٠) وغيرها من المصادر: «والصاع: أربعة أمداد بمد النبي عليه الصَّلاة والسَّلام» .اهـ، ولعل الشيخ رحمه الله أراد المد فسبق لسانه إلى الصاع. ويدل على ذلك قوله في الأضواء (٢/ ٢٣٠): «واعلم أن الصاع أربعة أمداد بمده ﷺ والمد بالتقريب: ملء اليدين المتوسطتين، لا مقبوضتين ولا مبسوطتين، وتحديده بالضبط: وزن رطل وثلث بالبغدادي. فمبلغ الخمسة الأوسق من الأمداد: ألف مد ومائتا مد، ومن الصيعان: ثلاثمائة، وهي بالوزن: ألف رطل =

وهو بالضبط[(١)]: وزن رطل وثلث بالبغدادي[(٢)]، فوزن الرطل وثُلث الرطل بالبغدادي هو الصاع النبوي[(٣)].

فعدة الأوساق بالأمداد: ألف مُدّ ومائتا مدّ[(٤)]، وبالصيعان: ثلاثمائة صاع، وبالأرطال: ألف وستمائة رطل[(٥)]. هذا هو نصاب الحبوب والثمار.

والرطل عندهم عندما حققه مالك وأصحابه ـ وهم أدرىٰ الناس بقدر الصاع والمدّ؛ لأنهم في محل الصاع والمد، قَدْرُه عندهم يعني بالوزن ـ ألف وستمائة رطل.

ووزن الرطل عندهم مائة وثمانية وعشرون درهماً

= وستمائة رطل. والرطل: وزن مائة وثمانية وعشرين درهماً مكياً، وزاد بعض أهل العلم: أربعة أسباع درهم، كل درهم وزن خَمْسِين وخُمُسَي حبة من مطلق الشعير...». اهـ.

ومما يدل أيضاً على أن مراده (المد): أنه ذكر مقداره بعده بقوله: «وهو بالضبط...» إلخ.

(١) أي (المد) المشار إليه.

(٢) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، حلية الفقهاء ص ١٠٤، القرطبي (٧/ ١٠٧).

(٣) هذا سبق لسان، والصواب: (المد النبوي) كما في المحلى (٥/ ٢٤٥)، والكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، والمغني (٢/ ٥٦١)، القاموس الفقهي ص ٣٣٧، وإنما الصاع: خمسة أرطال وثلث من الحنطة.

وقد نقلت لك كلام الشيخ (رحمه الله) في أضواء البيان.

(٤) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، القرطبي (٧/ ١٠٧).

(٥) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، المجموع (٥/ ٤٥٨)، المغني (٢/ ٥٦١)، القرطبي (٧/ ١٠٧).

مكياً[١]؛ لأن وزن الذهب والفضة وزن مكة، والكيل كيل أهل المدينة[٢]، ووزن الرطل: مائة وثمانية وعشرون درهماً مكياً، ووزن الدرهم المكي: خمسون وخُمُسا حبة من مطلق الشعير[٣] وزيادة ابن حزم خمسة أسباع حبة[٤] ردّها المحققون من علماء المالكية. هذا هو النصاب، وهو خمسة أوسق؛ لأن النبي ﷺ قال: **«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»**.

والمُزَكَّيَات فيها ـ عندهم ـ تفصيل، فيها نوعان يُخرصان قبل إخراج الزكاة بلا نزاع[٥]، وهما: التمر والزبيب. والزبيب: العنب اليابس، فإنه إذا بدا صلاح التمر وتهيأ العنب للأكل يُخرصان، فيرسِل السلطان إليهما خارصاً حازراً يخرصهما، بشرط أن يكون أميناً عدلاً، عارفاً بالخرص، صادق الحزر غالباً، فيأتي لهذا البستان ويخرصه نخلة نخلة، فيقول: في هذه النخلة الآن كذا من البلح من الزهو، ثم يكون فيها من الرطب كذا، فإذا يبست وجفّ رطبها نقص بكذا. فيحصل منها من التمر اليابس قدر كذا وكذا، ثم إذا خرصوا ذلك وحزروا قَدْر ما يحصل منه من التمر اليابس قيدوه على

(١) انظر: المجموع (١/ ١٢٢)، (٥/ ٤٥٨)، المغني (٢/ ٥٦١).
(٢) انظر: المحلى (٥/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥).
(٣) انظر: الأضواء (٢/ ٢٣٠).
(٤) في المحلى: (٥/ ٢٤٦): «فوزن الدرهم المكي: سبع وخمسون حبة وستة أعشار حبة وعشر عشر حبة». اهـ.
(٥) انظر: المدونة (١/ ٣٣٩)، التمهيد (٦/ ٤٦٩ ـ ٤٧٢)، الاستذكار (٢١/ ٢١٣)، المجموع (٥/ ٤٧٧، ٤٧٨)، القرطبي (٧/ ١٠٥)، المغني (٢/ ٥٦٧ ـ ٥٧٢)، فتح الباري (٣/ ٣٤٤)، أضواء البيان (٢/ ٢٣١).

صاحبه، وقالوا لصاحبه: بينك وبين بستانك، فَكُلْ ما شئت، وبع ما شئت، وتصرف فيه كيف شئت، ولكنه عند الجذاذ أدِّ قدر هذا الخرص تمراً يابساً، أو زبيباً يابساً[١]. وهذا لم يخالف فيه إلا القليل من العلماء، فجماهير العلماء علىٰ الخرص، وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ في غزوة تبوك، لما مرّ بوادي القرىٰ نزل بحائط امرأة، فقال لقومه: اخرصوا كم يخرج منه؟ فخرصوا، وخرصه النبي ﷺ مع الخارصين، وقال لها: في خرصه: «**أرى أن تحصل منه عشرة أوسق من التمر اليابس، واحفظيه حتى نرجع من سفرنا**» فلما رجعوا من غزوة تبوك سألوا المرأة فقالت: خرج منه عشرة أوسق مطابقة لحزره ﷺ[٢]. مضمون هذا الحديث ثابت في صحيح مسلم والبخاري، وهو يدل على أن الخرص حق، وأنه سُنَّة. والظاهر أنهم ما خرصوه إلا ليأخذوا زكاته إذا كانوا قافلين. والأحاديث الكثيرة في أن النبي ﷺ كان يبعث الخارصين، كعبد الله بن رواحة وغيره إلىٰ يهود خيبر، فيخرص عليهم النخل، ويقول لهم: إن شئتم خذوه بهذا الكيل، وإن شئتم دعوه لنا بهذا الكيل[٣]. هذا معروف.

---

(١) انظر: المجموع (٥/ ٤٧٧)، المغني (٢/ ٥٦٩)، القرطبي (٧/ ١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: خرص التمر، حديث رقم: (١٤٨١)، (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر: الأحاديث (١٨٧٢، ٣١٦١، ٣٧٩١، ٤٤٢٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، حديث رقم: (١٣٩٢)، (٤/ ١٧٨٥).

(٣) في بعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه) خارصاً ورد عدة أحاديث منها:

١ ـ حديث عائشة (رضي الله عنها) عند أحمد (٦/ ١٦٣)، وعبد الرزاق (٤/ ١٢٩)، وأبي عبيد في الأموال ص ٤٣٢، وأبي داود في الزكاة، باب متى =

. . . .

= يخرص التمر، حديث رقم: (١٥٩١)، (٤/ ٤٩٥) وفي البيوع، باب في الخرص، حديث رقم: (٣٣٩٦)، (٩/ ٢٧٦)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الخرص (٣/ ٢٨)، والبيهقي (٤/ ١٢٣)، والدارقطني (٢/ ١٣٤)، وابن خزيمة (٤/ ٤١)، وقال الألباني: «إسناده صحيح على شرط مسلم». اهـ، وانظر: تلخيص الحبير (٢/ ١٧١)، والإرواء (٣/ ٢٨٠).

٢ ــ حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) عند ابن ماجه في الزكاة، باب خرص النخل والعنب، حديث رقم: (١٨٢٠)، (١/ ٥٨٢)، وانظر: الإرواء (٣/ ٢٨٢)، صحيح ابن ماجه (١/ ٣٠٥).

٣ ــ حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند أحمد (٢/ ٢٤)، والطحاوي في شرح المعاني (٢/ ٣٨)، وانظر: الإرواء (٣/ ٢٨١).

٤ ــ حديث جابر (رضي الله عنه) عند أحمد (٣/ ٢٩٦، ٣٦٧)، وعبد الرزاق (٤/ ١٢٤)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٩٤)، وأبي داود في البيوع، باب الخرص، حديث رقم: (٣٣٩٧ ــ ٣٣٩٨)، (٩/ ٢٨٠ ــ ٢٨١)، والدارقطني (٢/ ١٣٣)، والبيهقي (٤/ ١٢٣)، والطحاوي (١/ ٣٨ ــ ٣٩)، وانظر: الإرواء (٣/ ٢٨١)، صحيح أبي داود (٢/ ٦٥٤).

٥ ــ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند الدارقطني (٢/ ١٣٤)، وانظر: الاستذكار (٢١/ ١٩٦).

٦ ــ عامر بن عبد الرحمن. مرسلاً، عند عبد الرزاق (٤/ ١٢٤).

٧ ــ عبد الله بن عبيد بن عمير. مرسلاً، عند عبد الرزاق (٤/ ١٢٣).

٨ ــ الشعبي. مرسلاً، عند أبي عبيد في الأموال ص ٤٣٢، وابن أبي شيبة (٣/ ١٩٤).

٩ ــ سليمان بن يسار. مرسلاً، عند مالك في المساقاة، باب ما جاء في المساقاة، حديث رقم: (١٣٨٨) ص ٤٩٤، والبيهقي (٤/ ١٢٢)، وانظر: الاستذكار (٢١/ ١٩٦).

١٠ ــ سعيد بن المسيب. مرسلاً، عند مالك في المساقاة، باب ما جاء في =

وشذّت طائفة من العلماء[١]، فقال الشعبي: الخرص بدعة[٢]. وقال سفيان الثوري: لا يجوز الخرص؛ لأنه ظن وتخمين، والظن أكذب الحديث[٣]. وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله[٤] ـ قال: الخرص ظن وتخمين لا يثبت به حكم أبداً، وإنما كان النبي يأمر بخرص النخيل تخويفاً للقائمين عليه من أن يخونوا، فالمقصود به عنده تخويفهم من الخيانة. وقالوا: لا يُعمل بالخرص، ولا يثبت به حكم؛ لأنه ظن وتخمين، والظن لا يُغني من الحق شيئاً.

وجمهور العلماء علىٰ أن الخرص حق، ولكن اختلفوا: هل هو واجب أو سنة؟[٥] فبعضهم يقول: واجب؛ لئلا يُضيق علىٰ أهل النخيل في ثمارهم؛ لأنهم يحتاجون إلى الأكل منها، ولا تضيع حقوق الفقراء إذ لو أكلوها قبل الخرص، ولم يُعلم قدر ما فيها لضاع هؤلاء. والخرص يجمع مصلحة الطرفين، بأن يُخلىٰ بين أهل البساتين وبساتينهم، وتُحفظ للفقراء حقوقهم.

= المساقاة، حديث رقم: (١٣٨٧) ص ٤٩٤، والبيهقي (١/ ١٢٢).
١١ ـ عطاء. مرسلاً، عند عبد الرزاق (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٤).
١٢ ـ الزهري. مرسلاً، عند عبد الرزاق (٤/ ١٢٢، ١٢٣).

(١) انظر: الأموال لأبي عبيد ص ٤٣٩ ـ ٤٤١، التمهيد (٦/ ٤٧٠)، القرطبي (٧/ ١٠٥)، فتح الباري (٣/ ٣٤٤)، أضواء البيان (٢/ ٢٣٢).
(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (٤/ ١٢٧)، ابن أبي شيبة (٣/ ١٩٤)، الاستذكار (٢١/ ٢١٤).
(٣) انظر: الاستذكار (٢١/ ٢١٤).
(٤) انظر: شرح معاني الآثار (٢/ ٤١).
(٥) انظر: الأضواء (٢/ ٢٣٥).

وقال بعض العلماء: الوجوب لا يلزم إلا بدليل جازم. وبعضهم يقول: هو سُنَّة.

والدليل على الخرص: هو حديث عَتَّاب بن أسيد أن النبي ﷺ أمر أن يُخرص العنب كما يُخرص النخل، فتُؤدىٰ زكاته زبيباً عند الجذاذ، كما تُؤدىٰ زكاة النخل تمراً(١). هذا الحديث من مراسيل سعيد بن المسيب، ورواه سعيد بن المسيب عن عتاب بن أسيد، وسعيد لم يُدرك عتاب بن أسيد رضي الله عنهما؛ لأن سعيداً وُلد في خلافة عمر، وعتاب بن أُسيد توفي في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر رضي الله عنهما فلم يدركه، إلا أن مراسيل سعيد بن المسيب معروف حكمها في علوم الحديث(٢). وقد أقرّ علماء الشافعية أن هذا النوع من مرسل سعيد يتفق الشافعية على قبوله؛ / ولأنه شاع عن الشافعي [١٨/ب] أنه يقبل جميع مراسيل سعيد بن المسيب؛ لأنها تُتبعت كلها فَوُجدت

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٩٥)، وأبو داود في الزكاة، باب في خرص العنب، حديث رقم: (١٥٨٨ ــ ١٥٨٩)، (٤/ ٤٩١ ــ ٤٩٢)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الخرص، حديث رقم: (٦٤٤)، (٣/ ٢٧)، وقال: «حسن غريب». اهـ، وأخرجه ابن ماجه في الزكاة، باب خرص النخل والعنب، حديث رقم: (١٨١٩)، (١/ ٥٨٢)، والنسائي في الزكاة، باب شراء الصدقة، حديث رقم: (٢٦١٨)، (٥/ ١٠٩)، والدارقطني (٢/ ١٣٢ ــ ١٣٣، ١٣٤)، والبيهقي (٤/ ١٢١ ــ ١٢٢)، والحاكم (٣/ ٥٩٥)، وابن خزيمة (٤/ ٤١)، وابن الجارود (غوث المكدود ٢/ ١٧)، والطحاوي في شرح المعاني (٢/ ٣٩)، وابن حبان (الإحسان ٥/ ١١٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٦٢)، وقد ضعفه كثير من العلماء. انظر: تلخيص الحبير (٢/ ١٧١)، إرواء الغليل (٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) انظر: جامع التحصيل ص ٩٩، تدريب الراوي (١/ ١٩٩).

مسانيد. وقال النووي في شرح المهذب وغيره: إن الشافعي لم يقل بالعمل بمراسيل سعيد مطلقاً بل بقيد، وهو أن يرد الحديث مرسلاً من جهة أُخرىٰ، أو مسنداً من جهة أُخرىٰ، أو يعمل به بعض الصحابة، أو يعمل به أكثر العلماء[(١)]. وهذه الشروط موجودة هنا؛ لأن الخرص عمل به بعض الصحابة، وعمل به أكثر العلماء. فمرسل سعيد هذا اتفق الشافعية على قبوله، مع أن المشهور في مذهب مالك، ومذهب أبي حنيفة، ومذهب أحمد: الاعتداد بالمرسل مطلقاً. فظهر إجماع الأئمة الأربعة علىٰ الاحتجاج بمرسل سعيد هذا في خرص التمر والعنب[(٢)].

ولا يخرص غير التمر والعنب من الأشجار، ولا من الحبوب على التحقيق الذي عليه جمهور العلماء؛ لأن النص إنما ورد بخرص التمر والعنب فقط، ولم يرد في خرص شيء غيرهما. والثاني: أن خرص التمر ممكن لأن أعذاقه تجتمع في رأس النخلة في محل متقارب، فيمكن خارصها أن ينظر جميعها حتى يحزر ما فيها، وكذلك العنب تجتمع عناقيده وتتميز ويمكن خرصها، أما غير ذلك من الأشجار فإن ثماره تتفرق في كل الشجرة وتختلط بأوراقها، والحب مستتر في سنبله، فلا يمكن الخرص فيه[(٣)].

---

(١) في تحقيق مذهب الشافعي في المرسل انظر: الأم (٣/ ١٨٨)، مختصر المزني ص ٧٨، المجموع للنووي (١/ ٦٠ ـ ٦٣)، إرشاد طلاب الحقائق للنووي (١/ ١٧١، ١٧٥ ـ ١٧٩)، الكفاية للخطيب ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥، اللمع ص ٧٤، التبصرة ص ٣٢٩ (كلاهما للشيرازي).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٣٣).

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٣٧).

وكأن الأئمة الثلاثة: مالكاً والشافعي وأحمد، اتفقوا على أن التين لا زكاة فيه[١] وهذا من الغريب؛ لأن التين ييبس ويُقتات ويُدخر. وكان ابن عبد البر يقول: أظن أن مالكاً رحمه الله ما كان يعرف التين، ولا يظن أنه ييبس، ويُقتات، ويُدخر، ولو كان يظن ذلك لجعله كالزبيب ولم يعُدّه مع الفواكه.

أما الفواكه: كالرمان، والتفاح، والفِرْسِك ـ وهو الخوخ ـ والإجَّاص[٢]، والكمثرى، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، والخَضْراوات: كالقثاء والخيار وأنواع البقول المعروفة من: كَرَفْس ونعناع وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، فهذا لا زكاة فيه عند الأئمة الثلاثة[٣]، وقد جاء بعض الآثار وبعض الأحاديث في وجوب الزكاة في الخَضْراوات ولم يصح فيها شيء[٤].

ودليل الجمهور أن الفواكه جميعها، والخَضْراوات جميعها، لا زكاة فيها: أنه لم يؤخذ عن أحد من المسلمين أن النبي ﷺ أخذ في المدينة شيئاً من زكاة الخَضْراوات ولم يتعرض لها أبداً، ولمَّا

---

(١) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٠، الاستذكار (٩/ ٢٧٢)، المجموع (٥/ ٤٥٢، ٤٥٣)، المغني (٢/ ٥٤٩).

(٢) نوع من الثمر، حلو، شجرته من الفصيلة الوردية. ويطلق في بعض البلاد على الكُمثرى. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٧).

(٣) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٠، الاستذكار (٩/ ٢٧٠ ـ ٢٧٥)، المجموع (٥/ ٤٥٢)، المغني (٢/ ٥٤٩).

(٤) للوقوف على كلام العلماء على الأحاديث والآثار الواردة في هذا الموضوع. انظر: تنقيح التحقيق (٢/ ١٤٠٢ ـ ١٤٠٧)، تلخيص الحبير (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٩)، الدراية (١/ ٢٦٣)، نصب الراية (٢/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩)، إرواء الغليل (٣/ ٢٧٦ ـ ٢٧٩).

فتحوا الطائف كانت الفواكه فيه بكثرة من غيرها من رمان وفِرْسِك وغير ذلك، ولم ينقل عن النبي ولا عن أحد من أصحابه أن أحداً منهم تعرض للفواكه أو الخَضْراوات وأخذ منها شيئاً.

ومعلوم أن أبا حنيفة يوجب الزكاة في الجميع نظراً للآية التي ذكرنا[١].

فبهذا تعلمون أن مالكاً والشافعي يوجبان الزكاة في كل مُقتات مُدَّخر، وليس مُقتاتاً عندها من الأشجار إلا التمر والزبيب، وأن الإمام أحمد يوجب الزكاة في كل ما ييبس ويُكال ويبقىٰ.

وكان داود بن علي الظاهري يقول: ما تنبته الأرض إن كان مكيلاً فلا يُزكىٰ حتى يبلغ الخمسة أوسق، وإن كان غير مكيل وجبت الزكاة في قليله وكثيره[٢].

والحق أن هذا المذهب لولا أنه عُورض بما هو أقوىٰ منه كان أقرب المذاهب إلىٰ ظاهر النصوص؛ لأن قوله ﷺ: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»[٣] يدل علىٰ أن الزكاة تختص بما هو موسّق، والوسق يختص بالكيل بإجماع العلماء؛ لأن الوسق معيار كيلي بلا نزاع؛ لأنه ستون صاعاً، والصاع معيار كيلي. وهذا معروف، وإن كان ليس مكيلاً يدخل في عموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] إلا أن مذهب داود هذا مع اتجاهه وجمعه

---

(١) انظر: المبسوط (٣/ ٢).

(٢) انظر: المحلى (٥/ ٢١٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

للنصوص يَرِدُ عليه ما ذكرناه الآن، من أن النبي ﷺ لم يتعرض هو ولا أحد من أصحابه إلىٰ أخذ الزكاة من الفواكه، والخَضْراوات، ولا شيء من ذلك.

وهذا الذي ذكرنا يُعلم منه أن أبا حنيفة (رحمه الله) لا يشترط النصاب، ولا خمسة أوسق، ولا كَون النابت في الأرض قوتاً، أو غير قوت، ييبس، أو لا ييبس، مدخراً أو لا، وأن الأئمة الثلاثة اشترطوا كما ذكرنا.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] علىٰ أن المراد بها الزكاة.

وهذا الذي ذكرنا يعرف به الإنسان مذاهب العلماء في كل ما يخرج من الأرض. وقد بينا خلافهم في عين ما تجب فيه الزكاة، وبينا أنه عند الشافعي ومالك: كل ما يُقتات ويُدخر، وأنه عند أحمد: كل ما ييبس ويُكال ويبقىٰ، وأنه عند أبي حنيفة: لا يُشترط فيه شيء. هذا عين الذي تجب فيه الزكاة. وقد بينا أنها عند الجميع القدر الذي تجب فيه هو: خمسة أوسق فصاعداً، وأن أبا حنيفة يوجبها في القليل والكثير، وأن القدر اللازم إخراجه هو العُشر فيما لا يُسقى بكلفة، ونصف العُشر فيما سُقي بهذا(١). هذا هو حاصل كلام العلماء في هذه المسائل الثلاثة. وإذا عرفت عين ما تجب فيه الزكاة، وقدر النصاب الذي تجب فيه، وقدر الزكاة التي تخرج منه، فقد عرفت المسألة.

وقوله: ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ فيه للعلماء إشكال ــ علىٰ أنه

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٠٩)، الأضواء (٢/ ٢٣٠).

الزكاة[١] ــ لأنه يوم الحصاد لم يكن تمراً يابساً، ولم يكن زبيباً يابساً، والزكاة إنما تُخرج منه بعد أن يكون تمراً يابساً، أو زبيباً يابساً. قالوا: المراد بيوم الحصاد: أن المراد به عند حصاده. ويراد: أن زمن الحصاد قد يطول إلىٰ أن يصح يُبسه من زبيب، وتمر، ونحو ذلك. وهذا يوجد في كلام العرب، يقول: افعله عند كذا. ويريد به الاتساع في الوقت، كما تقول: لقيت زيداً سنة كذا. وتقول: لقيته في يوم أول منها. ويكون جميع السنة بعده لم تلقه فيه. هذا يمكن في كلام العرب. وهذا معنىٰ قوله ــ على هذا القول ــ : ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[٢]. قرأه أبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وفَتْح الحاء في (الحصاد) هي لغة التميميين وغيرهم من قبائل نجد. وقرأ الآخرون: ﴿يَوْمَ حِصَادِهِۦ﴾ بكسر الحاء. وهي لغة الحجازيين. وهما لغتان معروفتان، وقراءتان مشهورتان[٣]: كالحَصاد والحِصاد، والجَذاذ والجِذاذ، والقَطاف والقِطاف[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في هذه الآية أوجه معروفة متقاربة من التفسير[٥]:

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٥٨) فما بعدها.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٣٨)، الدر المصون (٥/١٩٠)، التحرير والتنوير (٨/١٢٢).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.

(٤) انظر: حجة القراءات ص ٢٧٥، القرطبي (٧/١٠٤)، أضواء البيان (٢/٢٤٦).

(٥) انظر: ابن جرير (١٢/١٧٣)، القرطبي (٧/١١٠)، ابن كثير (٢/١٨٢).

أحدها: كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه، ولا تسرفوا في الإعطاء حتى تتركوا عائلتكم وأولادكم فقراء ليس عندهم شيء يأكلونه. والذين قالوا هذا قالوا: نزلت هذه الآية في المدينة في ثابت بن قيس بن شَمَّاس، كان عنده خمسمائة نخلة فجذَّها، وقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته. فلم يزل يُطعم الناس حتىٰ راح وليس عنده ثمر، فنزل: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾[1].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ في الإيتاء حتى لا تتركوا لأنفسكم ولعيالكم ما يأكلون. وهذا التفسير كقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٩]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: الآية ٦٧].

وقال بعض العلماء: لا تسرفوا في شيء من الأعمال؛ لأن الإسراف كله مذموم.

وقال بعض العلماء: إنه راجع إلى قوله: ﴿وَكُلُواْ﴾ أي: كلوا من ثمره ولا تسرفوا في الأكل، كما قال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: الآية ٣١] وهذا أظهرها؛ لأن الإسراف في الأكل معروف معهود النهي عنه في الكتاب والسنة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ المسرفون: جمع المُسرف، اسم فاعل الإسراف. وأصل الإسراف: مجاوزة الحد. تقول: أسرف في الشيء. إذا جاوز به حده. وهو مسرف علىٰ نفسه. إذا كان يتعدىٰ

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/ ١٧٤) عن ابن جريج مرسلاً. وعزاه في الدر (٣/ ٤٩) لابن أبي حاتم. والرواية التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٣٩٩) إنما هي عن معاذ لا ثابت بن قيس، والله أعلم.

حدود الله إلىٰ ما حرمه الله (جل وعلا)[1]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

وهذه الآية كأنّا ذكرنا عندها نوعاً من أنواع الزكاة، وهو ما تنبته الأرض، وسيأتي في سورة براءة زكاة النقود: الذهب والفضة، وما جرىٰ مجراهما من التجارات، والمعادن، والحُلي المباح، وغير ذلك، وسنذكره ـ إن شاء الله ـ عند محله[2]، وسيأتي في بعض المواضع في آيات الزكاة المطلقة ما تدخل فيه زكاة الحيوانات، وسنتكلم عليه ـ إن شاء الله ـ في موضعه. أما هذه الآية فهي خاصة بما تنبته الأرض، وقد تكلمنا علىٰ زكاة ما تنبته الأرض عند الأئمة الأربعة، ومع كل واحد منهم موافقون من فقهاء الأمصار، والله (جل وعلا) نسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما يرضيه.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٢].

قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ معطوف علىٰ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مما قبله[3]. وتقرير المعنىٰ: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. فهو منصوب بالعطف علىٰ منصوب. أي: وهو الذي أنشأ جنات معروشات، وأنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام،

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٧٦)، القرطبي (٧/ ١١٠، ١١١)، المفردات (مادة: سرف) ص ٤٠٧.

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٤٣٤) فما بعدها.

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ١١١)، البحر المحيط (٤/ ٢٣٨)، الدر المصون (٥/ ١٩٠).

والمعنىٰ: هو الذي رزقكم أنواع النباتات والحبوب، وأنواع الأنعام، فما كان لكم أن تقولوا: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ ولا أن تجعلوا لشركائه من الأنعام والزروع شيئاً. أي: وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشاً.

التحقيق أن الأنعام: أنها الإبل، والبقر، والغنم بأصنافها الثلاثة[1]. والحمولة: هي ما يُحمل عليه الأثقال، ويُسافر عليها ــ بها ــ من بلد إلىٰ بلد[2]، كما قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: الآية ٧] ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: الآية ٧٢] ومن نقل عن ابن عباس أن الحمولة: الإبل، والبغال، والخيل، وكل ما يُحمل عليه من الدواب[3]؛ فهو قول لا يصح؛ لأن الأنعام لا تطلق إلا علىٰ الإبل، والبقر، ونوعي الغنم، فلا تطلق علىٰ الخيل، ولا علىٰ البغال؛ ولذا فسَّر الله الأنعام في هذه السورة بقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] كما يأتي إيضاحه. أي: وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة. أي: مراكب تحملون عليها أمتعتكم، وتركبون عليها، كالإبل. قال بعض العلماء: وكالبقر في بعض البلاد. وهو صادق؛ لأنَّا شاهدنا بعض الأقطار يحملون الأحمال الثقيلة علىٰ ذكور البقر من بلاد بعيدة إلىٰ

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١١١)، (١٠/ ٦٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٧٨) فما بعدها، القرطبي (٧/ ١١١ ــ ١١٢)، ابن كثير (٢/ ١٨٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٢/ ١٨٠) من طريق علي بن أبي طلحة، وهو إسناد جيد، وقول ابن عباس هذا هو الذي رجحه ابن جرير (رحمه الله) في تفسيره (١٢/ ١٨١).

بلاد بعيدة، وقد يكون عندهم ذكور البقر يحمل الواحد منهم فوق ما يحمله البعير[١]، ويسافرون عليها من بلاد إلى بلاد. وإن كان بعض علماء المالكية أفتى بأن البقر لا يجوز ركوبه، ولا الحمل عليه، ظناً منه أن ركوبه والحمل عليه من تكليفه ما لا يطيقه[٢]. ونحن شاهدنا ذي الأيام في بعض الأقطار ذكور البقر تكون معروضة تحمل الأثقال العظيمة من بلاد إلىٰ بلاد رأي العين. وبذلك نعلم أنها داخلة في قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ أي: ما يحملون عليه أثقالهم كالإبل، وربما دخل البقر في بعض الأقطار.

وقوله: ﴿وَفَرْشًا﴾ الفرش هنا فيه أقوال متقاربة للعلماء[٣]: حكى الفراء إجماع أهل اللغة علىٰ أن الفرش صغار الإبل، وهي الفصلان[٤]. وقال بعض العلماء: الفرش: الغنم.

والتحقيق: أن الآية تشمل كل ذلك، وأن الأنعام منها ركوبة كالإبل، ومنها فرش، وهو ما يؤكل، ويُشرب من لبنه، مع أنه ليس صالحاً للركوب، فيدخل في الفرش: الغنم، وفِصال الإبل، وعجاجيل البقر؛ لأن ولد البقرة يُقال له: عِجل. ويُجمع علىٰ:

---

(١) انظر: الحيوان للجاحظ (٧/ ١٩٥).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٤٣)، القرطبي (١٠/ ٧٢، ٧٧)، إكمال إكمال المعلم للأُبي (٦/ ١٩٧).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٧٨) فما بعدها، القرطبي (٧/ ١١٢)، ابن كثير (٢/ ١٨٢).

(٤) لم يرد ذكر لهذا الإجماع عند تفسير الفراء لهذه الآية في كتابه: (معاني القرآن ١/ ٣٥٩) وإنما الذي نقل الإجماع في ذلك هو الزجاج في معاني القرآن (٢/ ٢٩٨)، فلعل الشيخ عناه لكن سبق لسانه إلى الفراء.

عجاجيل. علىٰ غير قياس[١]. فالغنم، وفِصَال الإبل، وعجاجيل البقر كلها يدخل في الفرش.

قيل: وإنما سُميت هذه الصغار: (فرشاً) لقربها من الفراش والمهاد الذي هو التراب؛ لأنها صغيرة قصار قريبة من الأرض. هكذا قالوا، والله أعلم[٢].

وعلى كل حال فجميع الأقوال راجعة إلىٰ أن الله أنشأ الأنعام، وجعل فيها منّة الركوب والأكل.

أما قول من قال: (فرشا) فإنه لا يتناول إلا ما يُصنع منه الفِرَاش، كالضأن الذي يُصنع من صوفها الفراش، والمعز الذي يصنع من بعض شعرها الفراش ونحو ذلك، وأن الفرش هو ما يستمده الخلق من جلود الأنعام، وأصوافها، وأشعارها، وأوبارها[٣] ـ كما يأتي في سورة النحل ـ فهذا قول غير متجه؛ لأن المنة تكون بمجرد الأصواف، والأوبار، والأشعار، والجلود، لا بنفس الأنعام، والمعروف في القرآن ـ وإنْ ذَكَر المنَّة بالأصواف، والأوبار، والأشعار، والجلود في قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ [النحل: الآية ٨٠]، وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الآية [النحل: الآية ٨٠] إلا أن المراد هنا: ـ الامتنان بها جميعاً، وأعظم أنواعه: الأكل منها. وهذا المعروف في القرآن، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ١١٢).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ١١٢)، البحر المحيط (٤/ ٢٣٩)، الدر المصون (٥/ ١٩١).

﴿أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢﴾ [يس: الآيتان ٧١، ٧٢]، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ [النحل: الآية ٥]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩﴾ [غافر: الآية ٧٩] إلىٰ غير ذلك من الآيات. فتبين أن المنة في الركوب، وغيره من الأكل، وغير ذلك من النعم، يعني: هذا الذي أنشأ لكم الأنعام ــ حمولتها وفرشها ــ هو الله جل وعلا.

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هذا الذي خلقته لكم، وهي: الأنعام، والفرش، كلوا من الذي رزقكم الله من الأنعام، والفرش، والزروع، المعطوف عليها في قوله: ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] فهذا رزق الله كلوا منه، ولا تُحرِّموا منه شيئاً علىٰ أنفسكم افتراءً علىٰ الله، ولا تجعلوا منه شيئاً للأوثان، كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ يعني: كلوا من رزقي ونعمتي، ولا تتبعوا في نعمتي ورزقي تشاريع الشيطان وقوانينه، بأن تُحلّوا هذه وتُحرموا هذه، فتُحرموا البَحِيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وتقولوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا. وتقولوا: هذه أنعام وحرث حجر. كل هذا اتباع خطوات الشيطان.

والآية نص صريح في أن من مشىٰ علىٰ تشريع جعله الشيطان، يُحل فيه ما لا يُحله الله، ويحرم فيه ما لا يحرمه الله، أنه اتبع خطوات الشيطان.

والخُطوة ـ بضم الخاء ـ هي ما بين قدميّ الماشي[١]، فكما بين قدمي الماشي من المسافة: (خُطوة). والمرّة من خَطْوِهِ تُسمىٰ (خَطْوَه) بالفتح. وفيه قراءتان سبعيتان: قرأه ابن عامر، والكسائي، وقُنبل عن ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بضم الطاء إتْباعاً للخاء ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وقرأه باقي السبعة: نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والبَزِّيّ عن ابن كثير، وشعبة عن عاصم: ﴿خُطْوات الشيطان﴾ بسكون الطاء[٢].

والشيطان ـ قبحه الله ـ معروف، وهو هنا: الشيطان الذي سنّ المعاصي. وقد قدمنا مرارا[٣] أن كل متمرد عات شيطان، وذكرنا ـ في الدروس الماضية ـ أن الشيطان فيه قولان للعلماء: هل اشتقاقه من (شَطَنَ الشيء) بمعنىٰ بعُد، أو اشتقاقه من (شَاطَ الشيء) إذا هلك؟ قال بعض العلماء: الشيطان من (شَطَن) تقول العرب: «شَطَنَ، يشطن، فهو شطين». أي: بعيد، ومنه قول الشاعر[٤]:

نَأَتْ بِسُعَادَ عنكَ نَوىً شَطُون فَبَانَت والفُؤادُ بها حزين

وهذا القول جاء في شعر العرب ما يدل عليه، فقد قال أُمية بن أبي الصلت الثقفي ـ وهو عربي قُح ـ يمدح سليمان[٥]:

أيما شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثم يُلْقَى في السجن والأكبال

(١) انظر: المفردات (مادة: خطو) ص ٢٨٨.
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٣٩.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.
(٤) السابق.
(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.

فقوله: «أيما شَاطِن»: يعني: أيما شيطان، والشَّاطِن: اسم فاعل من (شَطَنَ) بلا نزاع، فدل هذا البيت علىٰ أن أصله من (شَطَن) فالعرب تقول: «شَطَنَ قَعْرُ البير». إذا بعدت مسافة عمقها.

وعلىٰ هذا القول فاشتقاق الشيطان من (شَطَنَ) بمعنىٰ (بعُد) أي: لشدة بُعده عن رحمة الله ـ والعياذ بالله ـ وعلىٰ هذا القول: فوزن الشيطان بالميزان الصرفي: (فَيْعَال) والياء زائدة، والنون أصلية، بناء علىٰ أنه من (شَطَنَ) بمعنىٰ (بعُد) ذكر هذا سيبويه في موضع من كتابه، ثم ذكر القول الآخر في موضع آخر من كتابه، أن أصل الشيطان من (شَاطَ يشيطُ) إذا هلك. تقول العرب: «شَاطَ الفارسُ يَشِيطُ». إذا هلك[1]. وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشىٰ ميمون بن قيس[2]:

قد نَخْضِبُ العيرَ من مكْنُونِ فَائِلِهِ وقد يشيطُ على أرماحنا البطلُ

أي: يهلك عليها.

وعلىٰ أنه من (شَاطَ يَشِيطُ) فوزنه بالميزان الصرفي (فَعْلان) لأن الألف والنون زائدتان؛ لأن أصل حروفه الأصلية علىٰ هذا: (شَيَط) فاؤها شين، وعينها ياء، وطاؤها لام، والألف والنون زائدتان. فعلىٰ القول الأول فوزنه: (فَيْعَال) وعلىٰ الثاني فوزنه (فَعْلَان) وكل متمرد عات شيطان، سواء كان من الإنس أو الجن أو غيرهما، ومن شعر جرير[3]:

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

أَيَامَ يَدْعُونَني الشيطان من غَزَلٍ وكـنَّ يَهْـوَيْنَنـي إذْ كُنْتُ شيطانـاً

ثـم قـال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطـان ﴿لَكُمْ﴾ يـا بنـي آدم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: بيّن العداوة ظاهـرها؛ لأن الشيطان هو عدو بني آدم؛ لأن زَعْـمَ الخبيـث أن سبـب شقـائـه هـو آدم، حيـث امتنـع مـن السجود له، وقال: ما دام آدم هو سبب شقاء البعيد فسيبذل كل مجهود حتى يُشقي أولاد آدم. وقد أظهر العداوة لله لبني آدم مجاهراً بها، ولم يكتمها، ولم يوارِ حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ الأظهر في تفسيرها أن معنىٰ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسـراء: الآيـة ٦٢] لأقـودنهـم إلـى المهالك بتزييني، مـن قـول الـعـرب: «احْتَنَكَ الـرجـل البعير». إذا جـعـل الحـبـل علىٰ حنكيه فقاده بالحبل علىٰ حنكيه حيث شاء. وقـال هـذا مـراراً: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٣٩] ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١١٩] فقد أظهر العداوة. فربنا يقول: كونوا عقلاء، واعرفوا عدوكم من صديقكم، واعرفوا أن الشيطان عدوكم، فلا تتبعوا خطوات الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: الآية ٦]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآيـة ٥٠] وهذا قد قاله للأب والأم الكبيرين، ولكن الله لم يشأ أن ينفعهما بذلك، حيث قال لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ

﴿ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: الآية ١١٧] بين له عداوته، وحذره منها، ولكن قضاء الله غالب، وقدره نافذ. فعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن الشيطان عدونا فنعاديه، ولا ننجر معه إلىٰ ما يريد أن يجرنا إليه من المعاصي والهلكات؛ لأنه عدو طالب ثأر، يريد أن ينتقم منا، فالمسلم الفاهم إذا قرأ آيةً في سورة سبأ ـ إن كان يفهم عن الله ـ عرق جبينه من الخجل، إن كان يتبع الشيطان؛ لأن الشيطان احتقرنا معاشر الآدميين احتقاراً عظيماً لا مثيل له، حيث إنه عدونا، واعتقد فينا أن عندنا من سذاجة العقول، وعدم الفهم، وعدم عمق العقل أنه إذا أراد أن يجرنا إلىٰ المَهْلَكة بوساوس، وتزيينات، وزخارف فاضية أننا نبلغ من سذاجة العقول، وعدم التفكير، وسوء النظر أننا ننجر معه حتى يدخلنا في المهلكة، ويشفي غيظه منا، وينتقم منا، ظن هذا في بني آدم اعتقاداً منه سوء عقولهم، وعدم نظرهم، إلا القليل منهم؛ لأن قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩﴾ ظَنٌّ منه؛ ولذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: الآيتان ٣٩، ٤٠] زعموا أنه خاف أن يظهر عليه الكذب. ومن هنا قال بعض العلماء: لا خصلة أقبح من الكذب؛ لأن الشيطان تحرز عنها حيث قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ وما قال هذا إلا ظناً ببني آدم ضَعْفَ العقول، وضَعْفَ النظر، وعدم التفكير، ومع هذا يقول الله في سورة سبأ، وهي الآية التي تُحزن المؤمن المتبع للشيطان: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: الآية ٢٠] هذه الآية إذا تأملها المسلم الذي يعلم من نفسه أنه يتبع الشيطان، عرق جبينه من الخجل، حيث يكون الشيطان يعتقد فيه من السذاجة، وضعف العقل، وعدم النظر والتفكير أن عدوه إذا أراد أن يقوده حتى يوقعه

في مَهْلَكَة، ويشفي غيظه منه، ويأخذ بثأره، وينتقم، انقاد معه. قال هذا ظناً، ومع هذا يصدق هذا الظن!! فهذا شيء يُحزن المؤمن، وينبغي التنبه له: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾(١) هم الذين قال فيهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٠]. وكان حُذّاق العلماء يقولون: علينا معاشر الآدميين أن نعتقد أن الشيطان عدونا، وأنه سبانا من دار الكرامة التي كان فيها الأبوان: الجنة، التي قيل لآدم فيها: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: الآيتان ١١٨، ١١٩] فأخرجنا الشيطان من دار الكرامة، فنحن سبي الشيطان، أخرجنا من تلك الدار إلىٰ هذه الدار، التي هي دار الشقاء، والمصائب، والأحزان، والبلابل، لا يكاد إنسان يسلم يوماً ولا ليلة من أذيّة من أذاياها، وكان العلاّمة ابن القيم (رحمه الله) يقول في هذا الموضوع(٢):

ولكنّنا سَبيُ العدوِّ فهل تُرىٰ ... نُرد إلىٰ أوطاننا ونُسلَّم

فعلينا أن نجاهد العدو ونعاديه، حتى يمكننا الرجوع إلىٰ الوطن الأول؛ لأنه لما وقعت الزلة من الأبوين ــ آدم وحواء ــ حكم الله أنه لا يُدخل أحداً من ذريتهما جنته إلا بعد الامتحان في الأوامر والنواهي. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ فلا تتبعوا خطواته.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٦٣.

(٢) طريق الهجرتين ص ٥١، شرح القصيدة الميمية ص ٣٤، وأول الشطر الثاني: «نعود».

والمبين: اسم فاعل (أبان) و(أبان) تأتي في العربية علىٰ لغتين:

أحدهما[١]: (أبان) اللازمة، تقول العرب: «أبان الشيءُ يُبين، فهو مُبين». إذا كان بيناً ظاهراً لازماً غير متعد للمفعول. وهذه لغة فصحىٰ معروفة في كلام العرب، وفي القرآن العظيم، ومن إطلاقها في كلام العرب قول جرير[٢]:

إذا آبــاؤُنَــا وأبــوكَ عُــدُّوا أَبَـانَ المُقْـرِفَـات مـن العِـرَابِ

أبـان: أي: ظهـر المُقْـرِفَـات مـن العِـرَاب. وقـول عمـر بـن أبـي ربيعة المخزومي[٣]:

لو دبَّ ذرٌ فوقَ ضاحي جلدِهَا لأَبَـانَ مـن آثَـارِهِـنَّ حُـدورُ

يعني: لظهر من آثار دبيب النمل ورم لشدة رقة بشرة الجِلْد. فـ (أبان) هنا لازمة لا مفعول لها. ومن إتيان (المُبين) لازماً من اسم فاعل (أبان) اللازمة: قول كعب بن زهير في (بانت سعاد)[٤]:

قَنْوَاء في حُرَّتَيْهَا للبصيرِ بها عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخَدَّينِ تَسْهيلُ

عِتْقٌ مُبِيْن: أي: كرم ظاهر.

وعلى أن (مبيناً) هنا من (أبان) اللازمة، والمعنىٰ: إن الشيطان لكم عدو مبين. أي: بيّن العداوة ظاهرها واضحها. من (أبان يُبين) فهو: مبين. لازماً. وقد يحتمل أن يكون من (أبان) المتعدية،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.
(٤) السابق.

والمفعول محذوف، أي: مبين عداوته ومظهرها، حيث صرح بذلك في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٦]، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ [الإسراء: الآية ٦٢]، ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٣٩] فهنا أبان عداوته. وعلىٰ أنه من (أبان) المتعدية: فالمفعول محذوف، وحَذْفُ المفعول إذا دل المقام عليه جائز كما هو معروف في كلام العرب.

في قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] أوجه معروفة من الإعراب[1]: أظهرها وأصحها: أنها بدل من قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٢] أي: أنزل لكم من الأنعام حمولة وفرشاً. ثم بيّن الحمولة والفرش ما هي؟ فبينها بالإبدال منها فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

والمراد بالأزواج هنا: الأصناف. وكل شيء يحتاج إلىٰ أن يجتمع مع واحد من جنسه تُسميه العرب: زوجا[2]. كالخُفّ فإنه يحتاج إلىٰ خُفّ آخر فهو زَوْجُه، وكأحد مصراعيّ الباب فإنه يحتاج إلىٰ مصراع آخر فهو زَوْجُه، وكالذَّكَر فإنه يحتاج إلىٰ الأنثىٰ فهي زَوْجُه؛ لأنهما مزدوجان.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الضأن معروف، وهو نوع الغنم الذي فيه الصوف، ومُقَابِله: المعز. وقرأه عامة القراء: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ بتحقيق الهمزة، وأبدلها السوسي عن أبي عمرو:

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٨٣)، القرطبي (٧/ ١١٣)، البحر المحيط (٤/ ٢٣٩)، الدر المصون (٥/ ١٩١).

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ١١٣).

﴿ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[(١)].

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ ﴾ قرأه نافع والكوفيون الثلاثة ـ وهم: عاصم، وحمزة، والكسائي، قرؤوا ـ : ﴿ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ ﴾ بسكون عين المعز، وقرأه الباقون ـ وهم: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو ـ ﴿ وَمِنَ المعَزِ ٱثْنَيْنِۗ ﴾ بفتح عين المعز[(٢)]. وهما لغتان في (المَعَز، والمَعْز)، وكذلك (الضأَن، والضأْن)[(٣)] ولكن (الضأَن) لم يُقرأ بها، إنما قرأوا بـ (الضأْن) بالسكون، وأبدلها السوسي عن أبي عمرو، وأظهر اللغتين: (المَعْز) بالسكون؛ لأن (الفَعْل) قد يُجمع علىٰ (فَعِيْل) والمعز يجمع علىٰ مَعِيز، كالعبد، والعبيد، والمعز، والمعيز. ومن جَمْعِه علىٰ (المَعِيز) قول امرىء القيس[(٤)]:

أَبَعْدَ الحارث الملك ابنِ عمرو ... لـه مُلـكُ العـراقِ إلـى عُمـانِ
ويَمْنَعُها بنُو شَمَجى بنِ جرمِ ... مَعِيْـزَهـمُ حَنَـانَـكَ ذا الحنـانِ

(١) انظر: الإقناع (١/ ٤٠٨، ٤٢٥)، النشر (١/ ٣٩٠).
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.
(٣) انظر: القرطبي (٧/ ١١٤)، الدر المصون (٥/ ١٩٤).
(٤) ديوان امرىء القيس ص ١٦٩. وبين البيتين المذكورين بيت لم يذكره الشيخ (رحمه الله)، وهو قوله:
مُجَاورةً بنـي شَمَجَـى بـنِ جَـرْمٍ ... هَـوَانـاً مـا أُتيـحَ مـن الهـوانِ
وقوله: (الحارث) هو: الحارث الأكرم بن عمرو بن معاوية.
وقوله: (بنو شمجى) حي من طيِّئ. قال ذلك حينما نزل بهم فلم يحمد نزلهم.
وقوله: (حنانك) أي: تحننك وترحمك. يتهكم بهم.
وقوله: (ويمنعها) يرويه بعضهم: (يمنحها).

﴿مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: زوجان، ذكر الضأن وأُنثاه، وهما: الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكره وأنثاه، وهو: التيس والمعزة. ويقال لها: المعزى والعنز. والمعزى تطلق علىٰ جنس المعز أيضاً، ومنه قول امرىء القيس(١):

أَلَا إِلَّا تكُـنْ إبـلٌ فمِعْـزَى كـأَنَّ قُـرون جِلتها العِصِـيُّ

فهذه أربعة أصناف من الغنم، وهي: الكبش، والنعجة، والتيس، والمعزة ـ التي هي العنز ـ هذه أربعة في الغنم من الأزواج الثمانية.

ثم قال بعد هذا: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما: الجمل والناقة.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر البقر وأنثاه، البقرة والثور. فهذه هي الأصناف الثمانية، التي هي الأنعام، التي يُباح أكلها من الحيوانات، كما سيأتي في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: الآية ٦] وهي هذه الثمانية. وهذا معنىٰ قوله: ﴿مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ الهمزة الأولى همزة استفهام، والثانية همزة الوصل. والقاعدة: أن همزة الوصل إذا كانت همزة (أل) وجاءت قبلها همزة الاستفهام، أن همزة الوصل تُبدل مدّاً بهمزة الاستفهام(٢)، ويجوز تسهيلها بين بين، وبعضهم

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٧١.
وقوله: (جلتها) أي: كُبراها. والمعنى: إذا لم يكن في اليد إبل مقتناة فإن الاجتزاء بالمعزى فيه سداد من عوز.

(٢) انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٥٥١)، الإقناع لابن الباذش (١/ ٣٥٩)، المُوضح لابن أبي مريم (١/ ١٩١)، النشر (١/ ٣٦٢) فما بعدها، الكليات ص ٢٠ ـ ٢١، ٩٥٦، معجم الإعراب والإملاء ص ٢٨، الهمزة في الإملاء العربي ص ٢٢ ـ ٢٤.
=

يُجيز إبدالها هاء. وزعم بعض علماء القراءات أن الذين مدّوها هنا قالوا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ أنهم جاءت عنهم قراءات بتسهيلها بين بين ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ وعلىٰ تسهيلها لم يكن بينهما أَلِف الإدخال؛ لأن الأَلِف في التسهيل بين بين إنما يأتي بالهُمَز المحققة. ومن تسهيل العرب لهمزة الوصل بعد همزة الاستفهام قول الشاعر(١):

أَيَا ظَبيةَ الوَعْساء بين جُلاجلٍ وبيـن النقـا آأنـتِ أَمْ أُمُّ سـالـمِ

هي تمدها العرب وتسهلها، فشاهد مدها ـ كقوله هنا ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ ـ قول الشاعر:

أَيَا ظَبيةَ الوَعْساء بين جُلاجلٍ وبيـن النقـا آأنـتِ أَمْ أُمُّ سـالـمِ

الأصل: (ءأنت) ولكنها هنا ليست همزة وصل، بل همزة أُخرىٰ، وتسهيلها وهي همزة وصل شاهده قول الشاعر(٢):

أَأَلْحَقُّ إنْ دارُ الرَّبابِ تباعَدَتْ أو انبَـتَّ حبْـلٌ أنَّ قَلْبَـكَ طـائِـرُ

قـولـه: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾، ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾: مفعـول ﴿حَرَّمَ﴾ مقدم عليه. والمعنىٰ: أحرم الله الذكرين، ذكر المعز والضأن ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرم أُنثيي الضأن والمعز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حرم الذكور والإناث كُلًّا. كأنه يقول: تفريقكم بين بعض الذكور وبعض الإناث، وبعض ما في بطون الأنعام بأن تُحِلُّوا بعض هذا، وتُحرموا بعضه، إن كانت العلة في تحريم الذكر الذكورة، فكان

---

(١) البيت لذي الرمة. وهو في الكتاب (٣/ ٥٥١)، الأمالي (٢/ ٥٨)، الدر المصون (١/ ١١٠).

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة. وهو في الكتاب لسيبويه (٣/ ١٣٦)، النشر (١/ ٣٧٧).

اللازم أن يحرم كل ذكر لاطراد العلّة، وإن كانت الأنوثة لزم أن تحرم كل أنثى لاطراد العلّة، وإن كان كونه في البطون ـ مشتملة عليه الرحم ـ لزم أن يحرم كل مولود من ذكر وأنثىٰ، وكل لبن؛ لأن الكُلّ اشتملت عليه الرحم!! فكأنه يقول: تفريقكم هذا باطل؛ لأنه لو كانت العلة الذكورة لحرم ذكر الضأن والمعز معاً وأنثاهما كُلًّا. ولو كانت التخلق في الرحم لحرم ما اشتملت عليه الرحم مطلقاً. فَلِمَ حرمتم بعض هذا، وحللتم بعض هذا؟ وما الفارق بين ما حللتم وحرمتم؟

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ الجمل والناقة. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ البقرة والثور. ثم أعاد القضية ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ عجّزهم في الأول فقال: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أخبروني عن هذا الذي حرمتم، وهذا الذي حللتم، ما وجه تحريمكم لهذا؟ وتحليلكم لهذا؟ مع استواء الجميع!! وقال في الثاني: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ﴾؟.

وآية الأنعام هذه مثال معروف لعلماء الجدل للدليل الذي يسميه الجدليون: (الترديد والتقسيم)(١)، ويسميه المنطقيون: (الشَّرْطي المُنْفَصل)(٢) ويسميه الأصوليون: (السبر والتقسيم)(٣)،

---

(١) انظر: الكافية في الجدل ص ٣٩٤ علم الجذل في علم الجدل للطوفي ص ٦٠، الإيضاح لابن الجوزي ص ٨٠، الجدل لابن عقيل ص ١٩، البحر المحيط للزركشي (٥/ ٢٢٥)، القبس لابن العربي (٣/ ١٠٧٠)، وفي المصدرين الأخيرين تجد النص على هذه الآية.

(٢) انظر: إيضاح المبهم للدمنهوري ص ٩٠، تسهيل المنطق ص ٤٣.

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (٤/ ١٤٢)، المذكرة في أُصول الفقه ص ٢٥٧.

فكأنه يقول: حرمتم بعض هذه الإناث، وحللتم بعضها، وحرمتم بعض الذكور، وحللتم بعضها، وفرقتم بين ما في بطون الأنعام فقلتم: إنه خالص للذكور، محرم علىٰ الأزواج، فرقتم بين هذه الأحكام، فلا يخلو تفريقكم بينها من أحد أمرين في التقسيم الصحيح:

إما أن يكون مُعَلّلاً بعلة معقولة.

وإما أن يكون تعبدياً.

وهذا الحصر هو المُعَبَّر عنه بالتقسيم في اصطلاح الأصوليين والجدليين، والمُعَبَّر عنه بالشرطي المنفصل في اصطلاح المنطقيين. فكأنه يقول: لا يخلو الحال من أمرين: إما أن يكون مُعَللاً، وإما أن يكون تعبدياً. ثم قال ــ مثلاً ــ بناء علىٰ أنه مُعلل: إما أن تكون العلة في الذكور: الذكورة، وفي [الإناث][1]: الأنوثة، أو التخلق في الرحم. فلو كانت العلة الذكورة لحرم كل ذكر، ولم يحرم الحام دون غيره من الذكور. ولو كانت العلة الأنوثة لحرمت كل أنثىٰ، ولم يختص بالبحيرة والسائبة والوصيلة. ولو كانت العلة اشتمال الرحم، لحرم الجميع، وحرم اللبن أيضاً الذي فرقتم فيه، فحرم الجميع.

ثم قال بناء علىٰ أنه تعبدي أبطله بقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أم كنتم حاضرين حتى قال لكم الله: هذا حلال وهذا حرام؟ فهذا باطل أيضاً. فبين أن جميع دعاويهم أنها باطلة كلها بهذا الدليل الذي هو السبر والتقسيم. وقد بينا أن هذا الدليل من أمهات الجدل العظام،

(١) في الأصل: «الأنوثة».

حيث حصر جميع الأوصاف، ثم أبطلها كلها، ولا يكون بهذا المعنىٰ إلا عند الجدليين؛ لأنه عند الأصوليين لا يكون إلا في مسالك العلّة، ولا بد أن يبقىٰ وصف صحيح هو العلّة. كأن تقول: العلّة في تحريم البر: إما أن تكون الطَّعْم، أو الكيل، أو الاقتيات والادخار. فلا بد أن تُبطل بعض الأوصاف، وتترك وصفاً صالحاً في زعمك، تقول: إنه علّة.

وقد ذكرنا في كثير من المناسبات(١) وفي بعض ما كتبنا في الكتب(٢) أشياء كثيرة عن هذا الدليل، وذكرنا له آثاراً تاريخية في العقائد، وآثاراً تاريخية في الآداب، وذكرنا له أمثلة قرآنية.

فمن أمثلته القرآنية: هذه الآية، ومن أمثلته القرآنية قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: الآية ٣٥] فكأنه يقول: لا يخلو حالهم من واحدة من ثلاث حالات: إما أن يكونوا خَلَقُوا أنفسهم، أو خُلقوا من غير خالق، أو خَلَقَهم خالق. فهذه ثلاثة أقسام، اثنان منها باطلان بلا نزاع، وهو كونهم خلقوا أنفسهم، أو خُلقوا من غير خالق. فتغلب القسم الثالث أن لهم خالقاً هو رب السموات والأرض، تجب عليهم طاعته وعبادته. ولا نطيل من أمثلته في القرآن، ونقتصر علىٰ أن نذكر له أثراً تاريخياً في العقائد، وأثراً تاريخياً في الآداب.

---

(١) راجع ما تقدم عن تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٣٠) من سورة التوبة.

(٢) انظر: نشر الورود (٢/ ٤٨٥)، مذكرة أصول الفقه ص ٢٥٧، آداب البحث والمناظرة (١/ ٤٧)، (٢/ ٧ ـ ٢٠)، أضواء البيان (٤/ ٣٦٥ ـ ٣٨٤).

أما أثره التاريخي في العقائد، فما جاء عن بعض المؤرخين من أن هذا الدليل هو أول مصدر لكبح المحنة العظمىٰ، التي قُتل فيها العلماء، وعُذّب فيها أفاضلهم، وقُتلوا، وهي: محنة القول بخلق القرآن؛ لأن محنة القول بخلق القرآن نشأت في الدولة العباسية أيام المأمون، واستحكمت أيام المأمون، وأيام المعتصم، وأيام الواثق، فهؤلاء الخلفاء الثلاثة العباسيون مضت مدتهم ومحنة القول بالقرآن قائمة علىٰ ساق وقدم، يُمتحن العلماء، فمنهم من قُتّل، ومنهم من عُذّب، ومنهم من وافق مداهنة خوفاً علىٰ نفسه من الموت. وكان القائم بهذه الدعوة: الخبيث أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المشهور، الذي يقدسه العباسيون، وهو العالم الوحيد في نظرهم، وهي التي ضُرب فيها سيد المسلمين في زمانه: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ــ غمده الله برحمته الواسعة، وجزاه خيراً ــ ؛ لأنه هو الذي بقي وحده صامداً، وضُرب في أيام المعتصم ضرباً مُبَرِّحاً، حتىٰ يُرفع من محل الضرب لا يدري ليلاً من نهار، وكلما أفاق وقالوا له: قل القرآن مخلوق!! يقول: لا، القرآن كلام الله غير مخلوق. حتى جاء المتوكل علىٰ الله بعد الواثق، فأزال الله هذه المحنة علىٰ يديه ــ جزاه الله عن هذه الحسنة خيراً ــ وأظهر السنة[1].

ومقصودنا ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه، وذكره غير واحد[2]، وإن كانت القصة ذكر ابن كثير في تاريخه أن في إسنادها

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٣١٦).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٤/ ١٥١ ــ ١٥٢)، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (الكتاب الثالث) (٢/ ٢٦٩ ــ ٢٧٧)، الشريعة للآجري ص ٩١، مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٤٣١ ــ ٤٣٧، محنة الإمام أحمد لعبد الغني المقدسي =

عند الخطيب بعض من لا يُعرف(١)، فهي قصة مشهورة، تلقاها العلماء بالقبول في أقطار الدنيا، وهي مشهورة، والاستدلال بها صحيح بلا شك، وهو بهذا الدليل، وذلك أنه في أيام الواثق جيء بشيخ من أهل السنة من الشام(٢)، مقيد بالحديد، يُمتحن في القول بخلق القرآن، وَرَدَ الامتحان علىٰ أنه عُزم علىٰ قتله. روىٰ هذه القصة محمد المهدي، ولد الواثق، قال: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرني، فلما أراد قتل هذا الشيخ الشامي أحضرني، وقال: ءإذنوا لأبي عبد الله. يعني: أحمد بن أبي دؤاد، فجاء، فقال الشيخ الشامي المُكبَّل بالحديد، السني: السلام عليك يا أمير المؤمنين!!

فقال له الواثق بالله ــ وهو غضبان ــ: لا حياك الله، ولا سلمك!!

فقال له: بئس ما أدبك مؤدبك يا أمير المؤمنين، الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: الآية ٨٦] والله ما حييتني بأحسن منها ولا رددتها!!

قال له ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم!!

فقال الواثق: ناظره. وفي بعض روايات القصة: أن الشيخ

= ص ١٦٧ ــ ١٧٥، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٠٧ ــ ٣١١)، (١١/ ٣١٢، ٣١٣ ــ ٣١٦)، وأشار إلى ضعفها، وفي تاريخ الإسلام في حوادث (٢٣١ ــ ٢٤٠هـ) في ترجمة الواثق.

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٣٢١).

(٢) وهو أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن محمد بن إسحاق الجزري الموصلي الأذرمي.

الشامي قال: هو أحقر من أن يُناظرني!! فازداد غضب الواثق عليه، ثم إن ابن أبي دؤاد قال للشيخ الشامي: ما تقول في القرآن؟؟

فقال الشيخ الشامي: ما أنصفتني!! يعني: ولي السؤال. أنا المقيد الذين يريدون أن يقدموه للموت أولىٰ بالسؤال!!

فقال: سل!!

فقال: ما تقول أنت يا ابن أبي دؤاد في القرآن؟؟

فقال: مخلوق.

قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها، ويقتل الخلفاءُ العلماءَ بسبب دعوتك إليها، هل كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وأبو بكر وعمر وعلي وعثمان عالمين بها أو لا؟؟

قال ابن أبي دؤاد: لم يكونوا عالمين بها.

فقال الشيخ الشامي: سبحان الله!! جهلها رسول الله، وعلمها أحمد بن أبي دؤاد!!

فقال ابن أبي دؤاد: أَقِلْني، والمناظرة علىٰ بابها.

فقال له: لك الإقالة.

ثم قال: ما تقول في القرآن؟

قال: مخلوق.

قال: هل كان رسول الله وخلفاؤه الراشدون عالمين بدعوتك هذه التي تدعو الناس إليها أو جاهلين؟

قال: كانوا عالمين بها، ولكن لم يدعوا الناس إليها.

فقال له الشيخ الشامي: يا ابن أبـي دؤاد، ألم يسعك في أمة رسول الله ما وسع رسول الله؟ ولم يسعك في أمة رسول الله ما وسع خلفاءه الراشدين؟! ففهم الواثق الحقيقة، وقام من مجلسه، واضطجع في محل خلوته واستلقىٰ، وجعل رجله على رجله ثم قال: جهلها رسول الله وعلمتها أنت يا ابن أبـي دؤاد!! ثم قال: علمها رسول الله وخلفاؤه الراشدون ولم يدعُوا الناس إليها، ألم يسع ابن أبـي دؤاد في أمة محمد ما وسع رسول الله وخلفاءه الراشدين؟! وعلم أن ابن أبـي دؤاد مُبْطِل.

قالوا: فمن ذلك اليوم لم يَمْتَحِن أحداً بعدها، ولم يُقَدَّم عالم ليُمتحن في القول بخلق القرآن.

وذكر الخطيب: أن الواثق مات بعد أن تاب منها(١) بسبب قصة هذا الشيخ.

وهذا الشيخ إنما استدل بهذا السبر والتقسيم. كأنه يقول: مقالتك هذه لا تخلو بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما أن يكون النبـي وخلفاؤه عالمين أو جاهلين؟ فلا قِسْم إلَّا هذان القسمان. ثم نرجع إلى القسمين فنسبرهما ونختبرهما، ونظنك يا ابن أبـي دؤاد ضالاً على كل تقدير. إذا كان عالماً ولم يَدْعُ الناس إليها فقد يسعك ما وسعه، /وإن كان غير عالم بها وأنت عالم بها فهذا لا يمكن أن [١٩/أ] يُقال!! فأنت ضال مبطل على كل تقدير.

ومن آثار هذا الدليل الأدبية: ما ذكره المؤرخون: أن عبد الله بن همام السلولي وشى به واشٍ إلىٰ عبيد الله بن زياد

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ١٨).

المعروف. ــ زياد ابن أبيه، الذي يقولون له: زياد بن أبـي سفيان؛ لأنه استلحقه معاوية بعد موت أبـي سفيان، وهو معروف ــ قال لعبيد الله بن زياد واشٍ من الوشاة: إن ابن همام السلولي يعيبك ويقول فيك كذا وكذا. فأحضر ابنُ زياد الواشي، وجعله في غرفةٍ قريبةٍ، وأحضر السلولي، وقال: لِمَ تعيبني وتقول فيَّ كذا وكذا؟ قـال: أصلـح الله الأميـر، مـا قلـت شيئـاً مـن ذلـك!! ففتـح وأخـرج الواشي، وقال: هذا أخبرني أنك قلت كذا وكذا!! فسكت ابن همام هُنيهة ثم قال يخاطب الواشي:

وأنت امرؤ إما ائتمنتُك خالياً ... فخنتَ، وإما قلتَ قولاً بلا علم
فأنت من الأمرِ الذي كان بيننا ... بمنـزلـةٍ بيـنَ الخيـانـةِ والإثـم[1]

فكأنه يـقـول: لا يخلو الحال بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما أن أكون قلت لك سرّاً واستكتمتك إياه، أو قلتَ عليَّ بهتاناً وكذباً، ثم نرجع إلى القسمين فنجدك ــ أيها الواشي ــ مُبْطِلاً علىٰ كليهمـا!! إن كنـتُ أفشيـت لـك سـرّاً وطلبـت منـك الستـر فمـا سترتني، فأنت خسيس خائن، وإن كنتَ قُلْتَه عليّ افتراءً فهذا أظهر وأظهر!!

ففهمها ابن زياد، وقال للواشي: اخرج عنّي. ولم يتعرَّض لابن همام السلولي بسوء.

وهذا هو الذي ذكره الله هنا، بأن حصر الأوصاف بالذكورة، والأنوثة، والتخلق في الرحم، وبيَّن بطلان كلها، إذ لو كانت الذكورة لحرم كل ذكر، ولو كانت الأنوثة لحرَّم كل أنثىٰ، ولو كانت التَّخَلُّق

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور(١٤/ ١٢٧).

في الرحم لحرّم الجميع. فتبين كذبهم وبطلانهم. ثم أتبع هذا بقوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: لأنهم لما أعيتهم الحجة، ذكر المؤرخون أن رئيسهم الذي ناظر النبي ﷺ في هذا مالك بن عوف الجُشَمي الهوازني، وأن النبي ﷺ قال له: «إذا كنتم تحرمون الذكور فَلِمَ فرقتم بين ذكر وذكر؟ وإذا كنتم تحرمون الإناث فما العلة التي فرقتم بها بين أنثىٰ وأنثىٰ، أو الله أمركم بهذا؟» ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾؟ [الأنعام: الآية ١٤٤] فَبُهِتَ وسكت(١).

وكانوا إذا عجزوا وغُلبوا بالدليل قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. فقطع الله دابر ذلك أيضاً فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقال: إنه أمره بالباطل ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] لأجل أن يضل الناس بغير علم، أي: بتشريع جاهلي بغير علم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ وهذه الآية يدخل فيها كل من قال بأمورٍ لا توافق الشرع، ودعا خلقاً يتبعونه إليها فإنه يدخل في عمومها.

وقوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ فيه سؤال معروف؛ لأن

---

(١) هذه الرواية أوردها البغوي في التفسير (٢/ ١٣٧)، وأبو حيان في البحر (٤/ ٢٣٩) دون عزوٍ لمن خرّجها.
ولمالك بن عوف مع النبيّ ﷺ حين قدم عليه حديث له تعلق بهذه الآية لكنه بسياق آخر غير هذا. وقد أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٣)، (٤/ ١٣٦، ١٣٧)، والطيالسي ص ١٨٤، وابن جرير (١١/ ١٢١، ١٢٢)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٢٠)، وعزاه السيوطي في الدر (٢/ ٣٣٧) لعبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات.

الله ربما هدىٰ بعض الظالمين، كم من كافرٍ ظالمٍ يهديه الله. وللعلماء عنها جوابان[١]:

أحدهما: أنها في خصوص الظالمين الذين سبق لهم في الأزل الشقاء، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧].

القول الثاني: لا يهدي الظالمين ما داموا مصرِّين على ظلمهم، فإن رزقهم الله التوبة والإنابة زال اسم الظلم عنهم، ولم يدخلوا في عداد الظالمين، فصار لا إشكال في هدايتهم. وهذا معنىٰ الآية الكريمة.

يقول الله جل وعلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٥﴾ [الأنعام: الآية ١٤٥].

تكلمنا بالأمس بعض الكلام علىٰ هذه الآية[٢]، وذكرنا حكم الميتات البرية والبحرية، وذكرنا بعض ما زادته النصوص من المحرمات على هذه المحرمات الأربع، وذكرنا خلاف بعض العلماء في أشياء منه. وسنتكلم ـ إن شاء الله ـ الآن بعض الكلام علىٰ بقية الآية.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢/ ٢٨٩)، (٤/ ٢٤٠)، التحرير والتنوير (٨/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) الدرس المُشار إليه لم أقف عليه، وللوقوف على كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسائل انظر: الأضواء (٢/ ٢٤٦) فما بعدها.

والمعنىٰ: أن النبيّ ﷺ لما كان المشركون في زمانه يحرمون بعض ما أحلّ الله، وأقام عليهم الحجج الواضحة، وأفحمهم بالمناظرة في قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] كما بينا وجه إفحامهم بالسبر والتقسيم في الآية، أخبرهم أنه لا تحريم إلا بالوحي، لا بالاجتهاد والهوى، فإنما الذي يحرم: الله، والطريق التي يُعرف بها تحريم الله وتحليله هي الوحي، لا اتباع الهوىٰ، أُمِرَ أن يقول: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ شيئاً من هذه المحرمات التي تزعمون أنها حرام، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكما في بطون تلك الأنعام التي قلتم هو محرم. وما حرمتم من الحروث، والزروع، والأنعام، كل هذا لا أجده حراماً علينا فيما أوحىٰ الله إلينا، وإنما أجد فيما أُوحي تحريمه: هذه الأربعة.

﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ لطالب العلم أن يقول: لمّا قال: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ لِمَ لا تكفي عنه قوله: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾؟ وهو أسلوب عربي معروف تذكره العرب في لغتها، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] ومعلوم أنه لا يطير إلا بهما. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧٩] ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم[١].

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ قدمنا فيه أوجه القراءات[٢]، وأحكام أنواع الميتة[٣].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٨/١٣٨) ومضى عند تفسير الآية (١٤٢) من سورة البقرة، (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر القراءات الواردة في الآية في: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.

(٣) انظر: أضواء البيان (١/ ٩٠) فما بعدها.

وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ عطف علىٰ قوله: ﴿مَيْتَةً﴾. أما علىٰ قراءة الجمهور[١] فهو منصوب معطوف علىٰ منصوب ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا﴾. فهو معطوف علىٰ ﴿مَيْتَةً﴾[٢] المنصوب علىٰ أنه خبر كان.

وأما علىٰ قراءة ابن عامر ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَا أَن تكون مَيْتَةٌ أَو دَماً مَّسْفُوحاً﴾ فَعَطْفُ المنصوب علىٰ المرفوع قد يُشكل علىٰ طالب العلم، والجواب[٣]: أن قوله: ﴿أَوْ دَمًا﴾ بالنصب في قراءة ابن عامر معطوف علىٰ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ إلا كونه ميتة أو دماً، هكذا قاله بعض المُعْرِبين.

والدم المسفوح: المسفوح اسم مفعول (سَفَحَه يَسْفَحه) إذا صبّه[٤]. وتقول العرب: «سفح الماءُ فهو سافح، وسَفَحَه بولُه يَسْفَحه فهو سافح». والمفعول: مسفوح. وقد يستعمل متعدياً ولازماً. فمن استعماله متعدياً قوله هنا: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لأن المسفوح اسم مفعول (سَفَحَه يَسْفَحه) فالفاعل سافح، والمفعول مسفوح، إذا أراقه وصبّه، ومن إتيان (السافح) اسم فاعل (سَفَحَ) اللازمة قول ذي الرمة

---

(١) وهي: ﴿إلَّا أن يكونَ﴾ بالياء ﴿ميْتَةً﴾ بالنصب. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٩٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٤١)، الدر المصون (٥/ ١٩٧).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٤١)، الدر المصون (٥/ ١٩٧).

(٤) انظر: القاموس (مادة: السفح) ص ٢٨٧، عمدة الحفاظ (مادة: سفح) ص ٢٤٢، الدر المصون (٥/ ١٩٨).

غيلان بن عقبة[١]:

أَمِنْ دِمْنَةٍ جَرَّتْ بها ذيلَها الصَّبا ... لصيداء ـ مهلاً ـ ماء عَيْنَك سافحُ

أي: جارٍ مُنْصَبّ. وهو هنا من (سَفَحَ) اللازمة.

والدم المسفوح: هو المصبوب من شيءٍ حيٍّ، كما كان يفعله العرب، أو يكون خارجاً من أجل الذكاة أو العقر. كانت عادة العرب إذا جاءوا أن يفصد الواحد منهم عِرْقاً من جَمَله، ثم يجعل تحت الدم إناءً، حتىٰ يجتمع من عِرْق الجمل دمٌ في الإناء، ثم يطبخه بالأبازير ويأكلونه، فحرم الله عليهم أكل الدم. وهو حرام، والانتفاع به حرام.

وأصل الدم: أصله (دَمَيٌ) بالياء على التحقيق، فلامه المحذوفة ياء، وغلط من علماء العربية من زعم أن لامه المحذوفة واو[٢] ووزنه بالميزان (. . . .)[٣].

فتكون بالعين (يَدْمَى) والألف مبدلة من الياء، أصله (يَدْمَي) كما هو معروف.

فَلَسْنَا علىٰ الأعقابِ تَدْمىٰ كُلومُنَا ... ولكنْ علىٰ أَقْدامِنَا تقطُرُ الدَّمَا[٤]

هَلْ أَنْتِ إلا إصْبَعٌ دَمِيتِ ... وفي سبيل اللَّهِ ما لقيتِ[٥]

---

(١) ديوان ذي الرمة (٢/ ٨٥٩).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٩، وقد ذكر في أصل (الدم) ثلاثة مذاهب للعلماء.

(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل، ويمكن استدراك ذلك بمراجعة أضواء البيان (١/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٤) البيت للحصين بن الحمام المري، وهو في اللسان (مادة: دمي) (١/ ١٠١٧)، الفروسية لابن القيم ص ٤٩٣، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٢/ ١٩٧).

(٥) عن جندب بن سفيان (رضي الله عنه) قال: «دميت إصبع رسول الله ﷺ في بعض =

هذا أصل الدم، وهو من الكلمات التي حذفت العرب لامها ولم تُعَوِّض عنها شيئاً، وأعربتها علىٰ العين كدمٍ، وغدٍ، ويدٍ، وثدٍ، كما هو معروف[1]. فلامه محذوفة لم يُعَوَّض عنها شيء.

والدم المسفوح: هو الذي صُبَّ من شيءٍ حي، كفصد عرق الدابة، أو جرحها فيسيل منها دم، أو هو الذي يسيل عند التذكية، كأن تذبح فيسيل من عروقها، أو عند العقر كأن يرميها بالنبل فيسيل الدم. هذا هو الدم المسفوح.

واعلموا أن الدم نزلت في تحريمه أربع آيات من كتاب الله، ثلاث منها مطلقة لا قيد فيها، وهي قوله في النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١١٥] وقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٣] وقوله في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: الآية ٣] فقد أُطلق الدم عن قيد المسفوحية في النحل والبقرة والمائدة، وجاء مقيداً في الأنعام بكونه مسفوحاً. وجماهير العلماء علىٰ أن المطلق يحمل علىٰ المقيد، ولا سيما إن اتحد سببهما وحكمهما كما هنا[2]، سواءً كان المقيد هو الأول في النزول، أو هو الآخر؛

= تلك المشاهد فقال...» وذكره. وهو في البخاري (٢٨٠٢، ٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦)، وساق الذهبي بإسناده إلى جندب بن سفيان (رضي الله عنه) وفيه أن الذي قاله إنما هو أبو بكر (رضي الله عنه) حينما دخل الغار فأصاب إصبعه شيء. (السير ٩/٥٢٨).

(١) انظر: أضواء البيان (١/١٠٤ ــ ١٠٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٨) من سورة الأنعام.

لأن المقيد هنا هو المتقدم في النزول؛ لأن سورة الأنعام نازلة قبل السور الأُخر الثلاث التي حرم فيها الدم، التي هي النحل، والبقرة، والمائدة[1]. أما كون الأنعامِ قبل البقرة والمائدة فهو واضحٌ لا يخفىٰ؛ لأن الأنعام مكية بالإجماع، والبقرة والمائدة مدنيتان بالإجماع، فهذه قبل الهجرة، وهاتان بعدها، فكونهما بعدها لا إشكال فيه. أما النحل فالتحقيق أنها مكية، وزعم بعضهم أنها مدنية، وهو غلط ممن زعمه، والذي سبَّب هذا الغلط: أن خواتيم سورة النحل نزلت في المدينة في شهداء أُحد لما مثَّل المشركون بحمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وعبد الله بن جحش وغيره من شهداء أُحد، فقد قطّعوا آنافهم وآذانهم، وأخذت هند بنت عتبة بن ربيعة ـ وهي يوم أُحد كافرة ـ نظمت قلادةً من آذان الصحابة وآنافهم، كما هو معروف في السيرة، وتقلدتها، وأخذت قلادتها وجعلتها في عنق الوحشي، عبد جبير بن مطعم بن نوفل بن عدي النوفلي؛ لأنه هو الذي قتل حمزة، ثم رقيت على صخرةٍ من صخرات أُحد وبكت؛ لأنهم كانوا اشترطوا يوم بدر ألَّا يبكي أحدٌ منهم على قتيله حتىٰ يقتصوه، فلما قُتل حمزة وعبد الله بن جحش، هذا عم النبي، وهذا ابن عمته، وقتل شماس بن عثمان من المهاجرين، ومن الأنصار سبعون من خيارهم، رقيت علىٰ صخرةٍ من صخرات أُحدٍ وبكت تقول:

نحنُ جزيناكُمْ بيومِ بدرِ ... والحربُ بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ
ما كان عن عتبةَ لي من صبر ... ولا أخي وعَمِّهِ وبِكْري
شَفَيْتُ نَفْسي وقَضَيْتُ نذري ... شَفَيْتَ وحشيُّ غليلَ صدرِي

---

(١) السابق.

فَشُكــرُ وحشــيٍّ علــيّ عُمْــري   حتَّى تَرِمَّ أَعْظُمي في قَبْري[(١)]

يذكرون في سبب نزولها أن النبي ﷺ لما وقف علىٰ عمه حمزة ــ رضي الله عنه ــ قتيلاً وقد مُثِّل به، أنه قال: لئن أظفرني الله بقريشٍ لأمثلنَّ بكذا وكذا رجلاً منهم. وأن الله أنزل في ذلك خواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٦] هكذا ذكره بعض العلماء[(٢)]،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨٧٢ ــ ٨٧٣).

(٢) ورد في هذا المعنى أحاديث وروايات متعددة لا تخلو من ضعف إلا أن الحديث يتقوى بها، والله أعلم.

ومن ذلك:

١ ــ حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٢، ٢٨٤، والدارقطني (٤/ ١١٦)، (١١٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ٦٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٨)، وعزاه في الدر (٤/ ١٣٥) لابن المنذر، وابن مردويه، وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٢٠)، تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني للغساني ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٢/ ٢٥٠)، تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر (٤/ ٩٧).

٢ ــ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٣، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٨)، والحاكم (٣/ ١٩٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٧)، والبزار كما في (كشف الأستار ٢/ ٣٢٦ ــ ٣٢٧)، وعزاه في الدر (٤/ ١٣٥)، لابن المنذر وابن مردويه، وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ١١٩)، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٢/ ٢٥١)، ولابن حجر (٤/ ٩٧)، الفتح السماوي (٢/ ٧٦٠ ــ ٧٦١).

وقد ورد في هذا المعنى جملة من المراسيل. انظر: ابن جرير (١٤/ ١٩٥ ــ ١٩٦)، دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٨٦)، الدر المنثور (٤/ ١٣٥).

والمشهور عند المفسرين في أسباب النزول أن خواتيم (النحل) هذه مدنية، أما نفس سورة النحل فهي مكية.

وقد نزلت سورة النحل في مكة بعد سورة الأنعام، ودَلّ القرآن في موضعين علىٰ أن النحل نازلة بعد الأنعام. أحد الموضعين: أن الله قال في النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: الآية ١١٨]، والمحرم المُحال عليه المَقْصُوص من قبل هو المذكور في الأنعام إجماعاً في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ الآية [الأنعام: الآية ١٤٦].

الموضع الثاني من الموضعين الدّالين علىٰ نزول الأنعام قبل النحل: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] فبين أنهم سيقولونها في المستقبل، فَعُلم أنهم لم يقولوها فعلاً في ذلك الوقت، وبيَّنَ في سورة النحل أنَّ ذلك القول الذي كان موعوداً بأنه يُقال: أنه قيل ووقع في سورة النحل، حيث قال في النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا﴾ الآية [النحل: الآية ٣٥]، فدلّ هذا علىٰ أن النحل بعد الأنعام(١)، وأن السور الثلاث ـ أعني النحل، والبقرة، والمائدة ـ جاء فيها تحريم الدم مطلقاً من غير قيد. وجاء في السورة النازلة أولاً وهي الأنعام تقييده بكونه مسفوحاً بقوله هنا: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾.

فجماهير العلماء من الصحابة وفقهاء الأمصار علىٰ أن تلك الآيات المطلقة في النحل، والمائدة، والبقرة، تُقَيَّد بقيد (الأنعام)

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٤٨).

هذه[١]، فلا يحرم الدم غير المسفوح؛ ولذا أطبق العلماء علىٰ أن الحُمْرة التي تعلو القِدْر من أثر تقطيع اللحم وهي من الدم أنها معفوٌّ عنها وليست بنجس؛ لأنها ليست من الدم المسفوح. ويدخل في غير المسفوح: الكبد والطِّحال[٢].

والحاصل أن الذي يظهر من الدم عند تقطيع اللحم وفصل الأعضاء بعضها عن بعض أن جمهور العلماء علىٰ أنه ليس بحرام، وليس من المسفوح. وأن الخارج عند الذكاة، أو المُخْرَج من شيء حي، أو عند العقر أنه هو الدم المسفوح.

واختلف العلماء في الدم الذي يتجمد في القلب عند ذبح الشاة، والذي ينقع في جوفها، خلاف معروف، ومنهم من يقول: هما حلالان، ومنهم من يقول: هما مسفوحان، وفَصَّل علماء المالكية قالوا: الذي يتجمد في القلب طاهر؛ لأنه ليس بمسفوح، والذي ينقع في الجوف مسفوح؛ لأنه منعكس إليه من العروق التي سُفح منها وقت الذبح. وهذا أظهر والله تعالىٰ أعلم.

هذا معنىٰ قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ جميع هذه الآيات إنما صرحت بتحريم لحم الخنزير. والخنزير حيوانٌ معروف خسيس قبحه الله. ولم تتعرض آية من كتاب الله إلىٰ حكم شحم الخنزير، والعلماء مجمعون علىٰ أن شحم الخنزير حكمه حكم لحم الخنزير[٣].

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٣)، القرطبي (٢/ ٢٢٢).

(٢) انظر: القرطبي (٢/ ٢٢١)، (٧/ ١٢٤).

(٣) انظر: مراتب الإجماع ص ١٤٩، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٤)، القرطبي (٢/ ٢٢٢).

واستُدِل بهذا علىٰ بطلان دعوىٰ ابن حزم أنه لا يحرم شيءٌ إلا ما نص الله علىٰ تحريمه؛ لأن ابن حزم توسع توسعاً شنيعاً اجتنىٰ به علىٰ الشرع، مع علمه وقوة ذهنه، وزعم أن كل ما [لم ينص][(١)] الله علىٰ أنه حرام أنه لا يمكن أن يكون حراماً، ومن هنا حمل علىٰ الأئمة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، وغيرهم من فقهاء الأمصار، وتكلم عليهم كلاماً شديداً شنيعاً غير لائق، وزعم أنهم مشرعون، يشرعون من تلقاء أنفسهم، ولما احتُج عليه بإجماع العلماء علىٰ أن شحم الخنزير حرام، والله لم يذكره في كتابه قياساً علىٰ لحمه الذي نُصَّ علىٰ تحريمه، أجاب ابن حزم عن هذا بأن قال: الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ عائد علىٰ الخنزير، فيدخل فيه شحمه ولحمه[(٢)]. وخالف في هذا القاعدة العربية المعروفة؛ لأن الضمائر في الأصل إنما ترجع للمضاف لا المضاف إليه؛ لأن المضاف هو المُحَدَّث عنه[(٣)]، فلو قلت: جاءني غلامُ زيدٍ فأكرمته. يتبادر أن المُكْرَم هو الغلام لا نفس زيد، وكذلك قوله: ﴿لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ﴾ أي: لحم الخنزير؛ لأنه هو المُحَدَّث عنه.

وربما رجع الضمير علىٰ المضاف إليه نادراً[(٤)]، وجاء في

---

(١) في الأصل: «ما نص» وهو سبق لسان، والصواب: أن كل ما لم ينص... إلخ.
(٢) انظر: المحلى (٧/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).
(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٢٤١)، البرهان للزركشي (٤/ ٣٩)، الإتقان (٢/ ٢٨٤)، الكوكب الدري ص ٢٠٢، مختصر من قواعد العلائي ص ١٠١، الكليات ص ١٣٤ ـ ١٣٥، ٥٦٩، قواعد التفسير (١/ ٤٠٢).
(٤) انظر: قواعد التفسير (١/ ٤٠٣).

القرآن رجوع الضمير إلىٰ المضاف إليه لكن مع قرائن تدل علىٰ ذلك، كقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ [غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧] أي: موسىٰ. وهو المضاف إليه هنا. فهذا قد يقع، وجاء في القرآن قليلاً، إلا أنّ القرينة تُعَيِّنُه، أما الأصل اللغوي العربي فهو رجوع الضمائر والإشارات إلىٰ المضاف لا المضاف إليه، وإتيان الأحوال من المضاف لا المضاف إليه، إلا إذا كان عاملاً فيه، أو جزءاً منه، أو كجزءٍ منه، كما هو معروف في النحو.

والحاصل أن القرآن سكت عن شحم الخنزير وحرم لحمه، وأجمع العلماء علىٰ تحريم شحمه قياساً علىٰ لحمه. وفيه أموز كثيرة يغلط فيها ابن حزم ومن وافقه من المتشددين؛ لأنه في الآونة الأخيرة صار يطلع طلبة علم صغار، قليلة بضاعتهم من العلم، ينظرون شيئاً قليلاً من الحديث، ويطعنون في الأئمة ــ رضي الله عنهم وأرضاهم ــ ويقولون: قال في الحديث الفلاني، وشرعوا من أنفسهم اعتماداً علىٰ كتب ابن حزم، وكل هذا غلط، وكثيرٌ من الأشياء يدعي ابن حزم أن الله سكت عنها، وأن الوحي لم يتعرض لها، ويستدل بحديث: **«إن الله أباح أشياء، وحرم أشياء، وسكت عن أشياء لا نسياناً، فما سكت عنه فهو عفوٌ»**[1] فيدعي أنه سكت

(١) ورد في هذا المعنى عدة أحاديث، وهي وإن كانت لا تخلو من ضعف إلا أن بعضها يتقوى بغيره، والله أعلم. فمنها:

١ ــ حديث سلمان (رضي الله عنه) (مع الخلاف في رفعه ووقفه) عند الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء، حديث رقم: (١٧٢٦)، (٤/ ٢٢٠)، وابن ماجه في الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن، حديث رقم: (٣٣٦٧)، (٢/ ١١١٧)، والحاكم (٤/ ١١٥)، والبيهقي (٩/ ٣٢٠)، (١٠/ ١٢)، وانظر: =

عنه[1]، وهو قد يكون لم يسكت عنه. وسلفه الذي هو داود بن علي الظاهري ما كان يبالغ هذه المبالغة، ولا يغلو هذا الغلو.

والحاصل أن ما يسميه علماء الأصول: (الإلغاء بنفي الفارق)، ويسمونه نوعاً من تنقيح المناط. وهو المعروف عند الشافعي في كتبه القديمة بـ (القياس في معنىٰ الأصل)[2] أجمع جميع العلماء علىٰ أن المسكوت عنه فيه يلحق بالمنصوص؛ لأنه لا فرق بينهما يؤثر، وما كان داود ينكر هذا.

ومعروف أنه عند علماء الأصول ينقسم إلىٰ أربعة أقسام[3]؛ لأن المسكوت عنه: إما أن يكون أولىٰ بالحكم من المنطوق به، وإما

= صحيح الترمذي (٢/ ١٤٥)، وصحيح ابن ماجه (٢/ ٢٤٠)، غاية المرام ص ١٥، المشكاة (٢/ ١٢٢٠).

٢ ــ حديث أبي ثعلبة الخشني (رضي الله عنه) (مع الخلاف في رفعه ووقفه)، عند الدارقطني (٤/ ١٨٤)، والحاكم (٤/ ١١٥)، والبيهقي (١٠/ ١٢ ــ ١٣)، وانظر: مجمع الزوائد (١/ ١٧١) وهو أضعف هذه الأحاديث.

٣ ــ حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عند الدارقطني (٤/ ٢٩٧ ــ ٢٩٨) والبزار كما في (كشف الأستار ٣/ ٨٥، ٣٢٥)، والحاكم (٢/ ٣٧٥)، والطبراني في الصغير (٢/ ١٢٢)، وانظر: مجمع الزوائد (١/ ١٧١)، (٧/ ٥٥، ٢٠٨)، وقد حسنه الألباني في غاية المرام ص ١٤.

(١) انظر: الإحكام ص ١٠٥٨ ــ ١٠٧٠.

(٢) انظر: الرسالة للشافعي ص ٥١٢ ــ ٥١٦، شرح الكوكب المنير (٣/ ٤٨١)، (٤/ ٢٠٧ ــ ٢٠٩)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢٣٧، ٢٧١، نشر الورود (١/ ١٠٢ ــ ١٠٣)، (٢/ ٥٢٢ ــ ٥٢٣، ٥٥٨).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ٤٨٦)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢٣٧، نشر الورود (١/ ١٠٤).

أن يكون مساوياً له، وبكل منهما إما أن يكون وجه الفرق بينهما مُحَقَّقاً يقيناً، وإما أن يكون مظنوناً ظناً غالباً مزاحماً لليقين، فالمجموع أربعة، من ضرب اثنين في اثنين.

الأول: ما كان المسكوت عنه أولىٰ بالحكم من المنطوق به، ونفي الفارق بينهما في الحكم مُحَقَّق لا شك فيه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، فالمنصوص عنه هنا النهي عن التأفيف أمام الوالدين، والمسكوت عنه ضرب الوالدين، وهذا المسكوت عنه ـ الذي هو الضرب ـ أولىٰ بالحكم الذي هو التحريم من هذا المنطوق به الذي هو التأفيف؛ لأن الضرب أشد أذيةً من التأفيف، فابن حزم يقول هنا: إن الضرب مسكوت عنه، ولم يؤخذ حكمه من هذه الآية[١]. ونحن نقول: لا، الضرب ليس مسكوتاً عنه في هذه الآية، بل هو مفهوم من باب أولى من النهي عن [التأفيف][٢]. ونظيره قوله تعالىٰ في الرجعة والطلاق: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: الآية ٢] فالمنطوق: شهادة العدلين، والمسكوت عنه: شهادة أربعة عدول، فلو أشهد رجل أربعة عدول علىٰ رجعته أو طلاقه فلا شك أن ذلك نافذٌ، ولا نقول: إن المنصوص عليه الاثنين، والأربعة غير منصوصة؛ لأن هذا المسكوت عنه الذي هو الأربعة أولىٰ بالحكم من هذا المنطوق به الذي هو الاثنان، ونفي الفارق هنا مُحَقَّق لا شك فيه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالىٰ في الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]،

---

(١) انظر: الإحكام ص ٨٩١.

(٢) في الأصل: «التحريم» وهو سبق لسان.

فالمنطوق به المجازاة بمثقال ذرة، والمسكوت عنه المجازاة بمثقال الجبل. ولا شك أن هذا المسكوت عنه أولىٰ بالحكم ــ الذي هو المجازاة ــ من المنطوق به، ونفي الفارق مُحَقَّق.

الثاني: أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق به في الحكم، ونفي الفارق بينهما مُحَقَّق. كالتنصيص علىٰ لحم الخنزير، والسكوت عن شحمه، ولا فرق بين لحمه وشحمه؛ لأنه كله رجس، وحكم شحمه حكم لحمه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: الآية ١٠] فالمنطوق به أكل مال اليتيم، والمسكوت عنه إغراقه في البحر، وإحراقه بالنار، ولا شك أن إحراق مال اليتيم، وإغراقه أنه حرام، لا فارق بينه وبين أكله، ونفي الفارق هنا مُحَقَّق. وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٢٣] فإن الآية إنما نصت علىٰ أن يكون القاذفون ذكوراً، والمقذوفات إناثاً؛ لأنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بصيغة الذكور، ثم قال: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ بصيغة الإناث، فمنطوق الآية: أن يكون القاذف ذكراً، والمقذوف أنثىٰ، وقد أجمع العلماء علىٰ أنه لا فرق في ذلك بين قذف الذكر للذكر، وقذف الأنثىٰ للأنثىٰ، وقذف الأنثىٰ للذكر، وقذف الذكر للأنثىٰ. فهذا المسكوت مُلحق بهذا المنطوق به إجماعاً. ومحاولة ابن حزم أن يجيب عن هذه الآية، قال: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٢٣]، أي: يرمون الفروج المحصنات. فشمل فروج الرجال والنساء، فلم يكن فيه إلحاق، مردودٌ؛ لأن المحصنات في لغة القرآن لم تطلق علىٰ الفروج قط، وإنما تطلق على النساء. كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٢٣] فهل يمكن قائلاً

أن يقول: إن الفروج مؤمنات غافلات؟ هذا مما لا يقوله أحد. ومن هذا: أن الله تبارك وتعالىٰ نصَّ في سورة البقرة علىٰ أن الرجل إن طلق امرأته ثلاثاً، ثم تزوجت زوجاً بعده ـ وبيّن النبيُّ ﷺ اشتراط أن يجامعها ذلك الزوج - ثم طلقها هذا الزوج الثاني بعد أن جامعها حلت علىٰ الأول. وإنما نصَّ علىٰ الطلاق وحده، ولم يتكلم علىٰ ما لو مات عنها إذا كانت مطلقةً ثلاثاً، ثم تزوجت زوجاً جامعها وأحلّها، ثم مات الزوج الأخير ولم يطلقها، فإن الله لم يقل: إنه إذا مات تحل للأول. ولكن قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الثاني بعد أن جامعها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣٠] أي: على المرأة المبتوتة التي كانت حراماً، والزوج الأول الذي بتَّها أن يتراجعا؛ لأنها حلت لوطء الثاني، وطلقها الثاني، ولم يتكلم هنا علىٰ ما إذا مات عنها الزوج الثاني بعد أن جامعها، وقد أجمع العلماء أن موته عنها كطلاقه. وأمثال هذا كثيرة.

الوجه الثالث: أن يكون المسكوت عنه أولىٰ بالحكم من المنطوق به، ولكن نفي الفارق بينهما مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين. ومن أمثلته في السنة: ما جاء عن النبيّ ﷺ أنه نهىٰ عن التضحية بالعوراء[1]. فالمنطوق به هنا منع التضحية بالعوراء، والمسكوت عنه مَنْع التضحية بالعمياء التي هي عمياء العينين؛ لأنها أولىٰ بالحكم من المنطوق بها؛ لأن العوراء عميت لها عين واحدة، والعمياء عميت عيناها معاً، فالعمياء مسكوت عنها في الحديث، وهي أولىٰ بالحكم من المنطوق به التي هي العوراء، ونفي الفارق هنا مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين، وقد يظهر لطالب العلم أن نفي

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

الفارق هنا قطعي، ونحن نقول: ذكر غير واحدٍ من علماء الأصول أن نفي الفارق هنا ظني، وإنما قالوا إنه ظني لأن الغالب علىٰ الظن غلبةً مزاحمةً لليقين، أن علة منع التضحية بالعوراء أن العور عيب ناقصٌ لثمنها، وقيمتها، وذاتها، وهذه العلة موجودة في العمياء بلا خلاف، فهي مثلها. ولكن هنالك احتمال ضعيف مرجوح هو الذي منعنا من أن نجزم باليقين، أن علة منع التضحية بالعوراء أن العور مظنة الهزال، لأنّ العوراء لا ترىٰ من المرعىٰ إلا ما يقابل عينها المبصرة، وما يقابل عينها العوراء لا تراه، فناقصة البصر ناقصة الرعي، ونقص الرعي مظنة لنقص السِّمَن، وعلىٰ أن العلة هذه فلا تشاركها العمياء؛ لأن العمياء يعلفها ذو عينين فيختار لها أحسن العلف وأجوده، فهي مظنة السِّمَن، فلا تكون كالعوراء. إلا أن هذا الاحتمال ضعيف.

الرابع: أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق في الحكم، ولكنه مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين. ومثاله في السنة: قوله ﷺ: **«من أعتق شِرْكاً له في عبدٍ قُوِّم عليه قيمة عبد فأعطىٰ شركاءه حصصهم...»** الحديث المشهور[1]. أي: إن النبي نصَّ في سراية العتق هنا علىٰ العبد الذكر، وسكت عن الأَمَة الأنثىٰ، ولم يقل: من أعتق شِرْكاً له في أَمَة، فالأَمَة مسكوتٌ عنها هنا، وعامة العلماء علىٰ أن العِتْق يسري في الأَمَة كما يسري في الذَّكَر، إلحاقاً للمسكوت عنه بالمنطوق به، ونَفْي الفارق هنا مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين؛ لأن الذكورة والأنوثة في باب العتق أوصاف طردية، أعني لا يُفرق بينهما

(١) أخرجه البخاري في الشركة، باب تقويم الأشياء بين الشركاء، حديث رقم: (٢٤٩١)، (٥/ ١٣٢)، ومسلم في العتق، حديث رقم: (١٥٠١)، (٢/ ١١٣٩).

في الأحكام، ولا يُعلل بهما أحكام مختلطة في باب العتق، مع أن هنالك احتمالاً ضعيفاً أن النبي ﷺ نصَّ علىٰ العبد، وجعل سراية العتق فيه دون الأمة؛ لأن عتق الذكور يحصل به من الفوائد ما لا يحصل في عتق الإناث؛ لأن الذكر إذا عتق فهو شهادته شهادة عدل عند من لا يقبل شهادة العبيد. وصار يزاول مناصب الرجال، كالإمامة، والجهاد، وغير ذلك مما يختص بمناصب الرجال التي لا تصلح لها الإناث، ولكن هذا يبقى احتمالاً ضعيفاً.

فمثل هذه الأشياء يزعم ابن حزم أن الوحي سكت عنها، ونحن نقول: لا، لم يسكت الوحي عنها، ولكنه دل عليها، وكذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»[1] هذا حديث صحيح ثابت في الصحيحين، نهى به النبي ﷺ القاضي أن يحكم بين الخصمين في حالة غضبه؛ لأن الغضب يُشَوِّش فكره، فيمنعه من أن يستوفي النظر في دعاوي الخصوم، وفي الأحكام المترتبة علىٰ دعاويهم. وقد أجمع العلماء علىٰ أن كل مشوش للفكر كتَشْويش الغضب أو أشد غير مسكوت عنه، فلا يجوز للقاضي أن يحكم بين الخصمين في حالة العطش والجوع المُفْرِطَين، ولا في حالة الحزن والسرور المُفْرِطَين، ولا في حالة الحَقْن والحَقْب المُفْرِطَين، والحَقْن: مدافعة البول، والحَقْب: مدافعة الغائط. فكل هذه الأمور التي تُشَوِّش فكره لا نقول هي مسكوت عنها، بل هي منطوقة؛ ولأجل هذا كان العلماء أجمعوا على إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به إذا تحققنا وغلب علىٰ ظننا أنه لا فرق بينهما.

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

فعُلم أن دعوىٰ ابن حزم علىٰ العلماء أنهم حرموا هذا من تلقاء أنفسهم وشرعوه من غير دليلٍ أنه ليس بصحيح، وأن الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ ما فعلوا إلا شيئاً واقعاً في موقعه؛ لأن هذا المنطوق به والمسكوت عنه لا فرق بينهما البتة.

فالنبي ﷺ ربما نبهنا بالنظير علىٰ النظير. وقد أجمع العلماء علىٰ أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فإلحاق النظير بالنظير من الحق الذي شهد له القرآن والسنة والعقل الصحيح، وقد نبّه النبي ﷺ في أحاديث متعددة علىٰ أن إلحاق النظير بنظيره من الحق لا من الباطل؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن سأله رجل، وثبت في الصحيحين أنه سألته امرأة عن حج كان علىٰ أبيها أو أمها هل تقضيه عنها. قالت: أمي ماتت وعليها حج أفأقضيه عنها؟ فالنبي ﷺ قال: «أرأيت لو كان علىٰ أبيك دَينٌ فقضيتيه أكان ينفعه؟» قالت: نعم. قال: «فَدَيْن الله أحق أن يُقْضَىٰ». والحديث ثابت في الصحيح في رجلٍ، وثابت في الصحيح في امرأة[1]. وهي قصص متعددة لا اضطراب في الحديث؛ لأنه ثابت في الصحيحين. فنبه النبي ﷺ بإلحاق دَيْن الله بديْن الآدميين بجامع أن الكل دَيْن ينفع صاحبه قضاؤه

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، حديث رقم: (١٨٥٢)، (٤/ ٦٤)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الحديثين رقم: (٦٦٩٩، ٧٣١٥)، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (في سؤال المرأة الجهنية)، وقد ورد عنه، وعن أخيه الفضل، وعن غيرهما أحاديث في الصحيحين وفي غيرهما من غير موضع الشاهد هنا، وقد تكلم الحافظ على هذه الأحاديث والروايات المتعددة بكلام طويل راجعه ـ إن شئت ـ في الفتح (٤/ ٦٥ ـ ٦٦، ٦٨ ـ ٧٠).

عنه ويؤدى بدفعه لمستحقه. وهو تنبيه بأن النظير له حكم النظير.
وقد ثبت في الصحيحين أيضاً أن النبيّ ﷺ جاءه رجلٌ ــ هذا الرجل كان أبيض، وكانت امرأته بيضاء، فولدت له غلاماً أسود، ففزع من سواد الغلام، واعتقد أن امرأته زنت بأسود، وجاءت بهذا الغلام، فجاء للنبي فزعاً، والظاهر أنه كان يريد اللعان لينفي عنه هذا الولد الأسود ــ فأخبر النبيَّ أن امرأته ولدت أسود!! فالنبي ﷺ قال لهذا الرجل: «**ألك إبل؟**» قال: نعم. قال: «**ما ألوانها؟**». قال: حمر، قال: «**هل فيها من أورق؟**» قال: نعم. ــ والأورق: الذي لونه الوُرْقة. وأشبه شيء بلون الوُرقة هو لَوْن حمام الحرم هذا؛ ولذاكم تسمى الواحدة منه بالورقاء. ويسمىٰ جمعه بالوُرق، أي: أخضر اللون ــ قال: نعم، إن فيها لَوُرْقاً. قال: «**من أين جاءتها تلك الوُرْقَة والسواد؟ مع أن أباها أحمر وأمها حمراء**». قال: لعل عِرْقاً نَزَعَها. يعني جَدّاً بعيداً كان أسود نزعها. قال له: «**وهذا الغلام لعل عرقاً نزعه**»(١). لعل أحد أبويه كان عنده جد أسود من بعيد فنزعه. فاقتنع الأعرابي لما جعل له النبي ــ قاس له ــ النظير بالنظير فكما أن أولاد الإبل تنزعها عروق فتصير بها سوداً، فكذلك أولاد الآدميين قد تنزعها عروقٌ بعيدة. وهو إلحاق النظير بالنظير.

ومن هذا المعنىٰ أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ سأل النبي ﷺ عن الصائم يقبل امرأته؟! فقال له: «**أرأيت لو تمضمض؟**» وهذا الحديث في سنن أبي داود بسندٍ أقل درجاته

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب إذا عرَّض بنفي الولد، حديث رقم: (٥٣٠٥)، (٩/٤٤٢)، ومسلم في اللعان، حديث رقم: (١٥٠٠)، (٢/١١٣٧، ١١٣٨).

القبول[1]. فقال له: «أرأيت لو تمضمض؟». فكأن النبي يشير إلى أن التقبيل إذا لم يُنْزِل منه صاحبه، ولم يخرج منه شيء أنه كالمضمضة، بجامع أن كلاً منهما مقدمة الإفطار. وليس في واحدٍ منهما إفطار؛ لأن المضمضة مقدمة الشرب، والتقبيل مقدمة للجماع. فألحق النظير بنظيره. وأمثال هذا كثيرةٌ جداً.

ومن هنا نعلم أن قول ابن حزم: إن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ عائدٌ إلىٰ الخنزير كله ـ ليكون الشحم داخلاً في النص، لا مسكوتاً عنه ملحقاً بالمنطوق به ـ أنه غير صحيح، وأن الضمير راجع إلىٰ لحم الخنزير الذي هو المُحدَّث عنه، وأن الشحم مسكوت عنه، ولكنه أُلحق به، والشحم هو واللحم قد يفترقان في الأحكام، كما سيأتي في فيما حُرِّمَ على اليهود: أنه قد يُحرم عليهم هذا دون هذا.

وقد يُجاب في خصوص آية لحم الخنزير هذه جواب آخر، [١٩/ب] / هو معروفٌ عند العلماء، لكن ابن حزم لم يهتد للاحتجاج به، أن اللحم أعم من الشحم، فإن العرب تقول: «اكْتَل لي لحم هذه الشاة». وقد يكون لحمها معه شحم كثير وهو داخل فيه. فهذا

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١، ٥٢)، وابن أبي شيبة (٣/ ٦٠ ـ ٦١)، والدارمي (١/ ٣٤٥)، وأبو داود في الصوم، باب القُبلة للصائم، حديث رقم: (٢٣٦٨)، (٧/ ١١)، والنسائي في الكبرى، كتاب الصيام، باب المضمضة للصائم، حديث رقم: (٣٠٤٨)، (٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩)، وابن خزيمة (١٩٩٩)، (٣/ ٢٤٥)، وابن حبان (الإحسان ٥/ ٢٢٣)، والحاكم (١/ ٤٣١)، والبيهقي (٤/ ٢١٨، ٢٦١)، والطحاوي في شرح المعاني (٢/ ٨٩)، وانظر: صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٥٣).

الجواب لو أجاب به ابن حزم لكان مقبولاً[١]، وهو مذهب مالك ـ أن [اللحم] أعم من [الشحم][٢] ـ ولذا لو حلف في مذهب مالك لا يأكل اليوم لحماً فأكل شحماً فإنه يحنث، بخلاف ما لو حلف لا يأكل شحماً وأكل لحماً أحمر غير شحم فإنه لا يحنث[٣]؛ لأن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، كما هو معروف[٤].

والحاصل أن العلماء مجمعون علىٰ إلحاق النظير المسكوت عنه بالنظير المنطوق به، وأنه من الحق، وأنه غير مسكوت عنه، بل النص يدل عليه. فمن قال لك: «لا تقل لوالديك أف». فكأنه قال لك من باب أولىٰ: لا تضربهما. ومن قال ـ مثلاً ـ لك: لا تضح بعوراء. فكأنه قال لك: لا تضح بالعمياء من باب أولىٰ، وهكذا.

وهذا معنىٰ قوله ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾. الله (جل وعلا) حرم هذه الأشياء التي هي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير. ومعروف أن الله لا يحرم شيئاً إلا لحِكْمَة، ولا يحرم شيئاً إلا للضرر، فقد يهتدي بعض الناس إلىٰ حِكْمَة ذلك الشيء، وقد يعجز البشر عن إدراكها. فالله (جل وعلا) محيط علمه بكل شيء، ولا يحرم إلا لحكمة. لا يحرم شيئاً إلا وهو متضمنٌ أضراراً عظيمة، وهذه الأضرار قد يتحصلها البشر، وقد يعجز عنها إدراك البشر؛ لأن علم الخالق (جل

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٤)، القرطبي (٢/ ٢٢٢).

(٢) في الأصل: «أن الشحم أعم من اللحم»، وهو سبق لسان.

(٣) انظر: القرطبي (٢/ ٢٢٢).

(٤) انظر: البرهان للزركشي (٣/ ٤٠٢)، الإتقان (٣/ ٢٣٢)، الكليات ص ٨٨٩، قواعد التفسير (٢/ ٥٢١).

وعلا) محيط بكل شيء، يعلم أشياء يتقاصر عنها فهم البشر.

وتحريم هذه الأشياء بعضهم يقول: إنه يفهم علته. وقال بعض العلماء: تحريم الميتة من جهة الطب(١)؛ لأن الدم الذي يسيل عنها بالذكاة يطيِّب لحمها ويصححه، فإذا ماتت فسد ذلك الدم واختلط في اللحم. بدليل أنك لو فصدت عرقاً من الميتة لا يقطر منه دم، فذلك الدم قد يختلط بذلك اللحم، واختلاطه به فيه نوع من السلب له، يسبب بعض الأمراض؛ ولذا لم يبحه الله إلا للمضطر. قالوا: لأن شدة حرارة الجوع وألمه وشدته قد يقاوم تلك الأضرار فلا تهلكه، ولم يبحه إلا عند الضرورة التي يخاف صاحبها الموت.

وزعموا(٢) أن تحريم الدم لأنه لا فائدة فيه البتة، لا يستفيد الإنسان من أكل الدم في جوفه شيئاً؛ لأنه إما أن [يستقر](٣) في المعدة فيضرها، ولا يتسرب في العروق، ولا يستفيد صاحبه منه شيئاً عن طريق الفم.

قالوا: وتحريم الخنزير(٤) لأن الخنزير قد تكون فيه مضار جدِّية، قالوا: ومن نتائج أكله أن صاحبه يصير ديوثاً غالباً، تُنزع منه غيرة الرجال، وغيرة الإنسانية التي تكون في الرجال، وهذا كالمشاهد، فإن الذين يأكلون لحم الخنزير لا تكاد تجد فيهم غيرة الرجال المعروفة، كالشهامة المعروفة عند العرب، فتجد زوجة

---

(١) انظر: تفسير المنار (٦/ ١٣٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٤) المصدر السابق (٦/ ١٣٥).

الرجل تمشي من عنده مع الذكور، وتنفرد معهم!! هكذا قاله بعضهم، والله تعالىٰ أعلم.

والله (جل وعلا) كأنه علّله، قال: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ وقد تقرر في الأصول، في مسلك النص، وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من حروف العلة[1]. كقولهم: «سهىٰ فسجد» أي: لعلة سهوه، «سرق فقُطعت يده» أي: لعلة سرقته. «حُرِّم لحم الخنزير فإنه رجس» أي: حرم لكونه رجساً.

والرجس في لغة العرب: النجس القذر الذي تعافه النفوس، الذي هو بالغٌ في غاية الاستقذار الغاية القصوىٰ[2]. وقال بعض العلماء: أصله من (الرِّكْس) والعرب ربما بادلت بين الحروف. و (الرِّكْس) بالكاف في لغة العرب: عَذرة الناس وفضلاتهم ـ أكرمكم الله[3] ـ هذا معنىٰ قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾.

وقوله: ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾ أو فسقاً: منصوب قبله مرفوع، إلا أنه عَطْفٌ علىٰ المنصوبات قبله. ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا﴾. فهو معطوف علىٰ قوله: ﴿مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا﴾[4].

والمراد بهذا الفسق: هو ما ذبح لغير الله. وسماه الله (فسقاً) جعله كأنه بعينه هو عين الفسق. لتَوَغُّلِه في الفسق الذي هو: الخروج

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٢) انظر: المفردات (مادة: رجس) ص٣٤٢، المصباح المنير (مادة: رجس) ص٨٣.
(٣) انظر: المصباح المنير (مادة: ركس) ص ٩٠.
(٤) انظر: الدر المصون (٥/ ١٩٨).

عن طاعة الله؛ لأن النحر وإراقة الدم من أعظم القربات التي يُتقرب بها إلىٰ الله (جل وعلا). وهي من الحِكَم التي نادىٰ فيها للحج: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج: الآية ٢٧] ثم بين الحِكَم فقال: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج: الآية ٢٨]. ذكرها عند التذكية تقرباً بها إلىٰ الله، وقد بين الله (جل وعلا) أن من تقرب بالدماء يريد وجه الله أن ذلك من التقوىٰ الذي يرضي الله: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: الآية ٣٧] ولذا كان الشيء إذا ذُبح لغير الله كان ذلك من أكبر الكفر، وكانت تلك الذبيحة من أخبث الخبث، وذلك الفعل من أفسق الفسق؛ ولذا سماه الله فسقاً.

وأصل الإهلال في لغة العرب هو رفع الصوت(١). تقول: استهلَّ المولود صارخاً. إذا رفع صوته عند الولادة، وإنما سُمي الشهر (هلالاً) لأنهم كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته، وإنما قيل له: ﴿ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ لأنهم كانوا إذا ذبحوا لغير الله رفعوا أصواتهم باسم الأصنام، فصار يُطلق على كل ما ذُبح لغير الله: (أهل لغير الله به).

ثم بين (جل وعلا) أن هذه المحرمات الأربع، التي هي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، أن محل تحريمها ما لم تدعُ الضرورة الفاحشة إليها، أما إن دعت الضرورة إليها فإنها تباح للضرورات؛ لأن هذا النبي الكريم ــ سيد الرسل،

(١) انظر: ابن جرير (٣/ ٣١٩)، المفردات (مادة: هلل) ص ٨٤٣، القرطبي (٢/ ٢٢٤).

الذي اختاره الله لهذه الأمة، وجعلها به خير أمةٍ أُخرجت للناس ـ بُعث بالحنيفية السمحة، ورُفعت عنه التكاليف، والآصار، والأثقال التي كانت علىٰ من قبله فجاء بها سهلة حنيفية سمحة، إذا اضطر الإنسان إلى هذا الحرام رُخص له فيه، كما قدمنا إيضاحه، وأنه عامٌّ في كل ما دعت الضرورة الملجئة إليه في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩].

قرأه بعض السبعة في جميع القرآن: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ بكسر النون، كما قرأه عاصم وأبو عمروٍ وغيرهما. وأكثر القراء: ﴿فمنُ اضْطُرَّ﴾ وهذا في كل ساكنين بعدهما ثالث مضموم، فإنه في جميع القرآن يُقرأ بالكسر، علىٰ عادة التخلص من التقاء الساكنين بكسر الأول، والضم إتْبَاعاً للضمة بضمة الطاء في قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾[1].

والطاء في قوله: ﴿اضْطُرَّ﴾ أصلها مُبْدَلَة من تاء الافتعال. وأصل حروف الكلمة الأصلية: (ضَرَرَ). ففاؤها ضاد، وعينها راء، ولامها راء: (ضَرَرَ)، فدخل عليها تاء الافتعال، كما تقول في قرب: اقترب. وفي كسب: اكتسب، وفي ضرر: اضْترر[2]. والمقرر في علم النحو: أن تاء الافتعال إذا جاءت بعد حرفٍ من حروف الإطباق كالصاد، والطاء، والضاد أنها تُبدل طاءً[3]، فأُبدلت تاء الافتعال

---

(١) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٧٤ ـ ١٧٦، الكشف لمكي (١/ ٢٧٤ ـ ٢٨٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

طاءً، وبُني الفعل للمفعول، فقيل: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: فمن أُلجِئ.

ولم يبين هنا هذه الضرورة المُلْجِئَة، وقد بين في موضع آخر أنها الجوع، كما قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: الآية ٣] والمَخْمَصَة: الجوع(١). والقرآن يبين بعضه بعضاً. يعني: فمن ألجأته الضرورة إلىٰ أكل الميتة، أو ما أُهل به لغير الله، أو لحم الخنزير، فإن ذلك يباح.

والضرورات المُلْجئة عند العلماء هي: أن يخاف علىٰ نفسه الموت، أو يظن ذلك ظناً قوياً(٢).

وقد قدمنا في سورة البقرة مسائل متعددة من الاضطرار إلىٰ الميتة، منها: إذا اضطر إلىٰ الميتة بأن خاف علىٰ نفسه الهلاك إن لم يأكل، هل يجوز له أن يشبع؟ أو لا يأكل إلا قدر ما يسد الرَّمَق ويُمْسِك الحياة(٣)؟ فذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن له أن يشبع ويتزود، وهو المشهور المعروف من مذهب مالك(٤).

أما قول خليلٍ في مختصره: «وللضرورة ما يسد» فذلك مشهور مذهب مالك، وليس هو المروي عن مالك، وإنما هو قول لبعض أصحابه. فمذهب مالك المعروف، أنه يأكل، ويشبع، ويتزود. فإن

---

(١) انظر: المفردات (مادة: خمص) ص ٢٩٩.

(٢) انظر: أضواء البيان (١/ ١٠٩)، وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: السابق (١/ ١٠٧)، وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: الموطأ ص ٣٣٤، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٥)، القرطبي (٢/ ٢٢٧).

وجد عنها غِنىً طرحها. ووجه هذا القول: أنه لما اضطر إليها صارت حلالاً بالنسبة إليه، والحلال يشبع صاحبه ويتزود.

وقالت جماعة أخرىٰ من أهل العلم من الأئمة الأربعة وفقهاء الأمصار[١]: لا يجوز له أن يأكل إلا قدر ما يسد الرَّمَق ويُمْسِك الحياة؛ لأنه إذا أكل ما يسد الرَّمَق ويُمسك الحياة فقد زال الضرر الذي هو خوف الموت، والميتة إنما أُبيحت لخوف الهلاك، وقد زال بأكل ما يسد الرَّمَق، فلا يشبع ولا يتزود. وهي أقوالٌ معروفةٌ في فروع المذاهب.

ومن هذا: إذا تيسرت لك ميتة ومال غير وأنت مضطر، فهل تتعدىٰ وتأكل مال الغير أو تقدم الميتة؟ اختلف العلماء في هذا[٢]. فذهب جماعة إلىٰ أنه يقدم مال الغير، وهو مذهب مالك إذا كان يأمن من أن يجعله سارقاً ويقطع يده. أما إذا كان يخاف أن يجعله سارقاً وتُقطع يده فإنه يأكل الميتة، فإن أَمِنَ أن لا يجعله سارقاً قدم مال الغير علىٰ الميتة. وكثيرٌ من العلماء يقدمون الميتة علىٰ مال الغير [ونظير][٣] هذه المسألة ما إذا كان مُحْرِماً، واضطر إلىٰ الميتة، وخاف الهلاك من الجوع، ووجد صيداً وهو مُحْرِم: هل يصطاد الصيد ويقدمه علىٰ الميتة؟ أو يأكل الميتة؟ في هذا خلاف

(١) انظر: المحلى (٧/ ٤٢٦)، الاستذكار (١٥/ ٣٥١) فما بعدها. المغني (١١/ ٧٣)، أضواء البيان (١/ ١٠٧).

(٢) انظر: الاستذكار (١٥/ ٣٥٧)، القرطبي (٢/ ٢٢٥)، المغني (١١/ ٧٨)، أضواء البيان (١/ ١١٢).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

معروف[١]. وأكثر أهل العلم علىٰ أنه يقدم الميتة علىٰ الصيد؛ لأنه إن قَتَل الصيد وهو مُحْرِم صار ميتة، ورجعت المسألة في حافرتها[٢]. واجتمع عليه أنه قاتل صيد وآكل ميتة. أما إن أكل الميتة فقد أكل الميتة ولم يقتل صيداً. وفي قولٍ عن الشافعية: أنه يقدم الصيد، بناءً علىٰ أن المضطر إذا قتل صيداً لم يكن ميتة، والأكثر علىٰ خلافه. وقد أشبعنا الكلام علىٰ هذه المسألة في سورة البقرة في الكلام علىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٣].

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ دل القرآن في موضع علىٰ أن الاضطرار هنا: الجوع، وأن الباغي والعادي هما المائلان لإثم يخالف الشرع، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: الآية ٣] أي: غير مائلٍ للحرام، وهكذا قَدْرُ بيان القرآن.

واختلف العلماء في ذلك الإثم الذي يُتجانف إليه الذي استُثني بقوله هنا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾[٣]. فذهبت جماعة من أهل العلم ــ وهو القول المشهور عند الفقهاء والمفسرين ــ أن معنىٰ الباغي: الخارج عن طاعة إمام المسلمين، والعادي: الذي يعدو علىٰ الناس

---

(١) انظر: المغني (١١/ ٧٨)، أضواء البيان (١/ ١١٤).

(٢) يُشير إلى المثل «رجع على حافرته» أي: إلى حالته الأولى، أو الطريق الذي جاء منه. انظر: المُجمل ص ١٧٨، المفردات ص ٢٤٤.

(٣) انظر: الاستذكار (١٥/ ٣٥٤)، ابن جرير (٣/ ٢٢٢)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٧)، القرطبي (٢/ ٢٣١، ٢٣٢)، المغني (١١/ ٧٥)، أضواء البيان (١/ ١٠٥).

فيقطع عليهم الطريق، ويخيفها عليهم. وعلىٰ هذا القول فالباغي: الخارج عن طاعة الإمام، والعادي: الذي يخيف الطريق، ويقطع الطريق علىٰ الناس، لا يباح لهم أكل الميتة؛ لأن هؤلاء غالباً هم الذين يضطرون إلىٰ الميتات؛ لأنهم لا يقدرون أن يخالطوا الناس فيشتروا منهم زاداً ولا طعاماً. فيضطرون غالباً إلىٰ الميتات. وعلىٰ هذا فمن كان خارجاً عن طاعة إمام المسلمين، أو قاطعاً طريق المسلمين، مخيفاً لها، لا يجوز له الأكل من الميتة إلا أن يتوب. فإن لم يتب فلا يجوز له الأكل ولو مات. فلو قيل: كيف تبيحون له ترك الأكل ولو مات؟ قالوا: لأنه قادر على أن يبيح ذلك بالتوبة. وهو الذي أصرَّ وامتنع أن يتوب إلى الله، فلو تاب إلى الله أجاز له ذلك.

وأجاز الإمام مالك وأصحابه أكل الميتة للمضطر، ولو كان قاطع طريق، أو خارجاً علىٰ الإمام؛ لأنهم فسَّروا الباغي والعادي بتفسير غير هذا، قالوا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير باغٍ مُتَشَهٍّ لأكل الميتة وهو قد يجد غِنىً عنها. ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: جاوز إلَى الحرام. وهو في غِنىً عنه بالأكل بالحلال. وعلىٰ هذا التفسير فهي كالتكميل لقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ والقول الأول أولىٰ؛ لأن التأسيس مقدم علىٰ التأكيد[1].

وقال بعض العلماء: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي باغ: مُتَشَهٍّ في نيل الحرام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: مجاوز قدر سد الرمق إلى الشبع. إلى آخر الأقوال التي قدمناها في البقرة. هذا معنىٰ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

(١) في هذه القاعدة انظر: البحر المحيط للزركشي (٢/ ١١٧، ١٢٠)، شرح الكوكب المنير (١/ ٢٩٧)، شرح مختصر الروضة (٣/ ٧٤٧ ـ ٧٤٨)، أضواء البيان (٣/ ٣٥٥)، (٥/ ٧٥٩)، (٦/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، ٦٩٢)، (٧/ ٤١٤، ٨٢١).

قال بعض العلماء: يلحق بالباغي والعادي كل مسافر سفراً حراماً، فإنه لا يترخص في أكل الميتة، كالذي يسافر لقطيعة الرحم، أو يسافر ليقتل رجلاً مُعَيَّناً مسلماً، ونحو ذلك من السفر الحرام، فإنه لا يباح له أكل الميتة وإن ألجأه الجوع(١). والذين يقولون هذا يقولون: كذلك لا يترخص بقصر الصلاة، فعليه أن يصليها رباعية؛ لأن الرخصة وُجِدَت من باب التسهيل فكأنه إعانة له على ظلمه، والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: الآية ٢] فكأن إباحة الميتة له والتسهيل له بقصر الصلاة إعانة له علىٰ ظلمه. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: خالقك وسيدك. ﴿غَفُورٌ﴾. ومن مغفرته أنه يبيح له الأكل عند الضرورات. ﴿رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ بعباده، ومن رحمته: أنه أباح لهم ما اضطروا إليه، وألجأتهم إليه الضرورات. وهذا معنىٰ قوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٦].

لمَّا بيَّن الله (جل وعلا) أشياء حرمها علىٰ هذه الأمة على لسان نبيه ﷺ، وكان حرمها عليهم لمصالح معلومةٍ عنده (جل وعلا)، بيّن أنه حرم علىٰ اليهود بعض الأشياء مؤاخذة لهم وجزاءً لهم باجترامهم

---

(١) انظر: المغني (١١/ ٧٥)، القرطبي (٢/ ٢٣٢)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٨).

السيئات، قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ المراد بالذين هادوا هنا: اليهود، والعرب تقول: «هاد يهود» إذا تاب من ذنبه ورجع إلىٰ الصواب. وهذا معروفٌ في كلام العرب، ومنه قول الله في الأعراف عن نبيه موسىٰ: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] أي: تبنا ورجعنا منيبين إليك. فمعنىٰ (هاد، يهود): إذا رجع تائباً إلىٰ الحق، متنصلاً من ذنبه[1]. واسم فاعله: (هائد)، ويُجمع علىٰ (هُوْد)، ومنه: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: الآية ١٣٥] وجَمْعُ (الفاعل) علىٰ (فُعْل) مسموعٌ في أوزانٍ قليلة، كهائدٍ وهُود، وحائلٍ وحُول، وعَائِذٍ وعُوْذ، وبَازِلٍ وبُزْل[2]. وقد قال بعض الأدباء[3]:

يـا صـاحـبَ الـذنـبِ هُـدْ هُـدْ واسجُـد كـأنـك هُـدْهُـدْ

فقوله أولاً: «هُدْ، هُدْ» معناه: تُبْ، تُبْ. «واسجد كأنك هُدْهُد» وهو الطائر المعروف. يعني: وإنما قيل لليهود: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ لأنه في تاريخهم توبة عظيمة سجلها لهم القرآن، وهي توبتهم من عبادة العجل، لما رجع موسىٰ من الميقات من الطور، ووجدهم يعبدون العجل، جاء الوحي بأن الله لا يقبل توبة أحدٍ منهم

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٤٠٥).

(٢) انظر: السابق (٢/ ٦٩). والحائل: الأنثى التي لم تحمل. المصباح المنير (مادة: حول) ص ٦٠، والبازل: البعير الذي فَطَرَ نابُه بدخوله في السنة التاسعة. المصباح المنير (مادة: بزل) ص ١٩.

(٣) نسبه المرزوقي للزمخشري كما في شواهد الكشاف ص ٢٩، وهذه النسبة غير صحيحة؛ لأن الزمخشري حينما أورده في الكشاف (٢/ ٩٦) قال: «ولبعضهم» وذكره. وأوله: «يا راكب...».

حتىٰ يقدم نفسه للموت، كما قدمنا إيضاحه[١] في البقرة في قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤] أي: فقدمتم أنفسكم فتاب عليكم. هذه التوبة التي تجر الإنسان إلى أن يقدم نفسه لله صابراً محتسباً علىٰ الموت توبة عظيمة سجلها لهم القرآن؛ ولذلك ربما أُطلق عليهم اسم: (الذين هادوا): تابوا. أي: بتلك التوبة المعروفة، وإن كانت هذه حسنة فخسائسهم المذكورة في القرآن لا تكاد أن تحصر.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ معناه: أن كل حيوانٍ له إصبع فيها ظفر؛ حرام علىٰ اليهود، ومن ذلك: الإبل، والنعام، والإوَز، والبط، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك؛ لأن كل هذه من ذوات الظفر، فكل حيوانٍ ذي ظفر كان محرماً علىٰ اليهود جميعه، شحمه ولحمه، كالنعام، وكالإبل، وكالبط، والإوَز، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك[٢].

وقول بعض العلماء: الظفر: الحافر، فإنه يحرم عليهم كل ذات حافر[٣]. غير صحيح؛ لأنهم يعدّون أظلاف البقر والغنم من ذوات الحوافر، ولحومها مباحة لهم كما سيأتي.

وقول بعضهم: المراد بذات الظفر هي: ذات المخالب، أو ذات السباع من الطير[٤]. لا يساعده لفظ القرآن، فالصحيح أنه ما

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ١٩٨)، القرطبي (٧/ ١٢٥).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ١٢٥).

(٤) المصدر السابق. ولفظه: «وقيل: يعني كل ذي مخلب من الطير، وذي حافر من الدواب». اهـ.

كالبعير، وما كالنعامة، وما كالبط، والإوَز، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك.

وقوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ أي: حرمنا عليهم شحوم البقر والغنم لا لحومهما.

والتحقيق: أن الشحوم المحرمة عليهم من البقر، والغنم مقصورة علىٰ الثروب، وشحم الكليتين[١].

والثُّرُوب: جمع ثَرْب؛ وهو الغطاء ــ الغشاء ــ من الشحم الرقيق الذي يغطي الجوف فيكون علىٰ الكرش والمصارين[٢]. هذا وشحم الكُلَىٰ هو الحرام عليهم، أما غيره فيدخل في الاستثناءات الآتية؛ ولذا قال: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ قرأ بعض السبعة: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ بإظهار التاء، وقرأ بعضهم: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَت ظُّهُورُهُمَآ﴾ بالإدغام ــ الإدغام الصغير[٣] ــ يعني: أن ما عَلق بظهر البقر والغنم من الشحوم، كالشرائح التي تكون علىٰ الظهر من الشحم، فإنها مباحة لهم[٤].

وقوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ التحقيق أن ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ في محل رفع معطوف على الظهور[٥]، يعني: إلا ما حملت ظهورهما أو ما

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٠١)، القرطبي (٧/ ١٢٥).

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ١٢٥)، المصباح المنير (مادة: ثرب) ص ٣١.

(٣) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٢٤، الكشف لمكي (١/ ١٣٥).

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٠٢).

(٥) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٠٣)، القرطبي (٧/ ١٢٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٤٤)، الدر المصون (٥/ ٢٠٣).

حملته الحوايا، فهو مستثنىٰ بالتحريم، خلافاً لمن زعم أن الحوايا يعني منصوباً معطوفاً علىٰ شحومهما، حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا، فهي محرمة، فهذا القول ضعيف مرجوح[1]. والمعنىٰ: أن ما حملته الظهور من الشحوم حلالٌ لهم، وما حملته الحوايا.

والحوايا: تختلف فيها عبارات المفسرين بألفاظٍ متقاربة، معناها راجعٌ إلىٰ شيءٍ واحد[2]. منهم من يقول: هي المبَاعِر، أي: المَحَالّ التي يجتمع فيها البَعْر والزّبل. ومنهم من يقول: هي بنات اللبن، ويسمونها بأسماء، والتحقيق: أنها كل ما كان مُدَوَّراً في البطن مما يُسَمَّىٰ: الدُّوَّارَة، والمصارين، ومحلِ البعر الذي يخرج منه. ما تعلق بذلك الجوف من الشحوم غير الثُّرُوب التي هي غشاء فوق الجوف، كل ما تعلق بذلك فهو حلال لهم. وهذا معنىٰ: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهو جمع (حاوية)، كقَاصِعَة وقَاصِعَاء[3]. وقيل: جمع (حويَّة) كـ: (فَعِيْلَةٍ) و (فَاعِلَة)[4]. وهي ما احتوت عليه البطن من الأمعاء، وما جرىٰ مجراها من الدُّوَّارَة، والمباعر، ونحو ذلك. فالمتعلق بهذا من الشحم لا يحرم عليهم، وإنما يحرم عليهم الثُّرُوب، وهي الغشاء الذي فوق الكرش والأمعاء من الشحم، وشحم الكُلَىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٢٠٣).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٠٣)، القرطبي (٧/ ١٢٦)، الدر المصون (٥/ ٢٠٦).

(٣) في القرطبي (٧/ ١٢٦): «وواحد الحوايا: حاوياء، مثل: قاصعاء وقواصع. وقيل: حاوية، مثل: ضاربة وضوارب. وقيل: حويَّة، مثل: سفينة وسفائن». اهـ، وانظر: الدر المصون (٥/ ٢٠٦).

(٤) نفس المصدر السابق.

والتحقيق أن: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ معطوف علىٰ المستثنىٰ الحلال[١]، أي: فما اختلط بالعظم فهو حلالٌ لهم، فكل شحم مختلط بعظم كالشحم الذي يكون في عظام البقرة والشاة فكله حلالٌ لهم. ويدخل فيه الذَّنَبُ الكبير السمين الذي يسمىٰ الألْية فإنه مختلط بعظم؛ لأنه مختلط بعظم العصعص، وهو عجب الذنب المعروف. ويدخل في ﴿مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: شحم العينين، وشحم الأذنين، وكل شحم اختلط بعظم فإنه حلالٌ لهم. وهذه الاستثناءات تبين أن الحرام عليهم إنما هو الثروب، وشحم الكُلَىٰ فقط. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

ثم بيَّن الله أنه حرَّم عليهم بعض هذه المحرمات بسبب ظلمهم، فضيق عليهم بالتحريم لمخالفتهم واجترامهم، كما بينه في النساء بقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١] أي: وقتلهم الأنبياء، وتحريفهم للكتب، كل هذه الذنوب حُرم عليهم بسببها بعض الطيبات؛ ولذا كان نبي الله عيسى ابن مريم (عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام) بُعث بأن يكون جميع عمله وأحكامه في الغالب عملاً بالتوراة، ولا يزيد إلا أن يُحلل لهم بعض ما حرم عليهم بسبب ذنوبهم، كما سيأتي في قوله عن عيسىٰ ابن مريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٥٠] فجاء تخفيف وتحليل علىٰ لسان عيسىٰ ابن مريم، ولكنهم ـ قبحهم الله ـ لعداوته

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٠٥)، القرطبي (٧/ ١٢٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، الدر المصون (٥/ ٢٠٧).

لم يقبلوا منه شيئاً، وزعموا أنه ابن زانية!!

وقد يشكل علىٰ كثيرٍ من الناس أن من يزعمون أنهم علىٰ دين النصرانية دائماً يَفْصِلُون الدين من السياسة، ويزعمون أن الدين مقتصر علىٰ الكنيسة، وأنه لا دخل له في تنظيم العلاقات البشرية، والأعمال الدنيوية!! وسبب ذلك: أن النصارىٰ يزعمون أنهم علىٰ دين عيسى ابن مريم، ودين عيسىٰ ابن مريم جُلّ شريعته التي فيها الحلال، والحرام، والحدود، وإقامة صلاح المجتمع إنما هو بالكتاب الذي هو التوراة، وفي الإنجيل زيادات ليس فيها شرعٌ قائمٌ مستقل، فالنصارىٰ لشدة بغضهم لموسىٰ كذبوا بكتابه، ولم يأخذوا من شريعة عيسىٰ إلا ما اختص به الإنجيل، وتركوا ما في التوراة مما بُعث عيسىٰ بالعمل به، وصارت ليس في الإنجيل شريعة كاملة وافية يُفَصَّل فيها الحلال والحرام وأحكام علاقات الدنيا، فاضطروا إلىٰ أن يجعلوا تشريعاً سموه (الأمانة الكبرىٰ) وهي الخيانة العظمىٰ!! كما هو معروف في تاريخهم[١]. أما التوراة فهو كتابٌ فيه شرعٌ واضح تُبيَّنُ فيه العقائد، والحلال والحرام، وكل شيء، كما قال الله (جل وعلا) عن التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥] مع أن الإنجيل جاء به بعض الأحكام: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٧]. وكثيرٌ من أحكام الإنجيل يُحال فيها علىٰ ما أنزل الله علىٰ موسىٰ في التوراة، كما قال الله في التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٦).

هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم﴾ ذلك التحريم والتضييق جزيناهم بسبب بغيهم، أي: كفرهم، وظلمهم، وعدوانهم، كما بينه بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٦، ١٥٧] وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١] وكقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: الآية ١٥٥]، وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ٢١] هذا الظلم والبغي حرم الله عليهم بسببه بعض ما كان حلالاً عليهم، كما قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

وفي إعراب (ذلك) وجهان معروفان(١):

أحدهما: أنها في محل رفع. الأمر ذلك الذي قصصنا عليك جزيناهم ذلك الجزاء ببغيهم.

الثاني: أنها في محل نصب بمصدر، أي: جزيناهم ذلك الجزاء. وهذا الإعراب اختاره غير واحدٍ. ولكن ابن مالك قال: إن اسم الإشارة لا يكون منصوباً علىٰ المصدر إلا إذا ذُكر بعده المصدر، كأن تقول: قمت هذا القيام، وقعدت ذلك القعود. أما لو لم تَذكر بعده المصدر كأن قلت: «قمت هذا» تعني: القيام، أو «جلست هذا»

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٤٥)، الدر المصون (٥/ ٢٠٧).

تعني: الجلوس. يزعم ابن مالك أن هذا لا يجوز[١]. وقال بعض العلماء: هي مفعول أول لـ (جزيناهم)؛ لأن (جزىٰ) تتعدىٰ لمفعولين، تقول: جزيت عمراً خيراً، وجزيته شراً، فتكون (ذلك) أحد مفعولي (جزىٰ)، أي: جزيناهم ذلك الجزاء ببغيهم، فتكون مفعولاً به مقدماً، وعليه فلا إشكال.

والبغي: أصله الإرادة[٢]، وكثيراً ما يستعمل في إرادة الظلم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝١٤٦﴾ صيغة الجمع للتعظيم. والله يقول: إني لصادق. معظماً نفسه، ومعلوم أن الله صادق علىٰ كل حال، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء: الآية ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: الآية ٨٧]. والسبب في هذا أن اليهود زعموا أن هذا الذي حُرم عليهم لم يكن جزاءً ولا عقوبة، بل إنما كان حراماً علىٰ إسرائيل، حرمه إسرائيل علىٰ نفسه فاقتدوا به[٣]. وقد تقدم أن الله أكذبهم في هذه الدعوىٰ وألقمهم فيها حجراً في سورة آل عمران، في قوله: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٣﴾ [آل عمران: الآية ٩٣] فلما أفحمهم وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٣﴾ خجلوا ولم يأتوا بالتوراة، وعلموا أن القرآن مهيمنٌ علىٰ الكتب، كما قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٨]، ولذا قال هنا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝١٤٦﴾، فيما ذكرنا من أنَّا حرمنا عليهم ذلك لظلمهم، لا أنه حرمه إسرائيل علىٰ نفسه،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٥)، الدر المصون (٥/٢٠٨).

(٢) انظر: المفردات (مادة: بغى) ص ١٣٦.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٦).

والذي حرمه إسرائيل علىٰ نفسه قد قدمنا في سورة آل عمران أن المفسرين يذكرون أن نبي الله يعقوب أصابه المرض المسمَّى بعرق النَّسا وآلمه جداً، فنذر لله إن شفاه الله ليُحَرِّمن علىٰ نفسه أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان هذا النذر سائغاً في شرعهم إذ ذاك، فشفاه الله، فإذا أحب الشراب إليه لبن الإبل، وأحب الطعام إليه لحم الإبل، فَحَرَّمَهما علىٰ نفسه لذلك النذر(١). وأن هذا معنىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: الآية ٩٣] أي: وهو لبن الإبل ولحمها. وقد قدمنا في تفسير البقرة أن سيد اليهود المسلمين عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ أنه لمَّا أسلم فحَسُن إسلامه كان يتقي [أكل] لحم الإبل(٢) لِمَا كان متمرناً عليه من تحريمه، فنزل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾(٣) [البقرة: الآية ٢٠٨]. أي: ادخلوا في فروع الإسلام وأحكامه بجميعها، لا تحرموا شيئاً أحله الإسلام، ولا تمتنعوا من أكل شيءٍ أحله الإسلام، وإن كان محرماً في شرعٍ قبله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

ومن أعظم بغيهم: افتراؤهم علىٰ مريم البتول، ودعواهم عليها أنها زانية، حيث قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: الآية ٢٨] يعنون: لم يكن أبوك فاحشاً زانياً، ولم تكن أمك بغياً زانية، فمن أين أتيت بهذا الغلام؟ يعنون رميها

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «لحكم أكل» وهو سبق لسان.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٦٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده ضعيف. وذكره الحافظ في العُجَاب منبهاً على ضعفه (١/ ٥٢٩).

بالفاحشة، كما بينه الله بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: الآية ١٥٦] ومن أعظم بغيهم ـ قبحهم الله ـ زعمهم أنهم قتلوا المسيح ابن مريم، وأنهم صلبوه، وتصديق الجهلة النصارىٰ لهم في ذلك؛ ولذا كان شعارهم الصليب، يزعمون أنها الخشبة التي صلب عليها عيسىٰ (عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام)، والله ـ وهو أصدق من يقول ـ يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٧].

واعلموا أن كثيراً من طلبة العلم من المسلمين استحوذت عليهم آراء الإفرنج، فزعموا أن عيسىٰ مات، وأن اليهود قتلوه، وأنه ليس حياً الآن، وأنه لا ينزل في آخر الزمان. وكل هذه أكاذيب إنما حمل عليها ضعافَ طلبة العلم اغترارُهم بآراء الكفرة، وظواهر بعض النصوص. والحق الذي لا شك فيه أن الأخبار متواترة[1] عن الصادق المصدوق (صلوات الله وسلامه عليه) أن الله رفع عيسىٰ إليه حياً، وأنه حيٌّ عند الله، وأنه ينزل في هذه الأمة في آخر الزمان، وأن الله ينسخ علىٰ لسانه بعض الأحكام التي كانت مشروعةً علىٰ لسان النبي، وهو أنه لا يقبل الجزية من أحد، فلا يبقى في زمنه إلا السيف أو الإسلام، ويقتل جميع الخنازير، ويضع الجزية. والتحقيق أن القرآن دلَّ علىٰ أنه حيٌّ، وأنه سينزل، وأن أهل الكتاب يؤمنون به؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾

(١) انظر: إتحاف الجماعة بما جاء من الفتن والملاحم وأشراط الساعة (٣/ ١٢٨)، إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان ص ٧، أشراط الساعة للوابل ص ٢٧٢، وقد نقل عن جماعة من أهل العلم القول بتواتر هذه الأحاديث.

[النساء: الآية ١٥٩] التحقيق أنه عيسىٰ، والمعنىٰ: أنهم يؤمنون بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ بعد نزوله. هذا التفسير هو الصحيح، وسياق القرآن يدل عليه، والأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ تدل عليه، والدليل علىٰ أنه سياق القرآن: أن الله قال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي: عيسىٰ ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي: عيسىٰ ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: عيسىٰ. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ أي: عيسىٰ ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: عيسىٰ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ [النساء: الآيات ١٥٦ ـ ١٥٩] أي: عيسىٰ. لتكون الضمائر علىٰ نسقٍ واحد(١).

أما الرواية الأخرىٰ التي جاءت عن ابن عباس أن المعنىٰ: لا أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسىٰ قبل موت أحد أهل الكتاب، لا قبل موت عيسىٰ، وأنهم قالوا لابن عباس: إذا قُطع رأسه غفلةً فأين له أن يؤمن به قبل موته؟ وأنهم زعموا أنه قال: ينطق لسانه بعد أن فارق رأسُهُ جُثَّتَه بالإيمان بعيسى(٢).

هذا لا يخفىٰ ضعفه، وبطلانه، وعدم مساعدته علىٰ سياق القرآن، وكم من كتابي يموت فجأةً لا يؤمن بعيسى. فالتحقيق هو الأول، وقد دلت عليه الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ.

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥)، قواعد التفسير (١/ ٤١٥).

(٢) هذا القول ثابت عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من وجوه وطرق متعددة. وقد أخرج جملة منها ابن جرير في التفسير (٩/ ٣٨٢ ـ ٣٨٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١١٣، ١١١٤)، وذكرها ابن كثير (١/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧).
وقال: «فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وكذا صح عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، وبه يقول الضحاك، وجويبر». اهـ.

نعم يبقى لطالب العلم هنا سؤال معروف وهو أن يقول: إن الله قال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] فيقول: / إن الله قال: إنه متوفيك، [٢٠/أ] وقال بعد ذلك: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ فهذا دليل علىٰ أنه توفاه. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: الآية ١١٧]. أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ فلا يستدل به إلا جاهل؛ لأن هذا من كلام عيسىٰ يوم القيامة، ومعلوم أنه لا يأتي يوم القيامة إلا وقد مات عيسىٰ. وإن كان حياً إلىٰ آخر هذه الأمة؛ لأن ذلك يوم القيامة، يقول الله له: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المائدة: الآيتان ١١٦، ١١٧] كل هذا قوله يوم القيامة، ومعلوم أنه يوم القيامة لا بد أن يكون توفاه الله، بل آية المائدة هذه تدل على أنّ توفيه الذي توفاه به ليس قبض روح؛ لأنه لم يقابله بالحياة؛ لأنه قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾ ولم يقل ما دمت حيًا. وقابل ديمومته فيهم بقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ فعلمنا أنها وفاة جسد وروح لا وفاة روح فقط، إذ لو كانت وفاة روح لما قابلها بقوله: ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾ ولقابلها بقوله: «ما دمت حيًا» لأن الذي يُقابل بوفاة الروح إنما هو الحياة كما قال ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: الآية ٣١]. ولم يقل: «ما دمت فيهم».

والجواب عن قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] من أوجه متعددة[1]:

(١) انظر: ابن جرير (٦/ ٤٥٥)، القرطبي (٤/ ٩٩)، ابن كثير (١/ ٣٦٦)، أضواء البيان (١/ ٢٨٠).

أولها: أنه أجمع أهل اللسان العربي الذي نزل به القرآن أن العرب تقول: «توفّاه، يتوفاه» إذا قبضه إليه كاملاً تاماً، كما تقول العرب: توفيتُ دَيْني من فلان. أي: قبضته. ولكن إطلاق التوفي على خصوص قبض الروح دون البدن اصطلاح عرفي لا لغوي، فالاصطلاح اللغوي: يطلق على التوفي وقبض الشيء ببدنه وروحه جميعاً[١]، وإطلاقه على الروح دون البدن إطلاق عرفي لا لغوي، ومع أن المعروف في الأصل عند أكثر العلماء أن الحقيقة العرفية مقدمة على الحقيقة اللغوية[٢]، وأن الله إذا قال: «توفى الله فلاناً». أن الأغلب الذي يسبق إلى الذهن أنها الروح دون الجسم؛ لأن هذا هو العُرف، والعُرف ينسخ الحقيقة اللغوية، ولكن الحقيقة اللغوية هنا التي هي ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إلي كاملاً، ورافعك إلي بروحك وجسمك. هذه الحقيقة اللغوية وإن كانت تقدم عليها العُرفية التي هي (قبض الروح دون البدن) إلا أنها اعتضدت بأحاديث صحيحة عن النبي ﷺ، فصارت حقيقة لغوية معتضدة بأحاديث متواترة، ولا إشكال في ذلك.

الثاني: أن الله لما أراد قبض عيسى إليه ألقى عليه النوم لئلا يزعجه الارتفاع إلى العالم العلوي، فقال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: منيمك وقابضك في نَوْمَة. والعرب تطلق الوفاة على النوم، وجاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في موضعين:

---

(١) انظر: اللسان (مادة: وفى) (٣/ ٩٦١).

(٢) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/ ٤٧٣ـ٤٧٦)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٤٣٣ـ٤٣٦)، المذكرة في أصول الفقه ص ١٧٤ ـ ١٧٥، أضواء البيان (٣/ ١٠٠)، (٦/ ٥٢٢)، (٧/ ٢٦٨)، نثر الورود (١/ ١٥٦)، قواعد التفسير (١/ ١٥١).

أحدهما: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يعني في النوم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: الآية ٦٠].

الثاني: قوله في الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: الآية ٤٢].

الجواب الثالث: أن الله نعم قال: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] وهو متوفيه قطعاً يوماً ما، ولكنه لم يبين وقت ذلك التوفيّ هل هو فيما مضى أو سيأتي بعد آلاف السنين؟ والتَّحكُّم على الله بأنه أوقعه تَحَكُّم بلا دليل، والله متوفيه قطعاً وليس بمخلده، ولكن لم يُعَيِّن ذلك التوفي.

فإن قال قائل: هذا التوفي قبل الرفع؛ لأنه قال بعده: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾.

فالجواب: أن جماهير علماء العربية أن الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تقتضي التشريك[1] فيجوز بإجماع أهل اللسان العربي أن يكون المعطوف بها سابقاً على المعطوف عليه. تقول: «جاء زيدٌ وعمرو» ويكون عمرو هو الأول؛ لأن الواو إنما تقتضي التشريك فقط؛ ولذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٧] فقدم النبي، وعطف عليه نوحاً بالواو، ونوح قبل النبي. وهذا لا نزاع فيه بين العلماء.

---

(١) انظر: الصاحبي ص ١٥٦، البحر المحيط للزركشي (٢/ ٢٥٣)، شرح الكوكب المنير (١/ ٢٢٩)، مجموع الفتاوى (١٦/ ٧٧)، أضواء البيان (٧/ ٢٦٩).

فإن قال قائل: قد جاء عن النبي ﷺ حديث يدل على أن الواو تقتضي الترتيب، وهو تفسيره للواو في قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨] فبدأ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»[(١)] وفي بعض رواياته: «ابْدَؤُوا بما بدأ الله به»[(٢)].

فالجواب عن هذا هو ما أجاب به غير واحد من علماء العربية: أن الواو من حيث وضعها العربي لا تقتضي تقديماً ولا تأخيراً، وإنما تقتضي مطلق التشريك، سواء كان المعطوف بها هو الأول، أو هو الآخر، أو كانا مجتمعين في وقت واحد، كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: الآية ١٥] لأن إنجاءهما في وقت واحد، إلا أنه إذا دلّ دليل خارجي على أنها يراد بها الترتيب فلا مانع، ولكن الترتيب بذلك الدليل الخارجي لا لأصل الواو في نفسها، ومنه قول حسّان ـ على من رواه بالواو[(٣)] ـ:

هَجَوْتَ مُحمداً وَأَجَبْتُ عنه ... وعند الله في ذَاكَ الجَزاءُ

لأن الإجابة إنما هي بعد الهجاء لا مانع من أن تقتضي الترتيب إذا دل عليه دليل خارجي. وهنا لم يدل عليه دليل خارجي. وجماهير المفسرين ـ كما قاله كبير المفسرين أبو جعفر الطبري ـ أن معنى ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إليّ كاملاً وافياً بجسدك وروحك.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم: (١٢١٨)، (٢/ ٨٨٦).

(٢) الحديث بهذا اللفظ: أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٤)، الدارقطني (٢/ ٢٥٤)، والبيهقي (١/ ٨٥)، وقد حكم بعض العلماء على هذه اللفظة بالشذوذ. انظر: التلخيص الحبير (٢/ ٢٥٠)، خلاصة البدر المنير (٢/ ١١)، نصب الراية (٣/ ٥٤)، إرواء الغليل (٤/ ٣١٦).

(٣) انظر: ديوان حسان ص ٢٠.

وإنما كانت الحقيقة اللغوية هنا مقدمة على العُرفية ـ التي هي قبض الروح ـ [لأمرين](١):

أحدهما: أن الله قد ثبت أنه رفع جسم عيسى إليه، والأحاديث الدالة المتواترة عن النبيّ أن الله رفع عيسى.

وعلى كل حال فالمعروف عن الذين قتلوه أنهم قتلوه بأن صلبوه، والله نفىٰ هذا الصلب نفياً باتاً، قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨] فنفى أنهم قتلوه نفياً يقيناً، وهم معذورون؛ لأنهم ظنوا أنهم قتلوه، والله بين السبب الذي جاءهم منه الكذب والغلط؛ لأنه قال: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٧] لأن الله ألقى شبهه على رجل فصار مَنْ نظر إلى ذلك الرجل يجزم بأنه عيسى؛ لأن الله ألقى شبه عيسى عليه، فصار الناظر إليه لا يشك في أنه عيسى، فقتلوا ذلك الرجل وصلبوه، واعتقدوا أنه عيسى. فبين الله سبب كذبهم، وعُذْرهم في غلطهم فقال: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أما هو نفسه فقد رفعه الله إليه، وهو عند الله (جل وعلا)، وسينزل في هذه الأمة آخر الزمان، ويقتل الدجال، وهذا ثابت عن النبي ﷺ ثبوتاً لا مطعن فيه، وإن أحيا الله من أدركه من هذه الأمة سيجد أخبار الصادق المصدوق حقاً، وسيجد خرافات الكذابين من أتباع الإفرنج باطلاً؛ لأن الله أصدق من يقول، وهو يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ويقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: الآية ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: الآية ٨٧] الله أصدق من يقول.

---

(١) في الأصل: أمران.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٧].

الواو في قوله: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ قال بعض العلماء[1]: راجعة إلى اليهود؛ لأنهم أقرب من ذُكر في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ فإن كذبوك وقالوا: لم تُحرم علينا هذه الأشياء جزاءً ببغينا، بل ما كان حراماً علينا إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾.

الوجه الثاني: أنه راجع إلى كفار مكة الذين أُرسل إليهم النبي ﷺ، وبين لهم أن شركهم بالله باطل، وأن تشريعهم الحلال والحرام بالكذب باطل. فإن كذبوك وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، والبَحِيْرَة حق، والسائبة حق، وما جرى مجرى ذلك، فقل: ربكم ذو رحمة واسعة.

وقال بعض العلماء: يرجع إلى الجميع، فإن كذبك الكفرة المعادون المعاندون من مشركين ويهود فقل لهم: ربكم الذي أنشأكم وأوجدكم ذو رحمة واسعة، إلا أن هذه الرحمة الواسعة ذكر الله في سورة الأعراف أنها مخصوصة بالمتقين حيث قال: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] لا لكل كافر وفاجر.

وقد قدمنا في تفسير (البسملة) و (الفاتحة) أن (الرحمة) صفة من صفات الله، اشتق لنفسه منها اسم (الرحمٰن) و (الرحيم)، وأن

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٠٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، الدر المصون (٥/ ٢٠٩).

(الرحمٰن) هو: ذو الرحمة الشاملة في الدنيا لجميع المخلوقين [في الدنيا، و(الرحيم): هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة] (. . .)[1].

﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤] ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦] ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: الآية ٥٤] وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [يس: الآية ٦٥] ولا شك أن لله كلاماً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوقين كلام مناسب لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

هذه صفات المعاني السبع[2] التي أقرّ بها من جحد كثيراً من الصفات.

---

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وجرت عادة الشيخ رحمه الله في مثل هذا الموضع أن يذكر عقيدة أهل السنة في باب الصفات، وأنها تنبني على ثلاثة أسس، ثم يذكر عقيدة المتكلمين في هذا الباب وتقسيمهم الصفات قسمة سُداسية، ثم يرد عليهم. وهو كلام طويل أكتفي بالإحالة عليه في أحد المواضع، وذلك عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام، وكذا محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات، وهي مطبوعة بعنوان: (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات). انظر: ص ١٣ ــ ١٦، ١٩ ــ ٢٢ من المطبوع.
تنبيه: ما بين المعقوفين زيادة تم بها استدراك بعض النقص المتعلق بالكلام على صفة (الرحمة) وقد نقلته من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (١٣٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: شرح المواقف ص ٧٥ فما بعدها، الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٣ فما بعدها، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ١٣.

كذلك الصفات التي يسمونها السَّلْبية، والصفة السَّلْبِية في اصطلاح المتكلمين: هي التي لا تدل بدلالة المطابقة علىٰ معنىٰ وجودي، وإنما تدل علىٰ سلب ما لا يليق بالله عن الله. وهي عند المتكلمين خمس صفات[1]: وهي: البقاء، والقِدَم، والغِنَى المطلق ـ الذي يسمونه: القيام بالنفس، يعنون به: الاستغناء عن المحل والمُخَصِّص ـ ، والمخالفة للخلق، والوحدانية. أما القِدَم، والبقاء: فالمتكلمون أثبتوهما لله، وقد قال بعض العلماء: إنه ورد في مثل ذلك حديث، وبعضهم ينفي صحته. والمتكلمون يقصدون بهما معنىً صحيحاً؛ لأن القِدم عندهم: هو سَلْب العدم السابق، والبقاء: هو سَلْب العدم اللاحق. زاعمين أن الله أثبتهما لنفسه في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: الآية ٣] أي: الأول الذي لا ابتداء لأوليته، والآخِر الذي لا انتهاء لآخِرِيَّتِه. قالوا: هذا معنىٰ القِدم والبقاء.

فنقول: القِدَم وَصَفَ الله به المخلوقين، قال: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: الآية ٣٩] ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: الآية ٩٥] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: الآية ٧٦] والبقاء وَصَفَ به الحادث حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: الآية ٧٧] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: الآية ٩٦] والوحدانية وَصَفَ بها نفسه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: الآية ١٦٣] ووصف بعض المخلوقين بها قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: الآية ٤] والغِنَىٰ وَصَفَ به نفسه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٨]

---

(١) انظر: شرح المواقف ص ٢٩ فما بعدها، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ١٧.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: الآية ٦] وقال في بعض المخلوقين: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: الآية ٦] ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النور: الآية ٣٢]. ولا شك أن ما وُصِفَ به الله من هذه الصفات مخالف لما وُصف به المخلوق، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق، فلا مناسبة بين الذات والذات، ولا بين الصفة والصفة، فالله حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، إلا أن صفة كل بحسبه، فصفة الله بالغة من الكمال والتنزيه ما تتعاظم أن تُشْبِه صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق تتعاظم أن تشبه ذوات المخلوقين.

وهذه الصفات الجامعة[1]: كالعلو، والكِبَر، والعِظَم، والمُلك، والجبروت، كل هذا جاء في القرآن العظيم وَصْفُ الخالق والمخلوق به، فقد وصف تعالىٰ نفسه بالعلو والكِبَر والعِظَم، قال في وصف نفسه بالعلو والعِظَم: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]. وقال في وصف نفسه بالعلو والكِبَر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ [النساء: الآية ٣٤] ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: الآية ٩]. (...)[2] فإن كذبوك، وتمردوا، وكفروا فقل لهم، رغِّبهم ورهِّبهم، واجمع لهم بين الوعد

(١) انظر الكلام على هذا النوع من الصفات في: محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات ص ٢٣ ــ ٢٥.

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، ويمكن استدراك النقص بمراجعة محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات ص١٧ ــ ١٩. مع مراجعة كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة في هذا التفسير عند الآية (١٣٣) من سورة الأنعام وغيره من المواضع.

والوعيد، فأخبرهم أن ربك واسع الرحمة لمن أطاعه، يرحمه ويدخله جنته، شديد العقاب والنكال لمن عصاه؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما جلب النفع ودفع الضر، ومن أمثال العرب: (سَوْط وتمرة)(١) ليكون الخوف والرجاء جناحين يطير بهما الإنسان إلى امتثال أمر الله. هذا الملك الجبار الذي أدعوكم إليه رحيم عظيم الرحمة الواسعة لمن أطاعه، شديد النكال والبأس لمن عصاه، فعليكم أن تخافوا بأسه ونكاله، وتطمعوا في رحمته فتطيعوه.

قال بعض العلماء: ومن معاني قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٧] حيث أمهلكم، وأغدق عليكم نعمه، وأعطاكم العافية والإمهال، وأنتم تكذبون رسله، وترتكبون مساخطه، وتتمردون عليه، فما أرحمه، وما أعظم لطفه (جل وعلا)!! إلا أنه قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ إذا أراد بطشاً بقوم مجرمين لا يُرد بأسه عنهم، ﴿بَأْسُهُ﴾ أي: عذابه ونكاله، لا يقدر أحد أن يردّه، لا بقوة ولا بشفاعة، ولا بغير ذلك، كبأس غيره من ملوك الدنيا الذي يُردّ بأسه بالقوة، ويُردّ بالشفاعة من غير إذن، فهو إذا أراد بقوم سوءاً فلا مردّ له.

وكثيراً في القرآن أن يجمع الله بين الوعد والوعيد، يجمع بين الخوف والطمع، كقوله هنا: ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ وقوله في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥] ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠]

---

(١) الذي وقفت عليه في كتب الأمثال: «تمرة وزنبور»، كما في المستقصى في الأمثال للزمخشري (٢/ ٣٢)، معجم الأمثال العربية (١/ ٢٧٠)، (٢/ ٣١١).

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: الآيتان ٢، ٣] وقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝﴾ [الرعد: الآية ٦] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن لفظ (القوم) قال بعض العلماء: إنما سُمّي قوم الرجل (قوماً) لأنه يرجع إليهم فيكونون قواماً له؛ لأنه لا يستغني الإنسان عن جماعة يستند إليهم فيساعدوه في أموره.

وقد قدمنا مراراً[1] أن القوم في الوضع العربي مُختص بالذكور، وأنه ربما دخل فيه الإناث بحكم التبع، وبينّا أن الدليل علىٰ اختصاص القوم بالذكور: قول الله في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء عن القوم يدل علىٰ المُغايرة، ونظيره قول زهير[2]:

وما أدري وسوفَ إخالُ أدري ... أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

والدليل علىٰ دخول النساء في القوم بحكم التبع: قوله في بلقيس ملكة اليمن: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝﴾ [النمل: الآية ٤٣].

وقوله: ﴿بَأْسُهُۥ﴾ أي: عذابه ونكاله.

وقوله: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ۝﴾ هو جمع تصحيح للمجرم، والمجرم: اسم فاعل الإجرام، والإجرام ارتكاب الجريمة.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من هذه السورة.

(٢) السابق.

والجريمة: الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه العذاب[(١)]. كالذين كفروا بالله، وجعلوا له الشركاء، وسَاوَوا به شركاءه، وحَرَّمُوا ما رزقهم افتراء عليه، وحرّموا وحلّلوا بالباطل، وفعلوا الفواحش، وقالوا: الله أمرنا بها. هؤلاء كلهم من القوم المجرمين.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

هذه الآية الكريمة من معجزات النبيّ ﷺ؛ لأنه أخبر فيها عن أمر غيب، ثم تحقق ذلك الغيب طبقاً لما ذكر، قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ ذكر أنهم سيقولونه في المستقبل، وهو أمر غيب، ثم بيّن الله أن إخباره عن ذلك الغيب وقع كما قال، بيّنه في (النحل) و(الزخرف)، حيث قال في (النحل): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ﴾ [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فتحقق ما قال: إنهم سيقولونه[(٢)].

وهذه شبهة جاء بها الكفار ـ عليهم لعائن الله ـ وتمسّك بها المعتزلة، فهذه الآية محطّ رِحَال عند المعتزلة في أن العبد يخلق عمل نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها[(٣)] ـ سبحانه وتعالىٰ عن قولهم وافترائهم ـ وكلام الزمخشري في هذه الآية في غاية الخبث والقبح؛

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٧٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

لأنه يزعم أن هذه الآية تُبَرِّىء الله وتنزهه من أن يكون شيء من الشرّ بإرادته أبداً، وأن جميع الشرّ بإرادة العباد. في كلام قبيح خبيث[(١)].

ولما أفحم القرآن الكفار في تحريم ما حرموه بالأدلة والمناظرات، حيث قال: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] وأفحمهم بالحجة في أنه لم يحرم هذا، وأفحمهم أنه ليس له شركاء، قال: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] وهو الخالق الصانع المدبر الذي لا حرام إلا ما حرمه، ولا حلال إلا ما أحلّه، ولا معبود إلا هو، لما أفحمتهم الأدلة، وألقمتهم البراهين الحجر [قالوا كلمة][(٢)] حق أرادوا بها باطلاً، قالوا للنبـيّ ﷺ: هذا الكفر والتحريم، وتحريم البحائر والسوائب، وهذه الأنعام والحرث التي قلنا: إنها حِجْر، وهذا جَعْل النصيب لغير الله، هذا الكفر، وهذا التحريم، كله بمشيئة الله؛ لأن الله لو شاء أن يمنعنا منه فهو قادر؛ لأنه قوي ونحن ضعفاء، فهو قادر جداً علىٰ أن يمنعنا، فلما كان قادراً علىٰ مَنْعِنَا ولم يمنعنا عرفنا أنه راضٍ بفعلنا؛ لأنه إن رآك تفعل شيئاً قبيحاً وهو قادر علىٰ أن يمنعك وتركك تفعله، ولم يمنعك منه، معناه: أنه راضٍ بفعلك، وأنه حسن عنده!! هذا مقصودهم ــ قبحهم الله ــ كما أنهم لما قيل لهم: تصدقوا علىٰ المساكين!! قالوا: الرزق أكثر عند الله، وهو الذي خلقه، والطعام أكثر عنده، فلو كان يحب أحداً أن يطعمه لأطعمه هو!! كما يأتي في (يس) في قوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: الآية ٤٧] فقد

---

(١) انظر: الكشاف (١/ ٤٦).

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

احتجوا بهذه الحجة الباطلة، والكلام الذي هو من جهةٍ حق أُريد به الباطل ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالوا: نعم، إنَّ شركنا كفر، وإنه مُوْدٍ للنار، وإن ما حرمنا تحريمٌ افتراءً علىٰ الله، وإنّا ندخل به النار، هذا الذي فعلنا بمشيئة الله، لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا، ولو شاء أن لم نحرم شيئاً ما حرمنا شيئاً، فلما كان قادراً على منعنا ولم يمنعنا دلّ ذلك علىٰ أنه راضٍ بفعلنا؛ ولذا قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم إشراكنا ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: ولا أشرك آباؤنا. وإنما سوّغ العطف هنا علىٰ ضمير الرفع المنفصل: الفصلُ بين العطف والمعطوف بـ(لا)، وهو مذهب الكوفيين، وهو صحيح؛ لأن القرآن جاء بمذهب الكوفيين هنا، وفي مذهب البصريين في (النحل)؛ لأن مذهب البصريين: أن ضمير الرفع المتصل لا يُعطف عليه إلا في الإتيان بضمير رفع منفصل كـ(نحن) في قوله في (النحل): ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: الآية ٣٥] والكوفيون يقولون: يكفي أي فاصل[1] و(لا) هنا فاصلة، فهي تكفي. وهو الحق؛ لأن القرآن نزل به.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] يعني هذا التحريم الذي فعلنا، والشرك الذي فعلنا، هو بمشيئته، ولو شاء لمنعنا، فلما لم يمنعنا عرفنا أنه راضٍ بفعلنا. وهذه الجُمل، قولهم منها: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام صحيح لا شك فيه، ولكنه كلام حق أُريد به باطل؛ لأنهم يزعمون أنه لما كان قادراً علىٰ منعهم ولم يمنعهم أن ذلك رضاً منه، والله يقول:

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٦)، الدر المصون (٥/ ٢١٠)، التوضيح والتكميل (٢/ ١٨٤)، النحو الوافي (٣/ ٦٣٠).

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧] فهو لا يرضىٰ بذلك الفعل، فهو أنذركم وحرمه عليكم، وإن ارتكبتموه فلا يرضىٰ بذلك الفعل بل يدخلكم به النار. وحاصل هذا: أن الكفار احتجوا بأن الله قادر على أن يمنعهم [من الوقوع فيما وقعوا فيه][1] من الشرك وتحريم ما حرموا، دلَّ ذلك علىٰ أنه راضٍ بذلك. فالله كذبهم في هذه وقال: إن عدم منعه لهم مع قدرته علىٰ ذلك لا يدل علىٰ رضاه؛ لأن الله (جل وعلا) يأمر خلقه جميعاً بالدعوة، ويوفّق من شاء، ويخذل من شاء، فالذي وفّقه للخير يرضىٰ بفعله، والذي لم يوفقه للخير لم يرض الله (جل وعلا) بالكفر، والإرادة الكونية القدرية لا تستلزم الرضا[2]، فالله (جل وعلا) قد أراد كوناً وقدراً كفر الكافرين؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] وهذا الكفر بمشيئته ولكنه ليس برضاه، والإرادة الكونية القدرية لا تستلزم الرضا، وإنما يستلزم الرضا: الإرادة الشرعية الدينية، فما أحبه الله شرعاً، ورضيه ديناً، وأراده ديناً هذا هو الذي يلازم الرضا. أما الإرادة الكونية القدرية فإنها لا تستلزم الرضا، فقد يريد الله كوناً وقدراً ما يرضاه، كإيمان المؤمنين، وقد يريد كوناً وقدراً ما لا يرضاه ككفر الكافرين، وقد بينّا احتجاج المعتزلة بهذا، وذكرنا بعض المناظرات التي توضح هذا[3]. والحاصل أن الله تبارك وتعالىٰ

(١) في هذا الموضع وُجد مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٤٧٥)، شرح الطحاوية ص ٣٢٤.

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

خلق خلقه، وسبق في سابق أزله أن قوماً صائرون إلىٰ الجنة، وقوماً صائرون إلىٰ النار، ثم إن الله صرف بقدرته وإرادته قُدرهم وإراداتهم إلىٰ ما سبق به العلم الأزلي، فأتوه طائعين: **«اعملوا فكل ميسر لما خُلق له»**[١].

وقد بينا أن عبد الجبار المعتزلي لما جاء يتقرب بهذا المذهب ويقول: «سبحان من تنزه عن الفحشاء». يعني: أن الله لا يشاء السرقة والزنا؛ لأنهم يزعمون ــ في زعمهم الباطل ــ أن الله أكرم، وأنزه، وأجل من أن تكون هذه القبائح بمشيئته؛ ولذا قال معبراً عن هذا: «سبحان من تنزه عن الفحشاء».

فناظره أبو إسحاق الإسفراييني فقال: «سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء».

فقال عبد الجبار: «أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه»؟

فقال أبو إسحاق: «أتراك تفعله جبراً عليه، أأنت الرب وهو العبد»؟

فقال عبد الجبار: «أرأيت إن دعاني إلىٰ الهدىٰ، وقضىٰ علي بالردىٰ، دعاني إلىٰ الخير، وأوضح لي طريق الخير، ولكن سدّ بابه دوني، أتراه أحسن إلي أم أساء»؟!

قال: «إن كان الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان مُلكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل». فَبُهِتَ عبد الجبار، وقال الحاضرون: «والله ما لهذا جواب»[٢].

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

وهذه المسألة بعينها هي التي ذكرنا أن البدوي الجاهل أسكت بها كبير المعتزلة عَمرو بن عبيد المشهور، الذي رثاه أبو جعفر المنصور؛ لأنه لما سُرقت له دابة كان يعمل عليها، فجاء لعمرو بن عبيد فقال: ادع الله أن يردّها لي. قالوا: إنه قام يتقرب بهذا المذهب فقال: اللهم إنها سُرقت، ولم تُرد سرقتها؛ لأنك أكرم، وأجل، وأنزه من أن تريد هذه الخسيسة القبيحة!! فالبدوي الجاهل قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يريد ردّها ولا تُرد[1]!! فهم حاولوا أن ينزهوا الله عن أن تكون القبائح بمشيئته فَقَدَحُوا في قدرته وإرادته، وجعلوا الخلق يفعلون شيئاً بلا قدرة الله ولا إرادته، أرادوا أن يُنزهوه فَقَدَحُوا في ربوبيته ــ والعياذ بالله ــ فمن كان منهم حسن الظن فقد وقع في أمر عظيم، ومن كان سيء الظن فهو سيء الظن، والإنسان قد يُحسن الظن ويريد البرّ ويقع في آثام عظيمة كبيرة، وقد قال الشافعي رحمه الله[2]:

رَامَ نفعاً فَضَرَّ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ وَمِنَ البِرِّ ما يكُونُ عُقُوقاً

والحاصل أن الله (تبارك وتعالىٰ) أعلم بخلقه، فخلق خلقه، وقدّر مقادير الكائنات قبل أن يخلقها، ثم إنه خلق قوماً جبلهم علىٰ القبح، والخساسة، والخبث ــ عياذاً بالله ــ وخلق قوماً جبلهم علىٰ الطهارة، ويسر كُلًّا لما خلقه له، فصرف الطيبين ــ صرف قدرتهم وإرادتهم ــ بقدرته وإرادته إلىٰ ما شاء من خير، فأتوه طائعين، فأدخلهم جنته، وصرف قدرة قوم آخرين وإرادتهم بمشيئته وقدرته

(١) السابق.

(٢) ديوان الشافعي ص ٦٧.

إلىٰ ما سبق به علمه فأتوه طائعين فدخلوا النار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]. فالله (جل وعلا) يصرف قُدر الخلق وإراداتهم حتى يأتوا ما سبق به العلم الأزلي، يأتوه طائعين؛ ولذا قال ﷺ: «كلٌ ميسر لما خُلق له»(١).

ولا شك أن الجاهل يقول هنا: ما الحكمة عند الله وهو الرؤوف الرحيم الكريم أن يخلق قوماً ويجبلهم علىٰ الخبث، ويصرف إراداتهم إلى ما يستوجبون به العذاب الأليم مع أنه الرحمٰن الرحيم؟؟.

هذا سؤال إلحادي قد يقع في قلوب كثير من الملاحدة.

والجواب عن هذا: أن خالق السماوات والأرض، الجبار (جل وعلا)، غني عن جميع الخلائق، غني بذاته الغنىٰ المطلق ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: الآية ٨] وإنما خلق الخلق ليُظهر فيهم بعض أسرار عظمته، وأسرار أسمائه وصفاته، فلو لم يخلق إلا المطيعين، ولم يكن ــ أبداً ــ إلا الثواب كان ذلك إدلالاً عليه، وسبباً للجراءة علىٰ الجناب الكريم؛ لأن الذي لا يخاف يدل بمحبته، وقد يقع في الجناب الأعظم بما لا يليق، ولما خلق قوماً أشقياء ظهر فيهم ما عنده من الإنصاف والحكمة البالغة، وظهر فيهم بعض أسرار أسمائه كالجبار، والقهار، وظهر فيهم عظمته، وقوته، وشدة عقابه ونكاله؛ ليحصل الخوف من جانب، وخلق قوماً آخرين ووفقهم إلى الخير؛ ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته، من الرأفة، والرحمة، والحلم، والكرم، والجود؛ ليجمع بين المحبة

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

والخوف، فلو كانت محبة لا خوف فيها لكان لا عظمة في القلوب، ولوقع الناس في الجناب الإلٰهي؛ لأنهم لا يخافون من شيء. ولو كان خوفاً محضاً لا محبة معه ولا رحمة لكان الكل يمقتون الله ويكرهونه، وكان ذلك غير لائق، فاقتضت الحكمة أن يقسم الخلق إلى صنفين؛ ليظهر في هؤلاء بعض أسرار أسمائه وصفاته، من الرأفة، والرحمة، والكرم، والجود، وجبل قوماً آخرين علىٰ خلاف ذلك؛ ليُظهر فيهم بعض أسرار صفاته وأسمائه من القوة، والبطش، والقهر، والعظمة، والجلال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وله الحكمة البالغة في ذلك، وقد خلق خلقاً وقال: هؤلاء للنار ولا أُبالي، وخلق قوماً وقال: هؤلاء للجنة ولا أُبالي.

يقول الله جل وعلا: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨ ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

قد ذكرنا بالأمس أن الكفار ـ قبحهم الله ـ لما أفحمتهم براهين القرآن وحججه في إشراكهم بالله، وتحريمهم ما أحل الله، وأفحمتهم براهين القرآن التجؤوا إلىٰ شبهة كافرة ضالة ملحدة، وقالوا: هذا الإشراك الذي تنهانا عنه يا نبي الله ﷺ، وهذا التحريم الذي نحرمه، كالبحيرة والسائبة، الذي تنهانا عنه، وتُقيم الحجج أنه حرام، نحن ما فعلناه إلا بمشيئة ربنا، فهو قادر علىٰ أن يمنعنا منه، لو شاء لمنعنا. ولمّا تركنا عليه وهو قادر علىٰ منعنا عرفنا أنه راضٍ عنا، وأن هذا الذي نفعل يرضيه؛ إذ لو كان لا يرضيه لمنعنا منه؛ لأنه قادر علىٰ منعنا منه، إما منع قهر، وإما منع لطف وتوفيق،

فيلطف بنا ويوفقنا!! فصارت هذه المقالة شبهة فيها كلام حق أُريد به باطل. فقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام حق لا شك فيه؛ لأنه لا يقع في الكون خير ولا شر، ولا تحريكة ولا تَسْكينة إلا بمشيئة الله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] فقول الذين أشركوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام صدق وحق لا شك فيه.

فلطالب العلم أن يقول: ما دام كلامهم حقاً، وهم صادقون في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ــ أي: ولا أشرك آباؤنا ــ ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ أي: نحن ولا آباؤنا شيئاً لم يحرمه الله، كالبحيرة والسائبة. وهذا الكلام الذي ذكر هنا أن الكفار سيقولونه في المستقبل صرح بأنهم قالوه في (النحل) و (الزخرف)، هو بالنظر إلى ذاته كلام حق لا شك فيه؛ لأن الله لو شاء ألا يشركوا ما أشركوا، ولو شاء ألا يحرموا شيئاً ما حرموا شيئاً.

ولطالب العلم أن يقول: إذا كان كلامهم هذا حقاً ــ فَلِمَ قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي بعض القراءات ــ وقد تمسك بها المعتزلة لمذهبهم ــ قال: (كذلك كَذَبَ الذين من قبلهم) بالتخفيف(١). فما وجه هذا التكذيب؟؟ وما قالوا إلا حقاً.

الجواب: أنها كلمة حق أُريد بها باطل؛ لأنهم قالوا ذلك يستدلون به على أن الله راضٍ عنهم بفعلهم هذا، وهذه المقالة الكاذبة الكافرة هي التي أرادوها بكلامهم، فصار التكذيب مُنْصَبّاً عليها.

---

(١) وهي قراءة شاذة. انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٤٧)، الدر المصون (٥/ ٢١١).

المعنىٰ عندهم: لو شاء الله أن لا نشرك ما أشركنا، فلما تَرَكَ بيننا وبين الشرك دلّ على رضاه به عنّا!! فادعاؤهم أن ذلك دال علىٰ الرضا هو محل الكذب، وهو الباطل الذي أرادوه بهذا الحق، وهو الذي ينصبّ عليه التكذيب؛ ولذا قال لما قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ قدمنا أن هذه من المعجزات؛ لأنه أخبر عن غيب أنه سيقع قبل أن يقع جازماً بذلك ثم وقع كما قال، فتبين أنه لو لم يكن عالماً أنه وحي من الله لما تجرأ أن يقول: إنه سيقع، خوفاً من أن لا يقع فيقولون: كذاب، فلما أخبر بأنه سيقع جازماً بذلك غير مُحجم، ووقع فعلاً دل ذلك علىٰ أنه نبـي صحيح، وأن الله أوحىٰ إليه أن هذا الأمر سيكون فكان، وبين أنه كان بالفعل في سورة النحل في قوله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فبيّن أن ذلك الذي ذكر أنه سيقع أنه وقع بالفعل. وحاصل الآيات أن الكفار استدلوا بأن كفرهم واقع بمشيئة الله علىٰ أنه راضٍ به منهم(١)، وهذا الاستدلال باطل، وكونه واقعاً بمشيئته حق، وكون ذلك يدل علىٰ رضاه به هو محل الكفر. فالله لا يرضىٰ الكفر، كما قال: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزمر: الآية ٧]، والله قد يريد بإرادته الكونية القدرية ما لا يرضىٰ؛ لأنه لا يرضيه إلا العمل الصالح، مع أنه خلق الخلق أزلاً، وقدّر عليهم أعمالهم التي هم سيعملونها ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٦٣] ثم يسّر كُلًّا لما خلقه له، فَصَرَفَت قُدرَتُه وإرادتُه أَهلَ الجنة ـ صَرَفَت قُدرَهُم وإراداتهم ـ إلى فعل

(١) مضى قريباً.

الخير، طبقاً لما سبق به العلم الأزلي، وصَرَفَت إرادات وقُدر غيرهم إلىٰ ما سبق به العلم الأزلي، فوجّهت قدرةُ الله وإرادتُه كلَّ مخلوق لما سبق له به العلم الأزلي، فأتاه طائعاً ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠].

[٢٠/ب] / ومن هنا يظهر سقوط استدلال المعتزلة بهذه الآية(١)؛ لأن هذه الآية عندهم هي محل خصب عظيم لدعواهم أن الإشراك ليس بمشيئة الله؛ لأنهم زعموا أن الكفار لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ كذَّبهم الله في أن الشرك بمشيئته وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ولم يتفطنوا؛ لأن المنفي في الحقيقة هو استلزام تلك المشيئة بالرضا. هذا هو المنفي حقاً. وقد قدمنا حلّ هذه الشبهة مراراً، فالمعتزلة ـ قبحهم الله ـ أرادوا أن ينزهوا الله عن شيء فقدحوا في ربوبيته (جل وعلا)، فوقعوا في أعظم مما فروا منه، أرادوا أن يجعلوا القبائح كالشرك، والردة، والزنى، والسرقة أنها ليست بمشيئة الله، وأنها بمشيئة العبد، يزعمون أنهم ينزهون الله عن غير اللائق، فقدحوا في ربوبية الله، وجعلوا خلقه وكونه يقع فيه شيء من غير مشيئته، فوقعوا في أعظم مما فرّوا منه بأضعاف.

والتحقيق الذي لا شك فيه: أنه لا يمكن أن يقع في العالم تحريكة ولا تسكينة، ولا خير ولا شر، إلا بمشيئة الله (جل وعلا). وادعاء المعتزلة أن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها لا يخفى أنه قدح في ربوبية الله، إذ لا شيء أعظم من أن يكون خالق الكون يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته. هذا أعظم الكفر والقدح بالله

---

(١) مضى قريباً عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

ـ عياذاً بالله ـ ففروا من شيء فوقعوا في أعظم مما فروا منه، والله (جل وعلا) يقدر الأشياء ويخلقها، وتضاف لمكتسبيها. فالسرقة والزنى لا تكون إلا بمشيئة الله، وكل شر لا يكون إلا بمشيئة الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: الآيتان ١، ٢] لأن كل ذلك الشر إنما خلقه الله، فالله (جل وعلا) خالق، والعبد كاسب وفاعل، فلا تضاف السرقة إلى الله، فلا يجوز أن تقول في حقه: سارق ـ سبحانه جل وعلا عن ذلك علواً كبيراً ـ وإنما السارق من أوجد الله منه الفعل وقَدَّره عليه، فالله (جل وعلا) يوجه إرادات المخلوقين وقدرتهم إلى ما سبق به علمه الأزلي مما هم صائرون إليه، فيتوجهون إليه بمشيئة الله طائعين فيعملونه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] وهذه المسألة قد سأل عنها الصحابة النبي ﷺ كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما ـ أنهم سألوه: هذا العمل الذي نعمل أنعمله لأمر مُؤْتَنَف، ونُحْدِث به سعادة لم تكن سابقة، أو شقاوة لم تكن سابقة؟ فأخبرهم بأن الأمر ليس بأُنف، وأنه مفروغ منه، وأن القلم جرى بما هو كائن، وأن السعيد من كُتب عند الله سعيداً، والشقي من كُتب شقياً. فسألوه لِمَ لا يتكلون على الكتاب الذي كتبه الله، ويتركون الأعمال، فمن كُتبت له الجنة فهو داخلها، ومن كُتبت له النار فهو داخلها؟ فبين لهم ﷺ أن كلاً ميسر لما خُلق له، فالذين سبقت لهم السعادة يستعملهم الله بقدرته وإرادته في فعل الخيرات، ويوجه قدرتهم ومشيئتهم إلى الخير بقدرته وإرادته، والعكس بالعكس[1] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

وقد بينا مرارا[١] القصص والمناظرات التي تدل على إفحام المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الأعمال السيئة بمشيئة العبد لا بمشيئة الله. وهذا تلزم عليه محاذير عظيمة: أحدها: القدح في علم الله؛ لأن الله (جل وعلا) عالم بما سيفعله خلقه، وما هم عاملون إلى يوم القيامة، مقدر ذلك في أزله، فلو فرضنا ــ والعياذ بالله ــ قول مجوس هذه الأمة ــ المعتزلة ــ أن العبد يستقل بعمل فعله، فلو كان سبق علم الله أن هذا العبد لا يزني يوم كذا وكذا، وأراد العبد بمشيئته أن يخترع ذلك الزنى، فإذا فعله بدون مشيئة الله فقد انقلب علم الله جهلاً ــ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ــ بل هو المحيط علمه بكل شيء، المقدر كل شيء في الأزل، الذي يقضي الأمور في أوقاتها التي قدرها لها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: الآيتان ٤٩، ٥٠]. فالمُجْبِرَة ضُلاَّل حيث ينفون عن العبد أن له فعلاً، والقدرية ضُلاَّل حيث ينفون أن هذا بمشيئة الله. ومذهب أهل السنة والجماعة خارج من بين المذهبين خروج اللبن من بين الدم والفرث لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، فهو لا كما تقوله الجبرية، ولا كما تقوله المعتزلة، فكل شيء بمشيئة الله، والله يصرف مشيئات الخلق إلى ما سبق به علمه الأزلي، فيأتونه طائعين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] والمعتزلة يقولون: إن الله يجب عليه أن يفعل الأصلح. وإذا فعل للعبد غير الأصلح فقد أخل بالواجب عليه؛ ولذا عندهم لا يفعل للعبد إلا الأصلح، وسبب ترك أبي الحسن الأشعري لمذهبهم؛ لأنه كان على مذهب المعتزلة زمناً طويلاً، وألّف فيه مئات الكراريس، ينصر مذهب المعتزلة،

---

(١) السابق.

وكان شيخه الجبائي كبيرَ المعتزلة؛ لأنه كان زوج أمه، والأشعري ربيب الجبائي، وكان يوماً معه يقرر أن الله يجب عليه فعل الأصلح، فقال الأشعري للجبائي: إذا كان يجب عليه فعل الأصلح فَلِمَ قَتَلَ الغلام صغيراً؟ ولِمَ لا تركه يكبر حتى يعمل كثيراً من عمل الخير فينال الدرجات العالية في الجنة؟

فقال له الجبائي: يقول له الله: قد سبق في علمي أني لو تركتك تكبر كنت كافراً فمت على الكفر، فكان الأصلح لك أن قتلتك صغيراً.

فقال له الأشعري: إذاً يحتج عليه الكافر الكبير الذي مات، ويقول له: يا رب لمّا سبق علمك أن البعيد سيموت كافراً لِمَ لا تفعل له الأصلح فتقتله صغيراً قبل أن يكتب عليه، كما فعلت الأصلح لذلك الصغير؟ فانقطع الجبائي، وقال للأشعري: أبك جنون؟ قال: لا، ولكن وقف حمار الشيخ في العَقَبَة. ثم ترك مذهب المعتزلة، ورجع إلى مذهب أهل السنة[1]. وهذا من مذاهب المعتزلة الباطلة.

وقد قدمنا مراراً، وكررنا بعض المناظرات الدالة على إدحاض مذهبهم، كمناظرات الإسفراييني لعبد الجبار، كررناها مراراً[2]؛ لأن العاقل إن نظر فيها يعلم أن أبا إسحاق الإسفراييني اهتدى إلى مذهب أهل الحق فأفحم به مذهب أهل الباطل على لسان عبد الجبار من كبار المعتزلة المشهورين، جاء يتقرب بهذا المذهب كما يقوله الزمخشري هنا: إن الله قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ يعني: أن شركهم بمشيئته. وأنه كذبهم في هذا وقال:

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٩).

(٢) مضى قريباً.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقـال ــ ولا سيمـا القـراءة الأخرى[(١)] ــ : (كذلك كَذَب الذين من قبلهم) فجعل أن من قال: إن الشرك بمشيئة الله أنه كاذب عند الله، وأن الله نص على كذبه!! وهذا تحريف في آيات الله، وقَدْح في ربوبية خالق السماوات والأرض، سبحانه أن يقع في ملكه شيء دون مشيئته (جل وعلا)؛ لأن من يقع في ملكه شيء بغير مشيئته صار ليس برب، ناقص القدرة الكاملة، والله يتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فلما جاء عبد الجبار يتقرب بهذا المذهب في مجلس الإسفراييني، أبي إسحاق، الشافعي المعروف، فقال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء. يعني أن السرقة، والزنى، والشرك ليست بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل. ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني أنا عليه؟!

فقال له أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟! أأنت الرب وهو العبد؟!

فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى علي بالردى. بيَّن لي الخير، ودعاني إليه، وسد الباب دوني، أتراه أحسن إلي أم أساء؟!

قال: أرى أن الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان مُلكه المحض، فإن منعك فعدل، وإن منحك ففضل. فبُهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.

---

(١) مضى قريباً.

وذكرنا مراراً أن رئيسهم الكبير عمرو بن عبيد ـ الذي يطريه الزمخشري غاية الإطراء، والذي رثاه أبو جعفر المنصور؛ لأنه توفي في خلافته، وهو من رؤساء وكبراء المعتزلة المشهورين ـ أفحمه بدوي جاهل، لا يعرف شيئاً؛ لأن الكبير العالم من أهل الإلحاد والضلال قد يفحمه العامي من أهل الحق؛ لظهور دلالة الحق؛ ذلك لأنه لما سُرقت دابته، وجاءه يسأل منه الدعاء أن يردها الله عليه، وأراد التقرب بهذا المذهب، وقال: اللّٰه إنها سُرقت ولم تُرد سرقتها، ولم تكن سرقتها بمشيئتك؛ لأنك أنزه، وأعظم، وأكرم، وأجل من أن تكون هذه الخسيسة بمشيئتك. ففهم البدوي الجاهل، وقال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت قد سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يُريد ردها ولا تُرد! فإن كان أول الأمر ليس بمشيئته فَلَسْتُ بواثق منه في آخر الأمر؛ لأن الرب لا بد أن يكون كل شيء بمشيئته أولاً وآخراً. فأفحمه وألقمه الحجر[1].

والحاصل أن هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام أخبر الله فيها أن الكفار سيقولون: إن كفرهم وتحريمهم للحلال بمشيئة الله، وأن وقوعه بمشيئة الله دليل على رضاه به! فكذبهم القرآن، والتكذيب منصب على أن كون ذلك بمشيئته لا يدل على رضاه، فلا يقع شيء إلا بمشيئته، ولا يرضيه إلا ما كان طاعة له، كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧] لأنه صرف قُدر الخلق وإراداتهم إلى ما سبق به العلم الأزلي، فأتوه طائعين، فما كان إيماناً وطاعة فهو مرضي عند الله، وما كان كفراً وعصياناً فهو غير مرضي عند الله، وإن

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

كان كل شيء من خير أو شر بإرادته الكونية القدرية، فالله (جل وعلا) يعم جميع الخلق بدعوتهم إلى الدين، ثم يخصص من شاء للتوفيق، فالدعوة إلى الخير عامة، والتوفيق خاص، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: الآية ٢٥]. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: ولا أشرك آباؤنا من قبلنا. والذي سوّغ العطف هنا على الفاعل الذي هو ضمير الرفع المتصل: الفصلُ بلفظة (لا) وكل فاصل مسوِّغ، وهو مذهب الكوفيين، وهو الصواب، خلافاً لمذهب البصريين القائلين: لا بد من ضمير منفصل مُسَوِّغ للعطف، كما في آية النحل[1]. وهذا معنى قوله: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: ولا أشرك آباؤنا من قبلنا، ولا حرمنا من شيء. أي: لا من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام، ولا من أنعام، ولا من حرث، إلى غير ذلك.

وقوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أصله مفعول (حرّمنا) وقد تقرر في علم الأصول أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة (مِنْ) نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم[2]. وذكره الشيخ سيبويه في كتابه.

والنكرة في سياق النفي قد تُزاد قبلها لفظة (مِنْ) فتنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم ويكون ذلك قياساً مطرداً في ثلاثة مواضع لا رابع لها[3]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٣) السابق.

أحدها: أن تُزاد لفظة (مِنْ) قبل النكرة التي هي فاعل، كقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: الآية ٤٦] الأصل: ما أتاهم نذير.

أو أن تكون قبل المفعول، كقوله هنا: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] الأصل: «ما حرمنا شيئاً». ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] أي: ما أرسلنا قبلك رسولاً.

الثالث: أن تُزاد قبل المبتدأ، نحو: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: الآية ٧٣] الأصل: وما إله إلا إله واحد. فزيدت قبلها (مِنْ) لتنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم.

قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ الشيء يطلق في اصطلاح الشرع على كل موجود حتى الله (جل وعلا) قد يطلق عليه اسم الشيء[1]، كما قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: الآية ٨٨] وقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] والمعتزلة يزعمون أن الشيء يطلق على المعدوم، ومناقشاتهم في هذا لأهل السنة معروفة[2]. والدليل على أن المعدوم ليس بشيء، ولا يطلق عليه اسم الشيء: آيات قرآنية كثيرة، كقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: الآية ٩] فنفى عن العدم أن يكون شيئاً، وكقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: الآية ٦٧] فنفى

(١) قال الإمام البخاري في صحيحه: «باب: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾. فسمى الله (تعالى) نفسه شيئاً، وسمى النبي ﷺ القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله. وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

عنه في حال عدمه اسم الشيء، والمعتزلة يزعمون أن الشيء يطلق على المعدوم، وبعضهم يقول: المعدوم قسمان:

معدوم ممكن، كإيمان أبي لهب، فإن إيمان أبي لهب معدوم قطعاً؛ لأن الله يقول: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [المسد: الآية ٣] مع أن هذا المعدوم يمكن عقلاً؛ لأن إيمانه يجوز عقلاً، إذ لو كان مستحيلاً عقلاً لكان تكليفه بالإيمان تكليفاً بالمحال، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

الثاني: أن يكون الشيء المعدوم مستحيلاً عقلاً، كشريك الله ـ جل وعلا سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ـ .

وبعضهم يقول: إن الشيء يطلق على المعدوم مطلقاً.

وبعضهم [يقول][1]: يُطلق على المعدوم الممكن دون المعدوم المستحيل. واستدلوا بأدلة لا تنهض، منها: قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن ﴾ [يس: الآية ٨٢] قالوا: فسماه (شيئاً) قبل أن يقول له: (كن). وهو إذ ذاك معدوم. فدل على تسمية المعدوم (شيئاً). وهذا يناقضه قوله: ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾ [مريم: الآية ٩] وإنما أطلق عليه اسم الشيء نظراً إلى عادة العرب أنهم ينزلون الواقع المتحقق وقوعه كالواقع بالفعل، كما قال: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: الآية ١] ذكر أنه أتى فعلاً وهو لم يأت بالفعل؛ لأن تحقق وقوعه كوقوعه بالفعل. وهذا كثير في القرآن ـ فقد ذكر الله منه في سورة الزمر ـ جداً: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ معناه: سيكون ذلك يوم القيامة ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ [الزمر: الآيات ٦٩ ـ ٧٣] كل هذه الأفعال الماضية إنما هي بمعنى المستقبلات التي ستقع يوم القيامة؛ لأن تَحَقُّقَ وقوعها نزّلها منزلة الواقع فعلاً، كما هو معروف في فن المعاني(١). وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾.

ثم قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذب هؤلاء الكفرة الفجرة رسولي محمداً ﷺ في أن الله واحد لا شريك له، وأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، كما كذبوه وادّعوا أن وقوع ذلك بمشيئة الله دليل على رضاه، كما كذبوه بهذه الشُّبَه الكافرة الملحدة ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الرسل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب، ولم يزالوا مكذبين ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] أي: ذاقوا أليم عقابنا وشديد نكالنا، وقد يكون ذلك بهم في الدنيا كما وقع لقوم نوح حيث استأصلهم الطوفان بالغرق، ووقع لقوم هود حين أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. قال الله فيهم: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي: قتلىٰ أمواتاً ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: الآيتان ٧، ٨] وكما فعلنا بقوم صالح حيث أُرسلت عليهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وكما أحرق قوم شعيب بالظلة، وكما رفع الأرض بقوم لوط وجعل عاليها سافلها، وكما أغرق فرعون وقومه في البحر. هذا من نكال العذاب الدنيوي، ويتلوه العذاب

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن ص ٢٩٥، الصاحبي ص ٣٦٤، فقه اللغة للثعالبي ص ٣٠١، البرهان للزركشي (٣/ ٣٧٢)، المزهر (١/ ٣٣٥)، قواعد التفسير (١/ ٢٩٢).

الأخروي ــ والعياذ بالله ــ كما قال تعالى في التنكيل بالمشركين يوم بدر مع اتصال العذاب الأخروي على ما ذكره بعض أهل العلم: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: الآية ٢١].

ومعنى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ لم يزالوا مصرين على تكذيب الرسل معاندين ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: ذاقوا طعم ألم العذاب والنكال الكائن مما في الدنيا، المتصل بعذاب الآخرة ــ والعياذ بالله ــ قل لهم يا نبي الله: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ دعواكم أن كل ما وقع بمشيئة الله هو راضٍ به حسن عنده؟ هل عندكم من علم بهذا أن الكفر الواقع بمشيئته أنه لما كان بمشيئته كان برضاه، وكان حسناً عنده؟ هل عندكم على هذه الدعوى الفاجرة من علم فتخرجوه لنا؟ أي: تبرزوه لنا. الفعل هنا منصوب، وأصله: (تخرجونه) إلا أن المقرر في علم النحو أن فاء السببية إذا [جاءت] بعد طلب أو نفي محضين [فإن الفعل بعدها] ينصب بـ (أن) مضمرة(١). والطلب هنا محض؛ لأنه استفهام ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨]، ولو كان استفهام التقريع يقتضي النفي، فالنفي أيضاً محض، فعلى كل حال فهو منصوب، كقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف: الآية ٥٣].

هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى خَمْرٍ فأَشْرَبَهَا ... أم هل سبيلٌ إلى نَصْرِ بن حَجَّاجِ(٢)

وما جرى مجرى ذلك.

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٢٩٦). مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة. تنبيه: العبارة في الأصل هكذا: «أن فاء السببية إذا جاء بعد طلب أو نفي محضين فإنه ينصب».

(٢) البيت لفريعة بنت همّام، وهو في اللسان (مادة: مني) (٣/ ٥٣٩).

وقوله: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أصله مبتدأ جاءت قبله (مِنْ) والأصل: (هل عندكم علم). فالعلم: مبتدأ استند على الظرف قبله، وهو خبره[١]. ويجب تقديم المبتدأ هنا؛ لأن الذي سوَّغ الابتداء به: النكرة التي كانت خبراً[٢]، إلا أنَّا ذكرنا ـ الآن ـ أن زيادة لفظة (مِنْ) قبل النكرة في سياق النفي ـ الذي ينقلها من الظهور في العموم ـ إلى التنصيص الصريح في العموم مطرد في ثلاثة مواضع[٣]: تُزاد قبل الفاعل، وتزاد قبل المفعول، وقبل المبتدأ، كما هنا. والأصل: هل عندكم علم فتخرجوه لنا؟ ولو قال: (هل عندكم علم) لأن الاستفهام هنا استفهام إنكار مشتمل على معنى النفي.

﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: فتبرزوه لنا وتظهروه لنا. وهذا ـ مَثَلاً ـ إعجاز؛ لأن الله يعلم أنهم ليس عندهم علم، وإنما قالوه تخرصاً وكذباً.

ثم قال: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ والمعنى: لا علم عندكم البتة.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ما تتبعون في هذه الأمور إلا الظن. وأصل الظن في الاصطلاح: جُل الاعتقاد. والعرب تطلقه على الشك[٤]. وجدتُم آباءكم يقولون شيئاً فاعتقدتموه، باطلاً وتقليداً أعمى، من غير دليل.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٢١١).

(٢) قوله: «ويجب تقديم المبتدأ ـ إلى قوله ـ : التي كانت خبراً» هذه الجملة فيها اضطراب في المعنى والصواب أن يُقال: «يجب تأخير المبتدأ هنا؛ لأن الذي سوَّغ الابتداء به ـ وهو نكرة ـ تقدم الخبر وهو شبه جملة».

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ معناه: وما أنتم إلا تكذبون.

الخرص هنا معناه: الكذب، ومنه: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٠] لُعن الكذابون، وأصل اشتقاقه من الخرص الذي هو الحزر؛ لأن الكذاب لا يتحرى حتى يتحقق، وإنما يقول حزراً وتخمينا، ومن هنا أُطلق الكذب على الخرص[1]. وقوله: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ معناه: وما أنتم إلا تكذبون، كَذَبَة فَجَرَة حيث زعمتم أن شرككم وإن كان واقعاً بمشيئة الله أن الله راضٍ به، وأنه حسنٌ عنده، كلا، لا دليل، ولا علم بذلك، وإنما هو افتراء، وكذب، وتخرص على الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: والظنّ لا يغني من الحق شيئاً، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: الآية ٣٦] وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[2]، وهذا في الظن فيما يُطلب فيه اليقين، كعبادة الله (جل وعلا) وحده، فإن هذه أمور يقينية لا تختلجها ظنون.

وتمسك ابن حزم بظاهر هذه الآيات أن كل اجتهاد باطل، وأن كل اجتهاد ظن، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً[3]. فهذا ليس على بابه؛ لأن الأمور العملية إنما يُعمل فيها بالظنون، وقد يكون الظاهر قطعياً لا شك فيه وباطن الأمر مظنون لا ندري أحق هو أم كذب؟ وقد دلَّ القرآن في بعض المواضع أن الظاهر يكون قطعياً لا شك فيه، والباطن باطن[4] لا شك فيه. وهذا الشرع الكريم لا يأمر في نفس الواقع

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٣) انظر: المحلى (١/ ٦٨، ٧١).

(٤) يحتمل أن تكون: «باطل».

بمعرفة الواقع، فنحن جميعاً هؤلاء موجودون، كل واحد منا يُقال له فلان بن فلان، يُنسب إلى أبيه، وتكون أخوات أبيه عماته، ويرث في أبيه، ونحن لا نجزم قطعاً بأن كل واحد منا مخلوق من ماء أبيه، فقد تكون بعض النساء فاجرة، وتدخل لزوجها ولداً من غيره. وهذا الظن يُحكم له بالقطع، والله أمرنا بالبينة، قال: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: الآية ٢] فنحن نُشهد العدلين، ونقتل المسلم بشهادة عدلين، ولو سُئلنا: هل أنتم جازمون في نفس الأمر أنهما صادقان؟ لقلنا: لا والله، لا نجزم؛ لأنهما غير معصومين، ويجوز في حقهما الكذب، ولكننا نظن ظناً غالباً لعدالتهما أنهما صادقان، فإن كانا صادقين فذلك، وإن كانا كاذبين فعليهما، ونحن نبرأ من ذلك.

ومن هذا المعنى ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أم سلمة، أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ هند بنت أمية، أن النبيّ ﷺ قال: «**إنما أنا بشر، وإنكم لتختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً، فكأنما أقطع له قطعة من نار**»[1] هذا حديث ثابت في الصحيحين، بين فيه النبيّ أنه ليس على يقين أن ما يقضي به مطابق للواقع في نفس الأمر، بل هو يقضي على نحو ما يسمع من ظواهر الدعاوي والبينات، وقد يكون الأمر مخالفاً في باطن الأمر؛ ولذا قال: «**فمن قضيتُ له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً، فكأنما أقطع له قطعة من نار**».

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم، باب: إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، حديث رقم: (٢٤٥٨)، (٥/١٠٧)، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم: (١٧١٣)، (٣/١٣٣٧).

وقد بين الله في سورة النور أن هذا التشريع الذي يُراعى فيه الظاهر ــ ولو كان الظاهر باطلاً ــ أن الله إنما قَبِلَه رأفة بهذه الأمة، وتسهيلاً عليها، أوضح ذلك في آية اللعان؛ لأنه لما جاء هلال بن أُمية[١]، وعويمر العجلاني[٢]، ورمى كلّ منهما زوجته بالزنى لرجل، وقال هلال: رأت عيني وسمعت أذني، وأنزل الله آية اللعان. قام الرجل فحلف أَيْمَانَه، وخمَّس باللعنة. يقول في الأَيْمَان الأربعة: أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به من الزنى، ثم خمَّس في الخامسة باللعنة، لعنة الله عليه إن كان كاذباً فيما رماها به من الزنى. ثم قامت المرأة فحلفت أَيْمَانَها، وخمَّست بغضب. تقول: أشهد بالله إنه لكاذب عليّ فيما رماني به من الزنى. ثم قالت في الخامسة: غَضَبَ الله عليها إن كان صادقاً فيما رماها من الزنى. فلما انتهت الأَيْمَان قال لهما الشرع الكريم: أنت مُصَدَّق، وأنتِ مُصَدَّقَة. ليس عليكَ أنت قَذْفُ مُحْصَنَة، وليس عليكِ أنتِ حد الزنى. فصارت المرأة لا شيء عليها، والرجل لا شيء عليه، ونحن نتيقن يقيناً جازماً أن باطن هذه القضية خراب!! لأنه لا بد أن واحداً منهما كاذب. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «الله أعلم إن أحدكما

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين)، حديث رقم: (٤٧٤٧)، (٨/ ٤٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في اللعان، حديث رقم: (١٤٩٦)، (٢/ ١١٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، حديث رقم: (٤٧٤٥)، (٨/ ٤٤٨)، وانظر حديث رقم: (٤٧٤٦)، ومسلم في اللعان، حديث رقم: (١٤٩٢)، (٢/ ١١٢٩) من حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه)، وقد جاء نحوه عن ابن عمر وابن عباس (رضي الله عنهما).

لكاذب». ولو لم يقلها ﷺ فنحن نعرفها كل المعرفة، ونجزم كل الجزم أن الكاذب منهما في ظهره حد من حدود الله، فإن كانت كاذبة فعليها حد الزنى، وإن كان كاذباً فعليه حد القذف، هذا لا محيص منه.

وهذا الحكم السماوي الذي أنزله خالق السماوات والأرض فيه هذا الحكم لهذه الأمة، صدّق الرجل، وصَدَّق المرأة، وذهبا مُصَدَّقَين، لم يثبت على أحدهما شيء. ونحن نعلم أن واحداً منهما خائن كاذب. ومحل الشاهد: أن الله لما فَصَّل هذا في آية اللعان أتبعه بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: الآية ١٠] أي: لولا فضله عليكم، ورحمته بكم، وتوبته عليكم، وحكمته في تخفيف التشريع عليكم. وحذف جواب (لولا)، أي: لَمَا قَبِلَ منكم هذا. أو: لَفَضَح الكاذب على رؤوس الأشهاد. فهذا تسهيل، وهذا مما يدل على أنَّا في الشرائع العملية، لسنا مكلفين بمعرفة الباطن في نفس الأمر، فالباطن عند الله. فعلينا أن نعمل بما ظهر من الظنون الغالبة على الظن، وإن كنا لا نجزم بالواقع في نفس الأمر، فتبين أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: الآية ٣٦] فيما يُطلب فيه اليقين، كعبادة الله (جل وعلا) وحده، وتنزيهه عن الأولاد والشركاء، وأنه لا حرام إلا ما حرمه، ولا حلال إلا ما أحله مما يجب فيه القطع والجزم اليقيني. أما المسائل العملية فما في باطن الأمر لا نجزم به. وكذا بأنّا نعمل بأخبار الآحاد بإجماع من يُعتد به من العلماء، ولو سُئلنا عنهم: أيجوز في حقهم الكذب؟ لقلنا: نعم؛ لأنهم غير معصومين!! وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] إن احتججتم بأمور باطلة وشُبَه كاذبة، فللَّه الحجة البالغة على خلقه، وليس لأحد حجة على الله. والبالغة معناه: هي التي يبلغ بها صاحِبُهَا غَرَضَه لإفحام خصمه، وإظهارِ الحق. والعلماء يقولون: هذه الحجة البالغة هي إرسال الرسل، وإقامة المعجزات، وبيان أنه (جل وعلا) واحد لا شريك له.

وظاهر القرآن يدل على أن هذه الحجة البالغة على مذهب الجبرية هي قوله جل وعلا: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ فهذا داخل فيها دخولاً أولياً؛ لأن مُلْك التوفيق حجة بالغة على الخلق، وهذه الآية هي التي احتج بضمنها أبو إسحاق على عبد الجبار؛ لأنه كأنه قال له: مُلكه تعالى للتوفيق حجة بالغة على خلقه، فتمام الحجة البالغة أنك إذا قارنت بين سُنِّي ــ مثلاً ــ وجبري، فقال الجبري: إن كفره ــ والعياذ بالله ــ ومعاصيه كُتِبَ عليه في الأزل قبل أن يُولد، وإن الأقلام جفت، والصحف طُويت، وما كان فقد كان، ولم يبق شيء حادث إلا وقد سبق في الأزل. فيقول هذا الجبري الكافر: إن كفر البعيد قد كتبه الله عليه أزلاً، وإنه لو شاء أن يتخلص من ذلك المكتوب أزلاً لما كانت له القدرة؛ لأن علم الله الأزلي لا يتغير. فيقول البعيد: هو مقهور، وإذاً هو مجبور!! فله حجة في زعمه على ربه، فكأن ربه يقول: جميع الأسباب التي اهتدى بها المهتدون أعطيتك إياها، فالأعين التي أبصروا بها سمائي، وأرضي، وجبالي، وبحاري، وحدائقي، وحيواناتي حتى عرفوا بها قدرتي، وأني رب كل شيء، وأني المعبود وحده، أعطيتك عيوناً مثلها، والآذان التي سمعوا بها مواعظي، وآياتي، وكتبي عن الرسل أعطيتك مثلها،

والقلوب التي عقلوا بها عن الله، وعرفوا مخالفة الخالق للمخلوق، وعرفوا بها عظمة جبار السماوات والأرض، وأنه جدير بأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى أعطيتك قلباً مثل قلوبهم، فكل ما أعطيت المهتدين من أسباب الهداية أعطيتك مثل ما أعطيتهم، إلا خصوصية التوفيق، فقد تفضلت به على قوم ولم أتفضل به على آخرين، فمن تفضلت به فهو فضل مني، ومن لم أتفضل به فهو عدل مني. كما قال أبو إسحاق: «إن كان الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك، وإن كان مُلكه المحض فإن منعك فَعَدْل، وإن مَنَحَك ففضل»(١). ولذا قال هنا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ على خلقه، وهي ما أنذرهم به من الإنذار، وما أرسل لهم من الرسل، وما أعطاهم من العقول، والأسماع، والأبصار ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: الآية ٧٨]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] لأنه قطع عُذر عبده بأن أعطاه كل ما أعطى المهتدين: إلا خصوص التوفيق، فهذا الذي منعه. وبملكه للتوفيق قامت حجته البالغة؛ ولذا أَتْبَعَه بقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ فلو شاء لمنحكم التوفيق كُلًّا، ولكنه تفضل به على بعض، ولم يتفضل به على الآخرين، فمن تفضل به عليهم فهو فضل، ومن منعهم إياه فهو عدل لا ظلم فيه؛ ولذا قال: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ومفعول المشيئة محذوف، وقد ذكرنا مراراً أن فعل المشيئة إن كان معلقاً بشرط فإنه يكفي عن مفعوله جزاء الشرط(٢). والأصل: فلو شاء

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

هدايتكم أجمعين لهداكم أجمعين، ولكنه لم يشأ، كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: الآية ١٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

وهذه تقضي على مذهب المعتزلة؛ لأن الله صرح بأنه لو شاء لهداهم أجمعين، فعُرف بأن شركهم بمشيئته، وأنه لو شاء أن لا يُشركوا ما أشركوا ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧] ونحو ذلك من الآيات.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٥٠].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ﴾ قل يا نبي الله لهؤلاء الذين حرموا السائبة والبحيرة والوصيلة والحام، وقالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩]، ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٨] أي: حرام. قل للمُحَرِّمين هذه الأشياء، الزاعمين أن الله أمرهم بتحريمها، كما صرح به في (الأعراف) في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] قل لهم يا نبي الله: هذا الذي ادعيتم على الله من أنه حرم هذا وأمركم بتحريمه هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون لكم على الله أنه حَرَّم هذا.

و (هَلُمَّ) معناه: أَحْضِرُوا وقَرِّبُوا. وهذه الكلمة ـ كلمة

(هَلُمَّ) ـ فيها خلاف، هل هي مفردة، أو مركبة؟ لا يعنينا بحثه الآن. وهي فيها لغتان(١):

لغة الحجازيين التي نزل بها القرآن: أن لفظة (هَلُمَّ) اسم فعل لا فعل أمر؛ ولذا إذا خاطبوا الأنثى قالوا لها: «هَلُمَّ يا فلانة». ولم يقولوا: «هَلُمِّي» بياء المؤنثة. فيقول الحجازيون للذَّكَر الواحد: «هَلُمَّ» وللذَّكَرين: «هَلُمَّ». وللذكور: «هَلُمَّ». وللإناث: «هَلُمَّ». فهي اسم فعل. وهي لغة القرآن؛ لأن المخاطب هنا جماعة، والأصل لو مشى على لغة التميميين من النجديين لقال: «هَلُمُّوا شهداءكم».

أما لغة التميميين، وبعض القبائل النجديين: فـ (هَلُمَّ) فعل أمر لا اسم فعل؛ لأنهم يقولون للجماعة: «هَلُمُّوا» وللاثنين: «هَلُمَّا» وللأنثى: «هَلُمِّي» فإذا قالوا لها: «هَلُمِّي» دخلتها ياء المؤنثة المخاطبة، وهي من علامات الأفعال، كما قال في الخلاصة(٢):

(بِتَا فَعَلْتَ، وَأَتَتْ، وَيَا افْعَلِي) ....

فهي في لغة الحجازيين اسم فعل، وفي لغة التميميين وبعض القبائل النجديين فعل أمر. ويظهر الفرق في كونها اسم فعل، وبين كونها فعل أمر: أنها إن كانت فعل أمر اتصلت بها ضمائر المخاطبين، نحو: (هلموا) للرجال و (هَلْمُمْنَ) للنساء، و (هَلُمَّا) للاثنين، و (هَلُمِّي) للواحدة. والقرآن جاء فيها على لغة الحجازيين، أنها اسم فعل لا فعل أمر.

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٢٩)، الكليات ص ٩٥٩، القاموس (مادة الهليم) ص ١٥١١، الدر المصون (٥/ ٢١١)، معجم الإعراب والإملاء ص ٤٣٨.

(٢) الخلاصة ص ٩.

وتأتي متعدية ولازمة، فمن إتيانها متعدية قوله هنا: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٠] أي: أَحْضِرُوا شهداءكم وقَرِّبُوهم. ومن إتيانها لازمة قوله في الأحزاب: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: الآية ١٨] أي: اقربوا قريباً منا. ولم تكن هناك متعدية. والمعنى: أَحْضِرُوا شهداءكم الذين يشهدون لكم أن الله حرم هذا الذي ادعيتم أنه حرام.

ثم قال لنبيه: فإن تجرؤوا على الشهادة الكاذبة الباطلة ـ شهادة الزور على الله ـ فلا تشهد معهم؛ لأنهم كلهم كَذَبَة فَجَرَة مُتَعَاضِدُون على الكذب، يُصَدِّق بعضهم بعضاً في الكذب ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فالخطاب للنبي ﷺ، ومعلوم أن النبي لا يتبع أهواء الذين كذبوا بآيات الله. هذا أمر لا شك فيه، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: الآية ٢٤]. ومعلوم أنه لا يطيع آثماً ولا كفوراً، هذا معروف، فالله (جل وعلا) يخاطب النبي ﷺ مخاطبة السيد لعبده، ومراده بخطابه ـ في أشياء لا تقع منه ﷺ أبداً ـ ليشرع على لسانه لأمته، كما بيناه مراراً[(١)]. ومن أمثال العرب: (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)[(٢)] معناها: إياكِ أعني، والمقصود عندي هي جارتك الأخرى. وهذا مَثَل معروف، وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن أصل هذا المثل من أبيات رَجَز لرجل من بني فزارة يُسمَّى: سهل بن مالك الفزاري، نزل في بيت حارثة بن لأم الطائي المشهور فوجده غائباً،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام.

فأنزلته أخت حارثة وأكرمته، وأُعجب بجمالها، فخاطب داية[١] من داياتها لا أهمية فيها؛ لأنها من خَدَمِها، وقال لهذه التي هي من الدايات والخدم قال لها:

يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزارة
أصبح يهوى حُرَّةً مِعْطَارَة إياكِ أعني واسمعي يا جارة

ففهمت الطائية أنه يريد خِطَابها، فأجابته جوابها المعروف:

إني أقول يا فتى فزارة لا أبتغي الزوج ولا الدعارة
ولا فراق أهل هذي الحارة فارحل إلى أهلك باستحارة

ومن هنا صار بيت الرجز هذا مثلاً عند العرب (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)[٢].

[٢١/أ] والمعنى: إنك تخاطب واحداً ومقصودك / أن تُفْهِم ذلك الآخر. فالله يخاطب النبي ومقصوده إسماع أمته، والتشريع لهم. والدليل القاطع على هذا: أن النبي ﷺ مات أبواه وهو صغير؛ لأن أباه مات وهو حَمْل في بطن أمه، وأمه ماتت وهو صغير. ومعلوم أنهما وقت نزول سورة بني إسرائيل ماتا منذ سنين كثيرة والله يقول للنبيِّ ﷺ مخاطباً له ببر الوالدين: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ثم قال مخاطباً للرسول: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: الآيتان

---

(١) الداية: المرضع الأجنبية، والحاضنة، والقابلة. (المعجم الوسيط، مادة: دوى) (٣٠٦/١).

(٢) راجع ما تقدم في الحاشية قبل السابقة.

٢٣، ٢٤] كل هذا في الرسول ﷺ وأبواه قد ماتا من زمان، فدل على أن قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ أي: يبلغ عندك الكبر أحد والديك فبرهما وقل لهما قولاً كريماً، أي: المراد خطابه ليُشرع لأمته. ومن زعم من الناس أن هذا الخطاب ـ أي: قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ـ أنه يخاطب به مطلق الإنسان المُخَاطَب، وليس النبي؛ فهذا غلط محض؛ لأن كل هذه الخطابات للنبي ﷺ ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: آية ٢٨] والدليل عليه أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: آية ٣٩]، فدل أن الخطاب للمُوحَى إليه لا إلى مطلق الواحد من الناس.

وآية الإسراء هذه نص صريح في أنَّ النبيَّ ﷺ يُخاطَب بالخطاب ليس هو المراد به، بل المراد التشريع لأمته؛ لأنه ﷺ هو المشرِّع لهم بأقواله وأفعاله. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ككفار قريش، الذين كذبوا بآيات الله، لا تتبع أهواءهم في الشرك، ولا في تحريم ما أحل الله.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ظاهر العطف أنهما طائفتان، والتحقيق: أنهما طائفة واحدة[1]، إلا أن المعروف في علم العربية: أن الشيء يُعطف على نفسه بألفاظ مختلفة إذا كانت الصفات مختلفة. نزَّلوا تَغَايُر الصفات منزلة تغاير الألفاظ، فعطفوه على نفسه نظراً إلى تَغَايُر الصفات[2]؛ لأن صفة التكذيب بآياتنا، وصفة عدم الإيمان بالآخرة متغايرتان. فصار الموصوف كأنه متغاير لتغاير

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٨).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

الصفات. ومن أمثلة هذا في كلام العرب قول الشاعر[(١)]:

إلى السيد القَرْمِ وابن الهُمَام وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحَم

وهو واحد. ومن أمثلته الواضحة في القرآن ـ غير هذا الموضع ـ قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ ـ ٤] وهو واحد (جلّ وعلا). وإنما عطف بعضها على بعض لتغاير الصفات، وهذا هو التحقيق، أنهما طائفة واحدة، تغايرت صفاتها فعُطفت على نفسها نظراً لتغاير الصفات. كما قررنا.

والأهواء: جمع (هوى، هوًى) بفتحتين، وألفه مبدلة من (ياء) لأن أصله (هَوَيٌ) على وزن (فَعَل) والياء المتطرفة بعد ألف زائدة يجوز إبدالها همزة، كما هو معروف في فن التصريف[(٢)].

والهوى: ميل النفس. وأكثر ما يُستعمل في ميلها إلى ما لا ينبغي[(٣)]. وهو المُراد هنا. أي: لا تتبع مهوياتهم الزائغة من الإشراك بالله، وتحريم ما أحل الله، وجَعْل بعض الأرزاق التي خلقها الله جَعْلها للأصنام. لا تتبع مهوياتهم في شيء من ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فهم جامعون بين التكذيب بالقرآن والتكذيب بالبعث والآخرة ـ عياذاً بالله ـ وقد صرح (جل وعلا) بأن المكذب بالبعث أنه من أهل النار الذين يُجَرُّون بالسلاسل في أعناقهم في غير ما آية، من أصرحها آية

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة، وصدره: «إلى الملك...».

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

الرعد؛ لأن الله (جلّ وعلا) لما بين في سورة الرعد ــ في أولها ــ عظمته، وبراهين كماله، وقدرته، وأنه المعبود وحده، وأبطل فيها أدلة الطبائعيين إبطالاً كلياً لا شبهة فيه، حيث قال في السورة ــ في أولها ــ : ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٖ وَنَخِيلٖ﴾ ــ وفي القراءة الأخرى ــ: ﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾[1] ﴿صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ﴾ ــ وفي الأخرى ــ : ﴿صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾[2] ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ ــ وفي الأخرى ــ : ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾[3] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ أتبع هذا بقوله: ﴿۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ ــ في البعث ــ : ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ هذا تعجب منكري البعث من البعث الذي هو خلق جديد. ثم قال مخبراً عن هؤلاء الذين شكوا في البعث وأنكروه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [الرعد: الآيات ١ ــ ٥] والعياذ بالله. فهؤلاء جمعوا بين التكذيب بالقرآن والتكذيب بالبعث. ثم قال جل وعلا: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٥١.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

العرب تقول: «عدل به، يَعْدِل به». إذا جعل الشيء عديلاً ونظيراً له يماثله ويعادله. وهم يعدلون بالله أي: يجعلون له العديل، والنظير، والمثيل حيث قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦] فجعلوا له النظراء، والعديلين بسبب عبادتهم له مثله، وجَعْلهم له مثل ما جعلوا. والعرب تقول: «أعَدَلْتَ بفلان فلاناً»؟ إذا جَعَلْتَه عِدلاً ونظيراً له. وهو مشهور في كلام العرب، ومنه قول جرير[(١)]:

أَثَعْلَبَـةَ الفَـوَارِسَ أَمْ رِيَـاحـاً عَـدَلْـتَ بِهِـمْ طُهيَّـةَ والخِشَـابَـا

أي: جعلتهم نظراء وأمثالاً لهم وليسوا كذلك.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٥١ ـ ١٥٣].

يقـول الله جـل وعـلا: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

---

(١) البيت في ديوانه ص ٥٨، الكتاب لسيبويه (١/ ١٠٢)، (٣/ ١٨٣).

بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥١] كان بعض السلف يقولون: من سرّه أن ينظر إلى وصيّة محمد ﷺ عليها خاتمها لم يُفك فليقرأ هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[1] وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام هي المحكمات المذكورات في آل عمران ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] [آل عمران: آية ٧] لم ينسخ الله حكماً من أحكامها في شريعة من الشرائع قط بل أحكامها مثبتة في جميع التشاريع السماوية منذ خلق الله الدنيا، فهي محكمات؛ ولذا قال ابن عباس: إنها المذكورة في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كما قدمنا في آل عمران.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة الأنعام، رقم: (٣٠٧٠)، (٥/ ٢٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١١٤)، والأوسط (٢/ ٤٣)، والبيهقي في الشعب (١٤/ ٦٣ ـ ٦٤)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ١٤١٤)، وابن جرير في التفسير (١٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤) وعزاه للترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من قول ابن مسعود (رضي الله عنه)، وقد أخرج ابن جرير (١٢/ ٢٢٧)، نحوه عن الربيع بن خثيم، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤) وعزاه لعبد بن حُميد، وأبي عبيد، وابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٢٢٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً بإسناد آخر (٢/ ٣١٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». اهـ، ووافقه الذهبي، كما أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٤).

وهذه الآيات تضمنت أصول الشرائع من عقائد ومعاملات واجتماعيات. كما سيأتي إيضاحه في محله.

قل لهم يا نبيّ الله، الظاهر أنه خطاب لجميع الخلق، وإن كان الكلام السابق مع المشركين. قل لجميع البشر الذين أُرسلت إليهم: ﴿تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (تعال) التحقيق أن (تعال، وهات) فعلا أمر، وغلط فيهما جماعة من علماء العربية [فزعموا](١) أنهما اسما فعل(٢). والدليل على أن (هات) و (تعال) فعلا أمر: أنهما تلحقهما ياء المؤنثة المخاطبة، وياء المؤنثة المخاطبة من علامات الأفعال، ولا تلحق أسماء الأفعال. فالعرب تقول للأنثى: «تعالي يا فلانة» بياء المؤنثة المخاطبة. ومنه قول نابغة ذبيان(٣):

فَقُلْتُ: تَعَالَيْ نجعلِ اللَّهَ بيننا ... على ما لنا، أو تُنجزي ليَ آخِرهْ

وكذلك (هات) فالعرب تقول للذكر: (هاتِ) بلا ياء، وللأنثىٰ: (هاتي) بياء المؤنثة المخاطبة، فدلَّ أيضاً على أن (هات) كـ: (تعال) فعل أمر لا اسم فعل، خلافاً لمن زعم ذلك. ومن دخول ياء المؤنثة المخاطبة على (هات) قول امرىء القيس(٤):

إذا قلتُ هاتي نَوِّليني تَمَايَلَت ... عليَّ هضيم الكشْح ريَّا المُخَلْخَلِ

وهذه الكلمة أصلها خاص، ثم صار استعمالها عاماً؛ لأن أصل (تعال) يقولها الذي هو مرتفع إلى من هو أسفل منه، فيقول له:

---

(١) في الأصل: «فزعما».

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١/ ٢٠).

(٣) ديوان النابغة ص ١٢١ وصدره: «فقال».

(٤) ديوان امرىء القيس ص ١١٥ .

تعال. أي: ارتفع حتى تحضر عندي، هذا أصلها، إلا أن العرب توسعت فيها فصارت تطلق (تعال) على: احضر عندي. ولو كان الآمر أسفل والمأمور أعلى، فيقول الرجل في الأرض لمن على السطح: تعال عندي. وهو في الحقيقة تَسَافَلْ إليّ، إلا أن العرب صارت تطلق (تعال) بمعنى: احضر. من غير نظر إلى أصل العلو والسفل[١]. فمعنى ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا ﴾ احضروا عندي، وادنوا مني، واقربوا مني ﴿ أَتْلُ ﴾ عليكم ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾.

﴿ أَتْلُ ﴾ معناه: أقرأ وأقص. والمضارع مجزوم في جواب الأمر. وعلماء العربية يقولون: إن المضارع المجزوم في جواب الأمر أنه في الحقيقة مجزوم بشرط مقدر دل عليه الأمر، وتقديره: إن تتعالوا[٢]، أي: إن تحضروا عندي أتل عليكم ما حرم ربكم. و (أتل) معناه: أقرأ وأقص. وأصل (التلاوة) من: (تلاه يتلوه) إذا تبعه؛ لأن (التلاوة) مصدر سيال لا تحصل إلا منحرف يتلوه حرف، يتلوه حرف، يتلوه حرف، وهكذا. فأصلها من: (تلاه يتلوه) إذا تبعه، والعرب تسمي التابع: تالياً، والمتبوع: متلواً. والتِّبَاعَةَ تلاوة، ومنه سموا الجمل: تالياً؛ لأنه يتبع النوق فيشمها ليعرف منها المستعدة للقاح واللاقح كما هو معروف[٣]. ومنه قول غيلان ذي الرمة[٤]:

إذا الجَافِر التالي تَنَاسَينَ عهده ... وعَارَضْنَ أنفَاسَ الرياحِ الجَنَائِبِ

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٣١)، المصباح المنير (مادة: علو) ص ١٦٢.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٣) انظر: المفردات (مادة: تلا) ص١٦٧، القاموس ص ١٦٣٤.

(٤) البيت في ديوانه ص ٩٦، وفيه: «وصله» بدلاً من: «عهده».

أصل (التلاوة) مصدر سيال؛ لأنها من مقاطع حروف يتلو بعضها بعضاً.

والمصادر قسمان: مصدر سيال، ومصدر غير سيال. فالمصدر الذي ليس بسيال هو الذي يحصل بأدنى مرة، كالضرب، فإنك لو ضربت شيئاً بشيءٍ مرة واحدة حصلت ماهية الضرب. فالضرب مصدر غير سيال، بخلاف التلاوة والكلام، فلو نطقت بحرف واحد لم تحصل التلاوة؛ لأنها مصدر سيال لا بد من بعض يتبع بعضاً حتى يتم معنى المصدر.

قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (ما) هنا: موصولة، وهي على التحقيق في محل المفعول، مفعول (أتل). معناه: أقرأ وأقص عليكم الذي حرمه ربكم عليكم. وقيل: إنها استفهامية مُعَلِّقة للفعل. وهو ضعيف؛ لأن المعروف في علم العربية أن الاستفهام إنما يعلق أفعال القلوب، والتلاوة ليست من أفعال القلوب، فالتحقيق أن (ما) موصولة، وأنها في محل المفعول. أي: تعالوا أقرأ وأقص عليكم الذي حرم ربكم عليكم[١].

والتحريم في لغة العرب معناه: المنع. وهو يطلق في الشرع وفي اللغة. يطلق في الشرع على ما حرمه الله، أي: منعه على لسان نبيه، وتوعد مرتكبه بالعقاب[٢]. ويطلق في اللغة على منع الشيء، فكل شيء منعته بالقوة

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٣١)، البحر المحيط (٤/ ٢٤٩)، الدر المصون (٥/ ٢١٣).

(٢) انظر: الكليات ص ٤٠٠.

فقد حرمته[١]. ومن إطلاقه بمعناه الشرعي: قوله هنا: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فهو تحريم شرعي. ومن إطلاق التحريم بمعناه اللغوي في القرآن: قوله في بني إسرائيل وهم في التِّيه، قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: آية ٢٦] فإنه تحريم كوني قدري؛ لأن الله منعهم إياه، لا تحريم شرعي على التحقيق. ومن إطلاق العرب التحريم على التحريم بمعنى المنع لا بمعنى الشرع قول امرىء القيس[٢]:

جَالَتْ لتَصْرعني فقُلتُ لها اقصري
إني امرؤ صَرْعي عليكِ حَرَامُ

أي: لا تقدرين عليه. ومنه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء: الآية ٩٥] فهو من التحريم الكوني القدري لا الشرعي، ومنه قول الشاعر[٣]:

حرامٌ على عَيْنَيَّ أَنْ تَطْعَمَا الكَرَى
وأَنْ تُرْقَآ حتى أُلاقِيكِ يا هندُ

والتحريم هنا[٤] شرعي. ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وجهان[٥]:

(١) انظر: المقاييس في اللغة (كتاب الحاء، باب الحاء والراء وما يثلثهما) ص ٢٥٦، المصباح المنير (مادة: حرم) ص ٥١.
(٢) ديوان امرىء القيس ص ١٥٧.
(٣) البيت في الكشاف (٢/ ٦٥)، مشاهد الإنصاف ملحق في آخر الكشاف ص ٢٩، البحر المحيط (٤/ ٣٠٥)، الدر المصون (٥/ ٣٣٥).
(٤) يعني في آية الأنعام.
(٥) انظر: القرطبي (٧/ ١٣١)، البحر المحيط (٤/ ٢٤٩)، الدر المصون (٥/ ٢١٣).

أحدهما: أنه يتعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾، (حرمه عليكم) أو يتعلق بـ ﴿أَتْلُ﴾ أتلو عليكم ما حرم ربكم.

والثاني: سيأتي في الجواب عن الإشكال الذي في لفظة (لا) من قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾.

و ﴿رَبُّكُمْ﴾ معناه: سيدكم وخالقكم المدبر لشؤونكم.

وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾ بدأ هذه الوصية بعدم الإشراك بالله؛ لأن إخلاص العبادة لله، وعدم الإشراك به هذا رأس الأمر، وهو الذي بعث الله جميع الرسل من أجله، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل والأمم، والله قد أوضح في كتابه ذلك إجمالاً وتفصيلاً، قال على سبيل الإجمال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ بِمَ بعثنا؟ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: آية ٣٦] وقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هو حظ الإثبات من (لا إلـه إلا الله)، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هو حظ النفي من (لا إلـه إلا الله) وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِ﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾[1] ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: آية ٢٥]، وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: آية ٤٥] هذه الآيات الإجمالية ونظائرها في القرآن.

أما التفصيل: فإنَّا إذا نظرنا إلى دعاوى الرسل وقصصهم مع أممهم وجدنا هذا هو دعوة كل نبيّ[2]، فأول من بُعث بعد الكفر في الأرض: نوح يقول الله فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ماذا قال

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٠١.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

نوح؟ ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ثم قال: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا. ماذا جاءهم به؟ اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ماذا قال؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: آية ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ماذا قال؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] وهكذا على سبيل التفصيل. فالسماوات والأرض إنما قامت على أشرف كلمة، هي كلمة (لا إلـه إلا الله) هي التي خُلقت من أجلها الجنة والنار، وامتُحن الخلق فيها، ودخل من دخل الجنة بالعمل بها، ودخل من دخل النار بعدم العمل بها، وهي مركبة من جزأين: نفي وإثبات.

فمعنى نفيها: خلع جميع أنواع المعبودات في جميع أنواع العبادات غير خالق السماوات والأرض (جل وعلا).

ومعنى إثباتها: إفراده (جل وعلا) وحده بالعبادة التي هي التقرّب إلى الله بما أمر أن يُتقرب إليه به على وجه الذل، والخضوع، والمحبة. فلا يكفي الذل والخضوع عن المحبة، ولا المحبة عن الذل والخضوع. وضابط هذا: من أراد أن يخلص هذه الكلمة لله فلينظر إلى كل شيء أمر الله أن يتقرب إليه به، وأن يتعبد به خلقه، وليخلص في هذا لله، فإنه يلقى الله مسلماً موحداً، وليحذر كل الحذر من أن يصرف شيئاً من حقوق الخالق للمخلوق؛ لأن من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، والأحاديث في ذلك في حكم المتواترة لكثرتها.

من أشهرها: حديث أبي ذر الثابت في الصحيحين: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»، قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». حتى قال في الثالثة: «وإن رغم أنف أبي ذر».

وكان أبو ذر إذا حدَّث بالحديث يقول: «وإن رغم أنف أبي ذر»[1] والعبد إذا لقي ربه بقراب الأرض ذنوباً ولم يشرك به شيئاً لقيه بقرابها مغفرة. وهو يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨]، وفي بعض الروايات عن سبب إسلام الوحشي ـ وإن زعم قوم أنها غير ثابتة، إلا أنها ذكرها بعض العلماء ـ أن الوحشي، عبد جبير بن مطعم، لما قال له: إن قتلت عم محمد ﷺ ـ يعني حمزة ـ بعمي طُعَيْمَة بن عدي الذي قتله يوم بدر فأنت حر. وحضر الوحشي ـ وأصله عبد حبشي، مملوك لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ـ حضر أُحداً لا يريد إلا حمزة؛ لأجل أن يعتقه سيده، فأخذ حربة حبشية ذات حدَّين، وكمن في صخرة من صخرات سفح جبل أُحد، حتى رأى حمزة، فرماه فأصابه في ثُنَّتِه تحت السرة، فخر صريعاً (رضي الله عنه وأرضاه). بعد أن قتل حمزة لم يف له سيده بوعده بالعتق، فغاضب سيده، وهَمَّ أن يأتي النبي ويسلم. زعموا في هذه

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، حديث رقم: (١٢٣٧)، (٣/ ١١٠) وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (١٤٠٨، ٢٣٨٨، ٣٢٢٢، ٥٨٢٧، ٦٢٦٨، ٦٤٤٣، ٧٤٨٧)، ومسلم في الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، حديث رقم: (٩٤)، (١/ ٩٤).

القصة أنه كاتَبَ النبي ﷺ وقال: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إني أردت الدخول في دينك فمنعتني آية مما أُنزل عليك، قَنَّطَتْني من رحمة الله، وهي قول ربك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٦٨، ٦٩] قال: ربك صادق لا يكذب، وقد قال: إن من فعل هذه الثلاث إنه يلقى العذاب ويخلد فيه مهاناً، فإذاً لا فائدة لي في الإسلام، ولا طمع لي في الخير بعد أن فعلت الثلاثة ـ يعني نفسه البعيد ـ قالوا: فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان: آية ٧٠] زعموا أن النبي بعث بها إليه، وأنه لما نظرها رد إليه الجواب وقال: ربك يقول: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فهذه على شرط قوي، ومن يقدر على العمل الصالح؟ فقد لا أقوم بهذا الشرط. فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: آية ٤٨] فأرسل إليه بها، فلما تأملها قال: هو يعلق على مشيئته، يقول: ﴿لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ ومن هو الضامن والكفيل لي أنه يشاء؟ فأرسل بها إليه، فأنزل الله ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: آية ٥٣] قالوا: فتأملها فقال: أما هذه فنعم. وأسلم[١].

---

(١) أخرجه بهذا السياق: الطبراني في الكبير (١١/ ١٩٧)، حديث رقم: (١١٤٨١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٤١٣)، وانظر: (مختصر ابن منظور (٢٦/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، وعزاه الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠١) للطبراني في الأوسط، وقال: «وفيه أبين بن سفيان ضعفه =

هكذا قاله بعض العلماء مع أن غيره يقول: لم يثبت ترتيب النزول على هذا الوضع.

والحاصل أن هذه الآية من أعظم الآيات التي خاطب الله بها هذه الأمة؛ لأن الخطاب بها لخصوص المسرفين على أنفسهم، لم يقل: «يا عبادي الذين آمنوا» بل قال: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ وهذا يستثنى منه الشرك، فإن الله لا يغفره، كما صرح به في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: آية ٤٨] فحقه في العبادة لا مسامحة فيه ولا مُهَاوَدَة، ولا يقبل إشراك أحد معه فيه. وغير ذلك من الذنوب إن شاء عفاه عن صاحبه، وإن شاء أخذه به، كما هو معلوم.

فعلينا أن نتأمل هذه الآيات، ونحذر كل الحذر من أن نصرف شيئاً من حقوق الله لأحد من خلقه، بل نفرق بين حقوق الخالق وحقوق المخلوق، ونُفْرِد الخالق بحقوقه، ونُعطي المخلوقين حقوقهم. ومن حقوق الله التي غلط فيها كثير من عوام المسلمين، فصرفها لغير مستحقها ودخل بذلك أمراً هائلاً عظيماً، هو أنه قرر الله في كتابه في آيات واضحة: أن الإنسان إذا أنزل الله به الكروب والشدائد التي لا يقدر على رفعها

= الذهبي». اهـ، كما أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٣٦، وقد أورده السيوطي في أسباب النزول ص ٢٤٥، وأشار لضعفه.
كما ذكر نحوه (مختصراً) في الدر المنثور (٥/٧٨) عن سعيد بن جبير مرسلاً، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
وأخرج ابن جرير (٢٤/ ١٤) نحوه مختصراً عن عطاء بن يسار مرسلاً.

إلا الله، فالالتجاء في هذا الوقت [إلى الله يُعَدُّ][1] من خصائص الربوبية، وحقوق خالق السماء الخالصة.

فنحن علينا معاشر المسلمين ـ ونسأل الله العافية ـ إذا نزل بأحدنا كرب، أو مكروه، أو داهية، أن يعلم أن الالتجاء في ذلك الوقت من خصائص الربوبية، كخلق السماوات والأرض، وقد أوضح الله هذا في آيات كثيرة، ومن أصرح الآيات التي أوضح فيها أن الالتجاء وقت نزول الكروب والشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله: آيات في سورة النمل؛ لأن الله بين ما يختص به، وما يلزم لربوبيته من الحقوق فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تشركون﴾ وفي قراءة أخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾[2] ثم قال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ ثم قال وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يستحق هذه الحقوق؟ ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ [النمل: الآيات ٥٩ ـ ٦٤]. فهذه حقوقه الخالصة، وسيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لعلمه

(١) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق.
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٣٤.

بالوحي، ونور بصيرته بالقرآن، كان إذا نزلت به الشدائد والكروب، عرف مَنْ صاحب هذا الحق، وصرف هذا الحق لمن هو له؛ ولذلك لما نزلت به أعظم كربة يوم بدر، وكانت معه طائفة قليلة من المسلمين، كما قال الله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: آية ١٢٣] ولو قُتلت تلك الطائفة لم يُعبد الله في الأرض قط، كما صرح به النبيّ ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «**اللَّهم إن تهلك هذه الطائفة فإنك لن تعبد في الأرض**»[(١)] والمشركون في قوة عَددهم وعُددهم، وهذا أعظم الكرب، ولا يقدر على كشفه إلا الله، وهو ﷺ على وعد من الله أن يعطيه إحدى الطائفتين ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٧] وهو يتضرع إلى الله: (رب أنجز ما وعدتني، رب أنجز ما وعدتني) حتى يسقط رداؤه عن ظهره، فيأتي أبو بكر (رضي الله عنه)، ويجعل الرداء على ظهره ويقول: حسبك، فإن ربك لن يخلفك. وأنزل الله في هذا، كما ثبت في الصحيح: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[(٢)] [الأنفال: آية ٩].

فعلينا - معاشر المؤمنين - أن نعلم حقوق خالقنا، وأن نكون لمحبة رسولنا وتعظيمه ﷺ واتباعه نقر عينه بإفراد خالق السماوات والأرض بحقوقه (جل وعلا)؛ فإن الشيطان يدخل لبني آدم من طرق خفية. فإذا قيل للجهلة: هذا حق خالص لله كخلقه

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً ـ إن شاء الله ـ .

(٢) البخاري في الجهاد، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، حديث رقم: (٢٩١٥)، (٦/ ٩٩)، وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧).

للسماوات والأرض، وخلقه للبحار، وسيد الخلق كان يصرف هذا الحق لله، فنحن - اتباعاً له ﷺ ومحبة وتعظيماً - نصرف هذا الحق لمن هو له، كما كان ﷺ يصرفه فالشيطان يُرْدِيْه هذا الإخلاص لله، ويعلم أنه إقرار لعين الرسول، ومرضاة لله، وتعظيم لرسول الله ﷺ، ومحبة له واتباع. وهذا يغيظ الشيطان ويبغضه، فيقول: من يقول لك هذا فهو من الذين لا يعظمون الرسول ولا الصالحين، ويمنعونك من أن تصرف لهم هذه الحقوق. هذه فلسفة شيطانية، والقرآن يبيِّن أن هذا الحق من خصوص الربوبية حق خالص لله، والرسل يصرفونه لله، فنحن إنما علينا ـ لمحبة الرسل وتعظيمهم ـ الاقتداء بهم، وأن نخلص لله حقه كما كانوا يخلصونه له، والكفار ـ مع جهلهم ـ صرحت عنهم الآيات التي لا تكاد تحصى في المصحف أنهم كانوا يعرفون هذا، فإذا نزلت بهم الكروب والشدائد العظام صرفوا الحق في ذلك الوقت لمستحقه تماماً، فإذا أَمِنوا رجعوا يصرفونه لغيره!! والآيات في المصحف الدالة على هذا لا تكاد أن تحصيها ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يعني: إذا ركبوا في السفن، واضطربت عليهم أمواج البحر، ورأوا الكروب، وخافوا الموت دعوا الله مخلصين له الدين ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: آية ٦٥]، ويصرفون الحق لغير من هو له ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: آية ٣٢]، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ

فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يصرفون الحق لغير صاحبه، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣]، والآيات بمثل هذا لا تحصى في المصحف. وقد قدمنا مراراً[(١)] أن المعروف في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل (رضي الله عنه) أنه كان شديد العداوة في الجاهلية للنبيِّ ﷺ، وهو من الجماعة الذين جاؤوا من وراء الصحابة يوم أُحد ـ لما تركوا المركز في سفح الجبل، وبقي أميرهم عبد الله بن جبير وطائفة حتى قُتِلُوا ـ هو وصفوان بن أمية في الجماعة الذين جاؤوا من وراء ظهور المسلمين حتى دارت رحى الحرب على المسلمين، وجرح النبي ﷺ، وشُج حتى غاصت فيه حِلَق المغفر، وكُسرت رَبَاعيته، وشُقت شفته، ومُثِّل بعمه وابن عمته، وقُتل سبعون من خيار الأنصار. وكذلك هو يوم فتح مكة من أشد الناس [حماسة] للقتال[(٢)]؛ ولذلك قال حِمَاس بن قيس الذي كان يقول لامرأته: سأجعل لك خدماً من نساء محمد، وإذا جئتك هارباً فأغلقي الباب دوني. فجاء هارباً يوم فتح مكة!! فقالت له: أين ما كنت تقول؟ فقال رجزه المشهور[(٣)]:

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ـ ٤١) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «عداوة» وهو سبق لسان.

(٣) الأبيات في السيرة لابن هشام ص١٢٥٠، معجم البلدان (٢/ ٣٩٣)، وقد وقع =

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الْخَنْدَمَةْ إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وفَرَّ عِكْرِمَةْ
وأَبُو يَزِيدَ قائِمٌ كالمُؤْتَمَهْ واستقبلتنا بالسيوفِ المُسْلِمَةْ
لَهُم نَهِيتٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَةْ يَقْطَعْنَ كلَّ ساعِدٍ وجُمْجُمَةْ
ضَرْباً فلا تسمعُ إلا غَمْغَمَةْ لم تَنْطِقي باللومِ أدنَى كَلِمَةْ

كان عكرمة بالغاً هذا من معاداة النبي ﷺ، فلما فتح النبي ﷺ مكة، وعرف عكرمة أن النبي ﷺ استتب له الأمر في مكة، فرَّ هارباً إلى الحبشة بغضاً للنبي ﷺ، فركب في سفينة في البحر الأحمر ذاهباً إلى الحبشة، فلما توسطت بهم بطن البحر الأحمر هاجت عليهم عواصف الريح، وهاجت عليهم الأمواج، وأيقنوا بالهلاك، فإذا جميع من في السفينة ينادي بعضهم بعضاً من أطراف السفينة: احذروا في هذا الوقت أن تدعوا غير الله لئلا تهلكوا؛ لأنه لا ينقذ من هذه الكروب والأهوال إلا هو وحده (جل وعلا). فجاءت في رأس عكرمة، ثم قال: والله إن كان لا ينجي من ظلمات البحر إلا هو فلا ينجي في كربات البر إلا هو. ثم قال: اللهم لك عليَّ عهد إن أنقذتني من هذه فلأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً.

وعلى كل حال فإخلاص حقوق الله لله مرضاة لله، ومرضاة للرسول، وإقرار لعين الرسول، واتباع له وتعظيم، وعمل بالعلم والقرآن. وهذا مما ننصح به أنفسنا وإخواننا على ضوء كتاب الله تعالى.

= هنا في الأبيات الثلاثة بعد الأول شيء من التقديم والتأخير، والذي في المصدرين السابقين.

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة
لهم نَهِيْت خلفنا وهمهمة لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وقوله جل وعلا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام فيها إشكال معروف مشهور، وأجوبة العلماء عنه معروفة مذكورة مشهورة.

اعلموا أولاً: أن قوله هنا: ﴿شَيْئًا﴾ فيه وجهان من الإعراب[1]:

أحدهما: أنه ما ناب عن المصدر، فهو مفعول مطلق في المعنى. أي: لا تشركوا بالله شيئاً من الإشراك، أي: لا إشراكاً صغيراً كالرياء، ولا إشراكاً كبيراً. فعليه يكون اسم (الشيء) واقعاً على الإشراك / فيكون في معنى المصدر، ويُعرب ما ناب عن المطلق. أي: لا تشركوا بالله شيئاً. أي: لا تشركوا به إشراكاً. أي: شيئاً من الإشراك، قليلاً أو كثيراً. [٢١/ب]

الثاني: أنه مفعول به بـ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ أي: لا تشركوا به شيئاً من الشركاء؛ لأن حقوقه الخالصة لا يُشْرَكُ معه فيها أحد كائناً ذلك الأحد من كان، سواء كان نبياً؛ أو مَلَكاً، أو غيرهما. وأكره ما يكره الأنبياء والملائكة أن يُشرك بالله غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: آية ٨٠] وقد أمر الله سيد الخلق أن يصدع بذلك الأمر المؤسف العظيم[2] في آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٢١٨).

(٢) أي: يصدع في بيان بطلانه، ويعلن منابذته، أي: الشرك.

[آل عمران: آية ٦٤] أي: مخلصون لله العبادة وحده، لا نتخذ غيره رباً، ولا نشرك به غيره.

أما محل السؤال والإشكال في الآية: فهو في لفظة (لا) لأنه يقول: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فمعناه: أن هذا الذي يتلوه محرم، وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ عدم الشرك ليس بمحرم بل هو واجب حتم ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بر الوالدين ليس بمحرم بل هو واجب حتم. فصار الإشكال في لفظة (لا) وهو إشكال معروف عند العلماء.

وللعلماء عنه أجوبة كثيرة[1]: منها ما ذكره جماعة من العلماء أن من أساليب اللغة العربية زيادة لفظ (لا) لتوكيد الكلام وتقويته إذا كانت القرينة تدل على أنها لا يُقصد بها نفي[2]، وزيادة لفظة (لا) لتوكيد الكلام وتقويته أجمعَ عليها جميع علماء العربية في الكلام الذي فيه معنى الجحد ـ أعني الكلام المُشم برائحة النفي ـ لا خلاف في هذا بين العلماء، وهو كثير في القرآن، ومنه قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: الآيتان ٩٢، ٩٣] يعني: ما منعك أن تتبعني. وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] أي: ما منعك أن تسجد. على أصح التفسيرين[3]، بدليل قوله في (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: آية ٧٥]، ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: آية ٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، [النساء: آية ٦٥] أي: فوربك

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢١٥)، القرطبي (٧/ ١٣١)، البحر المحيط (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠)، الدر المصون (٥/ ٢١٣ ـ ٢١٨).

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: فتح القدير (٢/ ١٩١).

لا يؤمنون ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: آية ٣٤] أي: ولا تستوي الحسنة والسيئة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] على أحد التفسيرين[١]. وهو كثير في كلام العرب معروف، ومن أمثلته في كلام العرب قول أبـي النجم[٢]:

ومـا ألـومُ البيـضَ ألَّا تَسْخَـرَا ... لمـا رَأَيْـنَ الشَّمَـطَ القَفَنْـدَرَا

وقول الآخر، وأنشده ابن هشام لهذا المعنى في المغني[٣]:

وتَلْحَيْنَنِي في اللَّهو أن لا أُحبّه ... ولِلَّهـوِ داعٍ دائـب غيـر غـافـلِ

(. . . .)[٤] وأنشد الفراء لزيادة (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد قول الشاعر[٥]:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله دينهم ... والأطيبـان أبـو بكـر ولا عمـرُ

يعني والأطيبان أبو بكر وعمر.

وأنشد الجوهري لزيادة (لا) في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد قول الراجز[٦]:

في بئرِ لا حُورٍ سَرَى وما شَعَر ... بـإفكـه حتـى رَأَى الصبـحَ جَشَـر

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ١٥٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة.

(٣) المغني (١/ ٢٠٠).

(٤) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وهو غير مؤثر هنا.

(٥) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة، وأورده الفراء في معاني القرآن (١/ ٨).

(٦) البيت للعجاج، وهو في الخصائص (٢/ ٤٧٧)، معاني القرآن للفراء (١/ ٨)، اللسان (مادة: حور) (١/ ٧٥٠)، الصحاح (مادة: حور) (٢/ ٦٣٩)، الخزانة (٢/ ٩٥ ـ ٩٨)، (٤/ ٤٩٠).

لأن الحور هو الهلكة معنى. والمقصود: في بير هلكة وقع. و (لا) زائدة، والكلام هنا ليس فيه معنى الجحد. وأنشد الأصمعي لزيادة (لا) لتقوية الكلام في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد. قول ساعدة بن جؤية الهذلي[(١)]:

أَفَعَنْكَ لا بـرقٌ كـأنَّ ومِيْضَـهُ غـابٌ تَسَنَّمَـهُ قِـرَابٌ مُثْقَـبُ

يعني: أَفَعَنْكَ برق، كما هو معروف. وأنشد بعضهم له قول الآخر[(٢)]:

تذكرتُ ليلى فاعترتني صَبَابَةٌ وكَـادَ صَميـمُ القلـبِ لا يتقطَّـعُ

أي: كاد يتقطع. قالوا: هذا أُسلوب معروف، و (لا) هنا صلة دل المقام عليها. وهي تفيد تقوية الكلام، والنهي عن الشرك. هذا قول بعض العلماء.

وقال بعض العلماء: (أنْ) هنا تفسيرية. وهو التحقيق، وهي مُفَسِّرَةٌ لـ (حَرَّم)[(٣)]، وإذا فسرنا التحريم كان ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ هو معنى التحريم؛ لأن ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ هو معنى تحريم الشرك. وضابط (أنْ) التفسيرية عند علماء العربية: أن تتقدمها جملة فيها معنى القول وليس فيها حروف القول[(٤)]، فتكون (أَنْ) مفسرة للتحريم، وما بعدها هو تفسير التحريم؛ لأن النهي عن الشرك هو معنى تحريم الشرك بعينه،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة، وفيه: «وكاد ضمير. . .».

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٤٩)، الدر المصون (٥/ ٢١٣).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٠)، الدر المصون (٥/ ٢١٣)، الكليات ص ١٩٣، معجم الإعراب والإملاء ص ٨٨.

وعلى هذا فلا إشكال. فـ(أَنْ) يُفَسِّر ما بعدها ما قبلها، وهي (أَنْ) التفسيرية كما هو معروف.

وقال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ انتهى الكلام. وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ابتداء كلام. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل، كما قال في الخلاصة[1]:

والفعلُ من أَسْمَائِه عَلَيْكَا. . .

والمعنى: عليكم ألا تشركوا بالله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

الزموا واحتزموا وعليكم ألا تشركوا بالله، وعليكم أن تُحسنوا بالوالدين إحساناً، وعليكم ألا تقتلوا أولادكم من إملاق، إلى آخره.

وقال بعض العلماء ــ وهو ليس بوجيه ــ: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أتلوه عليكم لئلا تشركوا بالله شيئاً.

وأظهر الأوجه وأحسنها: هو ما دل عليه القرآن؛ لأن خير ما يُفسَّر به القرآن: القرآن، أن معنى قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما حرمه عليكم فعلاً وتركاً، وأن التحريم فعلاً وتركاً هنا مُضَمَّن معنى: ﴿وَصَّنكُم بِهِۦ﴾[2] فكأنه يقول: أتلو ما وصاكم ربكم به تحريماً وإباحة. والدليل على هذا: أن الله لما علم أن في الآية شِبْه إجمال أوضحه في آخرها فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّنكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ فعرفنا أن ذلك التحريم هو معنى الوصية، فيكون معنى: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حرم عليكم فعلاً وتركاً. أي: وصاكم

(١) الخلاصة ص ٥٤. انظر: شرح الأشموني على الألفية (٢/ ٢٠١).

(٢) وهو اختيار ابن جرير. انظر: جامع البيان (١٢/ ٢١٥)، وانظر: أضواء البيان (٢/ ٢٧٨).

بأن تفعلوه أو تتركوه، كما فسره بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ونظيره في كلام العرب قول الراجز(١):

حَجَّ وأَوْصَى بِسُلَيْمَى الأَعْبُدا ... أَنْ لا تَرَى ولا تُكَلِّم أَحَدَا

وَلاَ يَزَلْ شَرَابُها مُبَرَّدَا

وهذا معنى قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً. جرت العادة في القرآن أن الله يقرن بر الوالدين بتوحيده (جل وعلا) في عبادته كقوله هنا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: آية ٢٣] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] إلى غير ذلك من الآيات، ولا شك أن الله لم يجعل بر الوالدين مقروناً بتوحيده دائماً إلا لعظمة بر الوالدين، فإن بر الوالدين من أعظم الحسنات والقربات عند الله، وعقوق الوالدين من أخبث الخبائث، وأكبر الذنوب، فعلينا معاشر المسلمين أن من كان عنده إما والد أو والدة أن يتحمل أذاه، ويبره، ويحسن إليه، ويسارع في مرضاته الأيام القليلة من الدنيا، حتى يموت وهو عنه راض. واعلموا أن من أعطاه الله شائباً أو شائبة، أباً أو أماً، فكأنه أعطاه وسيلة الجنة سهلة، ومن قَصَّر فيها فهو مُفَرِّط مُضَيِّع، مع أن عقوق الوالدين مع ما فيه من إسخاط الله وإغضاب خالق السماوات والأرض، وسبب دخول النار، وفيه أيضاً القُبْح، وعدم الإنسانية، وخساسة فاعله.

فعلينا ـ معاشر المسلمين ـ أن نفهم هذا، وأن نعلم أن ربنا يجعل

---

(١) وهو في ابن جرير (١٢/ ٢١٦).

بر الوالدين دائماً مع توحيده ومن كان منا عنده والد أو والدة فَلْيَسْعَ كل السعي في أن يبره، وليعلم أن الكبير لا يتحمل على أذاه إلا من عنده تقوى؛ لأنه إذا شاب وكبرت سنه كان لا يُتَحَمَّل؛ لأنه يكثر سؤاله عن الأشياء التي لا تعنيه، وتكثر أغراضه فيما لا تعنيه، وهذا يستلزم صبراً. فعلى الولد أن يتحمل، ويثابر على أن يفتيه في كل ما سأل مما لا يعنيه، ويصبر على جميع أذاه، ويحسن إليه، ويبره حتى يموت وهو عنه راض؛ لأن النبيَّ ﷺ جاءت عنه الأحاديث التي لا تُحصى في الترغيب في بر الوالدين واسْتِجْلاَبِهِ الجنة، والترهيب من عقوق الوالدين، وما فيه من العقوبات، ونحن لا نحتاج أن نُنَوِّه بشيء من هذا بعد أن نرى خالق السماوات والأرض يجعل بر الوالدين مقروناً بتوحيده في عبادته جل وعلا.

فعلينا جميعاً ـ معاشر المسلمين ـ أن نعتبر بهذا، وأن نبر أمهاتنا وآباءنا، ونصبر على أذاهما، ولا نُغلظ لهما القول، ولا نمنعهما من شيء يحبانه، بل نسارع في مرضاتهما بحسب الإمكان. ويكفيكم على هذا دليلاً هو نص القرآن العظيم على أن الوالد يبره ولده وإن كان الوالد كافراً، لأن آية العنكبوت نزلت في أُميمة والدة سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه وأرضاه)[١]، فإنه لما أسلم حلفت أمه أُميمة أن لا تأكل، ولا تشرب، ولا تدخل الظل حتى يرجع عن دين الإسلام، فمكثت في الشمس ما شاء الله حتى خَرَّت مغشياً عليها، وجاؤوه وقالوا له: أمك ستموت!! فجاءها ثم قال لها: والله لو كانت

(١) أمه هي حمنة بنت سفيان بن أُمية بن عبد شمس. انظر: الآحاد والمثاني (١/ ١٦٦)، (مختصر تاريخ دمشق لابن منظور) (٩/ ٢٥٣)، السير (١/ ٩٦)، فتح الباري (٧/ ٨٤)، وفي الآحاد والمثاني: «حمنة بنت أسد».

لك مائة نفس، ومتَّ مائة موتة بكل نفس من تلك الأنفس فإني لا أرجع عن دين الإسلام أبداً، إن شئت فكُلي وإن شئت فموتي!! فأنزل الله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: آية ٨] ثم قال[(١)]: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[(٢)] [لقمان: آية ١٥] فأمره بأن يصاحبهما بالمعروف وهما كافران، فما بالك بالمُؤمِنَيْن؟.

وقد جاء عن بعض العلماء أن سبب نزول الآية التي في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: آية ٨] أن أسماءَ بنت أبي بكر ـ أسماءُ بنت أبـي بكر (رضي الله عنها) ـ ليست شقيقة عائشة وعبد الرحمن، لأن عائشة وعبد الرحمن شقيقان، أمهما أم رومان الفراسية من بني فراس، من بطون كنانة، وأسماء أمها امرأة أُخرى تسمى: قَيْلَة ـ وقد جاءت إلى المدينة زائرة ابنتها أسماء، والأم كافرة، فما رضيت أسماء أن تُنزل أمها حتى تستشير النبـي ﷺ، مع أنها جاءت زائرة!! ومعها هدايا من هدايا البادية، فأمرها النبـي أن تنزلها وتحسن إليها[(٣)]. قال بعض العلماء:

---

(١) هذه ليست من آية العنكبوت كما لا يخفى، وإنما هي من سورة لقمان. وقد جاء في بعض الروايات ما يدل على أن الآيتين نزلتا فيه.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبـي وقاص (رضي الله عنه)، حديث رقم: (١٧٤٨)، (٤/ ١٨٧٧).

(٣) البخاري في الهبة، باب الهدية للمشركين، حديث رقم: (٢٦٢٠)، (٥/ ٢٣٣). وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (٣١٨٣، ٥٩٧٨، ٥٩٧٩)، ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين. . .، حديث رقم: (١٠٠٣)، (٢/ ٦٩٦).

وفيها نزلت: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾(١).

فالحاصل أن على المسلم أن يبر والديه، ولا يعقهما، فبر الوالدين من أعظم الذخائر عند الله، ومن أعظم أسباب دخول الجنة، وعقوق الوالدين من كبائر الذنوب الموجبة لسخط الله ولدخول النار مع قبحها في الدنيا.

وقوله: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ مصدر. قال بعض العلماء: منصوب بفعل محذوف ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا(٢).

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] قال هنا في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل ــ وهي سورة الإسراء ــ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: آية ٣١] قال بعض العلماء(٣): بين الآيتين فرق؛ لأن آية الأنعام تدل على أن الرجل يكون فقيراً في هذا الوقت ويقتل ولده للفقر الحاضر، وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من أجل الإملاق، وهو الفقر الحاضر.

الثانية: أن يكون غير فقير، ولكنه يخاف الفقر في المستقبل،

---

(١) صرح بذلك سفيان بن عيينة عقب رواية الحديث، كما عند البخاري في كتاب الأدب (١٠/ ٤١٣)، وقد ورد ذلك صَرِيحاً من طريق آخر لا يخلو من ضعف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢١٥)، القرطبي (٧/ ١٣٢).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥١)، الدر المصون (٥/ ٢١٩)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٨).

فيقتله لئلا يفتقر في المستقبل. وهي قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾.

وجماهير علماء العربية على أن (الإملاق) أصله مصدر: (أملق الرجل، يُمْلِق، إملاقاً) إذا كان فقيراً. قال بعض العلماء: واشتقاقه من (المَلَقَات)[١]، و(المَلَقات): الحجارة الضخام[٢]، وهو معروف [في كلام][٣] العرب، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٤]:

أُتيْحَ لَهَا أُقَيْدِر ذُو حَشِيْفٍ   إذا سَامت على المَلَقَاتِ سَامَا

فكما يقولون: «تَرِبَتْ يداه» لم يبق عنده إلا التراب، يقولون: «أملق» لم يبق تحت يده إلا الجبال والصخور العظام التي لا يقدر أن يحصل منها شيئاً.

وقال بعض العلماء: كانت لغة لخم من قبائل قحطان أنهم يطلقون (الإملاق) على الجوع[٥].

وقال بعض العلماء: الإملاق يطلق على الإنفاق. تقول العرب: «أملق ماله». إذا أنفقه[٦]، قالوا: ومنه: (التَّمَلُّق) في

---

(١) انظر: اللسان (مادة: ملق) (٣/ ٥٢٧).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) البيت لصخر الغي الهذلي، وهو في اللسان (مادة: ملق) (٣/ ٥٢٧)، القرطبي (١٠/ ٢٥٢).

(٥) انظر: القرطبي (٧/ ١٣٢)، الدر المصون (٥/ ٢١٨)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٨).

(٦) انظر: القرطبي (٧/ ١٣٢)، الدر المصون (٥/ ٢١٨)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٨).

الكلام؛ لأن الإنسان يعطي باللسان ما ليس عنده في قلبه في الحقيقة.

والمشهور الذي عليه جمهور المفسرين وعلماء اللغة: أن (الإملاق) هنا هو الفقر[١]. وكان العرب يئدون بناتهم خوف أن يفتقروا فتجوع بناتهم؛ لأن جوع بناتهم قد يسبب لهن أن يزوجوهن من غير الأكفاء، وأن يقعن في معرات لا تليق، وقد يخافون عليهن من السبي. فكانوا يقتلوهن لهذا السبب!! يقولون: إذا جاعت ابنته اضطرت إلى أن تتزوج غير كفء. وكانوا يتشددون في مصاهرة غير الأكفاء، ويقتلون البنات خوفاً من هذا. وإذا خاف الرجل أن يفتقر وتبقى ابنته في جوع وبؤس، فإنها إذا كانت في جوع وبؤس قد تضطر إلى أن تتزوج غنياً ليس بكفء لها، فيئدونهن.

وقد ذكرنا مراراً أن عقيل بن عُلَّفة المري لما خُطِبَت عنده ابنته الجرباء أنشد رجزه المشهور[٢]:

إنِّي وإنْ سِيقَ إلَيَّ المهرُ عبدٌ وألفانِ وذَود عَشْرُ
أحبُّ أصْهَاري إلَيَّ القبرُ

وكانوا يقولون: إن الزوج الذي يسترها ويكفي عارها تماماً إنما هو القبر، كما قال الشاعر وعنده ابنة تُسمى مودة[٣]:

مودَّةُ تهوى عُمْرَ شيخٍ يسرُّهُ لها الموتُ قبل الليل لو أنها تدري

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢١٧)، القرطبي (٧/ ١٣٢)، الدر المصون (٥/ ٢١٨)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

يخافُ عليها جفوة الناس بعده ولا خَتَن يُرجى أَوَدّ من القبرِ

والخَتَن في اللغة: زوج البنت[١].

يعني: لا زوج للبنت يُرجى أرجى من القبر؛ لأنه يستر عارها، ويمنعها من تزويج غير الأكفاء، ومن الإهانات على زعمهم الفاسد. ولما كان صخر أخو الخنساء كل عام يُقاسم الخنساء ماله، ويجعله شطرين، ويعطيها الشطر الأوفى، وقالت له امرأته: تقاسم مالك كل سنة مع الخنساء وزوجها مِتْلَاف سفيه يُضيع مالك: أنشد راجزاً[٢]:

وكيف لا أمنَحُهَا خِيَارَهَا وهي حَصَانٌ قد كفتني عَارَهَا

ولو هلكتُ لَبِسَتْ إزارَهَا

فعندهم الشهامة العربية، والغيرة الكاملة على الحريم، إلا أن كل شيء إذا زاد عن قدره صار بلاء وخسيساً. فالأمور ينبغي أن لا تزاد ولا تنقص عن حدودها.

فلا تَغْلُ في شيء من الأمر واقتصِد كِلاَ طَرفي قَصْدِ الأمورِ ذميم[٣]

فالغلو في الغيرة جَرَّهُم إلى أن دفنوا بناتهم خوف أن يجوعوا وتجوع البنات فَيَضْطَرِرْنَ بذلك إلى الوقوع فيما لا ينبغي، أو إلى

---

(١) انظر: المصباح المنير (مادة: ختن) ص ٦٣.

(٢) في الشعر والشعراء ص ٢٢٠ هكذا:

والله لا أُمَنِّحُها شِرارَهَا ولو هَلَكتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا

وجَعَلَتْ من شَعَرٍ صِدَارَهَا

وفي الإصابة (٤/ ٢٨٩):

والله لا أمنحُها شِرَارَهَا وهي التي أَرْخَص عني عارها

ولو هلكتُ خَرقَت خِمَارَها واتخذت من شَعَرٍ صِدَارَهَا

(٣) البيت لمحمد بن مسلمة، وهو في الخزانة (١/ ٢٨١).

الزواج من غير الأكفاء. هكذا زعمهم الفاسد، وقد صح عن النبيِّ ﷺ من حديث ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ سُئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»(١). وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ فالحديث كأنه مطابق لآية الفرقان. ثم إن الله قال هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ كأنه يقول لهم: يا سفهاء العقول، يا مجانين، تقتلون أفلاذ أكبادكم خوفاً من الفقر؟! فرزقهم علينا، نحن نرزقكم ونرزقهم، ورزق الجميع علينا. قال هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنهم فقراء في الحين حيث قال: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ أي: من فقر واقع. وقال هناك لما أرادوا أن يقتلوهم من خشية فقر مستقبل: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ بدأ بالأولاد ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٣١].

وهذه الآيات تدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يستثقل كثرة أولاده خوفاً من الجوع والفقر؛ لأن خالق السماوات والأرض يرزق الجميع. وهذه من أوضح الآيات على أن ما يتلاعب به الشيطان على المتسمين باسم الإسلام مما يسمونه (تحديد النسل) وأن يمتنعوا من أن تكثر أولادهم، أن هذا جهل واقتفاء ـ في الجملة ـ للجاهلية

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، حديث رقم: (٤٤٧٧)، (٨/ ١٦٣)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث رقم: (٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢)، ومسلم في الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، حديث رقم: (٨٦)، (١/ ٩٠).

الذين يقتلونهم؛ وذلك لأنهم مشتركون في العلة، والعلة قد تُعَمِّم معلولها؛ لأن الله صرح بأن الجاهلية إنما قتلوهم من خشية الإملاق، وهؤلاء يريدون من تقليل عددهم من خشية الإملاق، فالعلة هي العلة. وكأن قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لم يطرق أسماعهم ــ أبداً ــ ضمان خالق السماوات والأرض لأرزاق الجميع، كأنهم لم يسمعوه، وكأنهم في جاهلية جهلاء، وظُلمة ظلْمَاء؛ لأن الله ضامن رزق الجميع. وكلما كثر النسل، وكثرت الأيدي العاملة كثر الإنتاج، وكثرت خيرات الله وأرزاقه؛ لأن الله ينزل رزقه بعدد خلقه، وصرح بهذا وهو لا يخلف الميعاد ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فهذه الآيات تدل على أن القائلين بتحديد النسل أنهم شاركوا الكفار في العلة، وإن لم يشاركوهم في الحكم، والعلة تكون واحدة وتكون لها أحكام متعددة، كما تقرر في الأصول[1]. فالسرقة علة واحدة، وقد تتعدد أحكامها؛ لأن من أحكامها ما هو قطع اليد، ومن أحكامها ما هو غُرْم المال ــ عند من يقول بِغُرْم المال ــ فعلة الجميع واحدة، وهي خوف الفقر، وضيق المعاش، هذه هي علة الكفار التي قتلوا من أجلها أولادهم، وعلة التابعين لأذناب الإفرنج في تقليلهم عددهم وعُددهم. والنبي ﷺ يقول: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم»[2]

---

(١) انظر: نثر الورود (٢/ ٤٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥)، وابن حبان (الإحسان ٦/ ١٣٤)، والبيهقي (٧/ ٨١) من حديث أنس (رضي الله عنه)، وأبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم: (٢٠٣٥)، (٦/ ٤٧)، والنسائي في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم (٦/ ٦٥)، حديث رقم: (٣٢٢٧)، والحاكم =

والكثرة خير من القلة، والله (جل وعلا) باريء لكل ذي نسمة شق فاها باريء لها رزقها كما صرح بقوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود: آية ٦] فهؤلاء شاركوهم في العلة وخالفوهم في الحكم، مع أن هناك بعض المقاربة.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعلم أولاً أن كل ما أراد الله أن يخلقه من النسمات لا بد أن يخلقه، ولو حاول الخلق ما حاول من تقليل النسل، ثم إن كل نسمة خلقها الله فهو رازقها إلى أن تموت، وإلى أن تستكمل رزقها، وأن دعوى تحديد النسل خوف الفقر أنها أذهان الكفار، وأقوال الكفار، وعقول الكفار التي لم تستضيء بضوء القرآن العظيم؛ لأن الله يقول ـ يفند هذا الرأي ـ : ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: آية ٣١]، فلا تضق أذهانكم يعني من الرزق، فالرزق عندنا كثير، ونحن سنرزق الجميع من خزائن رزقنا؛ ولذا لما أراد المنافقون أن يحاصروا أصحاب النبي ﷺ حصاراً اقتصادياً وقالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ قال الله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المنافقون: آية ٧] أي: ومن كانت عنده خزائن السماوات والأرض لا يُضَيِّقُ رزق أحد شاء أن يرزقه. وهذا معنى قوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾.

= (٢/ ١٦٢)، والبيهقي (٧/ ٨١)، والطبراني في الأوسط (٥٧٤٢)، وانظر: صحيح النسائي (٢/ ٦٨٠)، صحيح أبي داود (٢/ ٣٨٦)، آداب الزفاف ص ٨٩، ١٣٢، إرواء الغليل (٦/ ١٩٥)، المشكاة (٣٠٩١).

والرزق عند الجمهور: هو ما رزقه الله للإنسان، سواء كان حلالاً أو حراماً[١]. فالله يرزق الإنسان بالحلال الطيب الهنيء، ويرزقه بالحرام، ثم يؤاخذه عليه. خلافاً للمعتزلة القائلين: إن الرزق من الله إنما هو الحلال، وإن الحرام لا يُسمى رزقاً؛ لأن العبد أخذه بمشيئته لا بمشيئة الله. كما كنا نقرر ونوضح، وبَحْثُ المتكلمين في الرزق هل يختص بالحلال أو الحلال والحرام معروف ومن يخصه بالحلال فهو مبني على مذهب الاعتزال؛ لأن الله (تبارك وتعالى) كما يشاء من العباد أن يقعوا في المعاصي وتذهب إرادتهم ومشيئتهم إلى المعاصي، كذلك إلى أن يرتزقوا بالحرام فذلك بمشيئته وجّه قدرتهم ومشيئتهم إليه، وهو مؤاخذهم عليه بأعمالهم، وكل مُيَسَّر لما خُلق له. وهذا معنى قوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ هذا من وصية محمد ﷺ التي لم يُفك عنها خاتمه هي هي كما أُنزلت مما أوصى به ﷺ مبلغاً تلك الوصية عن الله نهي جميع الخلائق عن أن يقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ فيه سر عظيم، وتعليم كبير؛ لأنه لم يقل: «وَلاَ تفعلوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» لم ينه عن فعلها فحسب بل نهى عن قربانها؛ لأن من قرب من الشيء قد يقع فيه، والراتع حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه. فبيَّن في هذه الآية أن الفواحش ــ وسنبين معناها ــ أن الإنسان منهي عن أن يقربها؛ لأن

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٣٢، ٥٤١ ــ ٥٤٦).

القرب منها مظنة للوقوع فيها، كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه(١). وهذه الآية الكريمة من الأدلة القرآنية على وجوب سد الذرائع؛ لأن القرب من الشيء ذريعة للوقوع فيه، فإذا نُهي عن القرب منه كان ذلك سداً لذريعة الوقوع فيه، وقد أجمع العلماء على وجوب سد الذرائع في الجملة، ودل عليه في الجملة الكتاب، والسنة، والإجماع(٢). وتفصيل ذلك: أن الذرائع عند علماء الأصول ثلاثة أقسام: قسم يجب سده بإجماع المسلمين، وقسم لا يجب سده بإجماع المسلمين، وواسطة هي محل الخلاف، هي المعروفة عند أهل الأصول بـ (الذريعة الوسطى) التي لم تبلغ درجة المُجْمَع على سده، ولم تتنازل إلى درجة المُجْمَع على عدم سده. أما المُجْمَع على وجوب سده فهو الذي يكون ذريعة إلى الحرام، ويكون ارتكابه مظنة للوقوع في الحرام. وهذا ممنوع بإجماع العلماء. ومن أمثلة هذا القسم المجمع على سده: سب الأصنام إذا غلب على ظن من سبها أن عَبَدَتَها يسبون الله. وقد قدمنا هذا في هذه السورة في قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨] فسب الأصنام بالنظر إلى ذاته طيب حلال كماء المزن، إلا أنه إن كان ذريعة لأن يسب عبدتُها اللَّهَ كان حراماً؛ لأنه ذريعة إلى أن يُسب الله، والذريعة إلى هذا المنكر الأكبر يجب سدها. ومن هذا القسم: أن يشتم الرجل أبا رجل أو أمه، وهو عالم أن ذلك الرجل ينتقم منه فيسب أباه ـ انتقاماً ـ وأمه؛ لأن هذه ذريعة إلى أن يتسبب الرجل في أن يُذم أبوه أو أن تُذم أمه، والواجب عليه برهما

(١) انظر: فتح المجيد ص ٣٨٩.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من هذه السورة.

لا عقوقهما بالتسبب في ذمهما. وقد ثبت في الحديث المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من العقوق شتم الرجل والديه**». قالوا: يا رسول الله ﷺ وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[١] فهذا حديث صحيح لا مطعن فيه، صرح فيه النبيّ ﷺ بأن ذريعة السب: الشتم، وسب الوالدين حرام، فالذريعة إليه حرام. ومن أمثلة هذا النوع من الذريعة التي يجب سدها بالإجماع: أن يحفر الرجل بئراً في طريق المسلمين، ويغطي وجهه بغطاء ليتردى فيه المار، فنفس حفر البئر ليس هلاكاً لمسلم ولا لماله، ولكنه ذريعة للتردي الذي فيه الإهلاك. فهذا النوع من الذريعة يجب سده بإجماع المسلمين؛ لأنه يؤدي إلى محذور تأدِيَةً معلومة أو غالبة على الظن، فهذا يجب سده؛ لأن الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ومنه: القرب من أسباب الذنوب، فإنه يكون ذريعة للوقوع فيها.

أما الذريعة التي أجمع العلماء على أنها لا يجب سدها، وأنها تُلغى وتُهدر: هي أن تكون الذريعة إلى المفسدة تُعارضها مصلحة عظمى أكبر منها، فإن المصالح العظام الكبار تُقدم على المفاسد الصغيرة. وتحرير هذا المقام: إنه إن تعارضت مفسدة أو مصلحة، فإن كانت المفسدة أكبر حُرِّم الفعل إجماعاً؛ لأن مفسدة سب الله أكبر من مصلحة سب الأصنام. وإن كانتا متساويتين وجب إلغاء المصلحة إجماعاً. أما إن كانت المصلحة راجحة هي أكبر وأرجح، والمفسدة صغيرة مرجوحة، ففي هذا تُلغى المفسدة، ويُلغى سد الذريعة إليها

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

تقديماً للمصلحة الكبرى. ومن أمثلة هذا النوع الذي لا يجب سده؛ لأن المصلحة فيه أعظم من المفسدة: غرس أشجار العنب، فإن غرس شجر العنب ذريعة إلى عصر الخمر منه، وهي أم الخبائث ـ قبحها الله ـ إلا أن هذه المفسدة أرجح منها عموم جميع الخلق بالزبيب والعنب في أقطار الدنيا.

وانظر تَـدلِّـي دَوَالـي العِنَـبِ   في كل مشرقٍ وكل مغربِ[١]

لأن العنب والزبيب منفعتان ينتفع بهما جميع الناس، وعصر الخمر من العنب إنما يفعله أفراد قليلة، فذلك الضرر القليل يُلغَى في جنب تلك المصلحة العامة العظمى. ومن أمثلة هذا النوع من الذرائع الذي أجمع العلماء على أن سده لا يجب؛ لأن المصلحة أرجح من المفسدة: مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد؛ لأن مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد بأن تكون هذه الدُّور متجاورة، هذه الدار فيها هذا الرجل، وبناته، وزوجاته، وأخواته، وجاره الذي بجنبه معه أيضاً بناته، وزوجاته، وأخواته؛ لأن المعاونة بين الرجال والنساء مصلحة عامة لا يستغني عنها العالم، فإن المرأة تقوم بشؤون خدمات البيت في خدرها وبيتها، فترضع الرضيع من الأولاد، وتحنو على الفطيم، وتؤانس المريض، وتقوم على شؤون البيت، وتكنس، وتعجن، وتخبز، فيأتي الرجل من عمله، أو من جهاده فيجد قرينه الآخر الكريم ـ الذي هو امرأته ـ قام له بجميع مصالح الدنيا، فهم محتاجون إلى هذا التعاون والاجتماع، مع أن اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون ذريعة إلى وقوع الزنى من بعض الأفراد؛

(١) هذا البيت من منظومة مراقي السعود، وهو في المتن ص ١٥٦.

لأن الرجل يمر من الطريق فتلقي إليه المرأة من الطاقة ورقة فيها موعد يجتمعان فيه، أو يعلو إلى السطح وهي على سطح فيتسايران كما قال نصر بن حجاج السلمي(١):

لَيْتَنِي فِي المؤذنين نَهَارَا ... إنَّهم ينظرون من في السطوحِ
فيشيرونَ أو يُشَارُ إليهم ... حبذا كل ذاتِ دَلٍ مليحِ

فهذا قد يقع منه الوصول إلى الزنى من بعض الأفراد، إلا أن هذه المفسدة التي تنشأ من اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد تنشأ من أفراد قليلة، وهي مغمورة في المصلحة العامة بمعاونة الجنسين التعاون الكريم كما بينا؛ ولهذا لم يقل أحد من العلماء في جميع الدهر إنه يجب سد هذه الذريعة فيجب أن يُعزل جميع الإناث من القرية، وأن يُعزل جميع الذكور إلى جهة، وأن يكون جميع الإناث في حصن من الحديد عليه أبواب حديد قوية وأسلاك شائكة، لا يستطيع أحد خرقها، وتكون المفاتيح في يد رجل شائب ذي زوجات معروف بالتقى والعفاف. لم يقل هذا أحد من العلماء!! فهذه الذريعة أُلغيت لهذه المصلحة التي هي أعظم منها.

أما الذريعة الوسطى التي اختلف فيها العلماء: فكبيوع الآجال المعروفة في عرف أصحاب مذهب مالك ببيوع الآجال، ويسميها الشافعيون والحنبليون: (بيوع العينة) فإن العلماء اختلفوا فيها(٢)، كأن تبيع سلعة بعينها لرجل إلى أجل ــ كأن تبيع له السلعة بأجل إلى شوال ــ ويكون الثمن عشرة مثلاً، ثم تشتري عين السلعة من ذلك

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من هذه السورة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

الرجل بدين وأجل مسمى إلى جمادى مثلاً. فإن السلعة الخارجة من اليد، العائدة إليها ملغاة، فالسلعة رجعت ليد صاحبها، فكأنه آل الأمر أنه يأخذ عشرة في شوال، فإذا كان جمادى أخذ عشرين عن العشرة التي أخذ في شوال[١]. فهذا بالنظر إلى ما يؤول إليه عين الربا، وهو عشرة بعشرين مؤجلة. أما بالنظر إلى ذات العقدين فالعقد الأول عقد على سلعة بأجل دَيْن إلى أَجل مسمى، والعقد الثاني عقد أيضاً على سلعة بأجل إلى أجل مسمى. وكان الشافعي (رحمه الله) يجيز مثل هذا ويقول: إن هذا مباح؛ لأن كلا العقدين مباح في ذاته. وكان غيره يحرمه سداً؛ للذريعة؛ لئلا يقصد ببيع السلعة وشرائها أن تكون السلعة أداة لأن يأخذ عشرة ويأخذ بعدها عشرين، وكانت عائشة ترى أن هذا حرام، وكان زيد بن أرقم (رضي الله عنه) من أصحاب رسول الله ﷺ يرى ـ رأي الشافعي في هذا ـ أنه حلال. قالت عائشة لامرأته: قولي لزيد: إن لم يرجع عن هذا الربا فإنه يبطل جهاده مع رسول الله[٢]. وكان الشافعي (رضي الله عنه) يقول: اختلف زيد وعائشة، والقياس يؤيد قول زيد؛ لأن كلا العقدين سلعة بيعت بثمن إلى أجل معين. وغيرهم من العلماء ـ وهم الأكثر ـ يقولون: هذا قد يكون ذريعة إلى الربا فيجب سدها؛ لأن بيع السلعة

---

(١) في المثال المذكور هنا شيء من الاضطراب، وقد ذكر الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة عند تفسير الآية رقم (١٥١) من سورة الأنعام. ومثَّل لها بقوله: «كما لو باع إنسان سلعة إلى أجل معين بعشرة دراهم مثلاً، ثم اشتراها بثمن أكثر لأبعد من الأول، أو بثمن أقل من الثمن الأول بدون الأجل» ا.هـ. والعلماء مختلفون في تفسير العينة، والمشهور في معناها: أن يبيع سلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها من المشتري قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر. انظر: نيل الأوطار (٥/٢٠٧)، القاموس الفقهي ص٢٧٠.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

بعشرة إلى شوال، ثم شراءها بعشرين إلى جمادى، فترجع السلعة إلى موضعها، فكأنها لم تخرج، فيؤول الحال إلى أن يستلم عشرة في شوال، ثم يأخذ عوضاً عنها عشرين في جمادى، فهذا ذريعة إلى الربا يجب أن تُسد. فهذا هي الواسطة المُخْتَلَف فيها، فالشافعي وأصحابه وزيد بن أرقم من الصحابة يرون جواز مثل هذا، وأن هذه ذريعة لا يجب سدها. ومالك وأحمد وعائشة وطوائف من العلماء يرون وجوب سد هذه الذريعة. فهذا هو الكلام باختصار على أنواع الذرائع، وما يجب سده منها بالإجماع، وما لا يجب بالإجماع، وما اختُلف فيه.

ومن الأدلة على سد الذريعة في الجملة هذه الآية الكريمة؛ لأن الله لما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ولم يقل: «لا تفعلوا الفواحش» علمنا أنه أراد سد الطريق إليها بعدم القرب منها؛ لأن القرب من الشيء ذريعة إلى الوقوع فيه.

/ والراتع حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه. والخطاب لعامة [٢٢/أ] الناس.

والفواحش: جمع فاحشة. وقد تقرر في علم النحو أن (الفَاعِلَة) تُجمع جمع كثرة ــ جمع تكسير ــ على (فَوَاعِل) بقياس مطرد[١]، والواو في (الفواحش) مبدلة من الألف التي في مفرد الفاحشة[٢]. فـ (الفَاعِلَة) تُجمع على (فَوَاعِل) بقياس مطرد.

ومعنىٰ الفاحشة: أصل الفُحْش في لغة العرب: هو كل شيء

(١) انظر: الأشموني (٢/ ٤٤٩).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢١٢.

بلغ نهايته تسميه فاحشة[١].

والفاحشة في اصطلاح الشرع: الخصلة المتناهية في القبح[٢]. فكل خصلة تناهت وبلغت غايتها في القبح [تُسميها][٣] العرب فاحشة. ومن قال: «إن أكثر إطلاقها في القرآن على الزنى ودلالة اللسان[٤]». فهو خلاف التحقيق؛ لأن الفاحشة تطلق على كل خصلة رديئة بالغة في القُبح، والفُحش. هذه هي الفاحشة. وكل بالغ غايته في الشيء فهو فاحش. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[٥]:

أرىٰ الموتَ يعْتَام الكرامَ ويصطَفي عقيلـةَ مـالِ الفـاحـشِ المُتَشَـدِّد

يعني بقوله: «الفاحش» البالغ غاية الحرص على ماله. و (الفواحش) هنا: هي السيئات العظام المتناهية في القبح. نهىٰ الله خلقه عن أن يقربوا من كل خصلة سوء قبيحة يحرمها الشرع ويحذر الله منها. ثم عمم هذا تعميماً عظيماً فقال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] فقوله: ﴿مَا﴾ بدل من (الفواحش) و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ عطف عليه، والمعنى: احذروا كل الحذر، وتجنبوا كل التجنب، جميع الفواحش، سواء في ذلك ما هو ظاهر

(١) انظر: المصباح المنير (مادة: فحش) ص ١٧٦، المفردات (مادة: فحش) ص ٦٢٦.
(٢) انظر: الكليات ص ٦٧٥.
(٣) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٤) انظر: الكليات ص ٦٧٤.
(٥) شرح القصائد المشهورات (١/ ٨٣).

منها، وما هو باطن منها، كما قدمنا في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: آية ١٢٠].

واعلموا أن في ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ تفسيرات خاصة لبعض السلف، ليس المراد بها الحصر، وإنما المراد بها التمثيل، للظاهر والباطن(١)، كقول بعض العلماء: إن العرب كانوا على قسمين فيهم أراذل أنذال يزنون بالنساء في الحواري، من غير محافظة من مرأى الناس، وفيهم ناس لهم نخوة، يجتنبون الزنى بمرأى من الناس، فيتخذون الصديقات والخدينات، ويزنون بهن سراً من غير أن يطّلع الناس. فنهى الله عن باطن الزنى وعن ظاهره. وكقول بعض السلف: إن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: هو ما تفعله الجوارح من سرقة، وزنى، وغصب، وغير ذلك. و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو ما يحتوي عليه القلب من الكبائر القلبية، كالعُجْب، والرياء، والكبر، والحسد، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من أمراض القلوب. كل هذا من الأمثلة.

والتحقيق: أن الآية الكريمة عامة، والخطاب بها عام، فيجب على كل مكلف أن يتباعد من كل معصية خسيسة، سواء كان ذلك ظاهراً بمرأى الناس، كالذي يزني والناس ينظرون، أو يقتل والناس ينظرون، أو يرتكب محرماً ظاهراً علناً يراه الناس، وكالذي يفعل الفواحش سراً من غير اطلاع الناس، سواء الذي يزني من غير أن يراه الناس، والذي يسرق خفية من غير أن يراه الناس، وهذا لا يفعله إلا من هو في غاية الجهل؛ لأنه إذا خاف أن يطّلع الناس عليه، وترقّب للفاحشة أن تكون باطنة لا يراها الناس، أليس هو يعلم أن خالقه

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢١٨ ـ ٢٢٠).

يراه؟ وأن الحفظة الملائكة الكرام حاضرون معه، يُسَجِّلُون عليه ما فعل؟! فعلى المسلم إذا خلا بالأمر، وسوّل له الشيطان أن يفعل تلك الفاحشة؛ لأن الناس لا يرونه، وأنه لا يطّلع عليه أحد، كالذي يخلو بامرأة في محل مقفول، يأمن عيون الناس فيه، فيخوِّل له الشيطان الريبة معها، عليه أن ينظر أن الله رقيب عليه، وأن الملائكة الكرام معه ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: آية ٧]، وعلى الشخص أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: الآيات ١٠ ـ ١٢] فالذي يستحيي من البشر الضعاف الذين لا يقدرون أن يضروه، ولا يستحيي من خالق السماوات والأرض، فهو مجنون جاهل.

واعلموا أولاً أنَّا نذكر أشياء في ضوء آيات القرآن عامّة، على سبيل النصيحة والإرشاد لعموم إخواننا المسلمين، في ضوء القرآن العظيم، من غير أن نقصد التعريض بشخص معين، ولا بجهة معينة.

وإذاً فإنّا نعلم أن من الفواحش الباطنة أكل الرُّشَا. فهذا الإنسان الخسيس، الذي يخاف أعين الناس، ثم يأخذ الرّشوة بحيث لا يراه أحد، ظلماً وعدواناً، خيانة لولي أمر المسلمين، الذي ولاه المركز على أنه يكون ناصحاً في غاية النصح والنزاهة والأمانة، وخيانة لربه المطّلع عليه، حيث يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله!!

وعلى هذا فاعلموا أن الرشوة أقسام: منها ما يُراد به إبطال حق أو إحقاق باطل، كالذي يدفع مالاً لمسؤول بيده الأمر، ولاّه إياه ولي أمر المسلمين، ليُبطل له حقاً أو يُحقّ له باطلاً، فهذا النوع من أخبث الرُّشَا وأخسّها، وصاحبه من أهل النار؛ لأنه أخذ هذا الأخذ الخسيس

الخبيث الخائن، وهذه الفاحشة الباطنة، يريد أن يحقق بها ما أبطله الله، ويبطل بها ما أحقه الله، فعلينا جميعاً أن نعلم أن مثل هذه الأفعال بالغة من الخساسة والانحطاط ما ينبغي لمن كان له [عقل][(١)] حتىٰ ولو لم يكن له دين، وله نخوة وإنسانية وضمير أن يتباعد عن هذا الخلُق الخسيس المنحط؛ لأن أكبر نعمة في الدنيا يراها الإنسان أن يكون إذا راجع نفسه فيجد نفسه مرضياً ضميره، لم يرتكب خسيسة، ولا شيئاً يفضحه، هذه أكبر نعمة. وأخسّ الأشياء: الذي يرتكب الخسائس والفواحش الباطنة، مستخفياً بها من الناس، ولم يستخف بها من الله، يتجرأ على خالق السماوات والأرض، ويستخفي من الناس [وكان الواجب عليه أن يراقب ربه، ويجتهد في أن يُقدم للناس][(٢)] خدمة نزيهة إنسانية، يلقى بها ثوابه عند الله، ويرضي بها ضميره، ويرضي بها الحَفَظَة الملازمين له، مع أنه يتقاضى من بيت مال المسلمين على ذلك شيئاً يسد أَوَدَه وخَلَّتَه، لئلا يضطر إلى ما لا ينبغي، فعلى هذا المسلم أن ينزه ضميره، ويكرم ربه، ويكرم الملائكة الذين معه، وأن يكرم ولي أمر المسلمين الذي حطّه في ذلك الموضع، ولا يخون؛ لأن الإنسان إذا كان يجيئه مسكين ضعيف، له حق ثابت له شرعاً، سواء كان إدارياً أو قضائياً، ثم إنه يُسوِّفه، ويقول له: بعد بُكْرَة، ثم بعد بُكْرَة، ثم بعد أسبوعين!! وهو حقه جاهز لا شيء دونه ولا عقبة، ولم ينقصه إلا

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

التوقيع، يريد بذلك أن يضطر المسكين إلى أن يعتصر منه فلوساً ظلماً بسطوة الحكومة وسلطتها، خيانة ومكراً وغدراً!! فهذا الشيء الذي يعرق منه الجبين، فعلى الإنسان أن يتجنبه كل التجنب؛ لأنه مما بَطَنَ من الفواحش، ومع شدة حرمته عند الله، وخساسته من جميع الوجوه، وأن صاحبه لم يتق الله، بل خاف الناس، ولم يفعله أمام الناس خوفاً من الناس، ولم يتق خالقه الذي شق عينيه، وفتح فمه وأنفه، ولم يتق الحَفَظَة الكاتبين معه. فهذه أمور فظيعة شنيعة، نرجو الله أن ينقذنا وإخواننا المسلمين من الوقوع في أمثالها من السفالات التي تربأ الحمير عنها بأنفسها؛ لأن هذا أمر قبيح، والأمر إذا كان جامعاً بين شدة القبح وشدة التحريم عند الله فلا ينبغي للعاقل أن يرتكبه.

إن للعـارِ فـاخْشَهـا مُـوبِقَـاتٍ تُتَّقى مثل موبقاتِ الذنوبِ[1]

وعلى كل حال فهذه الآية الكريمة ـ من سورة الأنعام ـ نهىٰ الله فيها جميع خلقه عن أن يقربوا من خصلة خسيسة محرمة، أن يقربوا منها فضلاً عن أن يرتكبوها، سواء كان في الظهور والعلن بحيث يراه الناس، أو في الباطن بحيث لا يطلع عليه إلا الله والحفظة الكرام الكاتبون معه، والله (جل وعلا) يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: آية ١٨] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: آية ١٦] فعلى كل مسلم إذا قام بخدمة لأمته أن يخدم أمته بشرف وكرامة ونزاهة؛ ليرضي بذلك الله، ويرضىٰ عنه الحفظة الذين معه، ولا يرفعوا عنه في ليله ونهاره إلى

(١) البيت في فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم (١٠/٢٤٣)، ولفظه «إن للعار فُحشًا موبقات...» وهو في الدرر السنية (١٦/٦٢) ولفظه: «فُحشها».

السماء إلا عملا يبيض وجهه، ويرضي الله، ثم يكون مُرضياً ضميره، أما الذي يُلغي هذه الأوامر، ويتنازل إلى هذه الخسة لينال عرضاً قليلاً من الدنيا فهذا ساقط المروءة والدين، وهو عند الله في شرّ مكانة ـ والعياذ بالله ـ ألا ترون أن عنترة بن شداد كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولم يأته نذير، بل هو جاهلي، إلا أن عنده ضميراً حياً، وشيمة عربية، يقول في معلقته[1]:

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظَلُّهُ   حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فالذي يكون غير محتاج، وهو يقع في هذه المآثم الخسيسة، هذا لا ينبغي، فنحن نحذر منه إخواننا، ونرجو الله لنا وللجميع أن يوفقهم إلى ما يرضيه من نزاهة تليق، ومعاملة سليمة، والقيام بالخدمة على الوجه اللائق الذي يرضي الله، ويرضي الضمير الإنساني، ويرضي ولي الأمر الذي جعل الشخص ممثلاً له في ذلك المحل. والآية عامّة.

هذا معنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] لا شك أن قتل النفس التي حرم الله أنه داخل في (الفواحش). إن فعله علناً أمام الناس فهو داخل فيما ظهر، وإن قتله غيلة من حيث لا يراه الناس فهو داخل فيما بطن؛ لأن قتل النفس من الفواحش، والله (جل وعلا) خصّه مع أنه داخل في العموم، وفي ذلك حكمتان[2]:

أحدهما: تفظيع القتل وتهويل أمره؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن

(١) ديوان عنترة ص ٩٨.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٢)، الدر المصون (٥/ ٢١٩).

يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: آية ٩٣].

النكتة الثانية: أن القتل منه ما هو بحق، فلا بد أن يُستثنىٰ بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] والاستثناء الذي هو ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لا يمكن حتى يُخرج القتل من عموم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: التي حرم الله قتلها بأن جعلها معصومة. والنفس المعصومة: هي المعصومة بـ(لا إله إلا الله) من أنفس المسلمين. والمعصومة بأداء الجزية كالذميّين الذين يُؤَدُّون الجزية عن يد وهم صاغرون. فَعِصْمَة دمائهم وأموالهم كالمسلمين. وكذلك المعاهدون الذين يعطيهم الإمام أو غيره من المسلمين عهداً؛ لأن المسلمين يقوم أدناهم ـ يعني ـ بعهدهم، فلو أعطى الإمام عهداً لمعاهد يدخل (. . .)[1] فهو إذاً من النفس المحرمة. وجاء في قتله أحاديث مشددة، أن صاحبه لا يشم ريح الجنة.

فالنفس التي حرم الله: إما بالإسلام، وإما بالذمة، وإما بالمُعَاهَدَة.

فقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تقتلوها إلا بالطريق الحق الموجبة لقتلها[2] شرعاً عند الله، وهذه الطريق حصرها النبي ﷺ في حديث ابن مسعود المتفق عليه في ثلاث حيث قال: «لا يحل دم

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والمعنى مستقيم بدونها.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٢٠)، القرطبي (٧/ ١٣٣).

امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(١) يعني: المرتد؛ لأن في الحديث الصحيح: **«من بدل دينه فاقتلوه»**(٢) هذا الحديث الصحيح حصر قتل النفس بالحق في ثلاثة أشياء، وزاد العلماء على هذه الثلاثة أشياء أخرى دلت عليها نصوص(٣)، منها ما هو مختلف فيه.

زاد بعضهم على هذا: المحاربين، على قول مالك ومن وافقه أن آية المحاربين لم تتنزل على أحوال؛ لأن مالكاً لا يقول ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: آية ٣٣] أي: إذا قتلوا ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ إذا قتلوا وأخذوا المال ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إذا أخافوا الطريق ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالاً. التنزيل على هذه الأحوال، يقول مالك وجماعة من فقهاء الأمصار(٤): إن هذا ليس بصحيح، وإن القرآن العظيم لا يجوز أن تُزاد فيه قيود لم يدل عليها كتاب ولا سنة. وهذه القيود التي عليها جماهير من العلماء لم يأتِ بها نص صحيح، وإنما جاء فيها حديث

---

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾، حديث رقم: (٦٨٧٨)، (١٢/ ٢٠١)، ومسلم في القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، حديث رقم: (١٦٧٦)، (٣/ ١٣٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما.

وقد جاء نحوه من حديث عائشة وعثمان (رضي الله عنهما) مع تغاير في الألفاظ، وليس شيء منها في أحد الصحيحين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٢٣ ــ ٣٣٥)، الفتح (١٢/ ٢٠٢ ــ ٢٠٤).

(٤) انظر: القرطبي (٦/ ١٥٢).

عن أنس ضعيف، لم يقل أحد بصلاحيته للاحتجاج[(١)]. فقولٌ عند مالك ومن وافقه في التخيير يقولون: إن الإمام مُخيّر بين هذه الثلاثة، إن شاء قتلهم وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالاً، وإن شاء قطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالاً، وإن شاء نفاهم من الأرض. وعلى هذا القول فقتل النفس بالحرابة جائز على الثلاثة.

ومما يزداد على الثلاثة ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: **«إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»**[(٢)] هذا نص من النبي ﷺ على أن الناس إن بايعت خليفة ثم جاء واحد آخر فبويع له فإنه يُوجب شق العصا وإراقة دماء المسلمين، فيُقتل الأخير ليستتب الأمن، وتتفق كلمة المسلمين على الأول الذي بايعوه. وفي صحيح مسلم من حديث عرفجة (رضي الله عنه): **«من أتاكم وأمركم واحد، على رجل واحد، يريد شق عصاكم، وتفريق جماعتكم، فاقتلوه»** وفي رواية: **«فاضربوا عنقه»**[(٣)]، وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: **«من بايع إماماً وأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق**

---

(١) وفيه: «قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله...». أخرجه ابن جرير ــ وأشار لضعفه ــ في التفسير (١٠/ ٢٥٠، ٢٦٧) وفي سنده ابن لهيعة، والكلام فيه معروف، وانظر: النسائي (٧/ ٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب إذا بُويع لخليفتين، حديث رقم: (١٨٥٣)، (٣/ ١٤٨٠).

(٣) مسلم في الإمارة، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع، حديث رقم: (١٨٥٢)، (٣/ ١٤٧٩).

الآخر»[١]، هذه أحاديث ثابتة عن صحابة بقتل هذه النفس، زيادة على الثلاث المذكورة.

وزاد جمهور العلماء عليها تارك الصلاة[٢]، فإن جمهور العلماء ـ منهم مالك، والشافعي، وأحمد ـ على أن تارك الصلاة يُقتل. واستدلوا على قتله بمفاهيم كثيرة من أحاديث كثيرة وآيات، كقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] وكقصة الرجل الثابتة في الصحيح، الذي تكلم في النبي ﷺ وقال: قِسْمَة ما أُريد به وجه الله!! فقال بعض الصحابة: دعني أضرب عنقه. قال: «أليس يُصلي»؟! قال: يُصلي ولا صلاة له!! قال: «أولئك الذين نهيت عن قتلهم»[٣] يعني: المصلين. فدل

---

(١) مسلم في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم: (١٨٤٤)، (٣/ ١٤٧٢).

(٢) انظر: التمهيد (٤/ ٢٢٤) فما بعدها، الاستذكار (٥/ ٣٤١) فما بعدها، المغني (٢/ ٢٩٨ ـ ٣٠٢)، (١٠/ ٨٥)، نيل الأوطار (١/ ٢٨٧)، كتاب الصلاة لابن القيم.

(٣) ما ذكره الشيخ (رحمه الله) هنا مركب من حديثين وَهِمَ الشيخ (رحمه الله) فأدخل أحدهما في الآخر.

أما الأول: فمن حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) ولفظه: قسم النبي ﷺ قَسْماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أُريد بها وجه الله. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». وقد أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخُمس ونحوه، حديث رقم: (٣١٥٠)، (٦/ ٢٥١)، وأطرافه في (٣٤٠٥، ٤٣٣٥، ٤٣٣٦، ٦٠٥٩، ٦١٠٠، ٦٢٩١، ٦٣٣٦)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث رقم: (١٠٦٢)، (٢/ ٧٣٩). =

بمفهومه على أن الذي لا يُصلي أنه يُقتل، وفي الحديث المشهور في صحيح مسلم أن النبي ﷺ لما ذكر أئمة السوء، وأنه سيلي عليكم قوم تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قالوا له: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة»[1]، فدل على أن المانع من قتلهم إقامة الصلاة. والأحاديث في مثل هذا كثيرة؛ ولذا كان ثلاثة من الأئمة على أن تارك الصلاة يُقتل. ومشهور مذهب مالك، ومذهب الشافعي، أنه يقتل حداً لا كفراً، بناء على حديث عبادة بن الصامت الذي يقول فيه: «إنها خمس صلوات كتبهن الله» ــ إلى أن قال في آخر الحديث ــ: «ومن لم يأتِ بها فأَمْرُه إلى الله، إن شاء

= وأما الحديث الثاني: فهو من حديث عبد الله بن عدي الأنصاري (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ بينا هو جالس بين ظهراني الناس جاء رجل يستأذنه أن يُسَارّه، فأذن له فَسَارَّه في قتل رجل من المنافقين يستأذنه فيه، فجهر رسول الله ﷺ بكلامه فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، ولا شهادة له، قال: «أليس يشهد أن محمداً رسول الله؟» قال: بلى، ولا شهادة له، قال: «أليس يصلي؟» قال: بلى، ولا صلاة له، قال: «أولئك الذين نُهيت عن قتلهم».

وهذا الحديث بعضهم يرويه موصولاً مسنداً، وبعضهم يرويه عن عبيد الله بن عدي بن الخيار ــ وهو الذي رواه عن عبد الله بن عدي الأنصاري ــ مرسلاً.

وقد أخرجه مالك في الموطأ ص ١١٩، والشافعي في الأم (٦/ ١٥٧)، وعبد الرزاق (١٠/ ١٦٣)، وأحمد (٥/ ٤٣٢ ــ ٤٣٣)، وعبد بن حميد (١/ ١٧٧)، والبيهقي (٣/ ٣٦٧)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ٥٨٤)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩١٢ ــ ٩١٤)، وللحديث شواهد. انظر: التمهيد (١٠/ ١٤٩).

(١) مسلم في الإمارة، باب: خيار الأئمة وشرارهم، حديث رقم: (١٨٥٥)، (٣/ ١٤٨١).

غفر له وإن شاء عذبه»[1]. وكان الإمام أحمد في أصح الروايتين يرى أن تارك الصلاة يُقتل كفراً. وقد دلت على ذلك أحاديث كثيرة: **«من ترك الصلاة فقد كفر»، «العهد الذي بيننا وبينهم ترك الصلاة»**[2] في أحاديث تُصرح بأنه كافر. وأكثر العلماء على أن قتله حد. وأصرح الأدلة تدل على أنه كافر. وهي أكثر وأشهر من حديث

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، في صلاة الليل، باب الأمر بالوتر، حديث رقم: (٢٦٦) ص ٩٠، وعبد الرزاق رقم: (٤٥٧٥)، وأحمد (٥/ ٣١٥ ـ ٣١٦، ٣١٩)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٩٦)، والحميدي رقم: (٣٨٨)، والدارمي (١/ ٣٧١)، وأبو داود في الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات، حديث رقم: (٤٢١)، (٢/ ٩٣)، وفي باب: فيمن لم يوتر، حديث رقم: (١٤٠٧)، (٤/ ٢٩٤)، والنسائي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات الخمس، حديث رقم: (٤٦١)، (١/ ٢٣٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في فرض الصلوات الخمس، حديث رقم: (١٤٠١)، (١/ ٢٤٩)، والبيهقي (١/ ٣٦١)، (٢/ ٨، ٢١٥، ٤٦٧).

والحديث صححه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٢٨٨)، وساق طرقه في الاستذكار (٥/ ٢٦١)، وانظر: صحيح أبي داود (١/ ٨٥، ٢٦٦)، صحيح النسائي (١/ ١٠٠)، المشكاة رقم: (٥٧٠).

(٢) الجملتان من حديث واحد عن بريدة (رضي الله عنه) مرفوعاً. أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، حديث رقم: (٢٦٢١)، (٥/ ١٣ ـ ١٤)، والنسائي في الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، حديث رقم: (٤٦٣)، (١/ ٢٣١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، حديث رقم: (١٠٧٩)، (١/ ٣٤٢)، والحاكم (١/ ٧).

وانظر: صحيح الترمذي (٢/ ٣٢٩)، صحيح ابن ماجه (١/ ١٧٧)، المشكاة، رقم: (٥٧٤)، تخريج الإيمان لابن أبي شيبة ص ٤٦ .

عبادة بن الصامت، إلا أن الجمهور الذين قالوا: إن قتله ليس بكفر، قالوا: إن النبيَّ ﷺ سماه كفراً، ولكنه قد يجيء في الشرع تسمية أشياء بالكفر وليست بمُخرجة عن الإسلام، كقوله: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(١) والمراد: أنه ليس بكفر حقيقي. وكقوله ﷺ: «**إني رأيت النار، ورأيت أكثر أهلها النساء**». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «**بكفرهن**» هذا ثابت في الصحيح. فلما استُفسر عن كفرهن قال: «**يكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن كذا وكذا ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**»(٢) واستدلوا بعموم الآيات،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، حديث رقم: (٤٨)، (١/ ١١٠)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر الحديث: (٦٠٤٤، ٧٠٧٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، حديث رقم: (٦٤)، (١/ ٨١).

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:
١ ـ ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات، حديث رقم: (٧٩)، (١/ ٨٦).
٢ ـ أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في كتاب الحيض، باب: ترك الحائض الصوم، حديث رقم: (٣٠٤)، (١/ ٤٠٥). وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر الأحاديث: (١٤٦٢، ١٩٥١، ٢٦٥٨)، ومسلم في صلاة العيدين، حديث رقم: (٨٨٩)، (٢/ ٦٠٥).
وراجع في حديث أبي سعيد أيضاً: البخاري، الأحاديث: (١٠١، ١٢٤٩، ٧٣١٠)، ومسلم، حديث رقم: (٢٦٣٣).
٣ ـ زينب امرأة ابن مسعود، عند الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة الحلي، حديث رقم: (٦٣٥، ٦٣٦)، (٣/ ١٩).
وأصله في الصحيحين، البخاري في الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في =

كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨] فالحاصل أن جمهور العلماء وفقهاء الأمصار ــ منهم الأئمة الثلاثة ــ على أن تارك الصلاة يُقتل؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

أما مانع الزكاة فإنه يقاتل. يُقال له: أخرج الزكاة. فإن أبى أُخرجت قسراً عليه. فإن منعها قُوتل دونها[1]. والقتال غير القتل، وهو الذي فعله أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) مع مانعي الزكاة، قاتلهم. فالذي يُفعل بمانع الزكاة قِتال لا قتل؛ لأنه يُؤمر بإخراجها، فإن أبى أُخِذَت منه قهراً، فإن جاء دونها قُوتل حتى يُقتل. هذا هو المعروف.

وفي كون تارك الصلاة يُقتل عند الجمهور، عند من يقول إنه يُقتل كفراً، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد، وهو رواية عن مالك، ودلت عليه أحاديث صريحة صحيحة في صحيح مسلم وغيره، أنه كافر. وعلى قول مالك والشافعي: أنه يُقتل حداً، قالوا: لم يُعرف عن السلف أن الذي كان لا يصلي أنهم لا يرثون بعده، ويجعلونه كالكافر المرتد الذي يُرد نصف ماله إلى بيت مال المسلمين. هكذا قالوا، والخلاف مشهور. فبهذا نعلم أن تارك الصلاة: الشرع يقتله، وأن الحياة التي يعيش بها ليست حياة شرعية، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حسّاً. فمثال تارك الصلاة عند أرباب العقول مثال الميتة الإنسان الميت الذي هو منتن في ريحه، فيمشي بين الناس يأكل

= الحجر، حديث رقم: (١٤٦٦)، (٣/ ٣٢٨)، ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، حديث رقم: (١٠٠٠)، (٢/ ٦٩٤).

(١) انظر: المغني (٢/ ٤٣٥ ــ ٤٣٨).

ويشرب؛ لأن حياته التي يعيش بها ليست حياة شرعية، وإنما هي حياة غير شرعية، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً.

وخالف في هذا أبو حنيفة الجمهور، فقال: لا يُقتل تارك الصلاة[١]. واستدل بحديث ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ حصر القتل في ثلاث «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث**»، قال أبو حنيفة: هذا حصر من النبي ﷺ في ثلاث، ولم يذكر فيها تارك الصلاة، فلا يمكن أن نخرق هذا الحصر، مع أن قتل تارك الصلاة أغلب أدلته مفاهيم الأحاديث، وظواهر من آيات لا تكون مثل الصريح في قوله: «**لا يحل قتل امرىء مسلم، إلا بإحدى ثلاث**»[٢] هذا مذهب أبي حنيفة ووجهة نظره.

وزاد بعض العلماء أشياء أُخر، منها: الساحر، فإنه يُقتل عند العلماء[٣]، وجاء في بعض روايات البخاري من حديث بَجَالَة: «**اقتلوا كل ساحر وساحرة**»[٤] وثبت عن ثلاثة من الصحابة قتل

---

(١) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

(٢) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

(٣) انظر: الفتح (١٠/ ٢٣٦)، الاستذكار (٢٥/ ٢٣٧) فما بعدها.

(٤) هذا الأثر قطعة من كتاب عمر لبعض عماله، فهو موقوف عليه. وقد أخرجه عبد الرزاق (٩٩٧٢، ٩٩٧٣، ١٨٧٤٥ ـ ١٨٧٤٦، ١٨٧٤٨، ١٨٧٥٦)، وأحمد (١/ ١٩٠ ـ ١٩١)، وأبو عبيد في الأموال رقم: (٧٧) ص ٣٥، وأبو داود في الخراج والفيء والإمارة، باب في أخذ الجزية من المجوس رقم: (٣٠٢٧)، (٨/ ٢٩٤)، وأبو يعلى رقم: (٨٦٠، ٨٦١)، (٢/ ١٦٣ ـ ١٦٦)، والبيهقي (٨/ ١٣٦، ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٣٩٤، ٣٩٧)، وابن عبد البر في الاستذكار (٣٧٩٤٢ ـ ٣٧٩٤٣). =

الساحر، عن عمر بن الخطاب[١]، وحفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب[٢]، وجندب (رضي الله عنه) في قتلته المشهورة للساحر الذي كان عند الوليد بن عقبة بن أبي معيط في أيام عثمان بن عفان (رضي الله عنه)[٣].

وزاد بعض العلماء: من زنىٰ ببهيمة من البهائم. فإن بعض العلماء يقول: من وقع على بهيمة من البهائم قُتل هو وقُتلت هي. وهذا ورد فيه حديث أخرجه أبو يعلىٰ وابن ماجه، قال صاحب مجمع الزوائد في السند الذي أخرجه به أبو يعلىٰ: فيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رواته ثقات، فهو صالح للاحتجاج[٤].

= وقد أخرج البخاري أصل الحديث من غير موضع الشاهد، كما في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب رقم: (٣١٥٦)، (٦/ ٢٥٧)، كما أخرجه مختصراً من غير موضع الشاهد آخرون كالشافعي في الرسالة، والأم، والدارمي، والترمذي، والطيالسي، وغيرهم.

(١) راجع الأثر المتقدم. وورد من فعله ـ أيضاً ـ عند عبد الرزاق، رقم: (١٨٧٥٥)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر رقم: (١٥٨٥) ص ٦٢٨، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة بلاغاً، وقد جاء موصولاً عند عبد الرزاق رقم: (١٨٧٤٧، ١٨٧٥٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٦)، وابن عبد البر في الاستذكار (٣٧٩٢١ ـ ٣٧٩٢٤)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ١٨١ ـ ١٨٢)، والبيهقي (٨/ ١٣٦)، وابن عبد البر في الاستذكار (٢٥/ ٢٤٠)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٣٩٦).

(٤) أخرجه أبو يعلى (٥٩٨٧)، (١٠/ ٣٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٥): «وفي إسناده كلام». اهـ، وقال الهيثمي =

أما حديث ابن ماجه، وهو من رواية داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس[1]. وبعض علماء الحديث يقولون: داود بن الحصين ثقة في غير عكرمة. كما هو معروف في محله[2]. ففي ظاهر حديث ابن عباس هذا الذي أقلّ درجاته الحُسْن أخذ بعض العلماء، فقال: يُقتل الزاني بالبهيمة، وتُقتل البهيمة معه. ومن العلماء من يقول: لا يُؤكل لحمها. ومنهم من يقول: يُؤكل لحمها. كما هو معروف في الفروع[3]. وأكثر العلماء يقولون: من زنىٰ ببهيمة لا يُقتل؛ لأن حديث ابن مسعود الذي حصر أكثر القتل في ثلاث لا يُنقض حصره بهذا الحديث الذي سنده أضعف منه[4].

= (٦/ ٢٧٣): «رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات». اهـ، وانظر: الإرواء (٨/ ١٥).

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٣٤٩٢)، وأحمد (١/ ٢٦٩، ٣٠٠)، وأبو داود في الحدود، باب فيمن أتى بهيمة، حديث رقم: (٤٤٤٠)، (١٢/ ١٥٧)، وقال: «ليس هذا بالقوي». اهـ، والترمذي في الحدود، باب ما جاء فيمن يقع على البهيمة، حديث رقم: (١٤٥٥)، (٤/ ٥٦)، وابن ماجه في الحدود، باب من أتى ذات محرم، ومن أتى بهيمة، حديث رقم: (٢٥٦٤)، (٢/ ٨٥٦)، والبيهقي (٨/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤)، والحاكم (٤/ ٣٥٥)، والدارقطني (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، وأبو يعلى (٢٤٦٢، ٢٧٤٣)، (٤/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧، ٥/ ١٢٨ ـ ١٨٩) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٥): «وفي إسناد هذا الحديث كلام». اهـ، وانظر: الدراية (٢/ ١٠٤)، نصب الراية (٣/ ٣٤٢)، الإرواء (٨/ ١٣)، صحيح أبي داود (٣/ ٨٤٤)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٨٣)، صحيح الترمذي (٢/ ٧٥).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٣/ ١٥٧)، التقريب ص ٣٠٥.

(٣) انظر: المغنى (١٠/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٤) المصدر السابق: (١٠/ ١٦٣ ـ ١٦٤).

وزادوا أيضاً: فاعل فاحشة اللواط، فإنه جاء حديث عن النبيِّ ﷺ: «**من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١) وهذا الحديث أخرجه أحمد، والترمذي، والبيهقي، والحاكم، وغيرهم، وصحَّحه بعض الحفاظ، وبه عمِل جماعة من العلماء، قالوا: إن من فعل فاحشة قوم لوط إنه يُقتل الفاعل والمفعول معاً. ففي هذا الحديث زيادة على الثلاثة. فهذه أشياء دلت عليها نصوص أُخر اختلف فيها العلماء، فمن يقول: «إن صاحبها يُقتل». يقول:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٣٤٩٢)، وأحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود في الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، حديث رقم: (٤٤٣٨)، (١٢/ ١٥٣)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، حديث رقم: (١٤٥٦)، (٤/ ٥٧)، وابن ماجه في الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط (٢٥٦١)، (٢/ ٨٥٦)، والدارقطني (٣/ ١٢٤)، والبيهقي (٨/ ٢٣٢)، والحاكم (٤/ ٣٥٥)، وأبو يعلى (٢٤٦٣، ٢٧٤٣)، (٤/ ٣٤٨، ٥/ ١٢٨ ـ ١٢٩)، وابن الجارود (٢/ ١١٩ ـ ١٢٠) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، وانظر: الدراية (٢/ ١٠٣)، نصب الراية (٣/ ٣٣٩)، الإرواء (٨/ ١٦ ـ ١٧)، صحيح أبي داود (٣/ ٨٤٤)، صحيح الترمذي (٢/ ٧٦)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٨٢ ـ ٨٣)، المشكاة (٣٥٧٥)، وضعفه الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٠٤).

وجاء نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند الترمذي في الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي (٤/ ٥٨)، وقال: «هذا حديث في إسناده مقال، ولا نعرف أحداً رواه عن سهيل بن أبي صالح غير عاصم بن عمر العمري، وعاصم بن عمر يُضعف في الحديث من قِبَل حفظه». اهـ.

قال الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٤): «وإسناده أضعف من الأول ـ يعني حديث ابن عباس ـ بكثير». اهـ، وقال أيضاً (٤/ ٥٥): «وحديث أبي هريرة لا يصح». اهـ، وكذلك ضعفه في الفتح (١٢/ ٢٠٤).

وانظر: نصب الراية (٣/ ٣٤٠)، الدراية (٢/ ١٠٣)، الإرواء (٨/ ١٧).

«هي داخلة في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾». ومن يقول: «إن صاحبها لا يُقتل». يقول: «لم تدخل في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لأنها عارضها ما هو أقوى منها، وهو حديث ابن مسعود المتفق عليه: «لا يحل دم امرىء مسلم» الحديث»[(١)]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥١]. الإشارة مفردة، والمُشار إليه كثير؛ لأن هذا شامل لـ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ هذه الآية الأولى من هذه الآيات المحكمات تضمنت خمسة أحكام شرعها الله في جميع الأديان، ولم يَنْسَخ شيئاً منها في لسان نبي. والمعنى: ذلكم المذكور؛ لأن (ذا) إشارة إلى مفرد، والمشار إليه جماعة. وهذا معروف في كلام العرب أن يُشيروا إلى التثنية أو الجمع بإشارة المفرد؛ لأن المقصود: (ذلكم المذكور) وقد أوضحنا هذا في البقرة[(٢)]، في الكلام على قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي بين ذلك المذكور من الفارض والبكر فرجع المفرد على الاثنين ونظيره من كلام العرب: قول عبد الله بن الزبعري[(٣)]:

إن للخيرِ وللشرِّ مَدَى ... وكِلاَ ذلك له وجهٌ وقَبَل

---

(١) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

فأشار بـ(ذلك) إلى اثنين. ولمّا سُئل رؤبة بن العَجاج في رَجَزِيَّتِه القَافِيَّة المشهورة، قال فيها[١]:

فيها خُطُوطٌ من سَوادٍ وبَلَق كأنه في الليل تَوْليعُ البَهَق

فقال له قائل: لِم قلت: «كأنه» بإفراد الضمير المذكر، إن كنت تعني الخطوط كان اللازم أن تقول: «كأنها» وإن كنت تعني السواد والبلق كان اللازم أن تقول: «كأنهما» فمن أين جئت بقوله: «كأنه»؟ قال: أعني (كأنه) أي: جميع ما ذُكر. ولذلك قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ذُكر من الأحكام الخمسة وصى به الله. وهذه الآية الكريمة فيها سرّ لطيف؛ لأن الذي يوصيك كأنه يعتني بك، ويجعل الأمر إليك.

والوصية في لغة العرب: هي الأمر المؤكد[٢]. تقول: «أوصيتُ فلاناً على كذا». أمرته به أمراً موكداً.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّىٰكُم﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾ على لسان نبيِّه محمد ﷺ، أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ (لعل) في القرآن فيها أقوال معروفة للعلماء[٣]، أقربها وأشهرها قولان:

أحدها: أنها على بابها من الترجي. والمعنى: ذلكم وصاكم به على رجاء أنكم تعقلونه عن الله. وهذا الرجاء منصرف إلى الآدميين الذين لا يعرفون عواقب الأمور، أما هو (جل وعلا) فهو عالم عاقبة الأمور، وما يجري عليه معنى (لعل)؛ ولذا قال لموسىٰ وهارون في

---

(١) السابق.

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ١٣٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٥٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما أنه يتذكر، والله يعلم أنه لا يذكر ولا يخشى.

القول الثاني: هو ما قالته جماعة من علماء التفسير: أن كل (لعل) في جميع القرآن معناها التعليل إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] زعموا أنها بمعنى: (كأنكم).

والتحقيق: أن (لعل) تكون حرف تعليل. هذا لا شك فيه، وعليه فالمعنى: وصاكم به لأجل أن تعقلوا هذه الوصية عنه، فتمتثلوا أمره. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: آية ٧٨] أي: جعل لكم هذه الأسباب والنعم لأجل أن تشكروه. ومن إتيان (لعل) في كلام العرب بمعنى التعليل قول الشاعر(١):

فقُلتُم لنا كفُّوا الحروبَ لعلَّنا ... نكفُّ ووثقتُم لنا كل مَوْثِق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم ... كَشِبْه سراب بالمَلا مُتألق

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفُّوا عنّا لأجل أن نكف عنكم. هذا معروف في كلام العرب.

وقوله: ﴿تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ معناه: تدركون بعقولكم؛ لأن العقل هو الذي فيه الإدراك. والعقل: نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد ذكرنا فيما مضى أن مركزه القلب لا الدماغ(٢)، كما صرح به الله، وصرح به نبيُّه ﷺ. ولا شك أن من

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

خلق العقل، وأبرزه من العدم إلى الوجود، أنه أعلم بموضعه من كفرة الفلاسفة، الذين يتحكمون على الله، ويخالفونه من غير دليل ولا برهان. وهؤلاء الذين ينفون هذا لأنهم يقولون ـ زعموا ـ أن بعض الناس صار يُجعل له قلبُ واحدٍ آخر. ولو أن هذا ـ لو فرضنا ـ صح، وأنه يدل على أن العقل ليس في القلب، فهذا لا دليل فيه؛ لأن العقل أصله نور روحاني ـ آلة للنفس ـ تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية، ومحله القلب الذي في الصدر، كما قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: آية ٤٦] فلو فرضنا أن الله خرق العادة وأزال القلب، ولم يمت الإنسان، لم يمنع أن يكون العقل باقياً في محله الذي كان فيه. وقد زالت الأداة الذي كان فيها. وكذلك لو جُعل قلب آخر، فقد دل القرآن في سورة النور أن القلب كأنه زجاجة، ونور الإيمان فيها الذي يُضاء به كأنه نور، وإذا انكسرت الزجاجة فلا مانع من أن تأتي زجاجة أخرى ويكون فيها النور الذي كان في الزجاجة التي قبلها، وعلى كل حال فلا أحد أصدق من الله ولا من رسول الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] والله يقول في نبيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] وقد صرح الله ونبيه أن العقل محله القلب، ومن خلق العقل أعلم بمحل العقل، ونحن نعرف أن جميع ما يُؤثِّر على الدماغ يُؤثِّر على العقل، وهذا لا يقتضي أن يكون محل العقل الدماغ؛ لأنه كم من موضع من الجسد إذا اختلت خانة من خانات الدماغ اختل ذلك الموضع وليس يلزم أن ذلك الموضع المختل كان محله في الدماغ، بل هو خارج عن الدماغ، مشروط بسلامة الدماغ، فالعقل محله القلب، ولكن سلامته مشروطة بسلامة

الدماغ، وقد ذكرنا ما ذكره بعضهم جمعاً بين القولين: أن مركزه في القلب، كما قال الله ورسوله، وأن شعاع نوره متصل بالدماغ. فمن قال إنه في الدماغ قد يكون هذا سائغاً على هذا القول، بناء على أن شعاع نوره متصل بالدماغ، ولكن هذا القول قد قدمنا أنهم لم يستدلوا عليه إلا بدليل استقرائي غير مقنع. والدليل الاستقرائي: هو تتبع الأفراد، وهو حجة عند الأصوليين. قالوا: قد استقرينا نوع البشر، ووجدنا كل رجل أو امرأة إذا كان طويل العنق طولاً مُفْرِطاً خارجاً عن عادة أعناق الناس، لا بد أن يكون في عقله دَخَل. قالوا: وذلك لتباعد ما بين طرفيّ العقل؛ لأنه إذا بعُد طرف نوره الأعلى من طرفه الأسفل قد يَتَغَشَّى النور الروحاني المعلوم الذي به الإدراك وينقص الإدراك. هكذا زعموا، ولا دليل عليه، والله أصدق من يقول.

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٢].

قوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ كانت عادة العرب أن يأخذوا من اليتيم ماله الذي ترك أبوه، ويظلموه في حقه، ويظلموا المرأة، ويقولون: إن الذي يستحق المال هو من يحمي الذمار، ويُدافع عن الحريم، وهم الرجال الذين يستعينون بالمال على الدفاع، أما اليتيم والمرأة فإعطاء المال لهما ضياع له، وإذا كانوا يدفعون اليتيم عن حقه، ويظلمونه، كما في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: الآيتان ١، ٢] والدَّع: الدفع بقوة. أي: يدفعه بقوة عن حقه ويظلمه(١). والله (جل وعلا) أرسل هذا النبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) بكمال الإنصاف، ومكارم الأخلاق، والمحافظة على حقوق الضعيف الذي لا يقدر على الدفاع عن نفسه؛ ولذا نهى عن قُربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ونهىٰ عن ظلم المرأة، وبيّن أن من ظلم المرأة تعرض إلى بطش ملك جبار عظيم، حيث قال في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: آية ٣٤] أي: لا تظلموهن إن أطعنكم وكُنَّ غير ظالمات. ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ يعني: من يحافظ على حقوقهن، وينتقم لمن ظلمهن، عليٌّ كبيرٌ عظيمٌ، يُرْهَب منه، وتُخاف سطوته.

كذلك قال هنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ تكلمنا على الحكمة في النهي عن قُرب الشيء، وأن المراد بها سدّ الذريعة والتباعد منه بالكلية. ومال اليتيم: هو ماله الذي هو ملك له، سواء ورثه من أبيه، أو حصل له بطريق أُخرى. واليتيم (فَعِيْل) من اليُتم، واليُتم في لغة العرب معناه: الانفراد. تقول العرب: هذه يتيمة عصماء. يعنون: ياقوتة منفردة لا نظير لها. وإنما قيل لليتيم (يتيم) لانفراده عن وليه الذي من شأنه أن يقوم بأمره، وهو أبوه(٢). واليتيم في بني آدم: هو من مات أبوه وإن كانت أمه حيّة، ولا يُتم بعد بلوغ بإجماع العلماء(٣). فالبالغ لا يُسمىٰ يتيماً بإجماع العلماء. واليتيم: هو

(١) انظر: المفردات (مادة: دع) ص ٣١٤.
(٢) انظر: المصباح المنير (مادة: يتم) ص ٢٦٠، المفردات (مادة: يتم) ص ٨٨٩.
(٣) انظر: المغني (٧/٣٠٦)، القاموس الفقهي ص ٣٩٢.

الصغير الذي لم يبلغ إذا كان أبوه قد مات، ولو كانت أمه حيّة. هذا هو اليتيم. ويُجمع على (يتامى)، ويستوي في الجمع ذكره وأُنثاه، تقول في جمع اليتيمة: يتامى. وفي جمع اليتيم: يتامى. كما تقدم في قوله: ﴿فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: آية ١٢٧] والمعنى: إذا مات والد الإنسان، وبقي الطفل صغيراً مسكيناً لا يقدر على الدفاع عن نفسه، ولا يقدر على حفظ ماله، فلا تأخذوا ماله وتظلموه لضعفه، بل لا تقربوا ماله إلا بالتي هي أحسن. أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال وأنفعها لليتيم، وذلك بالمحافظة عليه وتنميته، وتثميره بالتجارة في مواقع النظر والسداد، كما قالت عائشة: «اتجروا في أموال اليتامىٰ لا تأكلها / الزكاة»[1]، [٢٢/ب]

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ جاء مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ بروايات متعددة (وكلها ضعيفة) منها:

١ ـ من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عند الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة مال اليتيم، حديث رقم: (٦٤١)، (٣/ ٣٣)، وأشار عقبه إلى ضعفه، وأخرجه أيضاً الدارقطني (٢/ ١١٠)، وأبو عبيد في الأموال (١٢٩٩)، والبيهقي (٤/ ١٠٧).

٢ ـ عن يوسف بن ماهك مرسلاً عند عبد الرزاق (٤/ ٦٦)، والشافعي في الأم (٢/ ٢٩)، وأبو عبيد في الأموال (١٣٠٠)، والبيهقي (٤/ ١٠٧).

وفي الكلام على هذه الرواية والتي قبلها. انظر: تنقيح التحقيق (٢/ ١٣٨٠ ـ ١٣٨٤، ١٣٨٦)، نصب الراية (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، تلخيص الحبير (٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، إرواء الغليل (٣/ ٢٥٨).

٣ ـ عن أنس بن مالك (رضي الله عنه)، عند الطبراني في الأوسط (٤١٦٤).

انظر: نصب الراية (٢/ ٣٣٢)، التلخيص (٢/ ١٥٨)، الإرواء (٣/ ٢٥٩).

وقد ورد موقوفاً على عمر (رضي الله عنه)، عند مالك في الموطأ ـ بلاغاً ـ في الزكاة، باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها، حديث رقم: (٥٨٨) =

فالتي هي أحسن: المحافظة عليه من الضياع. والتثمير: هو تنميته بالربح بالوجوه المأمونة، التي يغلب على الظن ــ بحسب العادة ــ أن فيها سلامة وربحاً لا ضياعاً، ومن التي هي أحسن: أن القائم على مال اليتيم ــ وإن اشتغل في حفظه والتجارة فيه ــ إن كان له مال لنفسه. يأكل من مال نفسه، ويُثمّر لليتيم ماله مجاناً[١]، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: آية ٦] وهذه من الدلالات على أن هذا الشرع الكريم شرع سماوي، يراعي حقوق الضعيف، ويحافظ على مكارم الأخلاق.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ (حتىٰ) حرف غاية بمعنى (إلىٰ)، والمُغيَّا بها: النهي عن قرب مال اليتيم بغير التي هي أحسن، والمضارع بعد (حتىٰ)، منصوب بـ (أن) محذوفة، وهو في محل جر بـ (حتّى) والمعني بـ (حتىٰ): إلى. إلى أن يبلغ أشده. أي: إلىٰ بلوغ أشُده. وظاهر هذه الغاية ليس مراداً بإجماع العلماء[٢]، إذ ليس

= ص ١٦٧، كما أخرجه الشافعي في الأم (٢/ ٢٩)، وأبو عبيد في الأموال (١٣٠١)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٤٩ ــ ١٥٠)، والدارقطني (٢/ ١١٠)، والبيهقي (٤/ ١٠٧).
وانظر: الاستذكار (٩/ ٨٢)، تنقيح التحقيق (٢/ ١٣٨٤)، نصب الراية (٢/ ٣٣٣)، تلخيص الحبير (٢/ ١٥٨)، إرواء الغليل (٣/ ٢٥٩).
وإنما الذي ورد عن عائشة (رضي الله عنها) في هذا الباب إنما هو من فعلها، والله أعلم.

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٢١)، القرطبي (٧/ ١٣٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٢)، الدر المصون (٥/ ٢٢٠)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٨ ــ ٢٧٩).

المعنى: لا [تقربوا][(١)] ماله إلا بالتي هي أحسن، حتى يبلغ أشده، فإن بلغ أشده فاقربوه بغير التي هي أحسن. ليس هذا مراداً بإجماع العلماء، وإنما الغاية تتعلق بمحذوف دل المقام عليه، أي: فحتى يبلغ أشده، فإن بلغ أشده وآنستم منه رشداً فادفعوا إليه ماله.

وإنما كانت الغاية: لأنه إذا كان بالغاً أشده، مستكملاً قوته وعقلـه، لا يقـدر أحـد عـلى أن يغتصب منه مـالـه، فهـو كسـائـر الرجال.

والأشُد هنا: التحقيق الذي لا شك فيه أنه بلوغ الحُلم مع إيناس الرشد[(٢)]؛ لأن خير ما يفسر به القرآن القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: آية ٦] فدلت آية النساء على أن الأشُد في الغاية هنا: أنه أن يبلغ الحلم، ويُؤنس منه الرشد؛ لأن ببلوغ الحلم يتقوى بدنه ويكون في قوة الرجال، وبإيناس الرشد يتقوى عقله ونظره، فاجتمع أشده بدناً وفكراً ونظراً، فعند ذلك يُعطى ماله. وخير ما يُفسر به القرآن القرآن.

أما الأشُد من حيث هو: فهو يطلق على خمس وعشرين، وعلى ثلاثين سنة، وعلى أربعين، وعلى ستين، وعلى خمسين[(٣)]. ومن إطلاقه على الخمسين قول سحيم بن وثيل الرياحي[(٤)]:

---

(١) في الأصل: «تبلغوا» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٧٩).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٢٢)، القرطبي (٧/ ١٣٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٥٢)، الكليات ص ٥٤٠، الدر المصون (٥/ ٢٢١)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٤) البيت لسحيم بن وثيل، وهو في الأمثال لأبي عُبيد ص١٠٧، أنساب الأشراف (١٢/ ١٥٠)، القرطبي (٧/ ١٣٥).

أخـو خمسيـن مجتمـعٌ أَشُـدِّي ونَجَّـذَنـي مُـدَاوَرَةُ الشـؤون

فهذه الأقوال المروية عن العلماء في الأشُد ـ من خمس وعشرين، ثلاثين، أربعين، خمسين، إلى ستين ـ لا ينبغي أن تُذكر في هذا الموضع؛ لأن بلوغ اليتيم أَشُدَّه صرح القرآن بأنه بلوغ الحلم مع إيناس الرشد، كما أوضحته آية النساء ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: آية ٦] أما أقوال العلماء في (الأَشُد) فينبغي أن تكون عند آية قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: آية ١٥] لأن بلوغ الإنسان الأَشُد بالنسبة إلى غير دفع ماله إليه هو الذي ينبغي أن تكون فيه الأقوال المعروفة(١).

وكلام أهل اللغة في الأَشُدّ معروف(٢)، قال بعضهم: الأَشُد واحد لا مفرد له من لفظه، وإتيان المفرد على وزن (أفْعُل) نادر جداً، ومنه قولهم: «آنُك» و (الآنُك) هو الرصاص. وهو مفرد على وزن (أفْعُل)، وقال سيبويه: الأشُد جمع (شِدَّة)، كنعمة وأَنْعُم، وشِدّة وأشْدُد، أصله: (أَشْدُد)، وعلماء العربية يقولون: إن قول الشيخ سيبويه من قبيل اللغة معروف؛ لأن العرب يقولون: بلغ الغلام شِدته. إذا قوي واشتد، إلا أن جمع (فِعلة) على (أفْعُل) لم يُعرف في كلام العرب. أما قول سيبويه: «إن النعمة تجمع على أنْعُم» فقد قالوا: ليس ذلك كذلك، وإنما الأنْعُم جمع نُعْم، كما تقول العرب: نُعْمٌ وأنْعُم، وبُؤْس وأَبْؤُس. و (الفُعْل) قد يُجمع على (أفْعُل). وقال

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٣)، الدر المصون (٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢١)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٩).

بعض العلماء: الأَشُدُ جمع (شَدّ) ـ بالفتح ـ ككلب وأكْلُب، وشَدّ وأشْدُد.

والأشدّ: أصله (أشْدُد) حصل فيه الإدغام. وقال بعضهم: مفرده (شِدّ) بالكسر، كذئبٍ وأَذْؤُب. وهذه أقوال العلماء فيه. والمعنى صائر إلى شيء واحد.

والأَشُد هنا لا شك أنه بلوغ الحلم مع إيناس الرشد.

ومعنى (بلوغ النكاح) وهو بلوغ الحلم. وللبلوغ علامات معروفة عند العلماء[1]، منها السّن، وأكثر العلماء على أن سن البلوغ خمس عشرة سنة[2]؛ لأن النبي ﷺ في بعض غزواته ردّ أبناء أربع عشرة سنة، وأذِن في الغزو لأبناء خمس عشرة سنة[3]. فدل ذلك أنهم صاروا رجالاً. وعن مالك: أن أقله بالسن ثمان عشرة سنة. وعن أبي حنيفة: تفريق بين الذكور والإناث معروف في فروع المذاهب، وليس فيه تحديد بنص من النصوص، وإنما هي اجتهادات في تحقيق المناط، كل يقول: إذا بلغ هذه السن فقد بلغ مبلغ الرجال. وكان بعض العلماء واللغويين يرى أنه إذا كان خمسة أشبار أنه بلغ مبلغ الرجال[4]. وهذا القول يُروىٰ عن علي بن أبي طالب،

(١) انظر: الفتح (٥/ ٢٧٧)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٩).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٧٩).

(٣) البخاري في الشهادات، باب بلوغ الصبيان وشهادتهم، حديث رقم: (٢٦٦٤)، (٥/ ٢٧٦). وأخرجه في موضع آخر. انظر الحديث رقم: (٤٠٩٧).
ومسلم في الإمارة، باب بيان سن البلوغ، حديث رقم: (١٨٦٨)، (٣/ ١٤٩٠).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٧٩).

واعتمده الفرزدق في شعره حيث قال[(١)]:

مـا زالَ مُـذْ عَقَـدَتْ يـداهُ إِزَارَهُ فَسَمـا فـأَدْرَكَ خَمْسَـةَ الأَشْبَـار
يُدْنِي خَوافِقَ مِنْ خَوافِقَ تَلْتَقي فــي ظِـلِّ مُعتبـط الغبـارِ مثـار

فقوله ببلوغه «خمسة الأشبار» يعني أنه بلغ مبلغ الرجال. وأسباب البلوغ كثيرة معروفة في الفروع، منها: إنبات العانة، وليس المراد به إنبات الشعر؛ لأن الشعر ينبت عليها من الطفل، وإنما المراد خشونة وغلوظة تعرض للمحل عند البلوغ. والعلماء يذكرون له أسباباً كثيرة، ومنها بلوغ الحلم، كما قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور: آية ٥٩] أي: صاروا بالغين مبلغ الرجال ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ ومعنى (بلوغ الحلم): أن الصبي إذا رأى في نومه أنه يجامع لا ينزل منه منيّ، بخلاف البالغ، إذا رأى في النوم أنه يجامع، فإنه ينزل منه المنيّ، وذلك معنىٰ بلوغه الحلم. أي: إنزال المنيّ بسبب ما يراه في حلم النائم. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: فإن بلغ أشده فادفعوا إليه ماله إن آنستم منه رشداً، كما تقدم في سورة النساء.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن ظلم اليتيم حرام. ولمّا أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: آية ١٠] خاف الصحابة الذين عندهم أيتام، وعزلوا مال الأيتام عن مالهم، وطعامهم عن طعامهم، حتى صار ما فضل عن اليتيم من طعامه يبقى ولا يجد من يأكله، خوفاً منه، وربما فسد،

---

(١) البيتان في اللسان (مادة: خمس) (١/ ٩٠١)، ضياء السالك (٢/ ١٥٣)، أضواء البيان (٢/ ٢٧٩).

فشكوا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فأنزل الله آية البقرة المعروفة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ﴾(1) [البقرة: آية ٢٢٠] ﴿لَأَعْنَتَكُمْ ۚ﴾ أي: لحمّلكم العنت والمشقة بحفظ أموالهم وطعامِهم معزولاً عن طعامكم؛ لأن ذلك فيه حرج ومشقة، إلا أنه خوفهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ فمن خالط اليتيم، وخلط ماله بماله يريد مصلحة اليتيم والتوفير له، فالله يعلم نيته ويُثيبه، ومن كان يريد بمخالطة مال اليتيم وطعامه لطعامه أن يأكل مال اليتيم خديعة في غضون ذلك، فالله يعلم نيته، ويجازيه على ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾. وقال هنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال، وأتمها وأحوطها وأحفظها لمال اليتيم، بالمحافظة عليه، وتثميره وتنميته بالطرق المأمونة، التي يغلب على الظن أنها لا خسار فيها ولا ضياع. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، حديث رقم: (٢٨٥٤)، (٨/ ٧٣)، والنسائي في الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، حديث رقم: (٣٦٦٩، ٣٦٧٠)، (٦/ ٢٥٦)، والحاكم (٢/ ١٠٣، ٣٠٣، ٣١٨)، والبيهقي (٦/ ٢٨٤)، وابن جرير (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤)، والواحدي في أسباب النزول ص ٧٢ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وانظر: صحيح أبي داود (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥)، وصحيح النسائي (٢/ ٧٧٩)، وقد جاء ذلك أيضاً في روايات مرسلة عن سعيد بن جبير، وابن أبي ليلى، وقتادة، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد. انظر: ابن جرير (٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥٢)، أسباب النزول للواحدي ص ٧١ ـ ٧٢.

أي: يبلغ الحلم، ويُؤنَس منه رُشد، فادفعوا إليه ماله، وأشهدوا عليه إذا دفعتموه إليه.

ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ هذه أوامر اجتماعية عظيمة، تدل على كمال تشريع الإسلام، ورعاية دين الإسلام لمصالح البشر، كبيرها وصغيرها، جليلها وحقيرها.

والمكيال والميزان هما الآلتان التي جعلهما الله (جل وعلا) لتُضبط بهما المبيعات. وهذا من فضل الله ورحمته بخلقه؛ لأن الله خلق الإنسان محتاجاً للغذاء، ومفتقراً للنساء، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ولم يتركه سدى. فأنت محتاج إلى طعام أخيك، وأخوك محتاج إلى طعام آخر عندك، فلو لم يجعل الله المقادير بمكيال وميزان تَعْرِف به قَدر ما تدفع، وقدر ما تأكل؛ لتهارشتم على ذلك تهارش الحُمر والكلاب. فالميزان والمكيال آلات جعلها الله (جل وعلا) لخلقه ليأخذ كل واحد منهم غرضه من أخيه طيبة نفسه، عارفاً قدر ما أخذ، وقدر ما أُخذ منه، طيب النفس بذلك، بحيث ينتفع كلٌّ من أخيه، وتتبادل المصالح عن طيب نفس وسماحة وسخاء؛ ولذا قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ قال بعض العلماء: الكيل هنا معناه المكيال. وإيفاء الكيل وإيفاء المكيال راجعان إلى شيء واحد(١). وكذلك إيفاء الميزان، وإيفاء الوزن، معناهما واحد. والله (جل وعلا) يعلم أن بعض الأخِسَّاء من الذين يتولّون الكيل والوزن عندهم حيل دقيقة، ينقصون بها حقوق الناس إذا كانوا يكيلون للناس، ويزيدون حقوقهم إذا كانوا يكيلون

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٣٦).

لأنفسهم، فحذرهم الله من هذا الفعل الخسيس، وعظّم شأنه، وتوعد عليه التوعد العظيم الهائل بالويل؛ وذلك لأن المال هو شريان الحياة، والطعام الموزون المكيل هو الذي به حياة الدنيا وقوامها ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: آية ٨] فالآلات التي نُصبت عدلاً لذلك ينبغي الاحتياط الكامل في إقامتها على وجهها، وعدم الغش والخديعة فيها؛ ولذا كثُر في القرآن العظيم الإيصاء بإيفاء الكيل والوزن، كما قال جل وعلا: ﴿۞أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٨١، ١٨٢] وذكر الله عن نبيه شعيب مواضع متعددة من ذلك ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: آية ٨٥] وفي آية أُخرى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[1] [الأعراف: آية: ٨٥] والله جل وعلا يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: الآيات ٧ ـ ٩] ومن عصى هذه الأوامر، ولم يتتبعها، فيا ويله، ويا ويله؛ لأن خالق السماوات والأرض يقول في الذين يُخسرون الكيل والميزان: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ ويكفيك من التهديد والوعيد لفظة (ويل) المتوجهة من الله إلى من يفعل هذا الفعل الخسيس الدنيء الرذيل، ثم فسّر المطففين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ [المطففين: الآيتان ١، ٢] يعني: إذا كان الكيل لهم من الناس كالوا كيلاً وافياً. وإذا كالوا من متاعهم للناس أو وزنوا للناس يخسرون. أي: ينقصون

---

(١) والشاهد قوله تعالى قبله في نفس الآية: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

بالحيل الخفية؛ لأن من تمرّن على الكيل والوزن يعلم حيلاً لا يعلمها غيره، يحسب الناظر أن المكيال تام، وأن الميزان بتمام، وهناك نقص خفي يعرفه أصحاب الصنعة بحيلهم الدقيقة. هذا معروف، فحذرهم الله من هذا، وهذا يدل على أن كل من تولى مصلحة اجتماعية عليه أن ينصح إخوانه المسلمين فيها، فالقرآن يُذكر منه الآيات ليُنبه بها على غيرها.

فهذه مصلحة اجتماعية عامة؛ لأن كل الناس يحتاج إلى طعام يكيله، أو إلى حاجة يزنها، وهذا به قوام الناس في حاجاتهم ومصالحهم المتبادلة، فالذي يغش فيه وينقص ويُخسر خسيس من أخبث خلق الله، ويكفيه خبثًا ورداءة أن خالق السماوات والأرض يهدده بالويل، وأي شيء أعظم من تهديد الله للعبد بالويل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ ثم قال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: الآيات ١ ــ ٦]، ويُفهم من فحوى الآيات: أنهم إذا بُعثوا إلى ذلك اليوم العظيم، وقام الناس لرب العالمين، واجتمع الخلائق الأولون والآخرون في صعيد واحد، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، أن ذلك الخائن الناقص في الكيل والوزن يُنادى به على رؤوس الأشهاد، ويفتضح على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وفضيحة القيامة ليست كفضيحة الدنيا؛ لأن الإنسان يفتضح في الدنيا، ويضيع عرضه، ويبقىٰ صحيح البدن، سالماً يأكل ويشرب، غير متألم، وإذا كان رذيلاً دنيّاً لا يؤلمه ضياع العرض، إنما يتألم من ضياع الأعراض أصحاب الشؤون والهيئات والشرف. وقد ذكر العلماء أن أعظم ما يصاب فيه الإنسان بعد نفسه إنما هو

ـ مثلاً ـ قُرباؤُه: كأولاده، أو ماله، أو عرضه، أو دينه، فإذا أُصيب في دينه فتلافيه سهل؛ لأنه إذا أناب إلى الله قد يتوب الله عليه، وقد يكون انكسار التوبة يبلغ به مرتبة عند الله أحسن مما كان قبل فعل الذنب؛ لأن الإنابة إلى الله، والتوبة، والتذلل، والخضوع، والانكسار من الذنوب قد يكسب العبد درجة أعظم من درجته قبل أن يواقع الذنب، والمال قد يخلفه شيء بسيط، فصفقة واحدة قد يربح منها أضعاف ما خسر، والأنفس قد تُعوض بالولادة فيموت له ولد فيولد له عشرة أولاد، قالوا: أما العِرْض فإذا ضاع من الإنسان فلا شيء يخلفه؛ لأنه إذا ضاع عرضه، وعُرفت الفضيحة أمام الناس لم يمكن أن يداوي ذلك، ولو رجع إلى مكارم الأخلاق، فتلك الفضيحة بقيت فيه. لكن فضيحة الدنيا وإن كانت من أعظم المصائب، ففضيحة الآخرة أعظم وأطم؛ لأن المفتضح في الآخرة إنما يُفضح بذنوب تؤديه إلى العذاب والنكال يوم القيامة ـ والعياذ بالله ـ فعلى من ولّاه الله الكيل أو الوزن أن يحذر من الله، ويخاف من فضيحة الآخرة، ويوفي الكيل إيفاءً تاماً، ويوفي الميزان، ولا يغش وينصب فيستوفي لنفسه، وينقص للناس. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] القسط في لغة العرب معناه: العدل، والقَسط ـ بالفتح ـ الجور[1]، فالمقسطون من أهل الجنة، والقاسطون من أهل النار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: آية ١٥] لأن القاسط اسم فاعل القَسْط ـ بالفتح ـ من قَسَط الثلاثية، وهو الجائر الحائد عن الهدى. والمُقْسِط: من القِسْط، وهو العدل.

(١) انظر: المفردات (مادة: قسط) ص ٦٧٠.

ومعنى كونه بالقسط: أي: بالعدل التام، بحيث لا يزيد ولا ينقص، فلا يطلب المشتري زيادة على حقه، ولا ينقص البائع المشتري عن حقه، فليكن الحق كاملاً وافياً من غير [زيادة](١) ولا نقصان. وهذا معنى إيفائه بالقسط. ولما كان الإنسان قد يبالغ جهده في أن يوفي الكيل، وقد يتفاوت ذلك، فبعض المكاييل يبني عليه المكيل، ويرتفع بعضه فوق بعض، حتى يكون وافياً. وبعض الناس يجتهد في أن يفعل ذلك، ويختل عليه شيء من غير قصد منه، إذا كان الله يعلم صلاح نيته وقصده للإيفاء، إلا أنه وقع تقصير أو نقص من غير قصده، فهذا معفوّ عنه، بدليل قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] فهذا الإيفاء في الكيل والوزن الذي كلفناكم به إنما نعني به حسب ما تستطيعون، فمن بذل مجهوده في إيفاء الكيل والوزن ثم وقع نقص من غير قصده فهو معفوّ عنه؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. هذا سبب نزول الآية(٢)، وهي عامة؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: طاقتها. وهو الشيء الذي في طاقتها وقدرتها لا تعجز عنه، ولا يشق عليها مشقة عظيمة. وهذا من التسهيل على هذه الأمة، لا يكلفها الله ما أخطأت فيه، وما نسيت. وقد جاء في الذكر المحكم: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] وثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة: أن النبي ﷺ لما قرأ من خواتيم سورة البقرة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] قال الله: نعم قد فعلت.

---

(١) في الأصل: «تمام» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٨١).

(نعم) في رواية أبـي هريرة و (قد فعلت) في رواية ابن عباس، وكلتاهما ثابتة في صحيح مسلم[١]. والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] فالخطأ والنسيان وما لا يقصده الإنسان معفو عنه؛ ولذا قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] وهذه الآية عظيمة جداً، وهي من الآداب الاجتماعية العامة، البالغة في العظمة، وهي تشمل أشياء كثيرة، إذا كنت تشهد بحق فلا تشهد عند القاضي إلا بعدل، واخش شهادة الزور لأجل قريب، أو رشوة، أو غير ذلك، وإذا كنـت قـاضيـاً فـلا تقـل إلا الحـق، واحـذر أن تميـل لقـرابـة، أو لغرض، أو رشوة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: آية ٥٨] وإذا كلمت أخاك المسلم فلا تقل إلا عدلاً، ولا تقل له شيئاً يؤذيه، ولا تكذب عليه، وإذا حدثت عن قصة ماضية فلا تقل إلا عدلاً ولا تكذب، وإذا حدّثت عن الله فلا تقل في صفاته إلا اللائق الكريم، وإذا قلت في كل قول فلا تقل إلا أمراً كريماً عدلاً.

ومن حفظ لسانه، وكان لسانه معتدلاً لا يقول إلا ما يرضي الله فإن هذا من أحكم الآداب الاجتماعية التي يُطْفَأ بها الشرر العظيم المتفشي في المجتمع؛ لأن أكثر الأضرار الاجتماعية هي جنايات اللسان، وعدم اعتداله في قوله، فيقول على هذا ما لم يفعل، ويلمز هذا بما يؤذيه، ويشهد على هذا بالزور، ويحكم على هذا بالباطل.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

فإذا كان يزن قوله بميزان الشرع، ولا يقول إلا عدلاً، كان هذا من أعظم الآداب الاجتماعية، وأكثر المنافع للمجتمع، وأعظمها تفادياً لكثرة الأضرار الناشئة عن عدم العدل في القول؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يعني: لا تحملك قرابة أحد على أن لا تعدل في القول فتشهد له بباطل لقرابته، أو تشهد على خصمه بما يؤذيه، أو تشهد على الشاهد لخصمه إن جرحه، أو نحو ذلك، فلا تحملنك القرابة أن تقول إلا عدلاً، ولا يصدر منك كلام إلا على الحق والعدل المطابق لما يرضي الله[1]، كما قدمنا في قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ [المائدة: آية ٨] وفي الآية الأخرى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] أي: ولا يحملك أيضاً أن هذا فقير وهذا غني، فتشهد على الغني رحمة بالفقير، أو تكتم الشهادة على الفقير رحمة به للغني، لا تفعل هذا، فقل الحق على بابه كائناً من كان، على القريب، وعلى الفقير، وعلى الغني.

وآية النساء هذه: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ وما بعدها فيه سرّ أعظم، وتعليم أكبر؛ لأن الله يعلم أنه سيأتي في آخر الزمان مذاهب هدامة، تتصل إلى سلب حقوق الناس أموالهم بدعوى أن هذا فقير، وأن هذا غني، وأن هذا الغني ابتز ثروات الفقراء، وأنه ينبغي أن يُنزع مال الغني ليستوي هو والفقير باسم العدالة الاجتماعية!! فالله (جل وعلا) علم أن هذا سيقع، وبيّن حكمه قبل أن يقع، فقال: لا تتخذوا من كون هذا غنياً، وكون هذا فقيراً طريقاً

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٨١).

تتصلون بها إلى ظلم الناس، وأخذ أموال الناس، اتباعاً للهوىٰ ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ [النساء: آية ١٣٥] وتتخذوا من ذلك طريقاً تأخذون بها أموال الناس من غير رضاهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ فعلى المسلم أن يعمل بقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ فإذا أراد أن يتكلم تأمل في الكلام الذي يقوله، فإذا كان حقاً صواباً مرضياً لله فليقدم عليه، وإذا كان جوراً غير حق فليُحجم عنه، كأن يعيب الإنسان، أو يشهد بشهادة الزور، أو يحكم بباطل، أو يقول عن إنسان ما ليس فيه، أو يحكي قصة فيحرفها، إلى غير ذلك. وهذا من المصالح العامة التي تدل على أن هذا الدين سماوي، وأن هذا كلام خالق الخلق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] أي: ولو كان المقول عليه من شهادة أو حكم أو أنه ظالم ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: صاحب قرابة، حتى ولو كان على نفسك، كما بيّنته آية النساء.

ثم قال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ هذه أيضاً من الآيات العظام الشاملة للمسائل الاجتماعية والإلٰهية، فهي من غرائب التشريع؛ لأنها شملت أحكام دين الإسلام، لأن العهد المضاف إلى الله هنا هو على التحقيق يشمل أمرين:

أحدهما: عهد بين المخلوق والخالق، كالنذور التي ينذرها طاعة لله، والله يقول: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: آية ٢٩] وقد مدح أهل الجنة بذلك حيث قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: آية ٧] وقد يكون عهد الله فيما بين عبيده؛ لأن العهد فيما بينك وبين أخيك هو عهد لله؛ لأنه أخذ على كل منكما العهد أن يفي لأخيه بما عاهده عليه، وأن لا يفعل معه إلا

خيراً، ومن عهود الله التي يجب الوفاء بها: وصاياه التي أوصانا بها في هذه الآيات المحكمات، وجميع أوامره ونواهيه، وامتثال أمر الله واجتناب نهيه. كل هذه عهود الله على خلقه في جميع التشريع يجب الوفاء بها، وكذلك عهدك على أخيك، كأن تقول له: لك علي كذا. أو أشترط عليك كذا. أو أعهد إليك بكذا. فإنه يجب الوفاء في ذلك.

وفي هذه الآية تعليم عظيم؛ لأن كثيراً من الفقهاء غلطوا غلطاً فاحشاً في حديث، يرفع ذلك الغلط آيات من كتاب الله، منها هذه الآيات؛ لأن النبيَّ ﷺ جاء عنه في حديث أنه قال: «**من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مئة شرط**»[(١)]. فكان ابن حزم[(٢)] ومن غرّه كلامه، وكثير من الفقهاء الذين لم يتدبروا معاني القرآن، يظنون أن كل شرط لم ينص القرآن على عينه أنه باطل؛ ولذا أبطل بعض العلماء كثيراً من الشروط، كأن تشترط على أخيك كذا في البيع من أمر مباح، أو تشترط المرأة على الزوج في عقد النكاح أمراً مباحاً. ويقولون: هذه الشروط ليست في كتاب الله، فهي باطلة.

والتحقيق: أن كل شرط لا يُحل حراماً، ولا يحرم حلالاً فهو في كتاب الله؛ لأن الله أمر بالوفاء بالعهد أمراً عاماً، كقوله هنا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: آية ١] فكل شرط اشترطه مسلم على

(١) أخرجه البخاري في المكاتب، باب ما يجوز من شروط المكاتب، حديث رقم: (٢٥٦١)، (٥/ ١٨٧)، ومسلم في العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث رقم: (١٥٠٤)، (٢/ ١١٤١).

(٢) انظر: المحلى (٩/ ٤٤).

مسلم، ولم يكن هذا الشرط يبيح حراماً حرّمه الله، أو يحرم حلالاً أحلّه الله، بل كان مشترطاً أمراً جائزاً، فهذا الشرط في كتاب الله؛ لأن الله أمر المسلمين بالوفاء بالعهود في آيات كثيرة، وهي شروط عامة، كقوله هنا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ يعني: أن عهد الله هنا يشمل جميع الأمانات، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ويدخل فيه الوفاء بالنذور، ويدخل فيه عهود المسلمين بعضهم على بعض، وشروط بعضهم على بعض؛ لأن المسلمين عند شروطهم، فكل شرط اشترطه مسلم على مسلم، وكان ذلك الشرط لا يحل حراماً حرّمه الله، ولا يحرم حلالاً أحله الله، فهو في كتاب الله، لعموم الأدلة على وجوب الوفاء بالعهود. والشروط من أوكد العهود التي أمر الله بالوفاء فيها، وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ في الحديث المتفق عليه أنه قال: «**إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»[1] فما تشترطه المرأة على زوجها بالعقد إن كان لا يحل حراماً، ولا يحرم حلالاً.

أما الشرط الذي أحل حراماً، أو حرم حلالاً، فهو ليس في كتاب الله، فهو باطل وإن كان مئة شرط. وهذا معنى قوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾.

ثم أعاد الله (جل وعلا) الوصية وكررها علينا، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ذلكم المذكور في هذه الآية من التباعد من أكل مال اليتيم، ومن بخس المكيال والميزان، ومن عدم العدل في القول، ومن الإيفاء بالعهد. هذه الأمور التي أمركم الله بها، وحذركم عن

---

(١) البخاري في الشروط، باب: الشروط في المهر عند عقدة النكاح، حديث رقم: (٢٧٢١)، (٥/٣٢٣)، وطرفه في (٥١٥١)، ومسلم في النكاح، باب: الوفاء بالشروط في النكاح، حديث رقم: (١٤١٨)، (٢/١٠٣٥).

أضدادها وصاكم بها. أي: أمركم بها أمراً مؤكداً، فعليكم أن تحتزموا بها، فلا تقربوا مال اليتيم بغير الأحسن، ولا تقولوا إلا ما هو عدل، ولا تنقضوا العهود، إلى غير ما جاء في الآيات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قرأه هنا حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بتاء واحدة وذال مخففة، وأصله (تَتَذَكَّرُونَ) فحذفت إحدى التاءين. وقرأه الجمهور، وهم الباقون: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال وإدغام إحدى التاءين في الذال، وعلى قراءة حفص وحمزة والكسائي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[1] فقد حُذفت إحدى التاءين. والمضارع المبدوء بتاءين يجوز حذف إحداهما بقياس مطرد:

وَمَا بِتَاءَيْن ابْتُدِي قَدْ يُقْتَصَر   فيهِ على تَا كَتَبَيَّنُ العِبَر[2]

وعلماء العربية مختلفون اختلافاً لا طائل تحته ولا دليل عليه في التاء المحذوفة من التاءين هل هي تاء المضارعة أو التاء الأخرى؟[3] هذا الخلاف لا طائل تحته، ولا دليل عليه، والمدار على أن إحدى التاءين محذوفة. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٢].

كان بعض العلماء يورد في هذه الآيات سؤالاً، وهو أن يقول: عبّر في الآية الأولى بـ ﴿تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥١] وفي هذه الثانية

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (٢٠٤).

(٢) الخلاصة ص ٧٩.

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٣)، الدر المصون (٥/ ٢٢٣).

بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وأجابوا عن ذلك بأجوبة ـ الله أعلم بها ـ(١) منها: أن قالوا: إن المذكورات في الآية الأولى واضحة لا خفاء فيها؛ لأنها هي عدم الإشراك بالله، وعدم قتل الأولاد، والبر بالوالدين، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهذه أمور ظاهرة؛ ولذا قال لما كانت ظاهرة لا تحتاج إلى تفكر وتذكر، لظهورها ووضوحها، قال: قلت لكم هذا لتُدركوه عنِّي بعقولكم؛ لأنه أمر واضح. وأن المذكورات في الآية الأخيرة تحتاج إلى تأمل وإلى تفكر، كإيفاء الكيل والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وكالتحرّي في الأقوال ليعلم العدل منها من غير العدل، والوفاء بالعهود، أن هذه أمور فيها خفاء، فعبّر بعدها بالتذكر؛ لأنها تحتاج إلى تذكر. هكذا يقولون، والله تعالى أعلم.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] ذكرنا أنه جرت العادة أن الله ينوّه بالتوراة والقرآن معاً؛ لأنهما أعظم الكتب المنزلة؛ لأنه قبل / نزول [٢٣/أ] القرآن كانت التوراة أعظم الكتب المنزلة وأجمعها للأحكام، كما قال الله فيه: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ١٥٤]. فلما نزل القرآن كان أشمل كتاب وأعظمه؛ لأنه جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وزاد فيه أشياء لم تنزل على غيره؛ ولذا لما نزلت التوراة في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٤] نوّه

(١) انظر: ملاك التأويل (١/ ٤٨٠)، درة التنزيل وغرة التأويل ص ٧٤، البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص ٦٩، فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن ص ١٨١ ـ ١٨٢، البحر المحيط (٤/ ٢٥٣)، الدر المصون (٥/ ٢٢٢)، فتح المجيد ص ٤١.

بالقرآن العظيم بعده فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] ومثل هذا يتكرر في القرآن، كقوله في التوراة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩١]، ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] فأتبع التنويه بالتوراة التنويه بالقرآن، كقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: آية ١٢] وكقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ [القصص: آية ٤٨] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿ساحران تظاهرا﴾ [والجن][2] الذين استمعوا القرآن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ٣٠].

ومعنى الآية الكريمة: وهذا الذي تُتلىٰ عليكم آياته كهذه الآيات المحكمات: ﴿تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ...﴾ إلى آخر الآيات [الأنعام: آية ١٥١]، ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تُتلى عليكم آياته جامعة هذا من الأحكام والتشاريع، ﴿كِتَٰبٌ﴾ هو كتاب الله (جل وعلا)، الذي هو آخر كتاب نزل من السماء، وهو أعظم كتاب سماوي، على أعظم رسول أرسله الله في الأرض، فهو آخر الكتب السماوية، ونازلٌ على آخر الرسل وخاتمهم ﷺ، جمع الله فيه علوم الكتب السابقة؛ ولذا صار القرآن مهيمناً على الكتب السابقة، كما قدّمناه في سورة المائدة في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: آية ٤٨]

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٤١.

(٢) في الأصل: «واليهود» وهو سبق لسان.

ولذا ما حرّفه اليهود بيَّن القرآنُ أنه محرّف، وكان اليهود يختلفون في أشياء لا تعلم علماؤهم حقائقها، من غوامض التوراة، فبيّنها لهم القرآن، وأوضحها لهم، لهيمنته على الكتب قبله. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] أي: ويوضحه لهم، ولمّا أنزل الله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٦٠] قال اليهود: «ما حُرِّم علينا شيء بسبب ذنب، وإنما حُرِّم علينا ما كان محرّماً على أبينا إسرائيل من الأطعمة». وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام. فلمّا زعموا أن الله لم يحرم عليهم إلا ما كان محرماً من الطعام على إسرائيل كذّبهم القرآن، وألقمهم الحجر، فقال: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فلما قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ خافوا وخجلوا، ولم يأتوا بها(١).

وكذلك قصة اليهوديين الزانيين المشهورة(٢)، بأنه زنىٰ يهوديان

---

(١) انظر: ابن جرير (٧/ ٧) وقد مضى عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

(٢) الروايات الواردة في اليهوديين الزانيين كثيرة، ومنها الرواية التي أشار إليها الشيخ (رحمه الله) هنا وهي من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) في أن ذلك وقع من يهود (فَدَك) كما في مسند الحميدي (١٢٩٤)، وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٢٨٢) وعزاه للحميدي، وأبي داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه.

وقد رواه جماعة من غير ذكر (فَدَك) كما في سنن أبي داود (٤٤٢٨)، وأبي يعلى (٢١٣٦)، والبزار (كما في كشف الأستار ص ١٥٥٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٧١). =

من يهود خيبر أو ما يقرب منها، فأرسلوا ليهود المدينة: «سلوا لنا محمداً ﷺ عن حكم الزاني المحصن، فإن أتاكم بجَلد أو شيء غير القتل فاقبلوا حكمه، ونخرج من العُهدة أمام الله بأنهما حكم فيهما نبيٌّ كريم» لأنهم يعلمون أنه نبي كريم ﷺ. كما تقدم في قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: آية ٤١] يعنون: إن أعطاكم الحكم السهل من عدم رجم الزانيين فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا!! وعلى كل حال ثبت في الصحيحين في قصة الزانيين المشهورة أنهما أتوا بهم إلى النبيِّ ﷺ وحَكَّمه فيهم(١)، والنبيّ ﷺ قال: «**سأحكم فيهم بالحكم الذي أنزل الله في التوراة**» وهو الرجم. وكان رئيسهم الديني في ذلك الوقت: عبد الله بن صوريا الأعور، فقال له: ليس في التوراة الرجم. فقال النبيُّ ﷺ: «**بلىٰ، إن في التوراة لآية تدل على الرجم، فأتوا بالتوراة**». فجاؤوا بالتوراة، فقرأ ابن صوريا ما قبل آية الرجم وما بعدها، وجعل يده على آية الرجم يخفيها إخفاءً للحق، فجاء عبد الله بن سلام (رضي الله عنه وأرضاه)، وهو يهودي أصلاً من يهود بني قينقاع، وهو من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وأفاضل الصحابة الكرام، فهو الذي أنزل الله فيه في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ

= كما رواه بعضهم مختصراً وفيه ذكر (فَدَك)، كما عند الحميدي (١٢٩٥)، وأبي داود (٤٤٣١)، وابن جرير (١٠/ ٣١٠، ٣١٤)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٣١)، وعزاه في الدر (٢/ ٢٨٢) لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(١) هكذا العبارة في الأصل، والصواب أن يقال: «أنهم أتوا بهم إلى النبي ﷺ وحكموه فيهم...».

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾[١] [الأحقاف: آية ١٠] هذا الشاهد: هو عبد الله بن سلام، وكان أعلمهم بالتوراة، فقال لابن صوريا: ارفع يدك!! وقرأ آية الرجم، فحكم النبي عليهما بالرجم، ورجمهما الصحابة. وفي الصحيحين: أن بعض الصحابة رأى الرجل يجنو على المرأة. أي: ينحني عليها ليقيها الحجارة، فَرُجما وقُتلا[٢]. وهذا من هيمنة القرآن على الكتب، وإنما سُمي هذا القرآن كتاباً لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢] ومكتوب في صحفٍ عند الملائكة لما جُمع كله في بيت العزة في السماء الدنيا، كما في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: الآيات ١١ ــ ١٤] ولأنه مكتوب أيضاً عند المسلمين، كما قال: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾﴾ [البينة: الآيات ١ ــ ٣].

---

(١) كما في حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) عند البخاري، وكما جاء من حديث عبد الله بن سلام نفسه، عند الترمذي وابن جرير وغيرهما، وكذا حديث عوف بن مالك عند أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني في الكبير، وأبي يعلىٰ وابن جرير، وحيث إن الشيخ (رحمه الله) لم يورد رواية هنا فإني أكتفي بهذا الإجمال.

(٢) البخاري في المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾، حديث رقم: (٣٦٣٥)، (٦/ ٦٣١)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الأحاديث: (١٣٢٩، ٤٥٥٦، ٦٨١٩، ٦٨٤١، ٧٣٣٢، ٧٥٤٣)، ومسلم في الحدود، باب رجم اليهود، أهل الذمة، في الزنى، حديث رقم: (١٦٩٩)، (٣/ ١٣٢٦).

فلما كان مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الصحف عند الملائكة، وبالصحف بأيدي المسلمين قيل له: (كتاب) وأصل الكتاب: (فِعَال) بمعنى (مفعول) وإتيان (الفِعَال) بمعنى (المفْعُول) مسموع في لغة العرب في كلمات غير كثيرة، ككتاب بمعنى مكتوب، ولباس بمعنى ملبوس، وإله بمعنى مألوه، أي: معبود، ونحو ذلك في أوزان غير كثيرة.

وأصل مادة الكتابة، مادة (الكاف، والتاء، والباء) (كتب) معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناها: الضمّ والجمع، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض وجمعت بعضه إلى بعض فقد كتبته. ومن هنا قيل للخِيَاطة كتابة. وفي لُغَز الحريري[1]:

وكاتبينَ وما خطَّتْ أَناملُهم ... حَرْفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتبِ

يعني بالكاتبين: الخيّاطين. ومنه قول عمرو بن دارة يهجو بني فزارة من قبائل غطفان كانت العرب تعيّرهم بالفاحشة مع إناث الإبل، يزعمون أنهم يزنون بالنوق، تعييراً لهم، فعيّرهم هذا الشاعر فقال[2]:

لا تأمَنَنَّ فزارياً خَلوتَ به ... على قلوصِكَ واكتُبها بأَسْيَارِ

يعني: خط فرجها بأسيار لئلا يزني بها. وهذا معنى معروف في كلام العرب.

ومنه قيل للرقعة التي تكون في السقاء كُتْبَة، وقيل للسَّيُر الذي تُخاط به الرقعة أيضاً: (كُتْبة)؛ لأنه يضم الرقعة إلى

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٢) السابق.

السقاء، ومنه قول غيلان ذي الرمة(١):

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ كـأنَّـه مـن كُلَـى مَفْـرِيَّـةٍ سَـرَبُ
وفْـرَاءَ غَـرفيَّـةٍ أثْـأى خَـوَارِزَهَـا مُشَلْشَـلٌ ضَيَّعَتْـهُ بينهـا الكُتَـبُ

يعني: بـ(الكُتب): قيل: السيور التي تُخاط بها الرقع، أي: مَسْك الرقع، يُشَبّه كثرة دموعه بماء السقاء إذا اتسع موضع السير الذي خيطت به؛ لأنها جماعة ينضمّ بعضها إلى بعض، ويتشكل مع بعض، فسُميت الخياطة كتابة؛ لأن الخيّاط يضم طرفي الثوب أو الأديم، ويجمع بعضها إلى بعضٍ بالخياطة، كذلك قيل للكتابة (كتابة) لأن الكاتب يضمُّ نقوشاً بعضها مع بعض، يضع حرفاً منقوشاً ثم حرفاً ثم حرفاً، حتى يتكون من ذلك كلام يدل على المعاني؛ فلأجل هذا فالكتابة مصدر سيّال.

أي: وهذا قرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف عند الملائكة، وفي صحف مطهرة بأيدي المسلمين.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: هذا الكتاب أنزلناه من عندنا، ومن كلامنا. وصيغة الجمع للتعظيم، وجملة الفعل وفاعله في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ في محل النعت للكتاب(٢)؛ لأن النكرات تُنعت بالجُمل، كما هو معروف(٣). و(مبارك) نعت آخر(٤)، والأصل أن يُقدم النعت بالمفرد ثم بشبه الجملة ثم بنفس الجملة كما في قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ

(١) السابق.
(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٦)، الدر المصون (٥/ ٢٢٩).
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٦)، الدر المصون (٥/ ٢٢٩).

فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥ﴾ [غافر: آية ٢٨] فبدأ بالنعت بقوله: ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ لأنه مفرد، ثم أتبعه بشبه الجملة، وهي: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ثم أتبعه بالجملة ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥ﴾ هذا هو الأصل المقرر في المعاني. وربما قُدِّم النعت بغير الجملة، وربما قُدم النعت بغير المفرد على النعت بالمفرد. فمثال تقديمه بشبه الجملة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ فالجار والمجرور نعت قُدِّم على النعت المفرد في قوله: ﴿عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: آية ٣١] ومثال تقديم الجملة على المفرد قوله هنا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ نعت قُدِّم على النعت بالمفرد. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد(١):

وفي الحيِّ أحوى ينفُضُ الْمَرْدَ شادنٌ مُظاهِرُ سِمْطَى لُؤلُؤٍ وزَبَرْجَدِ

فإن قوله: (شادن ومظاهر) مفردان، قدّم قبلهما النعت بالجملة في قوله: «ينفض المرد» وهذا معروف(٢).

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ معناه: أن هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات، والخيرات، فمن تعلّمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سماه الله مباركاً فهو كثير البركات والخيرات قطعاً. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا. تصديقاً لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ونرجو أن يكون لنا مثل ذلك في الدنيا. وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلاّ الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛

---

(١) البيت في معلقته، وقوله: (أحوى): هو ظبي في ظهره خُطتان خضراوان. و (المرد): ثمر الأراك. و (شادن): ظبي ليس بالكبير. و (مظاهر): قد جمع بين اللؤلؤ والزبرجد. انظر: شرح القصائد المشهورات (١/ ٥٦).

(٢) انظر: النحو الوافي (٣/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧).

لأنه كلام رب العالمين؛ إذا قرأه الإنسان وتدّبر معانيه ففي كل حرف عشر حسنات في القـراءة، وإذا تدبر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصـول الحـلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات؛ لأنه نور ينير الطريق التي تميّز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، فهو كله خيرات وبركات، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين.

ومن غرائب الأشياء وعجائبها أن أكثر أهل المعمورة ممن يؤمنون بأنه كلام الله الذي أنزله على رسوله يطلبون الهدىٰ في غيره، ويطلبون التشاريع والتحليلات والتحريمات من غيره!!، فهذا من الغرائب! إذ كيف يعدل عاقل عن كلام خالق السماوات والأرض؟ فهو النور المبين، والحبل المتين الذي بيّنه سيد الخلق ﷺ بسنته الصحيحة. يعدل عن هذا زاعماً أنه ليس بصالح لهذا الوقت، وأن الحياة تطورت بعد نزوله تطوراً لا يلائم هذا القرآن!! ومن أنزل القرآن عالمٌ بما يحدث من التطورات، وما يكون، فجعل القرآن ديناً خالداً لا ينسخه دين، باقٍ إلى يوم القيامة، وهو عالم بما ينزل وما يحدث في الدنيا، بل لو عملت الدنيا أجمعها بهذا الكتاب الكريم لأزال جميع مشاكلها، وأزال عنها كل ضرر، ونظّم علاقات حياتها على الوجوه الكاملة، وأراها الطريق الواضحة التي تحصل بها على خير الدنيا والآخرة. وهو دائماً يحث على التقدم والرقي في جميع ميادين الحياة؛ لأنه كلام ربِ العالمين.

القرآن يحث الإنسان على أن يعطي جسده حظه، وأن يعطي روحه حظها[1]. وإذا قرأ الإنسان القرآن فهم كيف يدعو الإنسان إلى الجدِّ والكدح في هذه الحياة الدنيا، وإلى طاعة خالق هذا الكون، ونحن نقرر في المناسبات، وفي الدروس دائماً، أن هذا الحيوان الذي هو الإنسان، أنه حيوان مركب من جوهرين مختلفين بالذات اختلافاً جذرياً حقيقياً، وأصلاه اللذان تركب منهما متنافيان كل التنافي ـ أعني بهما روحه وجسده ـ فحقيقة الروح من العالم العلوي، والجسد من العالم السفلي، وبين الروح والجسد تباين وتنافي تام بالجوهر والعنصر وجميع الصفات. والله ركب الإنسان منهما، فالروح وحده ليس بإنسان، والجسد وحده ليس بإنسان، وإنما هو حيوان مركب منهما، ومعلوم أن الروح له متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الجسم، وأن الجسم له متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الروح، فللجسم متطلبات لا بد منها، كالقوة الجسمية، والله (جلّ وعلا) يحث على هذا كل الحث؛ لأن من أعظم أنواع تربية القوة الجسمية هو إعداد القوة الكافية، والوحدة حولها وحدةً حقيقية صحيحة، والله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] فهذه الآية الكريمة بظاهرها تساير التطور مهما بلغ التطور من أنواع القوة؛ لأن الله يأمر بإعداد كل ما يدخل في طاقة الإنسان من إعداد القوة ليتقوى بها المسلمون، ويردوا بها الهجوم المسلّح، ويحافظوا بها على بيضة الإسلام. فهذا من أعظم الأمر بأسباب القوة. وكذلك يأمر بالاجتماع؛ لأن البلايا كلها من المخايلات، وعدم اتحاد القلوب، واختلاف القلوب وتباغضها، وهذا هو السبب

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الأكبر للضعف، وهو السبب الذي يدخل منه العدو فيضرب بعضهم ببعض، ويبقون ـ مثلاً ـ لأن المختلفين لا ينجحون؛ ولهذا يقول الله في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٤٦] ويقول (جل وعلا): ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: آية ١٠٣] ويحض على الاجتماع النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، وقد بيّن القرآن في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، ومعاداة البعض للبعض أن منشأه إنما يكون من ضعف العقول، كما قال في قوم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: آية ١٤] ثم كأن قائلاً قال: ما الموجب الذي صيّر قلوبهم شتى وهم أمة واحدة متفقة في الأهداف والأغراض، ما الموجب الذي صيّر قلوبهم شتىٰ، أي: مختلفة متنافرة؟! فبيّن العِلة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وليس المراد هنا نفي العقل من أصله، والمعنىٰ: (أنهم لا يعقلون) نفي كمال العقل. يعني: أن عقولهم ليست ناضجة كما ينبغي، أمّا هم في الحقيقة فمن جملة العقلاء. وهذا يدل على أن هذه الفرق ـ التي تدّعي الإسلام ـ المختلفة، التي يبغض بعضها بعضاً، وإن تجاملت في ظاهر الأمر، أن سبب ذلك إنما هو ضعف العقول في بعضها.

وقد يكون المختلفان أحدهما عنده عقل كامل، يدعو إلى الطريق المستقيم بعقله المستقيم، والآخر ضعيف العقل، يفرّ من تلك الطريق ويخالف. فهذا من ضعف العقل. وقد بيّنا في هذه السورة الكريمة أن ضعف العقول وموتها علاجه القرآن؛ لأنه يصير به الميت حياً، ويصير به الذي كان في الظلام في النور ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] فبيّن أن اتباع القرآن حياة بعد الموت، ونور بعد الظلام؛ لأن تشريع خالق

السماوات والأرض، ينوّر الأفكار، ويضيء الطريق، ويدل الخلق على ما هم عاجزون عليه من مصالحهم. ولا شك أن هؤلاء الذين يعدلون عن القرآن، والله يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥٣] ويسميه النور الذي يضيء، فيرى في ضوئه كل حق، وكل باطل، وكل حسن، وكل قبيح، وكل نافع، وكل ضار؛ ولذا كثيراً ما يطلق على القرآن اسم النور، كما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢]، فالآيات المصرحة بأن هذا الكتاب نور، والنور هو الذي يُرى في ضوئه الحق حقاً، والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، إلى آخره. فالذين يعدلون عن هذا النور ــ الذي هو كلام رب العالمين، المبيّن بسنة سيد المرسلين ــ ﷺ ــ زاعماً أن هذا لا هدىٰ فيه، ويطلب الهدىٰ في نظم وضعية، ألفها خبثاء كفرة فجرة خنازير أبناء خنازير، أن هذا من طمس البصائر الذي يُؤسَف له، ويُبْكي العيون ــ والعياذ بالله ــ والحق الذي لا شك فيه أن الذي سبب هذا إنما هو طمس البصائر؛ لأن البصيرة إذا ضعفت جداً كانت لا تتحمل النور العظيم، والنور العظيم يقضي على ذي البصر الضعيف ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] فالذين يعدلون عن كتاب الله إلى نظم وضعية زاعمين أنها أحسن منه، وأبلغ في تنظيم الحياة في جميع ميادينها، فهم في الحقيقة بالحرف الواحد، والكلام المطابق: خفافيش البصائر، أعماهم نور القرآن، كما تعمي الشمس الخفافيش:

خَفَافيشُ أعماهَا النهارُ بضوئِهِ ووافَقَهَا قِطْعٌ من الليلِ مُظلم[(١)]
مثل النَّهارِ يزيدُ أبصَارَ الوَرَى نُـوراً ويُعمـي أعيـن الخُفَّـاشِ[(٢)]

والدليل على هذا أن الله بيّن أن الذي لا يعلم أحقية القرآن أن الذي منعه من ذلك عَمَاه، مع وضوح دلالة القرآن، قال: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فبيّن أن الذي منعه أن يعلم أنه الحق إنما منعه عَمَاه[(٣)].

إذا لم يكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصبحُ مُسفر

فلو حاولت أن تُري الشمس للأعمى لا تستطيع، فنور القرآن أعظم من نور الشموس، والذين يطلبون الهدى في غيره أضعف بصائر من الخفافيش، فمن هذا جاءت البلية. فعلينا جميعاً أن نعرف أن القرآن نور الله المبين، وحبله المتين، المعتصم به ظافر؛ والمحتج به غالب، لا يخذل من تمسك به أبداً لأنه كلام الله؛ ولذا قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] أي: ولا تتبعوا غيره من السبل الزائغة الضالة.

ومعنى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾: أَحِلوا حلاله، وحرموا حرامه، واعتقدوا عقائده، واعتبروا بأمثاله، وعاملوا أعداءكم بما فيه من الحِكَم؛ لأن القرآن يوضح جميع المرافق الحيوية من جميع مرافقها، وقد بيّناه مراراً، وسنضرب لذلك مثلاً بسيطاً؛ لأنه معروف أن جميع المصالح في الكتب السماوية، أنها تدور حول ثلاث، هي: دفع الضرر،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من هذه السورة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

المعروف بدرء المفاسد، الذي يُقال له في الأصول: (الضروريات)، وجلب المصالح، المسمىٰ في الأصول بـ(الحاجيّات)، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات. فجميع الشرائع السماوية إنما تدور حول هذه المصالح الثلاث. إمّا أن يتضمن التشريع نفي ضرر وإبعاد مفسدة، أو جلب مصلحة، أو جرياً على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات. وإذا نظرنا في كتاب الله وجدنا فيه العجب العجاب، الذي يبهر العقول من المحافظة على هذه المصالح. ولو تكلمنا على هذا لما وسع الوقت شيئاً قليلاً منه، ولكن نضرب بعض الأمثال فنقول مثلاً: أطبق عامة العقلاء أن المظالم التي تتظالم بها الناس في دار الدنيا، ويكون بعضهم ظالماً بعضاً، ومعتدياً على حق بعض، أنها هي الست المعروفة بالضروريات: ستة أشياء[1]، وهي:

أولها: الدين: والعدوان على الدين من أعظم الجنايات وأكبرها. ومن ذلك أن تكون أولاد المسلمين على الفطرة الصحيحة، وهم في غاية الاستعداد لقبول ما كان عليه آباؤهم من الدين والصلاح، فيأتيهم قوم فيجعلون لهم مدارس يعلمونهم فيها العقائد الزائفة، والإلحاد والفِكَر الهدامة، فيضيّعون دينهم. فهذا ظلم وعدوان على الدين، وهو من أعظم المظالم وأشنعها. هذا واحد من الستة، الدين.

الثاني: النفس: وهو الإنسان الذي يعدو على الإنسان فيقتله ويُذْهِبَ نفسه.

الثالث: العقل: ومن يعدو على الإنسان فيضيّع عقله.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الرابع: النسب: وهو من يتجرأ على المجتمع فيضيّع بعض أنسابه.

الخامس: المال.

السادس: العِرض.

فإن جميع المظالم في دار الدنيا تدور حول هذه الأشياء، وهي العدوان على دين الإنسان، أو العدوان على نفسه، أو العدوان على عقله، أو العدوان على نسبه، أو العدوان على ماله، أو العدوان على عرضه. فهذه الجواهر الستة التي تدور حولها المظالم في دار الدنيا، لا تجد نظاماً أحوط لها، وأحصن لها، وأشد محافظةً عليها من نظام السماء، الذي تضمنه هذا الكتاب المبارك، المنزّل من رب العالمين، فتراه يحافظ على الدين أشد المحافظة، فيقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] أي: حتى لا يبقىٰ في الدنيا شرك ولا فساد دين، ويقول: «من بدل دينه فاقتلوه»[1] ويقول: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: آية ٢١٧] يحثهم على أنهم يجاهدون كل المجاهدة من أراد أن يغيّر دينهم ويردهم عنه.

وأما النفس فقد جعل القرآن دونها حائطاً من حديد، وهو القِصاص؛ لأن أعظم صيانة للنفوس ومحافظة عليها: شرع القِصاص؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] ومعنى أن كون القصاص لنا به الحياة: أن الرجل ينزغ فيه الشيطان، فيغضب، فينوي أن يقتل الذي أغضبه، فيأخذ الخنجر أو السكين، أو آلة القتل، ثم يذهب مصمماً على أن يقتله، فيتذكر أنه

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

إن قتله يتذكر صَلْبَه على الخشبة مقدماً لولي المقتول ليقتله أمام الناس، فإذا تذكر ذلك الموقف الذي يصير إليه أمره خاف، وارتعدت فرائصه، وهاب القتل، فحيي المقتول، وحيي هو. وقَتْل نفس واحدةٍ قصاصاً يُحْيي الله به ملايين الأنفس. وهذه حكمة القرآن وشرعه.

وهؤلاء الكفرة الذين تشبعوا بالآراء الإفرنجية، الذين يقولون إن القصاص من السفاهات، أن هذا الرجل قتل رجلاً ونقص به عدد المجتمع، فكيف نضايف بأن ننقص عدد المجتمع برجل آخر؟!! هذه فلسفة شيطانية، أصحابها لا يعرفون الحقائق. فإن الرجل الذي قتلنا أحيينا بقتله آلاف النفوس؛ لأن الشيطان ينزغ بين الناس، ويُغضِب السفهاء حتى يُقدموا على القتل، ولا يردعهم إلاّ القصاص، فإذا أراد أن يقتل تذكر موقفه أمام الناس مصلوباً على خشبة، أو ممسوكاً مجعولاً على عينيه غطاء ليقتله ولي الدم، فإذا تذكر موقفه أمام الناس ليُقتل خاف وحاسب، فحيي هو، وحيي المقتول. ونحن نقول مثلاً ـ وقصدنا بيان دين الإسلام، ومحاسنه، وصيانته للحقائق، لا إطراء زيد ولا عمرو ـ أن هذه البلاد، لمّا كانت تحكم بالقصاص، وتقطع يد السارق ـ نرجو الله أن يُسدد الحاكمين عليها للخير، ويديمهم على الحكم بحكم الإسلام ـ إذا وُجدت الإحصاءات العالمية في جنايات القتل أو السرقة تجد هذه البلاد أقل من جميع البلاد المتحضرة المترقية حوادث وجنايات، فكل ذلك بفضل الله ثم بفضل هذا النظام السماوي، الذي وضعه خالق السماوات والأرض، حياطة للنفوس، وحياطة للأموال.

ثم إنا إذا وجدنا الأنساب، نجد الشرع الكريم حافظ على

أنساب المجتمع غاية المحافظة؛ ولذا حرم الزنى خَوْفَ أن يختلط ماء رجل بماء امرأة، وخَوْفَ أن تحمل النساء من رجال غير معروفين فتبقىٰ الأولاد لا آباء لهم، فتضيع أنسابهم؛ ولأجل محافظته على الأنساب أوجب العدة. عندما يحصل فراق بموت أو طلاق يجب على المرأة العِدة، بأن تمكث عدة معينة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨] وقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: آية ٤] بالغ في الصيانة حتى ألزم العدة للتي لا تحيض، مبالغةً في الصيانة جداً، حتى إنه من شدة محافظته على [الأنساب][1] منع سقي الزرع بماء غيره؛ ولذا منع تزويج المرأة الحامل؛ لأن الرجل إذا تزوج امرأةً حاملاً كان يسقي بوطئه لها ـ كان ماؤه يسقي ـ ذلك الزرع الذي كان في بطنها قبله، فسقي الزرع بماء الغير كأن الولد يكون فيه حظ لهذا وحظ لهذا، فمنع سقي الزرع بماء الغير حياطةً للأنساب، كما قال: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: آية ٤].

وإذا نظرنا العقول فلا نجد نظاماً يحافظ على العقل مثل نظام القرآن العظيم؛ ولذا حرّم شرب كل مُسكِر، كل شيء يضيّع العقل حرّم تعاطيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: آية ٩١] وأوجب الحد في شرب الخمر محافظةً على عقول المجتمع.

وكذلك الأعراض، منع القرآن وقوع المسلم في عرض أخيه،

(١) في الأصل: «العقول» وهذا سبق لسان.

قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: آية ١٢] ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: آية ١١] إلى غير ذلك من الآيات. ثم بيّن للإنسان خبث عرض أخيه وقال له: كأنك إن أكلت عرض أخيك، فأكلت لحمه، ووقعت في عرضه، كأنك أكلته ميتاً بعد أن أنتن، وصار فيه الدود، وصرت تبتلع لحمه، في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: آية ١٢] وهذا غاية التقبيح من الوقوع في أعراض الناس، والكلام فيهم بالغيبة. ثم إن الله جعل حدّ القذف ثمانين جلدة، حفاظاً على أعراض الناس ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: الآيتان ٤، ٥] كل هذا محافظة على أعراض الناس.

وأوجب حد السرقة محافظة على أموال المجتمع.

ونحن نذكر مراراً[(١)] أن الذين طمس الله بصائرهم، ونظروا إلى التشريع السماوي بنظرة غير صحيحة، وصوّره لهم أعداء الدين بصورة مشوهة غير حقيقية، يزعمون أن قطع اليد أنه عمل وحشي، وأنه لا ينبغي أن يكون في النظم التي يُعامل بها الإنسان، وهو عمل عدالة اجتماعية من أحسن الأعمال في العدالات الاجتماعية، ومن أحسن الأعمال في الآداب الروحية أيضاً، فهو عمل جامع بين الجسم والبدن، ذلك أن الله خلق هذه اليد، وفرق أصابعها، وأبعد إبهامها من سبابتها، فلو كان الإبهام موضوعاً بقرب السبابة كقرب الوسطى منها لما قدر أن يعقد شيئاً ولا أن يحل شيئاً. وشدّ له رؤوس أصابعه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

بالأظفار؛ لتكون هذه اليد خير أداة عاملة لبناء المجتمع، والمعاونة على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: آية ٢] فلمّا مدت أناملها الخائنة الخسيسة الخائسة لتأخذ مال الغير على أقبح وجه وأردئِه وأخسه كانت هذه اليد في نظر الشارع الذي خلقها كأنها نجسة، فنجست هذا العضو بقذارتها وقذارة خستها وفعلها، فأمر الشارع بإزالتها كعملية تطهيرية، كعضو فاسد يفسد جميع البدن وينتنه، فهي عملية تطهيرية لإزالة عضو منتن فاسد؛ ليصح بقية البدن ويطهر؛ ولذا ثبت في حديث عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين(١) ما يؤيد أنه إن أُقيم عليه الحد وقُطعت يده أن ذلك يطهِره من تلك الخسيسة، فتطهر بقية البدن، مع أن المال هو شريان الحياة الذي به إقامة كل شيء، إذ لا عسكرية إلا بالمال، ولا اجتماع إلا بالمال، ولا ثقافة إلاّ بالمال. فهو شريان الحياة وأساس حجرها الأساسي، الذي يتركز عليه كل شيء من مرافق الحياة. والسرقة أخذه على وجه خبيث خسيس يعسر التحرز منه؛ لأن السارق ينظر الغفلاتِ، وأوقات الخلوات التي لا يُطَّلع عليه فيها غالباً، فلو تركناه ولم نردعه ردعاً بالغاً لأمكن لليد السارقة الواحدة أن تبطل ملايين الأيدي، فتترك ملايين الأيدي عاطلة!! فكيف نترك يداً واحدة تعيث وتفسد آلاف الملايين من الأيادي؟! فبقطعها يطهر بقية البدن، فيغفر الله للإنسان تلك الخسيسة، فيطهر من ذلك التنجيس والتقذير المعنوي. ثم إنه بعد ذلك ينزجر السفهاء عن سرقة أموال الناس، فتكون عدالةً اجتماعية، وتطهيراً سماوياً من ذنب الخبيث، وهذه حكمة بالغة. فمعروف أن قطع السرقة فيه سؤال معروف، وهو أن

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

الجنايات على المال أنواعها كثيرة، كأن يغصبه من إنسان، أو يختطفه، أو يتعدىٰ عليه بعدوان غير السرقة. والله ما جعل القطع بنوع من العدوان على المال إلاّ في النوع الواحد الذي هو السرقة. فمن غصب مال إنسان مكابرة لا تُقطع يده، والعلماء أجابوا عن هذا(١): بأن العدوان على المال بالأوجه غير السرقة أنه غالباً يكون ظاهراً لا يخلو من أن يجد عليه بيّنة تشهد له عند ولي الأمر، فيردع وليُّ الأمر الظالمَ، ويرد للمظلوم حقه.

أما السرقة فلا تكاد توجد عليها البيّنة؛ لأن السارق يتحرىٰ أوقات الغفلات، وأوقات الخفاء الذي لا يطلِع عليها أحد، ولا توجد عليها بيّنة، فجعل الشارع الحد فيها أقوى وأجدى وأغلظ، لتبقىٰ للمسلمين أموالهم، وليطهِّر السارق أيضاً من رذيلته، وأمثال هذا كثيرة. فهذا هدي القرآن، ومحافظته على الحقوق، ومساواته بين الناس في الحقوق، إذا قتل أكبرُ رجل أصغر رجل يُقتل به. وهو يساوي بين الناس في حقوقهم. فاتباع نظام السماء إذا اتبعوه انتشرت بينهم المؤاخاة، والمحبة الصادقة، والعدالة الاجتماعية بمعناها الصحيح، والمودّة، والمحبة، والإنصاف. وإذا اعتدى بعضهم على بعض فالعمل السماوي النازل من عند الله (جل وعلا) في الردع عن ذلك الفعل هو أعظم الأشياء وأوقعها موقعها، ولكن من أعماه الله فلا مبصِّر له، من يُضلِه الله فلا هادي له.

وعلى كل حال فالهدىٰ كل الهدىٰ في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن يكون عليه من الصفات الكريمة من عدم الغش،

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

وعدم الخيانة، ومن السخاء، والتضحية، والمعاونة، والشجاعة، والصبر، والشكر إلى غير ذلك من أوصاف النفوس الحميدة، والنهي عن الأوصاف الخبيثة، كالعجب، والرياء، والحسد، والكبر، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. فيأمره كيف يعامل زوجه وأولاده أكمل معاملة. ومن أوضح ذلك أنه يحذره أولاً من ضرِّهم؛ لأن أولاده وزوجته قد يضيّعون دينه، والله يقول: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: آية ٩] فإن الأولاد قد يحملون الرجل على بعض المخالفات، والمرأة قد يحمله خاطرها على بعض المخالفات، والله يقول: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] فيأمرهم بالحذر أولاً من أن يوقعوهم فيما لا ينبغي، ثم إن الله يعلم أنه لا بد أن يقع منهم شيء يسوء الرجل، فبعد ذلك يأمره بالصفح والعفو عنهم، ويحذره أولاً منهم، ثم يأمره بعد الوقوع بالمعاملة الحسنة معهم: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
[٢٣/ب] رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ / أي: وإن وجدتم ما لا يليق فقابلوهم بالصفح والعفو والرحمة. يأمر أولاً بالحذر خوفاً منهم، وثانياً بمعاملتهم بالإحسان إذا وقع منهم بعض الشيء.

ويأمرنا بما نعامل به الأعداء، وما نعامل به الإخوان، يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: آية ٢٩] فالمسلم رحيم بالمسلم، شديد على عدو المسلم، وقال (جل وعلا): ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٥٤] فيبيّن أن صفات المسلم أن يكون ليناً هيّناً على أخيه المسلم، وأن يكون غليظاً فظاً على أعدائه؛ ولذا يقول للنبي

في حق المسلمين: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: آية ٨٨]، ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: آية ٢١٥] ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] ويقول في غير المؤمنين: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: آية ٧٣] ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: آية ١٢٣].

وجميع ما في القرآن والسنة هو الهدي الصحيح الذي ينير معالم الطريق للإنسان في جميع المصالح الدنيوية والأخروية، ويجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وإذا قرأتم آيتين من سورة النساء فيهما صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء: آية ١٠٢] إلى آخر الآيتين. هذا وقت التحام الكفاح المسلَّح. والمفروض أن الرجال يموتون. والقرآن في هذا الوقت يعلّم المسلمين وجه الخطة العسكرية، وكيف يكونون؛ ليمكنهم بذلك أن يؤدوا لله (جل وعلا) طاعة من طاعاته، وأدباً روحياً من آداب السماء، وهو الصلاة في الجماعة.

فهكذا يكفل القرآن المحافظة والقوة في الدنيا، والاتصال بخالق هذا الكون، وتهذيب الروح على ضوء تعاليمه، والاتصال به. ويقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: آية ٤٥] فقوله: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ هذا تعليم سماوي عسكري، ومعنى: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ هو أمر العسكريين بالصمود في خطوط النار الأمامية في وجه العدو في الميدان. وهذا تعليم

عسكري قوي، وفي هذا الوقت بعينه يقول: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ فعاملوا الأعداء في الدنيا بالقوة والغلظة بجميع أنواعها، ولا تقطعوا صلتكم بمن خلقكم لتأكيد حظ أجسادكم وحظ أرواحكم. ومن أخل بأحد الطرفين ظهر فيه ما ظهر. الآن[1] الكفرة كالكتلة الشرقية والغربية نجحوا في خدمة الإنسان من حيث كونه حيواناً جسدياً، وأنتجوا من القوة المادية والتنظيمية ما كان لا يدخل في حسبان أحد حتى في النوم، ولكنهم أفلسوا كل الإفلاس في الناحية الروحية؛ لأن أرواحهم خبيثة كأرواح البهائم والسباع، ليست مُرباة على ضوء نورٍ سماوي، ولا تعليم إلهي، فصارت هذه القوة الطاغية كأنها في يد سفيه جاهل لا يدري ماذا يفعل بها؛ ولذا تجد العالم كله في قلق من أن تنفجر هذه القوة وتُفني كثيراً من الدنيا، وتراهم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر، والمجلس بعد المجلس ليتخلصوا من تلك القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس.

وأنا أؤكد لكم تماماً أنه لو كان أحد الطرفين يعلم أنه لو بادر فدمر ما عنده من القوة الفتاكة لفعل الثاني كما فعل أنهم يبادرون ليتخلصوا من شرها وخوفها والقلق بها، ولكن الكل يخاف إن بدأ بإتلاف ما عنده أن يحتفظ الثاني بالقوة التي عنده ويهلكه بها، في الوقت الذي ليس عنده قوة تدافعها. كل هذا إنما جاءهم من أنهم أهملوا ناحية الروح، واعتنوا بناحية الجسد. والاهتمام بناحية الجسد لا ينفع ولا يصلح إلّا إذا كان مزدوجاً مع الاهتمام بالروح. فلو كانت الأيادي التي صنعت هذه القوة مرباة تربية سماوية على ضوء نور إلهي لكانت في غاية العدالة، وكان الناس في أمن تام أنهم لا يبطشون بها

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

إلا في أمرٍ يرضي الله ويكون في مصلحة العالم البشري؛ ولذا فهم كأنياب الأسد وأظفاره. أنياب الأسد وأظفاره قوة حيوانية بهيمية فتاكة، ولكن النفس التي تديرها نفس بهيمية طبيعتها الافتراس والابتزاز والهدم، فلا مصلحة بها لبني الدنيا؛ لأن الذي يديرها يوجهها توجيهاً لا فائدة فيه. كذلك المسلمون عندهم تراث عظيم روحي، ضيعوا هذا التراث!!

وكان الواجب على المسلمين أن يفهموا أن ما أنتجته الحضارة الغربية من خدمة جسم الإنسان أن فيه أشياء نافعة عظيمة، يجب أخذها، وهو ما أنتجته من القوة من الناحية المادية والتنظيم، وأن فيها أضراراً عظيمة، وسموماً قاتلة، وهي ما أحدثته من الإفلاس الخُلُقي، والتمرد على نظام السماء، والكفر الصريح، والانحطاط الخلقي في جميع ميادين الأخلاق والقيم الإنسانية الروحية، فهم مفلسون في هذه الناحية، أغنياء في هذه الناحية. فكان على المسلم أن يعلم أن الحضارة الغربية أنتجت ماءً زلالاً نافعاً، وسمّاً فتاكاً قاتلاً، فيأخذ الماء الزلال، ويحذر من السمّ القاتل، فينتفع بتعلم ما أحدثته من القوة في سائر الميادين، وفي ذلك يأمر القرآن، ويحذر مما جنته من التمرد على نظام السماء، حتى إن بعض الكاتبين منهم لينفون خالق السماوات!! وبعض طرقهم الهدامة مبناها على أنه لا خالق لهذا الكون ولا دين والعياذ بالله.

والمؤسف كل الأسف أن أغلب من يديرون الدفة ــ إلا من شاء الله ــ غالباً يعكسون الأمر فيأخذون من الحضارة سُمّها الفتاك، وهي الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ورمي القرآن وراء ظهورهم، في الوقت الذي لا يستفيدون فيه قوة.

ما أحسنَ الدينَ والدنيَا إذا اجتمعَا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ[(١)]

فعلينا أن نعلم أنه لا يكفي نصيب الروح دون نصيب الجَسد، ولا نصيب الجسد دون نصيب الروح. فلو بقي المسلمون في المساجد يصومون النهار، ويقومون الليل، ويتلون القرآن، ويعبدون الله، ولم يزاولوا شيئاً من القوة التي يردون بها الكفاح المسلح عن أوطانهم، كانوا لم يأتوا بمدلول القرآن، ولم يطيعوا الله؛ لأن التكاسل والضعف، وعدم إعداد القوة مخالفة للشرع السماوي، وتمرد على نظام السماء. وكذلك الذين أعدوا جميع القوة، وخالفوا أوامر خالق السماء، فالكل من هؤلاء وهؤلاء ليس على هدىً، والهدىٰ ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه، وهو إعداد القوة الكاملة في جميع الميادين، مع المحافظة على إرضاء خالق هذا الكون، والعمل بما شرّعه من تحليل وتحريم وآداب ونحو ذلك؛ ولذا قال الله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يعني: اتبعوا ما فيه [من الهدى والرشاد، فإنكم لو فعلتم ذلك...][(٢)] لكفاكم شر الدنيا وشر الآخرة، ولكنتم خير أمة، وفقتم جميع البشر، وغلبتم جميع من في الدنيا؛ لأن من أطاع الله صار حِزْبَ الله، وحزب الله لا يُغلب، وطاعة الله والتمسك بكتابه هي جند لا يُغلب. فالله (جل وعلا) يأمر المؤمنين بالاستعداد، مع أن إيمانهم بالله قوة لا يغلبها شيء.

فنحن نعطيكم أمثلة قرآنية تدلكم على ذلك: ألا تعلمون غزوة الأحزاب، المعروفة بغزوة الخندق، التي قصّها الله في سورة الأحزاب، أن المسلمين كانوا في قلة عدد، وفي جوع، وفي ضيق

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص ١٧٤ .

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

اقتصاد، وجميع من في الأرض من الناس يقاطعهم في السياسة والاقتصاد، لا روابط بينهم وبين أحد لا سياسية ولا اقتصادية، وجاءتهم تلك الجيوش جيوش الأحزاب ومعها اليهود وقريش، وجاؤوا بعشرة آلاف مقاتل، وحاصروا المدينة ذلك الحصار العسكري التاريخي المشهور، الذي نوّه الله بشأنه، وصف شدته البالغة في سورة الأحزاب بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ من الله أمر عظيم فظيع!! هذا الحصار العسكري، المسلمون في ضعف من العَدَد والعُدَد والعتاد والمال، وجميع الناس يقاطعونهم. فما هذا السلاح الذي قابلوا به هذا الحصار العسكري، والقوة العسكرية الشيطانية؟! الجواب: هو سلاح الإيمان بالله (جل وعلا)، كما نص الله عليه بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٢] هذا الإيمان الثابت الراسخ بالله، والتسليم لله، كان هو السلاح القاضي على هذه الأعداء، صرّح الله بنتيجته بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٥] يعني: إن كنتم ضعافاً أذلاء فهو قوي عزيز لا يذل من التجأ إليه، ولا من أخلص له حقاً. ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾ ثم ختم وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٦، ٢٧] إن

كانت قدرتكم ضعيفة فقدرته ليست بضعيفة، فهو قوي قادر لا يغلب، ولا يُغلب من كان حزبه حقاً.

ولما علم الله من الذين بايعوا النبيّ ﷺ تحت شجرة الحديبية علم من قلوبهم الإخلاص والإيمان الكامل، ونوّه به بالاسم المبهم ـ الذي هو الموصول ـ بقوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: آية ١٨] يعني: إخلاصاً وإيماناً كما ينبغي، فكان من نتائج ذلك الإخلاص والإيمان التام بالله أن قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فصرّح بأن إمكانياتهم العَدَدية والعُدَدية لا تقدرهم عليها، قال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، لأنه القادر، فأقدركم عليها بقدرته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾ [الفتح: آية ٢١]، فالمسلمون إذا استمسكوا بالدين غلبوا الأعداء. وهذا الذي ذكر الله يوم الخندق شيء ما كان في حسبانهم، وما كانوا يظنونه، فهو أمر إلهي من الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٩] فالمسلمون إذا تمسكوا بالدين كما ينبغي، فالقرآن يأمرهم بإعداد القوة الكاملة، ولو باغتهم العدو قبل أن يستعدوا العدة الكاملة و (. . .)(١) للكفاح، فالنصر يأتي من السماء من حيث لا يدرون، فقد يسلط الله على العدو الطاعون فيهلكه، وقد يسلط عليه عدواً آخر فيهلكه، وقد يخالف قلوب بعضه فيضرب بعضه بعضاً. والنصر يأتي من الله من الوجوه التي لا يعرفونها.

فالحاصل: أن القرآن لا يأمر بالتكاسل والتواكل، بل إنما يأمر

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والمعنى مستقيم بدونها.

بالقوة والاستعداد لكل هجوم، والمتمسك به أيضاً لو بُوغت قبل أن يستعد، أو في حالة ضعف فإن الله يقويه وينصره على عدوه بالطرق التي يعلمها هو وحده، وإن لم تكن في حسبان المسلمين، كما نصر أهلَ الأحزاب ـ النبيَّ ﷺ وأصحابه ـ بالريح وبجنود لم تروها، نصرهم بالريح، كلما نصبوا خِباءً في البر نسفته الريح، وكلما وضعوا قدراً ليطبخوا فيه نسفته الريح. فبقوا مثلاً لا قرار لهم، لا كِنَّ يكنهم، ولا طعام يأكلونه، فاضطروا للفرار، حتى قال رئيسهم أبو سفيان بن حرب: ارتحلوا وأنا أول مرتحل.

وكان حذيفة بن اليمان العبسي (رضي الله عنه) معهم في ذلك الوقت عيناً من النبي ﷺ، ذكروا عنه في السيرة أن أبا سفيان ركب على بعيره وهو معقول، قال: وأنا الذي فتحت عقال البعير، ولو لم يأمرني النبيّ بأني لا أحدث شيئاً لكنت قتلت أبا سفيان في ذلك الوقت(١).

هـذا ديـن الإسـلام، وهـذا شـأن المتمسكيـن بـه، أمـا الـذيـن ينصرفون عنه ويتركونه محتقرين إياه، زاعمين أنه لا يُنظِّم الحياة، وأن الحياة تطورت، وأن تنظيم علاقات الدنيا يحتاج إلى أمور جديدة، كما يرتبه الكفرة الفجرة، هؤلاء عُمي البصائر، خفافيش البصائر، وإن سموا أنفسهم مسلمين، فالنصر لا يأتيهم من عند الله؛

---

(١) أصل الخبر في صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، حديث رقم: (١٧٨٨)، (٣/ ١٤١٤)، وانظر: السيرة لابن هشام ص ١٠٤٣ ـ ١٠٤٤، وما ذكره الشيخ (رحمه الله) هنا من أن حذيفة (رضي الله عنه) هو الذي حل عقال بعير أبي سفيان، لم أقف عليه في شيء من المصادر التي رجعت إليها.

لأن الله ميّز الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم بصفاتهم الكاشفة، قال في الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم في سورة الحشر تمييزاً كاشفاً: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ من هم الذين وعدهم الله بالنصر؟ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: الآيتان ٤٠، ٤١] أما الذين إذا مكن لهم في الأرض غيروا معالم الدين، وضيّعوا الشرع، ووضعوا المذاهب الهدامة، وأضاعوا ما في الإسلام من أخلاق، وغيروا معالم الدين، وجاؤوا بالفساد والطرق الملحدة المستوردة، هؤلاء ليس عندهم وعد من الله بنصرٍ البتّة، ومثالهم مثال العامل الذي عاقده رجل ليعمل له فامتنع من أن يعمل، ثم لما جاء الوقت جاء لصاحب العمل، وقال: أعطني أجرتي. قال: كيف تطلب مني أجرتك وأنت لم تعمل شيئاً؟ أنت رجل مجنون!! فهؤلاء مثل هذا يعصون الله ويناصبونه بالعداء، ويغيّرون معالم دينه، ويتحاكمون إلى الطاغوت، ثم يقولون: نحن مؤمنون ينصرنا الله!! هذا جنون وهَوَسٌ وقلب للحقائق. فالمؤمنون الذين ينصرهم الله هم الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا دينه وشرعه، وعملوا بنور كتابه، كما قال هنا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ قال بعض العلماء: اتقوا تحريفه وحمله على غير معانيه. وقال بعض العلماء: اتقوا الله واجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه باتباع هذا القرآن العظيم[١]. وعلى كل حال فمتبع القرآن مُتّقٍ. فقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ كالعطف المؤكد لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٣٩)، القرطبي (٧/ ١٤٣).

﴿تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ اتبعوه لأجل أن يرحمكم الله، أي: اتبعوه راجين أن يرحمكم الله.

ثم إن كفار قريش كانت لهم حجة قطعها الله تبارك وتعالىٰ خصوصاً لكفار قريش: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: الآيتان ١٥٦، ١٥٧] هذا قطع لحجة كفار مكة، وإلقام لهم الحجر. يعني: هذا كتاب مبارك أنزلناه بلغتكم الواضحة الفصحىٰ.

أنزلناه ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ (أن) هنا: اختلف البصريون والكوفيون في المقدر قبلها[1]، فكان البصريون يُقدّرونه مضافاً. يعني: أنزلنا عليكم هـذا الكتاب بلغتكم كـراهة أن تحتجوا حجة باطلة و ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وكراهة أن تقولوا: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾. والكوفيون يقولون: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ لئلا تقولوا كذا أو تقولوا كذا. فهو متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ فـ (أن) متعلقة بـ ﴿أَنزَلْنَآ﴾، بعضهم يُقدِّر: (أنزلناه كراهة أن تقولوا كذا) وبعضهم يـقـول: (أنزلناه لئلا تقولوا كذا). وهذا جارٍ في كل ما يماثله في القرآن، نحو ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: آية ١٧٦] أي: لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: آية ٦]، كراهة أن تصيبوا، أو: لئلا تصيبوا. وهو كثير في القرآن. وبعض العلمـاء يقـول: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: العـامـل فيـه محـذوف؛ لأن ﴿أَنزَلْنَآ﴾

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٣٩)، البحر المحيط (٤/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، الدر المصون (٥/ ٢٢٩).

المذكورة حالَ بينها وبين المعمول أجنبيٌّ. والمعنىٰ متقارب، والمعنى: كأنه يقول: يا كفار مكة: أنزلنا هذا الكتاب المبارك بلغتكم وبلسانكم كراهة أن تتعللوا بعلل فاسدة، وأن تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ﴾ وهم: اليهود والنصارى. وكتاب اليهود: التوراة، وكتاب النصارى: الإنجيل.

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ لأن الطائفتين كلاهما جماعة وخلق[1]. فقال: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ ولم يقل: «عن دراستهما».

﴿غَٰفِلِينَ ١٧﴾ وإنما غفلنا عنها لأن لسان هؤلاء أعجمي، ولساننا عربي، ولا نفهم كلامهم، ولا يفهمون كلامنا. فلو أردنا أن نعرف منه أوامر الله ما قدرنا؛ لأنه ليس بلغتنا ولا بلساننا، ولا نفهم ما يقول أهله، ولا يفهمون ما نقول. يعني: كراهة أن تقولوا هذه الدعوىٰ، وتعتلوا هذا الاعتلال أنزلنا عليكم كتاباً سماوياً واضحاً بلغتكم، لنقطع هذا العذر. أي: أنزلناه لئلا تقولوا. أو: كراهة أن تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ اليهود، وهو: التوراة، والنصارىٰ، وهو: الإنجيل.

﴿وَإِن كُنَّا﴾ (إن) هي المخففة من الثقيلة[2]. وهي هنا مهملة لا عمل لها.

واللام في قوله: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لام الفرق، الفارقة بين (إنْ) المخففة من الثقيلة، و (إنْ) النافية[3]. وكونهم غافلين عنها

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٧)، الدر المصون (٥/ ٢٣٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٥٧)، الدر المصون (٥/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، الكليات ص ٧٨٣.

لا يفهمونها لأنها ليست بلغتهم، ولا يعرفون معانيها؛ لأنها ليست بلغتهم. يعني: فقد قطعنا هذا العذر، وأنزلنا إليكم كتاباً بلسانكم. أو تقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل التوراة على اليهود، أو كتاب كما أُنزل الإنجيل على النصارى، لعملنا بذلك الكتاب، وكنا أهدى منهم، ولكننا لنا عذر، وهو أنهم أنزل عليهم كتاب، ونحن لم ينزل علينا كتاب. هذا العذر. ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ فكأن الله يقول: إن ادعيتم هذه الدعاوي، واعتللتم بهذه العلل، فقد جاءكم كتاب منزل بلسانكم ولغتكم، تعرفون معناه فسمى القرآن (بيّنة) لأن البيّنة هي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، وسُمي الشهود (بيّنة) لأنهم يبيّنون الحق بشهادتهم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هدى إرشاد للجميع، وهدى توفيق لمن اتبعه. ورحمة يرحم الله به من عمل به من عباده المؤمنين ووفقه لذلك.

ثم إن الله قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهم كفار قريش، بعد أن نزل عليهم الكتاب، وقطع به عذرهم، ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقال: هي سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ صدف تستعمل استعمالين[1]: صدف تستعمل

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٤٤)، القاموس (مادة: صدف) ص ١٠٦٨، البحر المحيط (٤/ ٢٥٨)، أضواء البيان (٢/ ٢٨٢)، وقد مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

بمعنى: أعرض. تقول: صدفت عن الأمر، أصدف عنه. بمعنى: أعرضت عنه. ومنه قول الشاعر(١):

إذا ذكَرْن كلاماً قلنَ أحسنَه ... وهُنَّ عن كل سوءٍ يُتَّقىٰ صُدُفُ

أي: عن كل سوء معرضات. ومنه قول عبد الله بن رواحة أو غيره(٢):

عجبتُ للطف الله فينا وقد بدَا ... له صَدْفُنَا عن كلِّ وحي مُنزّلِ

أي: إعراضنا. وعليه فـ(صَدَفَ) لازمة، بمعنى: أعرض. وتستعمل (صدف) متعدية، تقول: صدف زيدٌ عمراً. أي: صدّه عن طريقه، وجعله معرضاً عنها.

واختلف العلماء في (صدف) هنا، هل هي متعدية محذوفة المفعول؟ وهو قول السُدّي(٣). وهو الظاهر؛ لأنه يكون جامعاً بين الضلال والإضلال. ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ﴾ أي: كفر هو بنفسه، وصدف الناس. أي: صدّ الناس عن الإيمان بها، فهو جامع بين الضلال والإضلال. وعلى هذا القول لو قلنا: إن (صدف) لازمة، تتكرر مع قوله: ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ﴾ لأن المكذب بآيات الله صادف عنها، فيكون تكراراً. وروي عن ابن عباس أن (صدف) هنا لازمة(٤). أي: كذب بآياتنا وأعرض عنها. ووجهه: أنه كذب بها بلسانه، وأعرض عنها

---

(١) البيت لابن الرقاع، ولفظه في المصادر التي وقفت عليها، ومنها: أضواء البيان: «إذا ذكرن حديثاً»، وقد مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٤٤)، أضواء البيان (٢/ ٢٨٢).

(٤) المصدران السابقان.

بجوارحه. كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [القيامة: آية ٣١] أي: لا صدق بلسانه، ولا صلى بجوارحه.

وقوله: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ سنجازي الذين يصدفون. أي: يصدون الناس ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾. بناءً على أن صدف متعدية. أو سنجزي الذين يعرضون ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ بناءً على أنها لازمة.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي: سنجزيهم العذاب السيء. وهذا يدل على أنها متعدية؛ لأن ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ عذابٌ مضاعف لضلالهم وإضلالهم، كما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كفروا في أنفسهم، وصدوا الناس عن سبيل الله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: آية ٨٨] أي: لإضلالهم وضلالهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ۝١٥٧﴾ وفي هذه الآية بعض الأسئلة المعروفة اللغوية:

أحدها: أنه قال: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ﴾ فأفرد الكتاب، ثم بيّن بقوله ﴿عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ﴾ أنهما كتابان، كيف يفرد الكتاب، وهما كتابان، التوراة والإنجيل؟ هذا سؤال وارد معروف.

والجواب عنه معروف، وهو أن المفرد إذا كان اسم جنس جاز استعماله مفرداً مراداً به الجمع أو التثنية؛ لأن المراد به الجنس في حالاته الثلاث. ونعني بحالاته الثلاث: أن يكون مُنكَّراً، أو مُعَرَّفاً بالألف واللام، أو مضافاً. ونحو هذا كثير في القرآن[1].

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

فمن أمثلته معرفاً قوله هنا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ وليس بكتاب واحد. وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: آية ١١٩] أي: بالكتب كلها. ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: آية ٤٥] أي: الأدبار. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] أي: الغرف بدليل: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: آية ٢٠]. وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: والملائكة بدليل قوله: ﴿صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: آية ٢٢] لأن الملك الواحد لا يكون صفاً صفاً. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [النور: آية ٣١] أي: الأطفال. وهو كثير.

ومثاله واللفظ مُنكَّر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار. بدليل: ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: آية ١٥] ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: آية ٥]. أي: أطفالاً. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] أي: سامرين. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ [المائدة: آية ٦] أي: أجناباً أو جنبين. ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: آية ٤] أي: أنفساً. ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: آية ٤] أي: مظاهرون. وهو كثير في القرآن.

ومن أمثلته واللفظ مضاف: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: آية ١٨] أي: نعم الله. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: عن أوامره. ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: آية ٦٨] أي: أضيافي. وكان سيبويه (رحمه الله) في كتابه ألَمَّ بهذا الموضع(١)،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

وقال: إن إطلاق المفرد إذا كان اسم جنس مراداً به الجمع أنه يوجد في كلام العرب بغير كثرة، بقلة. ونحن نرى باستقراء اللغة العربية أنه كثير. وأنشد له سيبويه في كتابه بيتين: أحدهما قول علقمة بن عَبَدَة التميمي[١]:

بها جيفُ الحَسْرَى فأما عِظَامُها فَبِيْضٌ، وأما جِلْدُها فَصَلِيبُ

أي: وأما جلودها فصليبة.

والثاني قول الآخر[٢]:

كُلُوا في بعض بطنكم تَعُفُّوا فإن زَمَانَكُم زمنٌ خَمِيصُ

أي: بعض بطونكم. ونحن نراه في كلام العرب وأشعارها بكثرة، فمنه قول عقيل بن علّفة المرّي[٣]:

وكان بنو فزارة شَرَّ عمٍ [أي: أعمام] وكنتُ لهم كشرٍّ بني الأخينَا

وقول عباس بن مرداس السُلمي[٤]:

فقلنَا أَسْلِمُوا إنَّا أخوكُم وقد سَلِمتْ من الإِحَنِ الصدورُ

أي: إخوانكم. وقول جرير[٥]:

إذا آباؤُنا وأبوكَ عُدُّوا أبانَ المقرفات من العِرَابِ

أي: وآباؤك. وهو كثير في كلام العرب كما بيّنا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

فبهذا يعلم أن إطلاق الكتاب مراداً به جنس الكتاب الصادق بالتوراة والإنجيل واضح لا إشكال فيه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ بيّن أنهم كذبوا في هذه حيث قال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآيتان ٤٢، ٤٣] وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قِبَلًا﴾ وفي الأخرى: ﴿قُبُلًا﴾ ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٩ ـ ١١١]، وبهاتين الآيتين قطع الله حجة كفار قريش.

يقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٨]، هذا استفهام معناه النفي، والمعنى: أن هؤلاء الكفار، والذين يكذبون بآيات الله ويصدفون عنها، يكذبون بها ويصدفون الناس عنها، ويحملونهم على الإعراض عنها، ما ينظرون، أي: ما ينتظرون؛ لأن معنى قوله هنا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون. والعرب تطلق (نظر) بمعنى: انتظر، والدليل عليه هنا أنه بيّنه في آخر الآية فقال: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ ونظيره من كلام العرب، من إطلاق (نظر) وإرادة: (انتظر) قول امرىء القيس(١):

(١) البيت في ديوانه ص ٢٩.

خَليليَّ مُرَّا بي على أم جُنْدَبِ لتُقضى لُبَاناتُ الفُؤادِ المُعذّبِ
فإنَّكما إنْ تنْظُرَانِي ساعةً من الدهرِ تنفعني لدى أم جُندبِ

وقوله: «تنظراني» أي: تنتظراني. يعني: ما ينظر هؤلاء المكذبون إلاّ إحدى الدواهي العِظام الآتية ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ جمهور المفسرين على أن المراد بإتيان الملائكة: إتيان الملائكة لقبض أرواحهم(١)؛ لأن ملك الموت الذي يقبض أرواح الناس له أعوان كثيرة يقبضون الروح. قال بعض العلماء: حتى يبلغوها الحلقوم فيأخذها ملك الموت(٢). وقد قال جل وعلا: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: آية ٦١] فدل على أنها رسل متعددة أعوان ملك الموت؛ ولذا أسند التوفي لرسل متعددة ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ وأسنده مرة لملك الموت ﴿۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: آية ١١] وأسنده مرة لنفسه ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: آية ٤٢] وإسناده لنفسه واضح؛ لأن كل شيء واقع بمشيئته. وإسناده لملك الموت لأنه الملك الموكل بقبض الأرواح. وإسناده لرسل متعددة؛ لأن لملك الموت أعواناً كثيرة من الملائكة يقبضون معه الأرواح. قال بعض العلماء: ينزعونها إلى الحلقوم فيأخذها هو أي: ملك الموت(٣). والمعنى: ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة فتقبض أرواحهم على الشقاء والكفر، فيخلدون في النار تخليداً مؤبداً.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٤٥)، القرطبي (٧/ ١٤٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٥٨).
(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٠٩ ــ ٤١٢)، ابن كثير (٢/ ١٣٨)، (٣/ ٤٥٨).
(٣) في الجمع بين هذه الآيات انظر: فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن ص ٤٥٣، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٣٦، أضواء البيان (٦/ ٥٠٤، ٥٠٥).

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: يأتيهم الله لفصل الخطاب يوم القيامة، فيعذبهم العذاب الأكبر عندما يأتي ليحاسب الناس على أعمالهم، وإتيان الرب هنا هو معنى قوله جل وعلا[١]: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: آية ٢٢] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠].

وهذه الآيات ونحوها من الآيات، كمجيء الرب في هذه الآيات، الذي أخبر به عن نفسه، كنزوله إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر يقول: «**هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له**»[٢]، كل هذه من آيات الصفات وأحاديثها أشكلت على آلاف الخلق، وضل فيها ملايين الناس من حذاق النظار، الفحول العلماء؛ لأن التوفيق بيد الله.

ونحن نحرر لكم هذا المقام تحريراً شافياً واضحاً على ضوء نور القرآن العظيم، بحيث يتيقن العاقل أن من مات عليه لقي الله سالماً. اعلموا أيها الإخوان أنا نوصيكم وأنفسنا بهذا الذي نقوله لكم في الخروج من هذا المأزق الأكبر، ومزلة الأقدام التي زلت فيها أقدام الآلاف ممن ينتمي للعلم، في آيات الصفات، فمن مُعَطِّلٍ نافٍ لها، ومن مُشَبِّه مُجَسِّم، ومن مغير لها آت بغيرها. والحق الفصل في هذا: هو أن البيان بالقرآن، والله أوضح هذه المسألة إيضاحاً شافياً

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة في آخر الليل، حديث رقم: (١١٤٥)، (٣/ ٢٩)، وانظر الأرقام: (٦٣٢١، ٧٤٩٤). ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه حديث رقم: (٧٥٨)، (١/ ٥٢١).

لا لبس في الحق معه، ولكن الله يهدي من يشاء. أما الذين يؤولون صفات الله، ويقولون: لها ظاهر غير مراد؛ لأنه ظاهر يُفهم غير اللائق بالله!! فيصرفونها ويأتون بشيء بدل ذلك من عند أنفسهم!! فهم كما قال الشافعي (رحمه الله) ـ لأنهم يقصدون الخير، ولكنهم غلطوا ووقعوا في شرٍ مما فرّوا منه، وقول الشافعي المذكور ـ بيته المشهور(١):

رَامَ نفعاً فضرَّ من غيرِ قَصْدِ ومن البرِ ما يكونُ عقوقاً

والمخرج من هذا المأزق: هو الاعتماد على ثلاثة أصول كلها من كتاب الله، فمن لقي الله معتقداً لها ومات عليها لقي الله سالماً على المحجة البيضاء، التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه: ومن أخل بواحدٍ منها دخل في مهواة وبلايا قد لا يتخلص منها. فأوصيكم بهذه الأصول الثلاثة القرآنية؛ لأنها هي المخرج الإلهي القرآني من هذا المأزق العظيم(٢).

الأول: من هذه الأصول الثلاثة: هو أساس التوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة على الوجه الصحيح، وهو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة شيء من خلقه. هذا هو الأصل الأكبر، والحجر الأساسي لمعرفة الله على الوجه الصحيح اللائق. تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة شيء من خلقه في صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم. ومن هم الخلق يا إخوان؟ من هم الخلق؟! أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته، وصنعة من صنائعه؟

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

وكيف يخطر في ذهن العاقل أن الصنعة تشبه صانعها؟ لا، وكلا!! فمن رزقه الله علم هذا الأساس، وهذا الأصل الأكبر، وأساس العقيدة الصحيحة الذي هو تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يشبه شيئاً من خلقه في شيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم فقد رزقه الله أساس التوحيد، وحجره الأساسي. وهذا إذا امتلأ منه قلب المؤمن، وعرف أن صفة الله عندما تُسند إلى خالق السماوات والأرض تمتلىء القلوب من الإجلال والإعظام والإكبار، وتنزيه صفة الله عن أن تشبه شيئاً من صفات خلقه. هذا هو الأصل الأول وهو في ضوء قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: آية ٦٥] أي: مسامياً يساميه في المكانة والقوة والفضل. إذا استحكم هذا الأساس في قلب العبد، وكان قلبه طاهراً من أقذار تنجيس التشبيه منزهاً لله، عالماً أن وصف الله أجل وأعظم وأكبر وأنزه من أن يشبه صفة
المخلوق / فإذا استحكم هذا الأصل في قلبه. [٢٤/أ]

فالأصل الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، إيماناً مبنياً على أساس هذا التنزيه؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله، الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] فهذا الذي قلت لكم في هذين الأصلين ـ أن الأول: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق. والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به نبيه إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه ـ ما قلته لكم من تلقاء

نفسي، ولا رواية عن زيد ولا عمرو، بل في ضوء نور المحكم المنزل، الذي هو آخر الكتب السماوية عهداً بالله، وهذا تعليم رب العالمين، وذلك الإيضاح السماوي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١]، فاعلموا أيها الإخوان أن الإتيان بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه سرٌ أعظم، ومغزىً أكبر، وتعليم سماوي، لا يترك في الحق لبساً؛ لأن السمع والبصر صفتان هما أشد الصفات توغلاً في التشبيه، فجميع الحيوانات تسمع وتبصر؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: لا تتنطع يا عبدي، وتشبِّه صفتي بصفة مخلوقي، وتنفي عني سمعي وبصري، بدعوى أنك إن أثبت لي السمع والبصر شبهتني بالحمير والآدميين وغيرهم من الحيوانات التي تبصر!!

لا يا عبدي، أثبت لي سمعي وبصري، ولكن لاحظ في ذلك الإثبات قولي قبله متصلاً به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] فإثبات السمع والبصر على أساس نفي المماثلة.

فأول الآية الكريمة فيه النفي التام للتشبيه والتمثيل، وآخرها فيه الإيمان بالصفات من غير تكييف ولا تعطيل على أساس التنزيه عن التشبيه والتمثيل.

فعلينا أن نعمل بأول الآية. فننزه ربنا، وذلك هو الأساس، فإذا نزهناه عن مشابهة خلقه وحملنا أوصافه في القرآن والسنة على الأوجه الكريمة اللائقة. كان من السهل علينا أن نؤمن بالصفات؛ لأننا نؤمن بها على أساس التنزيه عن مشابهة الخلق.

فالأصل الأول: وهو أساس التوحيد: تنزيه الله عن مشابهة شيء من خلقه بشيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم.

والأصل الثاني: عدم جحد شيء مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، بل يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، على غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١].

الأصل الثالث: هو أن نعلم أن العقول مخلوقة واقفة عند حدّها، لا تحيط علماً بخالقها، فهي عاجزة عن إدراك كيفية الاتصاف بالصفات، والله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠].

فمعلوم أن المتكلمين الذين نفوا كثيراً من صفات الله بالأدلة العقلية المفرغة في قوالب أقيسة منطقية قسموا الصفات قسمة سداسية، قالوا: منها صفة نفسية، ومنها صفة معنى، ومنها صفة معنوية، ومنها صفة فعل، ومنها صفة جامعة، كتقسيمهم المعروف(١).

ونحن نبيِّن لكم أن كل هذه الصفات جاءت الآيات القرآنية بوصف الخالق بها، وبوصف المخلوق بها، والكل من ذلك حق، فالخالق حق، وصفاته حق، والمخلوق حق، وصفاته حق. ولكن صفة المخلوق ملائمة لذات المخلوق، وصفة الخالق لائقة بذات الخالق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، لا مناسبة البتة بين الذات والذات، ولا بين الصفة والصفة.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من هذه السورة.

هذه صفات المعاني السبعة، الذي يقر بها من ينكر أكثر الصفات الوجودية غيرها، وهي عندهم: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. جاءت في القرآن.

هذا السمع والبصر يقول الله فيه عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: آية ٧٥] في وَصْف نفسه وَصَف نفسه بأنه سميعٌ بصير، ووَصَف بعض خلقه أيضاً بالسمع والبصر، قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: آية ٣٨] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: آية ٢] ولا شك أن الله سمعاً وبصراً حقيقيين لائقين بكماله وجلاله، وللمخلوق سمع وبصر حقيقيان مناسبان لعجزه وفنائه وافتقاره، وبين سمع الخالق وبصره، وسمع المخلوق وبصره من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وقال (جل وعلا) في وصف نفسه بالحياة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: آية ٥٨]، ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: آية ٦٥].

ووصف بعض خلقه بالحياة، قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: آية ١٥]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: آية ٣٠]، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: آية ٣١].

فنحن نقطع أن لله حياة عظيمة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوقين حياة مناسبة لحالهم، وعجزهم، وفنائهم، وافتقارهم، وبين الصفة والصفة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بالعلم، قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: آية ٢٨٢]، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾ [النساء: آية ١٦٦]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٧].

ووصف بعض خلقه بالعلم، قال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: آية ٢٨]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨]، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: آية ١٢].

ولا شك أن لله علماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوق علماً مناسباً لعجزه وفنائه وافتقاره، فصفة الله حق، وصفة المخلوق حق، وكل بحسبه. فصفة الله لائقة بذاته، وصفة المخلوق مناسبة لذاته، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

ووصف نفسه بالإرادة فقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: آية ١٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾ [النساء: آية ٢٨].

ووصف بعض خلقه بالإرادة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: آية ٦٧]، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: آية ١٣].

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوق إرادة حقيقية مناسبة لحاله وعجزه وافتقاره وفنائه، فبين الإرادة والإرادة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بأنه متكلم: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: آية ١٦٤]، ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: آية ١٤٤]، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٦].

ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤﴾ [يوسف: آية ٥٤]، وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [يس: آية ٦٥].

ولا شك أن لله كلاماً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوقين كلام مناسب لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

هذه صفات المعاني السبع التي أقرّ بها من جحد كثيراً من الصفات. كذلك الصفات التي يسمونها السلبية، والصفة السلبية في اصطلاح المتكلمين: هي التي لا تدل بدلالة المطابقة على معنى وجودي، وإنما تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله. وهي عند المتكلمين خمس صفات: وهي البقاء، والقدم، والغنىٰ المطلق، الذي يُسمونه: القيام بالنفس، يعنون به الاستغناء عن المحل والمُخَصِّص. والمخالفة للخلق، والوحدانية(١).

أما القِدَم والبقاء: فالمتكلمون أثبتوهما لله، وقد قال بعض العلماء: إنه ورد بمثل ذلك حديث، وبعضهم ينفي صحته. والمتكلمون يقصدون بهما معنىً صحيحاً؛ لأن القِدَم عندهم: هو سلب العدم السابق. والبقاء: هو سلب العدم اللاحق. زاعمين أن الله أثبتهما لنفسه بقوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: آية ٣] أي: الأول الذي لا ابتداء لأوليته، والآخر الذي لا انتهاء لآخريته. قالوا: هذا معنى القدم والبقاء.

فنقول: القِدم وصف الله به المخلوقين قال: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من هذه السورة.

﴿ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: آية ٣٩]، ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: آية ٩٥]، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٧٦]، والبقاء وَصَف به الحادث حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: آية ٧٧]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦].

والوحدانية وصف بها نفسه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: آية ١٦٣].

ووصف بعض المخلوقين بها قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: آية ٤].

والغنى وصف به نفسه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: آية ٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: آية ٦].

وقال في بعض المخلوقين: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: آية ٦]، ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النور: آية ٣٢].

ولا شك أن ما وُصف به الله من هذه الصفات مخالف لما وُصف به المخلوق كمخالفة ذات الله لذات المخلوق، فلا مناسبة بين الذات والذات، ولا بين الصفة والصفة، فالله حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، إلا أن صفة كلٍ بحسبه، فصفة الله بالغة من الكمال والتنزيه ما تتعاظم أن تشبهه صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق تتعاظم أن تشبه ذوات المخلوقين.

وهذه الصفات الجامعة(١) كالعلو، والكِبَر، والعظم، والملك،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من هذه السورة.

والجبروت، كل هذا جاء في القرآن العظيم وَصْف الخالق والمخلوق به، فقد وصف تعالى نفسه بالعلو، والكِبَر، والعظم، قال في وصف نفسه بالعلو والعظم: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: آية ٢٥٥].

وقال في وصف نفسه بالعلو والكِبَر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: آية ٣٤]، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: آية ٩].

ووصف المخلوقين بالعظم، والكِبَر، والعلو، فقال في وصف المخلوق بالعظم: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: آية ٦٣]، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: آية ٤٠] ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: آية ٢٣]، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: آية ١٢٩].

وقال في وصف المخلوق بالكِبَر: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: آية ٣١] ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: آية ١١]، ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: آية ٦٣].

وقال في وصف المخلوق بالعلو: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: آية ٥٠]، ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: آية ٥٧].

وقال في وصف نفسه بالملك: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: آية ١]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: آية ٢٣].

ووصف بعض خلقه بالملك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾

[يوسف: آية ٥٠]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: آيـة ٤٣]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ [الكهف: آية ٧٩]، ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ٢٦].

ولا شك أن ما وُصف الله به من العلو، والكِبَر، والعظم، والملك مخالف لما وُصف به الخلق من العظم، والكِبَر، والعلو، والملك، فصفة المخلوق لائقة بعجزه وفنائه وافتقاره، وصفة الخالق لائقة بجلاله وكماله. فصفة كلٍ بحسبه.

ووصف نفسه بأنه متكبر جبار، قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى أن قال: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: آية ٢٣].

ووصف بعض خلقه بالجبار والمتكبر كما قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزمر: آيـة ٦٠] ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشعراء: آية ١٣٠] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: آية ٣٥].

ووصف نفسه بأنه يغفر، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣﴾ [البقرة: آيـة ١٧٣]، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: آيـة ١٢٩]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: آية ٦].

ووصف بعض خلقه بالمغفرة، قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى: آية ٤٣]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: آية ١٤]، ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: آية ٢٦٣].

ووصف نفسه بأنه حليم، قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ [الحج: آية ٥٩].

ووصف بعض خلقه بأنه حليم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ [التوبة: آية ١١٤]، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات: آية ١٠١].

ووصف نفسه (جل وعلا) بالعزة، قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة: آية ١].

ووصف بعض خلقه بالعزة قال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: آية ٥١]، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾ [ص: آية ٢٣].

ووصف نفسه بالقوة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: آية ٥٨].

ووصف بعض خلقه بالقوة، وجمع المثالين قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: آية ١٥]، ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: آية ٥٤]، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: آية ٥٢].

ووصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل: آية ٧].

ووصف بعض خلقه ـ وهو سيد الخلق ﷺ ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: آية ١٢٨].

وإذا نظرنا إلى صفات الأفعال فنجده (جل وعلا) يصف نفسه بالفعل، ويصف عباده بالفعل، وجميع ما وصف الله به نفسه لائق

بكماله وجلاله، وجميع ما وصف به خلقه مناسب لحال خلقه وفقرهم وعجزهم وفنائهم، وبين الصفة والصفة من المنافاة كما بين الذات والذات.

فمن صفات الأفعال: أن الله وصف نفسه بأنه يفعل رَزْق عباده، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: آية ٣٩]، ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: آية ١١].

ووصف بعض خلقه بأنه يفعل الرَّزْق أيضاً، قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: آية ٨]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: آية ٢٣٣].

ورَزْق الله لخلقه ليس كَرَزْق الناس بعضهم لبعض، فبين الفعل والفعل من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بأنه يعمل، قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: آية ٧١].

ووصف نفسه بالفعل، الذي هو العمل.

ووصف خلقه بالعمل، قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: آية ١٧].

ووصف نفسه بأنه يُعلِّم خلقه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: الآيات ١ ـ ٤]، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: آية ٦٥].

ووصف خلقه بأنهم مُعلَّمُون، كقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: آية ١٢٩]، وجمع المثالين قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: آية ٤].

ووصف نفسه بأن يُنبِئ، ووصف بعض خلقه بأنه يُنبِئ، قال: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: آية ٣].

وأمثال هذا في القرآن لا تكاد تحصىٰ، وقصدنا أن نُمثّل بجميع الصفات أن الله وصف بها نفسه، ووصف بها خلقه، وأن لله صفات حق، وللمخلوقين صفات حق، وصفة الخالق لائقة بجلاله وكماله، وصفة المخلوق مناسبة لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره.

وكذلك وصف نفسه بالاستواء على العرش بسبع آيات من كتابه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: آية ٥٤]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: آية ٥].

ووصف بعض خلقه بالاستواء على مخلوق كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: آية ١٣]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: آية ٤٤].

واستواء الخالق ليس كاستواء المخلوق، فبينهما من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. وهكذا في جميع صفات الله، إذا وصف نفسه بإتيان أو مجيء فإتيانه أو مجيئه لائق بكماله وجلاله، كسمعه وبصره، وقدرته وإرادته، منزه عن مشابهة إتيان الحوادث ومجيئهم، فكل ما يخطر في المعاني من إتيان الخلائق ومجيئهم، فصفة الخالق (جل وعلا) منزهة عنه كسائر صفاته.

فعلينا أولاً أن ننزه الله، ثم نثبت له ما أثبت لنفسه على أساس التنزيه، ثم نقطع طمعنا عن إدراك الكيفية.

ونحن نقول لكم: إن هذه الأيام والليالي سائرة بنا بسرعة إلى القبور، ثم إلى عرصات القيامة، فعن قريب ونحن أمام الله في عرصات القيامة، والله يقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: آية ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] ومما يوشك أن يسألنا عنه: ماذا كنتم تقولون في صفاتي التي مدحت بها نفسي؟؟ هل كنتم تنفونها وتكذبونني وتدّعون علي أني أمدح نفسي بشيء لا يليق؟ أو كنتم تنزهونني وتثبتون لي صفاتي، وتعلمون أني لا أمدح نفسي إلا بوصف كمال وجلال، وأن صفتي لا تشابه صفة خلقي؟

فهذه الأسس الثلاثة من مات عليها مات على دين محقق، وعقيدة سلفية صحيحة. وأنا أضمن له أنه لا تأتيه بليّة من واحدة من هذه الأصول الثلاث، ولا يأتيه من قِبلها لوم، ولا توبيخ، ولا عذاب بهذه الأسس الثلاث، فلا يقول الله له: لِمَ تنزهني عن مشابهة خلقي في صفاتهم، وأفعالهم، وذواتهم؟ لا، وكلا، هذه طريق سلامة محققة.

ولا يقول له ربه: لِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتصدق نبيي فيما أثنىٰ علي به تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه؟ لا، وكلا، هذه طريق سلامة محققة.

ولا يقول له: لِمَ لا تدّعي أن عقلك محيط بـي؟ فلا يقول له ذلك أبداً، فكل هذه الأسس الثلاث طريق سلامة محققة في ضوء

القرآن، وكل البلايا وكل الشر من أن يسبق في الذهن تفسير الصفة بما لا يليق، فإذا سبق في الذهن تفسير الصفة بتفسير قذر نجس فيه تشبيه اضطر الإنسان المسكين إلى أن ينفيها. فإذا وضعتم مثلاً مقارنة بين مذهب السلف الذي كان عليه السلف الصالح، من الإيمان بالصفات إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، والتصديق بها، كما قال الإمام مالك لما قال له الرجل: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ كيف استوى؟؟؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأمر أن يُخرج عنه(١).

فالسلف الصالح رضي الله عنهم من القرون المشهود لهم بالخير، قبل أن يظهر في الوجود الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، ما كان في الدنيا ولا في العلماء أحد ينفي شيئاً من صفات الله، ولا يفسرها بمعنى غير لائق، بل جميع الأمة إذا سمعوا الوصف مسنداً إلى الله امتلأت قلوبهم من الإجلال والإعظام، وعلموا أن ذلك الوصف لا يُشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وأنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهان عليهم الإيمان به؛ لأن إثبات الأوصاف الكريمة لله هين على كل مسلم.

أما إذا فسر الصفة بتفسير خبيث يرمي إلى التشبيه، ويُدَّعى أن ظاهره التشبيه، فمن هنا تأتي البلايا، وتأتي الويلات، ويقع الإنسان في مشاكل؛ لأنه إذا تنجس القلب بقذر التشبيه اضطر إلى أن ينفي الصفة. ونضع ـ مثلاً ـ مقارنة: الله تعالى ـ مثلاً ـ قال:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: آية ٥]، وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [البقرة: آية ٢٨٤]، فالسلفي يقول: هذه القدرة منزهة عن قُدر المخلوقين وشبهها، وهذا الاستواء منزه عن استواء المخلوقين، لا يشبهه في شيء من المشابهة، وهذا الإتيان إتيان لائق بكمال الله وجلاله، منزه عن كل ما يخطر في العقول من إتيان البشر. فإذا كان قلبه ممتلئاً من الإعظام والإجلال، وحمل هذه المعاني على المعاني اللائقة الكريمة الجليلة اللائقة بالله، المنزهة عن كل ما لا يليق، كان أولاً: مُنَزِّهاً، وكان ثانياً: مؤمناً غير جاحد ولا معطل.

مثلاً كان السلف الصالح إذا سمعوا ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: آية ٥]، يقول: هذا الاستواء بالغ من غايات الكمال والجلال والعظمة واللياقة بالله ما يقطع جميع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، ومن هم المخلوقون حتى يُشبه استواء الله باستوائهم؟ وهم أثر من آثار قدرته، وصنعة من صنعته، والصنعة لا تشبه صانعها!! فإذا حملوا الاستواء على المعنى العظيم اللائق بجلال الله، المُنزه عن كل استواء للمخلوقين يخطر في ذهن الإنسان، كان الإيمان بذلك الاستواء سهلاً عليهم؛ لأنهم يحملونه على معنى شريف كريم، لائق بجلال الله. وإذا سُئل أدنى الناس عقلاً، سُئل مُطْلَقُ عاقلٍ، وقيل له: يا إنسان، إذا وصف الله نفسه بوصف يمدح به نفسه فما الظاهر المتبادر من ذلك الوصف؟ أظاهره المتبادر منه أنه في غاية الكمال والجلال والتنزيه واللياقة بالله حتى نقرّه على ظاهره الكريم إيماناً وتنزيهاً؟ أو ظاهره أنه يشبه صفات الخلق، وأنه قذر نجس حتى نحتاج إلى أن ننفيه بالتأويلات، ونثبت

شيئاً بدله؟! فلا شك أن أطرف مؤمن يقول: كل وصف أُسند لله فهو بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

والأعراب البدو في زمن النبيِّ ﷺ كانوا إذا سمعوا صفة من هذه الصفات، كالاستواء والنزول، وكصفة اليد ونحوها لا يخطر في أذهانهم صفة المخلوق؛ لأنهم يعرفون أن مخالفة الرازق للمرزوق، ومخالفة الخالق للمخلوق، ومخالفة المُحيي للمحيَا، ومخالفة المُميت للمُمات تجعل بين صفاتهم مخالفات هائلة لا يعلمها إلا الله. فلا يفهمون من صفة هذا أنها تميل إلى شيء من صفة ذلك، إذ لا مناسبة بين الخلق وخالقه، وهم أثر من آثار قدرته وإرادته.

إذاً فنعرف أن مذهب السلف هو المذهب الصحيح؛ لأن صاحبه أولاً: كان قلبه ممتلئاً من تعظيم الله، وإجلال الله، سالماً من أقذار التشبيه، يحمل استواء الله، ونزول الله، وإتيان الله على أكمل المعاني وأجملها وأليقها وأنزهها عن مشابهة المخلوقين، ثم إنه يؤمن بها على أساس هذا التنزيه، على غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١]، ويكون أولاً: منزهاً. وثانياً: مؤمناً مصدقاً، ثم يقطع طمعه عن إدراك الكيفية؛ لأن الله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠].

فلو تنطع متنطع وقال: نحن لا نعقل نزولاً، ولا مجيئاً، ولا استواء، ولا قدرة إلا يشابه صفات المخلوقين، فبينوا لنا كيفية منزهة لنعقلها!! فنقول: فلا نقول كما قال مالك[1]: السؤال عن هذا بدعة،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

بل نتنزل معه ونقول له: يا مسكين، أعرفت كيفية الذات الكريمة المقدسة، المتصفة بهذه الصفات؟! فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف متوقفة على معرفة كيفية الذات!! فسبحان من تعاظم وتكبر وتنزه عن كل ما لا يليق، وعن كل مشابهة الحوادث من جميع وجوهها، وهو (جل وعلا) متصف بصفات الكمال والجلال.

أما الذي يسمونه مذهب الخلف مثلاً ــ ويزعم كثير أنه أعلم وأحكم ــ فإنه إذا خطر في قلب الواحد: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: آية ٥] قال: هذا الاستواء ظاهره تشبيه الخلق، كاستوائي على هذا السرير. فيكون أولاً: قد ظلم نصوص القرآن، وحملها على محامل غير شريفة، وغير لائقة بالله؛ لأن كون النص ظاهره التشبيه فهذا معنىً بالنسبة إلى الله معنىً قذر نجس وسخ؛ لأن خالق السماوات والأرض لا يشبه شيئاً من خلقه. فكان هذا أول الضرر، وأول السوء. وهو الفهم من النصوص أنها تدل على معاني غير لائقة، ثم إذا تقرر في ذهنه أن ظاهر هذا النص أنه كاستواء المخلوق، اضطر المسكين إلى أن ينفيه؛ لأنه لا أحد يقول: (لا إله إلا الله) يرضىٰ أن يثبت لله وصف غير لائق، فينفي الاستواء من نفسه. فيكون الوصف الذي مدح الله به نفسه قد ظلم هذا الإنسانُ القرآنَ، وجعل أن ظاهره قذر وسخ نجس، وهو مشابهة المخلوقين. ثم يجرّه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي الاستواء. ويقول: الاستواء ممنوع، ولا يمكن أن يكون؛ لأن فيه نقصاً لله، ومشابهة للمخلوقين!! فيكون قد ظلم أولاً القرآن، وحمل ما مدح الله به نفسه على الذم. وهذا لا يليق بالله، بل الاستواء الذي مدح الله به نفسه في غاية الكمال والجلال، والبعد عن مشابهة المخلوقين، والنزاهة

الكاملة عن أي تشبيه كائناً ما كان. ثم إنه إذا نفى الاستواء يريد أن يأتي ببدل من تلقاء نفسه، فيقول: معناه: (استولى). فنقول له: يا مسكين، أولاً: ظلمت الوحي، وادعيت على نصوص الوحي أن ظاهرها التشبيه. والله يعلم أنها بريئة من ذلك، بل ظاهرها التنزيه، ثم نفيتها من تلقاء نفسك بلا دليل من كتاب وسنة، ثم جئت بمعنى من عند نفسك وهو (استولى)، فنقول لك يا مسكين: قد شبهت الله باستيلاء خلقه؛ لأنك إذا وصفته بالاستيلاء فقد شبهته باستيلاء العرفجي على حماره، وباستيلاء الأمير على جيشه، وباستيلاء بِشْرٍ على العراق، الذي أنشدوا له البيت[1]:

قد استوى بشرٌ على العراقِ من غيرِ سيفٍ ودم مُهراق

فنقول: قد مَاثَلْتَ استواء الله باستواء بِشْر!! فرجعت إلى التمثيل!! فإذا قال: استواء الله منزه عن استواء بِشْر. فنقول: كذلك يا مسكين كان ينبغي أن تقوله في الأول، وتعلم أن نفس الاستواء الذي مدح الله به نفسه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعرف الحق، ونعرف من ضوء القرآن عقيدة السلف، ونعلم أن الله لا يمدح نفسه إلا بوصف كريم، وأن الاستواء الذي مدح به نفسه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهو في غاية النزاهة والكمال، وعدم المشابهة، فنقرّه على ظاهره من الكمال واللياقة بالله، ونعلم أن وصف الله لا يمكن أن يُشبه وصف مخلوق،

---

(١) البيت في تفسير مقاتل (٥/١٠٣، ١٩٢)، الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ص٣٦، اللسان (مادة: سوى) (٢/٢٤٨).

وأن الله لا يمدح نفسه بوصف فيه تشبيه، ولا فيه محذور، ولا يلزم منه مشابهة مخلوق، بل هو استواء لائق بالله، كقدرته وإرادته وعلمه وسمعه وبصره، مخالف لاستواء المخلوقين كمخالفة ذات الله لذوات المخلوقين، فنكون أولاً عدلنا وأقسطنا مع النصوص، فحملناها على معانيها الكريمة الشريفة اللائقة بالله، وآمنا بذلك التنزيه.

أما هؤلاء الذين يقولون: ظاهر الاستواء أنه كاستواء المخلوقين. فقد ابتدؤوا أولاً بظلم النصوص، وحملوها على معاني خبيثة غير لائقة، لا يمدح الله بها نفسه، ثم جرهم هذا التشبيه إلى أن نفوها وجاؤوا ببدلها.

وهذا الذي جاؤوا به فيه من التشبيه أكثر مما فرّوا منه أولاً، فالذي يقول: الاستواء ظاهره كاستواء المخلوق ثم ينفيه بهذا الظاهر المحذوف، ويؤوله بالاستيلاء، وأن معناه (استولى).

فنقول له: رجعت النتيجة في حافرتها، أن استواء بِشْر معناه: استيلاء بِشْر على العراق. فنقول: قد شبهت استيلاء الله على عرشه باستيلاء بِشْر على العراق، والاستيلاء كذلك صفة من صفات الخلق، فالعرفجي يستولي على حماره، والأمير يستولي على الجيش، والمالك يستولي على دابته، فالاستيلاء الذي فسرت به الاستواء هو أوغل في التشبيه من الاستواء.

فإذا قال: هذا الاستيلاء الذي فسرت به الاستواء استيلاء منزه عن استيلاء المخلوقين. قلنا له: كان من حقك أن تقول هذا من أول، قبل أن تقع فيما وقعت فيه، وتقول: استواء الله منزه عن مشابهة استواء المخلوقين.

فعلينا جميعاً أن نعلم أن الاعتقاد الذي كان عليه السلف الصالح قبل ظهور الجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، هو على هذه الأسس الثلاث: **أولها**: وهو الحجر الأساسي العظيم: تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يُشبه شيئاً من خلقه بشيء من ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم، وحمل معاني القرآن والسنة على المعاني الشريفة اللائقة بالله كل اللياقة، المناسبة لعظمته وجلاله وكبريائه، ثم نؤمن بها إيماناً مبنياً على أساس التنزيه. وكل هذا التعليم حصره الله لنا في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١] فإنا لا نعلم في الدنيا سمعاً ولا بصراً إلا هما حادثان خسيسان، يموت صاحبهما ويأكلهما الدود!! فإذا كنا نذهب بكل شيء فلقائل أن يقول: السمع والبصر ظاهره التشبيه بسمع الحمار وبصره، وسمع الإنسان وبصره، فَلْنَنْفِهِ ونثبت غيره، ولا فرق بين الصفات.

والحاصل أن الله حق، وصفاته حق، وأن المخلوقين حق، وصفاتهم حق، وأن صفة الخالق لائقة بذات الخالق، وصفة المخلوق مناسبة لذات المخلوق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. فنحن نثبت الصفات لله مصدقين ربنا، ومصدقين نبينا [ﷺ فيما أخبر به، مراعين في ذلك الإثبات ما بيَّنه الله (تعالى) في كتابه، ذلك البيان الأوضح][(١)] والتعليم الأكبر، والمغزى الأعظم حيث جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] فإن

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ السمع والبصر صفتان هما أشد الصفات توغلاً في التشبيه بالمخلوقات، فالله مدح بهما نفسه بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: أَثْبِتْ لي صفاتي، وما مدحت به نفسي، ولكن راع في ذلك الإثبات قولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ واعلم أنه إثبات منزه لا يُشابه إثبات المخلوقين، فلا يذهب قلبك إلى صفات المخلوقين.

فأساس الخير كله في هذا المقام هو أن يكون القلب أولاً مستولياً عليه تعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، فهذا أساس الخير، وهو معنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فمن رزقه الله هذا العلم بمدلول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعرف قداسة الله وعظمته، وعظمة أسمائه وصفاته، ونزاهتها عن مشابهة المخلوق، حمل ما مدح الله به نفسه على أكمل الوجوه، وأتمها وأشرفها، وأبعدها مشابهة للخلق، وآمن بها على أساس ذلك التنزيه. أما الذي يزيغ به الشيطان إلى أن يحمل النصوص على أنها يُراد بها ـ ظاهرها ـ صفات المخلوقين، فمن أين للمخلوقين أن يُشبهوا صفات خالقهم؟ وأين تُذكر صفة المخلوق عند صفة الخالق، وهو أثر من آثار قدرته وإرادته وصنعة من صنائعه؟

وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أن الواحد منا إذا مات على هذه الأسس الثلاثة:

أولاً: اعتقاده تعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه.

والثاني: الإيمان، وتصديق الله بما مدح به نفسه، أو مدحه به رسوله، إيماناً وتصديقاً مبنياً على أساس التنزيه عن مشابهة الخلق، على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقطع الطمع عن إدراك الكيفيات،

أنه يلقى الله سالماً من هذه الورطات والبلايا. أما الذي يدّعي على الله أنه مدح نفسه بالاستواء في قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: آية ٥] أن ظاهر هذا القرآن المتبادر منه التشبيه، وقذر ونجاسة لا تليق بالله، ثم يتجرأ فينفيه، ثم يأتي بـ (استولى) فإن هذا لا يليق بكمال الله. والذين فعلوا هذا هم في الحقيقة أكثرهم مقصدهم حسن، لا يقصدون إلا تنزيه الله، إلا أنهم غلطوا أولاً في تفسير معاني الكتاب والسنة، وحملوا مداليل الآيات والأحاديث على أن ظاهرها التشبيه، فاضطروا إلى أن ينفوا، ولو فهموا منها أولاً معانيها الصحيحة الكريمة اللائقة المنزهة لما وقعوا في شيء من هذه المحاذير. فهم كما قال الشافعي رحمه الله(١):

رامَ نفعاً فضرّ من غير قَصْدِ ومن البرِّ ما يكونُ عقوقاً

وطريق الحق واضحة لا شك فيها:

والحقُّ أبلجُ لا تزيغُ سبيلُه والحقُّ يعرفُه أولُو الألبابِ(٢)

لأن من نزه الله كل التنزيه عن مشابهة الخلق، ثم صدّقه فيما وصف به نفسه تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، ووقف عند حدّه، فعرف أن عقله لا يدرك كُنْه الكيفيات، فهو مؤمن ماشٍ في ضوء القرآن، لم يتكلف شيئاً، لم يحمل معنىً من معاني نصوص الكتاب والسنة محملاً خبيثاً، ولم ينف عن الله شيئاً أثبته لنفسه، ولم يأتِ من نفسه ببدل، مع أن مَنْ أَوَّلَ لا بد أن يرجع إلى ما هو أوغل في

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من هذه السورة.

(٢) البيت في اللسان (مادة: خيل) (١/ ٩٣٢)، ولفظه:

والصدق أبلج لا يُخيل سبيله والصدق يعرفه ذوو الألباب

التشبيه. فالذين فسروا الاستواء بالاستيلاء، وقالوا: الاستواء ظاهره كاستواء المخلوقين، فيجب صرفه عن ظاهره، ويقال فيه: «استولى» فقد وقعوا في ثلاثة محاذير:

الأول: أنهم قالوا على الله: إن ظاهر ما مدح به نفسه أنه غير لائق. وهذا افتراء على الله، وعلى كتابه، وعلى نبيِّه؛ لأن الله لا يصف نفسه إلا بأكرم المعاني وأشرفها وأنزهها وأجلها، فما هنالك إلا المعنى الشريف اللائق بكمال الله، المنزه عن مشابهة المخلوقين.

المحذور الثاني: أنه اضطروا أن ينفوا ما وصف الله به نفسه فنفوا الاستواء، والله يثبته في سبع آيات من كتابه. ثم جاؤوا بدله بالاستيلاء!! قالوا: معنى استوىٰ: استولى. فنقول: التشبيه الذي فررتم منه في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ جئتم بأضعافه في قولكم: «استولى» لأن (استولى) أوغل في التشبيه. فالعرفجي يستولي على حماره، والمالك يستولي على ملكه، والرجل يستولي على امرأته، وبِشْر يستولي على العراق. وهذه الاستيلاءات خسيسة، قد شبهتم بها صفة الله. فإن اضطُر في الآخر أن يقول: هذا الاستيلاء منزه عن استيلاء المخلوقين. قلنا له: الاستواء الذي وصف الله به نفسه لائق كريم جليل منزه عن أن يُشبه شيئاً من استواء المخلوقين.

هذه هي طريقة السلف، وهذا العلم القرآني هو المنجي من هذا المأزق الذي ضلت فيه أقدام الآلاف من فحول الرجال. فعلى المسلم أن يستضيء بضوء القرآن، وأن يتنبه لكتاب الله؛ لأن فيه حلّ كل معضلة، والمخرج من كل ويلة وبليّة. والله علمنا أولاً أن ننزهه عن كل ما لا يليق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأن نثبت له صفاته، وإن كانت المخلوقات يتصفون باسمها؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ونعرف قدر عقولنا أنها لا تحيط بكيفيات صفات خالق الكون، كما نصّ عليه في طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: آية ١١٠] فوالله لو مات الواحد منا وحُشر، وجاءه السؤال يوم القيامة، لا تأتيه بليّة، ولا لوم، ولا توبيخ، ولا عذاب من واحد من هذه الأسس الثلاثة. والله لا يلومه الله ويقول له: لِمَ تنزهني يا عبدي عن صفات خلقي؟؟ ولِمَ تحمل المعاني التي مدحت بها نفسي على المعاني الشريفة الجليلة الكريمة؟؟ لا والله أبداً. فهذه طريق سلامة محققة. ولا يقول له الله موبخاً له: لِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتثبت لي ما أثبته لنفسي على أساس التنزيه؟!! لا والله. فهذه طريقة محققة السلامة. ولا يقول له الله: لِمَ لا تدّعي أن عقلك المسكين المخلوق محيط بإدراك كيفيات صفاتي؟؟ لا والله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾.

فعلينا معاشر المسلمين أن نأخذ قلوبنا أولاً بتعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، فإذا استولى التنزيه والتعظيم والإجلال على القلوب كان سهلاً عليها أن تؤمن بصفات الله إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ثم تقطع الطمع عن إدراك الكيفية، فتسلم من جميع الورطات، فتكون ما حملت معنى القرآن إلا على المعنى الكريم اللائق، ولا نفيتَ شيئاً أثبته الله، ولا جئتَ بشيء من تلقاء نفسك. هذا المذهب الذي كان عليه السلف الصالح، ودرج عليه عامة المسلمين. ومن نظر في كتب فقهاء الأمصار، كالأئمة رحمهم الله، وأمثالهم من فقهاء الأمصار، كالسفيانين، والليث، ووكيع، وما جرى مجراهم، يجدهم كلهم على هذه العقيدة، ينزهون الله عن

مشابهة خلقه، ويؤمنون بما وصف الله به نفسه إيماناً مبنياً على أساس التنزيــه، ولا يشبهـونـه بخلقـه، ولا ينفـون شيئـاً أثبتـه (جـل وعـلا) لنفسه.

هذا هو الذي ينبغي أن يُعتقد في صفات الله، أولاً: تنزيه، ثم إيمان مبني على أساس التنزيه، ثم قطع الطمع عن إدراك الكيفيات ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: الآية ١١٠] هذا الذي نعتقده ونوصي إخواننا به؛ لأنه طريق سلامة محققة؛ لأنه سالم من تشبيه الله بخلقه، وسالم من نفي صفات الله، وتكذيب الله فيما أثبته لنفسه، وسالم من كل سوء. طريق سلامة محققة.

ولم يبقَ إلا لو قال القائل: هذه الصفات التي تزعمون أنها منـزهـة مـا فهمنـا كيفيتهـا، فمـا نفهـم كيفيـة إتيـان منزه عـن إتيـان المخلوقين، ولا كيفية مجيء منزه عن مجيء المخلوقين، ولا كيفية استواء منزه عن استواء المخلوقين، فبينوا لنا الكيفية. فنقول له: [٢٤/ب] / يا مسكين أعرفت كيفية الذات المقدسة التي اتصفت بهذه الصفات؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بهذه الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات. والله يجيء كما قال على الوجه اللائق بكماله وجلاله، على أشرف الوجوه وأليقها. وأتمها كما قال، مع أن جميع الكائنات بيده (جل وعلا) أصغر من حبة خردل. فنحن نُقِر بما جاء عن الله، ونؤمن بما قال الله، وننزه الله تعالى أكمل التنزيه وأتمه عن مشابهة شيء من خلقه، على ضوء القرآن، وعلى غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١].

يقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ

مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام: آية ١٥٨].

تكلمنا على أول هذه الآية، ونبدأ الكلام الآن من قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾ والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتيهم خالق السماوات والأرض لفصل الخطاب، عندما تشرق الأرض بنور ربها ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: آية ٦٩]، ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: آية ٢٢] ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وقد تكلمنا بالأمس على ما دل عليه القرآن في آيات الصفات وأحاديثها.

وقوله: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾ أي: يأتيهم بعض آيات ربك. والمراد بذلك البعض: البعض الذي إذا جاء لا يُقبل من كافر إيمان، ولا من مذنب توبة.

فهذه تخاويف وتهديدات عظيمة، تهديد بمجيء الملائكة لقبض الأرواح، وبإتيان خالق السماوات والأرض لفصل القضاء، وبإتيان الآيات التي يمتنع عند مجيئها إيمان الكافر، وتوبة العاصي ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾ هذا البعض هنا كأنه مبهم، أبهمه هنا ثم فصّله بأنه البعض الذي إذا جاء لا يقبل من كافر إيمان، ولا يقبل من عاص توبة، بل يغلق باب التوبة بمصراعيه، كأنه لم يكن بينهما فتح قط، وتختم الأعمال على ما كان، وتضع الحفظة أقلامها، ويبقى الناس إلى ذلك الوقت على ما قدّموا. وهذا معنى قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾.

وهذا البعض الذي هُددوا بإتيانه قال فيه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: بعض علاماته العظام الكبرى. فالآية هنا من معنى العلامة.

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ إذا أرادت أن تجدد الإيمان بعد إتيان بعض تلك الآيات لا ينفع منها ذلك الإيمان. وجماهير علماء التفسير، والأحاديث الصحيحة دلت على أن المراد ببعض الآيات التي إذا جاءت لا يُقبل إيمان من كافر، ولا توبة من عاص، أن المُراد به طلوع الشمس من مغربها[١]؛ لأن الشمس ستطلع يوماً من مغربها يقيناً، كما تواترت به الأحاديث عن النبيِّ ﷺ، وهو ثابت في الصحاح، في الصحيحين وغيرهما، وفي صحيح البخاري: أنها إذا طلعت من مغربها فرآها الناس آمن جميع من على وجه الأرض، ولم يكن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت[٢].

وهذا فيه إشكالات معروفة؛ لأن الأحاديث الصحيحة هنا فيها إشكالات معروفة، ونحن في الحقيقة لم نر من حرّر المقام فيها تحريراً شافياً[٣]؛ لأن كون الآية التي إذا أتت هي طلوع الشمس من مغربها، هذا ثابت في الصحيحين وفي غيرهما، وهو يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات، وأن مجيء الدجال يُقبل بعده إيمان الكافر، وتوبة العاصي. ونزول عيسى يُقبل بعده إيمان

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/ ٢٤٥)، القرطبي (٧/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، حديث رقم: (٦٥٠٦)، (١١/ ٣٥٢)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان، حديث رقم: (١٥٧)، (١/ ١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٥٣ ـ ٣٥٧)، التذكرة للقرطبي ص ٧٠٧.

الكافر كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٥٩]، وهذا يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات. ويُشكل عليه حديثان ثابتان في صحيح مسلم وغيره، فإنه في صحيح مسلم أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[(١)] وفي صحيح مسلم أنه قيل له[(٢)]: إن مروان بن الحكم يقول: إن أول الآيات خروج الدجال. فقال: ما قال مروان شيئاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[(٣)] وهذا الحديث مُشكل، إذا كان طلوع الشمس من مغربها قبل الدجال. والعلماء مجمعون على أنه لا إيمان يُقبل من كافر بعد طلوع الشمس من مغربها. إذاً يكون زمن الدجال وعيسى ابن مريم لا تنفع فيه الأعمال. وهذا مخالف لظواهر النصوص الكثيرة، ففي حديث عبد الله بن عمرو هذا أعظم إشكال.

ومن الأحاديث المشكلة أيضاً: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**». ثم ذكر الثلاث: «**الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**»[(٤)] وهذا يدل على أنه لا توبة تُقبل بعد مجيء الدجال. وهذا خلاف الظاهر المعروف من النصوص. فحديثا مسلم هذان

---

(١) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض. . . ، حديث رقم: (٢٩٤١)، (٤/ ٢٢٦٠).

(٢) أي: عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) راجع الحاشية التي قبل السابقة.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، حديث رقم: (١٥٨)، (١/ ١٣٨).

مشكلان جداً على قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ وعلى ما عليه جمهور العلماء من أنه طلوع الشمس، والإشكال في هذه الأحاديث لم نجد من حرّر المقام فيه تحريراً شافياً يجب الرجوع إليه.

والذي يظهر لنا: أن الآيات العظام نوعان: فقد ثبت في صحيح مسلم أن الآيات الكبار أنها عشر، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري (رضي الله عنه) أن النبيَّ ﷺ قال: «لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات»[1] وهذه الآيات العشر عند العلماء هي العلامات الكبار. ثم عدّها النبيّ ﷺ فيما روى عنه مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري رضي الله عنه، وعدّ منها ثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج دابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، والدخان. وهذا الدخان الذي ذكره مسلم في صحيحه هنا قال بعض العلماء: إنه هو المذكور في سورة الدخان، وأنه لم يأتِ إلى الآن، وأنه هو في قوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: آية ١٠] قالوا: وهو دخان يمكث أياماً يأخذ بنفس الكافر، ويأخذ المؤمن منه شبه الزكام، وأنه من العلامات التي ستأتي ولم يأتِ إلى الآن[2]. وكان عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) يقول: إن الدخان المذكور قد مضىٰ، وهو ما أصاب ربيعة ومضر من الجوع لما دعا

---

(١) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة، حديث رقم: (٢٩٠١)، (٤/ ٢٢٢٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٥/ ١١١ ـ ١١٥)، ابن كثير (٤/ ١٣٨ ـ ١٤٠).

النبيُّ ﷺ عليهم وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف**»[١] وأنهم جاءهم من الجوع ما أكلوا معه العِلْهِز. والعِلْهِز: شيء كانوا يصنعونه من الوبر والدم، يأكلونه عند شدة الحاجة. كأن الإنسان لشدة الجوع يُخيل له أن أمام عينيه شبه الدخان، وأن ذلك الذي يُخيل لعينيه مما يشبه الدخان من شدة الجوع أنه هو معنى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ أي: فيما تظنه أعينهم لشدة القحط والجوع. هذا تفسير عبد الله بن مسعود وطائفة من العلماء للدخان[٢]. وفسَّره جماعة آخرون بالدخان الذي عدّه مسلم في الآيات العشر العظام التي هي: الدخان، والدابة، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسىٰ ابن مريم وفي بعض الروايات بدل نزول عيسىٰ ابن مريم: ريح تلقيهم في البحر، وخسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخرها: نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو ترحل الناس إلى المحشر[٣]. هذه الآيات العشر.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد، حديث رقم: (٨٠٣)، (٢/ ٢٩٠)، وطرفه في: (٧٩٧، ٨٠٤، ١٠٠٦، ٢٩٣٢، ٣٣٨٦، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، حديث رقم: (٦٧٥)، (١/ ٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وقد جاء في دعاء النبي ﷺ عليهم بالسنين عدة أحاديث من أشهرها حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) المخرَّج في الصحيحين، وفيه وصف بعض ما وقع لهم من الشدة بعد دعائه ﷺ.

(٢) راجع المصادر المدونة في الحاشية التي قبل السابقة.

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

أما الأحاديث الصحيحة الثابتة في أنه تخرج نار بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى[(١)]. فهذه قد مضت بلا نزاع، وهي النار التي اشتعلت في الحرّة، واشتعالها وتأريخ اشتعالها معروف[(٢)]، فقد فاتت، وهي من معجزاته ﷺ.

وكان الشيخ ابن الجوزي يقول: إن الخسوف الثلاثة قد مضت، وأنه وقع في عراق العجم خسف عظيم، هو خسف المشرق، هلك فيه خلق عظيم، وأنه وقع كذلك في المغرب. ويزعم أنه وقع في جزيرة العرب[(٣)]، فعلى كل حال هذه الآيات العشر هي التي ذكرها مسلم في صحيحه أنها الآيات العظام، العلامات الكبرى للقيامة. وقد بينا أن جُلّ علماء التفسير، والأحاديث الصحيحة تبين أن بعض الآيات التي إذا أتى لا ينفع نفساً إيمانها: أنه طلوع الشمس من مغربها. وستطلع من مغربها يقيناً بلا شك؛ لأن الصادق المصدوق ﷺ بيّن أنها ستطلع من مغربها بروايات صحيحة لا مطعن فيها، وهو الصادق المصدوق، لا يقول إلا الحق. وطلوعها من مغربها أكبر دليل على تخريف وخرق أصحاب الهيئة الكذابين، الذين

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب: خروج النار، حديث رقم: (٧١١٨)، (١٣/ ٧٨)، ومسلم في الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، حديث رقم: (٢٩٠٢)، (٤/ ٢٢٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وذلك ليلة الأربعاء، بعد العشاء، ثالث جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة. انظر تفصيل ذلك في: التذكرة للقرطبي ص ٦٣٦، البداية والنهاية (١٣/ ١٨٧)، فتح الباري (١٣/ ٧٩).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ١٤٧).

يقولون: إن حالة الشمس والقمر دائبة لا تتغير ولا يعروها تغير. فسيرى الحاضرون منهم لذلك الوقت أنها تتغير، وأنها تطلع صباحاً من مغربها كما كانت تطلع من مشرقها، ويعلمون أن لها صانعاً حكيماً مدبراً، هو الذي يجريها كيف يشاء، على النحو الذي يشاء.

ووجه إشكال حديثي مسلم: أن حديث عبد الله بن عمرو الثابت في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[١] وطلوع الشمس من مغربها لا خلاف بين العلماء أنه من بعض الآيات التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل. فيلزم على هذا الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه لا إيمان ولا توبة أيام الدجال وعيسى. وهذا خلاف التحقيق. فالحديث مشكل.

والحديث الثاني: هو ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً**» وذكر الثلاث فقال: «**الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**»[٢]. فعلى مقتضى هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم أن العمل لا يقبل أيضاً بعد الدجال، وهو خلاف الظاهر والتحقيق. وقد ذكرنا أنا لم نر ممن تكلموا على أحاديث مسلم من شفىٰ الغليل في هذا شفاء واضحاً تتفق به الأحاديث مع الواقع، والذي يظهر لنا ـ والله تعالى أعلم ـ أن الآيات العظام الكبار على نوعين[٣]:

---

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

(٣) انظر: الفتح (١١/ ٣٥٣).

أحدهما: آيات أرضية تدل على حدوث أمور عظام هائلة في العالم السفلي والأرض، وأول هذه: الدجال، كما كان يقولونه؛ لأن الدجال ينزل قبل نزول عيسىٰ ابن مريم لأن [عيسى ابن مريم] يدرك [الدجال][1] فيقتله. وبعض العلماء يقول: إن عيسى ابن مريم ينزل قبل الدجال، ويصلي في إمام المسلمين المهدي، الذي ثبتت الأحاديث الصحاح به[2]، وعقد له أبو داود كتاباً باسم (المهدي)[3] وهو أيضاً آت لا محالة، وإن أنكره من أنكره؛ لأن الأحاديث الصحيحة ثابتة بمجيئه عن النبيِّ ﷺ ثبوتاً لا مطعن فيه، فأول الآيات الأرضية العظام نزول الدجال؛ لأن الدجال أكبر حادث يقع في الأرض، وأعظم فتنة تقع في الأرض. وقد صرحت الأحاديث: أنه منذ خلق الله الدنيا لم تقع في الأرض فتنة أعظم من الدجال؛ لأن معه ناراً ونهراً، وناره ماء، ونهره نار؛ ولأنه يأتي القوم فيصدقونه، فيقول للسماء: أمطري. وللأرض: أنبتي. فتطيعه في ذلك، فتروح سارحتهم أعظم ما كانت ضروعاً، وأَمَدّه خواصر. ويُحيي للرجل أباه وأمه، ويشق الرجل نصفين حتى يروه نصفين، ثم يجمع بين نصفيه، فيرون أنه يحيه. وهو أعظم فتنة في الأرض[4]. كأن - مثلاً - من قال: «إن أول الآيات خروجاً

---

(١) في الأصل: «لأن الدجال يدرك عيسى ابن مريم فيقتله».

(٢) انظر عقد الدرر في أخبار المنتظر للسلمي، والاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر للتويجري، والرد على من كذّب الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي للعباد.

(٣) عون المعبود (٣٦١/١١).

(٤) انظر جملة من الأحاديث الواردة فيما سبق، في البخاري (٨٩/١٣ - ٩١)، مسلم (٢٢٤٩/٤ - ٢٢٥٨).

الدجال». يعني: أول الأحداث الأرضية، التي تكون في الأرض، تؤذن بأمور عظام، وقرب انقضاء الدنيا، وأن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات التي هي من العالم العلوي، المؤذنة بزوال العالم العلوي وانقضائه. فيكون كون الشمس أول الآيات يعني باعتبار ما هو من جنسها، كتغيير العالم العلوي، ويكون الدجال أول الآيات باعتبار العالم الأرضي.

وعلى كل حال فالشمس إذا طلعت من مغربها أُغلق باب التوبة، وطلوع الشمس والدابة مترادفان بينهما قليل، جاء في بعض الأحاديث أن الشمس إذا طلعت من مغربها خرجت الدابة ضحى[1]. والدابة هي التي يأتي ذكرها في النمل، في قوله: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية[2] [النمل: آية ٨٢]. قال بعض العلماء[3]: والحكمة في إتيان الدابة بعد الشمس: أن الشمس إذا طلعت من مغربها خُتم على الأعمال، ولم يقبل من كافر إيمان، ولم يقبل من عاص توبة، وانقطع تجديد إيمان جديد، أو توبة جديدة، فيرسل الله بعد ذلك الدابة، فتكتب على جبهة كل إنسان: (سعيد) أو (شقي) يعرفه من يراه، لتبين حال الناس عند انقطاع أعمالهم، من هو الكافر منهم ومن هو السعيد، والحاصل: أن أكثر أهل العلم، والأحاديث الصحيحة، دلت على أن الآية التي إذا جاءت لا يُقبل من أحد إيمان: هو طلوع الشمس من

---

(١) وهو حديث عبد الله بن عمرو وقد مضى قريباً.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٣٥.

(٣) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٥٣).

مغربها[(١)]. وفيها أحاديث كثيرة، وفيها حديث أبي ذر المشهور: أنها تسير كل يوم، فتسجد لمستقر لها تحت العرش، ثم تستأذن فيؤذن لها فترجع، فإذا كان اليوم الذي يريد الله طلوعها من مغربها تستأذن فلا يُؤذن لها[(٢)]. ويقول المفسرون وبعض المحدثين[(٣)]: إن تلك الليلة تطول جداً، وينتظر الناس الصباح، فيطول عليهم الليل، فتستأذن الشمس فيقال لها: اطلعي من مغربك، فتصبح طالعة للناس من مغربهم، فإذا رأوها آمن جميع من في الأرض، وعلموا أن للكون خالقاً حقاً، ولم يبق أحد منهم إلا وهو مؤمن، وذلك الوقت ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ وذهب بعض العلماء، ونصره أبو عبد الله القرطبي[(٤)]: أنها بعد طلوعها من مغربها سترجع إلى عادتها وتطلع من مشرقها، وترجع الدنيا إلى حالها، وأنه إذا تقادم عهدها، وصار الناس يسمعون بخبرها، أنه حينئذٍ تقبل توبة الكافر إذا تاب، والعاصي إذا تاب. وهذا قال به بعض العلماء، ولكنه خلاف التحقيق؛ لأن ظاهر الأحاديث الكثيرة، والآية الكريمة، أنه بعد إتيان الآية لا ينفع نفساً إيمانها، وهو نفي مطلق إلى يوم القيامة. وقال بعض

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٤٦)، ابن كثير (٢/ ١٩٣ ــ ١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾، حديث رقم: (٤٨٠٢، ٤٨٠٣)، (٨/ ٥٤١)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان، حديث رقم: (١٥٩)، (١/ ١٣٨).

(٣) انظر: التذكرة ص ٧٠٥، فتح الباري (١١/ ٣٥٥)، الدر المنثور (٣/ ٥٧ ــ ٦١).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٤٧، ١٤٨)، التذكرة ص ٧٠٦.

العلماء[١]: تؤمر الحفظة بطي الصحف، وطرح الأقلام، ولا ينفع أحداً عمل، ويختم على كل بعمله.

وقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ يُفهم منه أن النفس التي طلعت عليها الشمس من مغربها وهي مؤمنةٌ من قبل أنها في خير، وعلى خير، وأن إيمانها نافع لها.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يُفهم منه أن النفس المؤمنة التي كانت تعمل الخير أنها في خير، وعلى خير، وأما النفس التي كانت مؤمنة ولم تعمل في إيمانها الخير، بأن كانت ترتكب المعاصي، وتخالف الله، ثم أرادت عند طلوع الشمس أن تتدارك ذلك بالتوبة فلا يُقبل ذلك منها لقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ وكان بعض العلماء يقول: من طلعت عليه الشمس من مغربها وهو على الاستقامة وطاعة الله كُتب له ما كان يفعل دائماً[٢].

وهذا القول وإن كان ظاهر الآية لا يساعد عليه، إلا أنه غير بعيد؛ لأنه دلت نصوص أخر على أن الإنسان المواظب على الخير إذا عاقه عنه عائق كمرض أو سفر أنه يُكتب له ما كان يواظب عليه من الخير إذا عاقه عنه مرض، وهو أحد التفسيرين[٣] في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾ [التين: الآيتان ٥، ٦] فعلى أحد التفسيرين في الآية: أن الإنسان إذا رُدّ أسفل سافلين إلى أرذل العمر، وكان هرماً لا يعقل، أنه يُردّ إلى أسفل

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٥٥).

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ١٤٦) من التفسير، وفي التذكرة ص ٧٠٥.

(٣) انظر: ابن جرير (٣٠/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

السافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم من الأجر ما كان يُكتب لهم. هذا وجه في الآية، ولكن الوجه الصحيح فيها عند المفسرين: أن معنىٰ: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ أي: جعلناه إلى دركات النار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ وهو الجنة. وهذا معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ ﴿نفساً﴾ لم تكن آمنت من قبل لا ينفعها إيمان جديد بعد طلوع الشمس من مغربها. وقد ثبت في الصحيح أنها إذا طلعت من مغربها آمن كل من على وجه الأرض من البشر بالله (جل وعلا)[1]. ولكنه إيمان غير مقبول؛ لأنهم ما آمنوا حتى فات الوقت وانتهت المدة، وانقضت الفرصة. ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، ولا ينفع نفساً عاملة للخير لم تكن عملت في إيمانها السابق خيراً، فالذي ينفع: الإيمان السابق، وعمل الخير السابق في الإيمان، أما العمل الذي يُجَدَّد بعد الطلوع، والإيمان الذي يُجَدَّد بعد الطلوع فلا ينفع. واستثنىٰ بعض العلماء من هذا من طلعت عليه الشمس وهو مستقيم على اجتناب نواهي الله، وامتثال أوامره، أنه يكتب له ما كان يعمل. وقال بعضهم[2]: إن المؤمن تُقبل توبته لإيمانه السابق. وظاهر الآية خلاف ذلك، وأنها إذا جاءت خُتم لكل بما كان يعمل، وانقضىٰ العمل، فمن جاءته وهو على الإسلام والخير فهو إلى الجنة، ومن جاءته على الشر والكفر ــ عياذاً بالله ــ فهو إلى النار. ولا تُقال لأحد عثرة، ولا تقبل منه توبة بعد نزول الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

---

(١) مضى قريباً.

(٢) انظر: التذكرة للقرطبي ص ٧٠٦.

ثم إن الله لما قال للكفار المكذبين لرسوله: ما تنتظرون إلا بلايا تأتيكم، إما أن تأتيكم الملائكة لقبض أرواحكم، أو يأتي خالق السماوات والأرض لفصل الخطاب فيحكم بتعذيبكم، أو يأتيكم بعض الآيات المانعة من قبول العثرة والتوبة، إذا كان يهددهم هذا التهديد، فقد أتبعه بقوله: ﴿قُلِ انتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ فإنكم تنتظرون السوء ونحن ننتظر الخير؛ لأنا إذا جاءتنا الملائكة فقبضت أرواحنا ونحن على الاستقامة كان فيه أعظم البشارة لنا، وأحسن العُقبىٰ، وإذا أتانا ربنا لفصل القضاء حكم لنا بأحسن الحكم، وأكرم النعيم لطاعتنا واستقامتنا. وإذا جاء بعض الآيات المانعة من التوبة وجدتنا على هدى وتوبة وإنابة، فلم يضرنا مجيئها؛ ولذا قال: ﴿قُلِ انتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ كقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ [التوبة: آية ٥٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٩].

[قرأ الجمهور][(١)] غير حمزة والكسائي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بتشديد الراء، وعدم ألف بعد الفاء، وقرأه حمزة والكسائي: **﴿إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾**[(٢)] أما على قراءة حمزة والكسائي: **﴿فارقوا دينهم﴾** فالمعنى واضح؛ لأنهم ارتدوا ــ والعياذ بالله ــ عن الدين وفارقوه، وصاروا طوائف كافرة، كل طائفة ملحدة كافرة غير

---

(١) في هذا الموضع وُجد مسح في التسجيل وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٥.

الأخرى. وأما على قراءة الجمهور: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ فالمراد بتفريقهم الدين: أن كل طائفة تنتحل نحلة تزعم أنها هي الدين(١). فهي في أهل الأهواء والبدع والضلالات، ويدخل فيهم اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: آية ١١٣] فقد فرقوا دينهم. ومعناه: أن كل طائفة وفرقة انتحلت نحلة تزعم أنها هي الدين الحق، وأن ما سواه باطل، والجميع كله ضلال وبدع وأهواء. كما ذكرنا في الحديث: أن النبيَّ بيّن هذا التفريق، وأن اليهود افترقوا إلى إحدى وسبعين فرقة، وهذه الإحدى والسبعين فرقت دينها، وجعلته إحدى وسبعين فرقة، كل واحدة تدّعي أنها على الحق، وأن غيرها ضال، وافترقت النصارىٰ إلى اثنتين وسبعين فرقة، كل فرقة تزعم أنها على الحق، وأن غيرها ضال. وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، تزعم كل واحدة أنها على الحق. وجميع الفرق في النار إلا فرقة واحدة(٢).

---

(١) انظر: حجة القراءات ص ٢٧٨.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو داود في السنة، باب: شرح السنة، حديث رقم: (٤٥٧٢)، (١٢/ ٣٤٠)، والترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم: (٢٦٤٠)، (٥/ ٢٥)، وقال الترمذي: «وفي الباب عن سعدٍ وعبد الله بن عمرو، وعوف بن مالك. قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح». اهـ.
وأخرجه ابن ماجه في الفتن، باب: افتراق الأمم، حديث رقم: (٣٩٩١)، (٢/ ١٣٢١)، وابن حبان (الإحسان ٨/٤٨)، والحاكم (١/ ١٢٨)، وأبو يعلى (١٠/ ٥٩١٠)، والآجري في الشريعة ص ١٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وقد جاء في هذا المعنى عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة كأنس بن مالك، =

وعلامة هذه الفرقة الواحدة: هي الخالية من البدع والأهواء والمبتدعات بعد الرسول ﷺ، المخالفة لشرعه، بل هي التي تمشي على الجادة والمحجة البيضاء، التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه. هذه الفرقة هي الناجية: وهي المسماة بأهل السنة والجماعة، وإن كانوا قليلاً؛ لأن أكثر الأرض على الضلال، أكثر من في الأرض ضلال في النار، والذين هم على الهدى وأهل الجنة قلة جداً. وقد ثبت في الصحيحين عن النبيِّ ﷺ أن نصيب الجنة من الألف واحد، ونصيب النار من الألف تسع وتسعون وتسعمائة. وهذا ثابت في الصحيح عنه ﷺ، ولما شقّ هذا على أصحابه أخبرهم بكثرة المشركين، وأن هناك قبيلتين قد تكون الألف منهم، والواحد منكم: يأجوج ومأجوج(١). ويأجوج ومأجوج من العلامات العشر التي ذكرها مسلم لم نذكرها، وهذه الفرق كلها في النار، ونصيب الجنة واحد من الألف لكثرة الكفار، والله يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: آية ١١٦]، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: آية ٨]، ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: آية ٧١]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:

= وعوف بن مالك، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عمرو وغيرهم.
وانظر: صحيح أبي داود (٣/ ٨٦٩)، صحيح الترمذي (٢/ ٣٣٤)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٣٦٤)، السلسلة الصحيحة رقم: (٢٠٣)، التعليق على التنكيل (٢/ ٥٣)، صحيح الجامع رقم: (١٠٨٣).

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم: (٣٣٤٨)، (٦/ ٣٨٢)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الأحاديث: (٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣)، ومسلم في الإيمان، باب: قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار...». حديث رقم: (٢٢٢)، (١/ ٢٠١).

آية ١٠٣] فالأكثرية أهل النار، وهي التي منها هذه البدع والأهواء والفرق الضالة الزائغة عن هدي النبي ﷺ، والهدى لا يخفىٰ:

الحــقُّ أبلــج لا تــزيــغ سبيلُــه والحقُّ يعرفُه أولُو الألبابِ(١)

لأن من هو على هدي النبيِّ ﷺ لا يخفىٰ على أحد؛ لأنه خال من الابتداع، والدعاوى الكاذبة، والتضليلات، والتخريفات، والتهريجات الزائفة، بل هو على صراط مستقيم، عامل بهدي رسول الله، عارف أوامر القرآن ونواهيه، عالم بسنة رسول الله وبأحكامها، متبع ما جاء عن الله، مؤتمر بأوامر الله، منزجر عما زجر الله عنه، على المحجة البيضاء، سالم من الدعاوى الخرافية، والضلالات المبتدعة التي لم يعرف لها عهد في زمن رسول الله ﷺ وأصحابه. فالفرقة الناجية: هي التي كانت علىٰ ما عليه النبيّ وأصحابه من العقيدة الصحيحة، وامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه على الوجه الصحيح الكامل، فالصحابة (رضي الله عنهم) لم يدّعوا شيئاً مما يدّعيه المضللون من أنهم يرون النبيّ يقظة، ويجتمعون به دائماً!! لم يقولوا شيئاً من ذلك لصدقهم وعدالتهم. هذا أمير المسلمين في زمانه: عثمان بن عفان، أعز فتى في قريش، وهو أمير المؤمنين. والإسلام في شدة قوته، ولما أمر النبيُّ ﷺ عمر بن الخطاب أن يذهب بالهدايا إلى مكة لما حاصروهم في الحديبية قال له: أنا لا أستطيع؛ لأن بني عدي لا يمكن أن يمنعوني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعز مني، وهو عثمان بن عفان. فأخذه النبيُّ ﷺ لعزته ومكانته في قريش، وأرسل معه الهدايا وتلقاه بنو

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من هذه السورة.

عمه يقولون:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ ولا تَخَفْ أَحداً   بنُو سعيدٍ أَعِزَّة الحرمِ[(١)]

وهو بهذه العزة في قريش، وهو أمير المؤمنين، وصهر رسول الله على ابنتيه، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ذُبح في داره ظلماً، والحجرة النبوية بجنبه، لم يأته النبيُّ ﷺ، ولم يحُل لهم المشكلة، وهذه عائشة (رضي الله عنها) ذهبت إلى العراق، ووقعت قصة الجمل، والنبيُّ ﷺ معها في الحجرة، لم تستطع أن تلقاه، ولم تأخذ رأيه: هل تفعل؟ بل قد ندمت كل الندم على ما صدر منها. ولما نزلت مسألة العول: ماتت امرأة وتركت زوجها وأختيها في خلافة عمر بن الخطاب، فقال عمر: إن أعطيت الزوج النصف لم يبق ثلثان، وإن أعطيت الأختين الثلثين لم يبق نصف، فماذا أفعل؟ وأسفوا كل الأسف على أنهم لم يسألوا النبيَّ ﷺ[(٢)]، فما قال أحد منهم: إنهم يسألونه؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه أرسله الله لمهمة وقد بلّغها على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنصحها، ثم تركها محجة بيضاء ليلها كنهارها، ثم اختاره الله إلى ما عنده من الكرامة، ونقله إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه.

والشاهد أن الذين هم على هدي النبيِّ ﷺ وأصحابه سالمون من الدعاوى الكاذبة، والخرافات المضللة، بل هم على صراط مستقيم، وهدي واضح لا دعاوى فيه ولا تضليل ولا تهريج، يقتفون

---

(١) البيت لأبان بن سعيد بن العاص. وهو في تاريخ دمشق (٦/ ١٣٤)، الاستيعاب (١/ ٧٥)، الإصابة (١/ ١٤)، سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦١).

(٢) انظر: المحلى (٩/ ٢٦٣)، وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

آثار النبيِّ ﷺ بالعمل بكتابه وسنته، ومجالسهم كأن على رؤوسهم الطير فيها. فمن كان على هديه ﷺ في الأعمال والأقوال والأفعال والسمت والعقيدة فهو الفرقة الناجية، وغيره هي الفرق الضالة المضلة التي فرقت دينها وجعلته شيعاً.

وقوله: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ الشيع جمع شيعة، وكل قوم تشيعوا واجتمعوا على نصرة رجل، أو على نحلة ينتحلونها فهم شيعة، سواء كانت في الخير أو في الشر(١)، ومنه قوله في نوح: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: آية ٨٣] أي: من جماعته الذين هم على دينه وهديه، ومنه قول الكميت(٢)، وهو من الشيعة الذين يتشيعون لآل النبيّ ﷺ:

ومَا لِيَ إلا آلَ أَحْمَدَ شِيْعَةٌ ... ومَا لِيَ إلا مَذْهَبَ الحقِّ مَذْهَبُ

﴿شِيَعًا﴾ أي: فرقاً مختلفة، كل فرقة تنصر صاحب بدعة مثلاً، أو رأس ضلالة يشيعونه وينصرونه.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ معناه: أنت بريء منهم، وهم برآؤا منك، لست على دينهم وليسوا على دينك. والعرب إذا كان الإنسان بريئاً من الإنسان يقولون: لستُ منك ولستَ مني. ومنه قول نابغة ذبيان(٣):

إذا ما رُمتَ في أسَدٍ فُجوراً ... فإنِّي لستُ مِنْكَ ولسْتَ منِّي

---

(١) انظر: المصباح المنير (مادة: شيع) ص ١٢٦.

(٢) البيت في شذور الذهب ص ٢٦٣، تلخيص الشواهد لابن هشام ص ٨٢، قطر الندى ص ٢٤٦.

(٣) البيت في ديوانه ص ١٣٨، وروايته في الديوان: «إذا حاولت...».

يعني: أنا بريء منك، وأنت بريء مني.

ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما أمرهم ومصيرهم إلى ربهم، فالله هو الذي حكم عليهم في دار الدنيا بذلك الشقاء والخذلان وطمس البصيرة، وهو الذي يجازيهم يوم القيامة على ما كان منهم، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة. أي: يخبرهم إذا جاؤوه بالذي كانوا يعملونه في الدنيا، فيجدون كل ما عملوه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويقال للإنسان: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: آية ١٤]، فيجد الإنسان كل ما قدم وأخَّر ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: آية ٣٠] وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ والمراد بالتنبئة هنا ليس مجرد الإخبار، ينبؤهم ليُقروا ويعترفوا فيعلمون أنه إنما عاقبهم على عدل وليس بظلم، والنبأ في لغة العرب أخص من مطلق الخبر؛ لأن كل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأ؛ لأن العرب لا تُطلق النبأ إلا على الخبر الذي له شأن وخطب، فيقولون: جاءنا نبأ الجيوش، ونبأ الأمير، وخبر الجيوش، وخبر الأمير. أما لو قال قائل: تلقّينا اليوم نبأ عن حمار الحجام. فإن هذا لا يكون من كلام العرب[١]؛ / لأن حمار الحجام لا أهمية له، وإطلاق النبأ عليه وضع [٢٥/أ] للنبأ في غير موضعه، فاللائق أن يقول: خبر حمار الحجام؛ لأن النبأ لا يُطلق إلا على ما له شأن[٢]، وكون التنبئة هنا لها شأن لعظمة الله

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

بإحصائه إياها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولعظمة الخطب عليهم، كما قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: آية ٤٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: آية ١٦٠].

لما أمر الله الخلق بسلوك صراطه المستقيم، ونهاهم عن اتباع السبل لئلا تتفرق بهم عن سبيله، ثم بين أن بعضاً منهم لم يمتثلوا ذلك، بل اتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الأنعام: آية ١٥٩] بيّن أنه (جل وعلا) بالنسبة إلى من عصاه فاتبع تلك السبل الضالة، وبالنسبة إلى من أطاعه فاتبع ذلك الصراط المستقيم، أن معاملته للمحسنين في غاية الإكرام والتمام والكمال، وللمسيئين في غاية الإنصاف والعدالة، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ يعني: من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة التي كان يعملها في دار الدنيا، فقول بعض أهل العلم هي: «لا إلـٰه إلا الله» كالتمثيل؛ لأن المراد بالحسنة: كل خصلة تُرضي الله (جل وعلا)، سواء كانت (لا إلـٰه إلا الله) أو غيرها من العقائد، وأفعال الجوارح، وأعمال القلوب(١)، كل من جاء إلى الله يوم القيامة بالخصلة الحسنة من طاعة الله من [كل](٢) خصلة ترضي الله (جل وعلا)، فالله (جلِ وعلا) يُضاعفه عليٍ أقلِ التقديرات عشر أمثالها، أي: فله عشر حسنات، كل حسنة مثلها، فأقل المضاعفة للمحسنين

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٧٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٦١).
(٢) في الأصل: «جميع».

عشرة. ثم إنه بيّن في بعض المواضع أنه يضاعف إلى سبعمائة، وفي بعضها أنه يضاعف حسب مشيئته بحيث لا يعلمه إلا هو حيث قال في المضاعفة إلى سبعمائة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ فجاءت الحبة بسبعمائة حبة، وهي مضاعفة الحسنة بسبعمائة.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: آية ٢٦١] أي: يضاعف لمن يشاء من الأضعاف ما شاء، فأقل المضاعفة عشر حسنات، إلى سبعمائة، إلى ما شاء الله. فتوضع الحسنة في الميزان بعشر حسنات.

ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالخصلة السيئة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فجزاء السيئة سيئة واحدة مثلها، وجزاء الحسنة على أقل التقديرات عشرة أمثال، فمن غلبت آحاده عشراته فلا خير فيه، ولا يهلك على الله إلا هالك؛ لأن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيد ولد آدم (عليه الصلاة والسلام) هيأ الله فيها طريق الجنة ويسَّرها تيسيراً عجيباً، رفع فيها الأثقال والآصار والتكاليف، من شقّ عليه السفر فليفطر، وليقصر الصلاة[1]، ومن لم يقدر على الصلاة قائماً صلى قاعداً، وهكذا في أنواع التخفيف، فمع هذا فالحسنة تكتب له بعشر حسنات، كل حسنة مثلها. والسيئة إنما تكتب عليه سيئة واحدة مثلها. ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، بل قد تكون حسنة، إن كان تركه لها

(١) معلوم أن القصر والفطر في السفر لا يتوقفان على وجود المشقة.

لأجل ابتغاء مرضاة الله، فهذه الآيات من أعظم المبشرات للمسلمين؛ لأن جميع حسناتهم عند الوزن الذي قال الله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: آية ٨] إذا كانت حسنتك تضاعف عشر مرات، وسيئتك إنما تُجازىٰ بسيئة واحدة مثلها، ففي هذا أعظم البشارة للمسلمين، وعليهم أن يكثروا من الحسنات. ومن الحِكَم العظيمة، وجوامع الكلم، قوله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»(١) يعني: إن صدرت منك سيئة فأتبعها بحسنة؛ لأن السيئة تُجعل في كفة الميزان سيئة واحدة؛ وتجعل الحسنة في الكفة الأخرى عشر حسنات فيثقل وزنها عليها. وهذا معنى قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: آية ١٦٠] أصل الحسنة: هي الصفة المشبهة من حسُن، يحسن، فهو حسَن، والأنثى حسنة. وقد جرت عادة العرب بأن يجعلوا لفظ الحسنة والصالحة كأنهما اسما جنس للخصلة الطيبة، والفعلة الكريمة، حتى كادوا يتناسون الوصفية فيهما، ومنه هنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالخصلة الحسنة، فَحُسْنها هو كونها تُرضي الله (جل وعلا)، وتطابق ما أمر به ونهى عنه. وقد وعد الثواب عليها، وكذلك قال: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: آية ٢٥] فالصالحة كالحسنة، أي: هي الخصلة التي هي صالحة؛ لأن الله أمر بها، ووعد فاعلها الخير. وهذا معروف في كلام العرب. أما في الحسنة فمشهور، وأما

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، حديث رقم: (١٩٨٧)، (٤/ ٣٥٥) من حديث أبـي ذر رضي الله عنه.
وانظر: السلسلة الصحيحة (٣/ ٣٦١ ــ ٣٦٢)، صحيح الترمذي (٢/ ١٩١)، المشكاة رقم: (٥٠٨٣).

في الصالحة فمعروف في كلام العرب، ومنه قول الحطيئة(١):

كيفَ الهجاءُ وما تَنْفَكُّ صَالِحةٌ ... مِنْ آلِ لأْمٍ بظهرِ الغَيْبِ تأْتِيْني

أي خصلة طيبة. وقول أبي العاص بن الربيع في زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ(٢):

بنتُ الأمينِ جَزَاهَا اللّهُ صالحةً ... وكلُّ بَعْلٍ سَيُثْنِي بالذي عَلِمَا

وسُئل أعرابي عن الحب ما هو؟ فقال(٣):

الحبُ مشغلةٌ عن كلِ صالحةٍ ... وسكرةُ الحبِ تنفي سكرةَ الوسَنِ

فالصالحة، والحسنة، والسيئة كأنها أسماء أجناس، ثنتان للخصلة الطيبة، وواحدة للخصلة الخبيثة.

وأصل السيئة(٤): (سيوِئَة) ووزنها بالميزان الصرفي: (فَيْعِلَة) فـ (ياء) (الفَيْعِلَة) زائدة. اجتمعت هي والواو التي في مكان العين؛ لأن أصلها من (سَوَأ) فمادة الكلمة: فاؤها سين، وعينها واو، ولامها همز، (سَوَأ). فقيل في السيئة: (سيوِئَة) على وزن (فَيْعِلَة) اجتمعت ياء (الفَيْعِلَة) الزائدة، والواو التي في محل العين سكنت إحداهما قبل الأخرى سكوناً غير عارض، فأُبدلت الواو ياء على القاعدة التصريفية المشهورة، فقيل: (سيئة) فالياء الأولى زائدة، والثانية مبدلة من الواو التي في محل عين الكلمة(٥).

---

(١) البيت في شواهد الإنصاف ص ١٢٦، الدر المصون (١/ ٢١١).

(٢) البيت في طبقات ابن سعد (٨/ ٢١)، الاستيعاب (٤/ ٣١٢)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٩/ ٤٤)، أعلام النساء (٢/ ١١٠).

(٣) البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (٢/ ١٥٠).

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٤٦.

(٥) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم ص ١٤٦.

والسيئة: هي الخصلة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة(١). ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: آية ٣٠].

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ومن هنا تعرفون أن ما يجري على ألسنة العامة: أن السيئات تضاعف في مكة كما تضاعف الحسنات، أن ذلك الإطلاق لا يجوز؛ لأن مضاعفة السيئات ممنوعة قطعاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو نص صريح قرآني في أن السيئات لا تضاعف، ولكن السيئة في حرم مكة مثلاً تعظم؛ لأن السيئة تعظم بحسب عظم الزمان والمكان، فإذا عظمت السيئة عظم جزاؤها؛ لأن الجزاء بحسب الذنب، إذا عظم الذنب عظم الجزاء، وإذا صغر الذنب صغر الجزاء. فهو من عظم الذنب، وعظم الجزاء تبعاً لعظم الذنب، لا من المضاعفة؛ لأن السيئات لا تضاعف، ولكنها تعظم وتكون أكبر في زمان من زمان، وفي محل من محل؛ ولذا قال في حرم مكة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: آية ٢٥]، وقال في الأشهر الحرم: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٦] مع أن ظلم النفس في غيرهن حرام(٢).

وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ أي: والجميع لا يظلمون، فلا يُزاد في سيئات المسيء، ولا يُنقص من حسنات المحسن، بل حسنات المحسن تُزاد، وسيئات

---

(١) انظر: المفردات (مادة: سوأ) ص ٤٤١.
(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٥١).

المسيء إما أن يُعفى عنها أو يُتجاوز، وإن عُومل بها عُومل بوزرها فقط عدلاً وإنصافاً.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: آية ١٦١].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ قرأه الجمهور: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وفتح اثنان من السبعة منهما نافع: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّـيَ إِلَـى صِـرَاطٍ مُستَقِـيمٍ﴾[1] ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ قـرأ أربعـة مـن السبعـة، وهـم الكوفيون الثلاث: عاصم، وحمزة، والكسائي، والشامي ـ وهو ابن عامر ـ : ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ بكسر القاف وفتح الياء مخففة. وقرأ الحرميان، أعني: نافعاً وابن كثير، والبصري ـ وهو أبو عمرو ـ قرؤوا: ﴿دِيناً قَيِّماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[2].

وقرأ جمهور القراء ما عدا هشاماً عن ابن عامر: ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بكسر الهاء ممدودة بياء، وقرأ هشام عن ابن عامر: ﴿إبراهام حنيفاً﴾ بفتح الهاء ومدها بألف، وهما لغتان في إبراهيم صحيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان[3].

لما بيّن الله انقسام الخلق إلى مهتد وضال، ومفرقين دينهم شيعاً ومهتدين، أمر نبيَّه ﷺ أن يُصرح على رؤوس الأشهاد أنه لم يتبـع السبـل الـزائغـة، ولا الطـرق الضـالـة، وأنـه علـى الهـدى المستقيم، والمحجة البيضاء التي هداه إليها ربه، قل يا نبـي الله:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠٥.

(٣) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٦٩، الموضح (١/ ٢٩٩ ـ ٣٠١)، الإقناع لابن الباذش (٢/ ٦٠٢)، النشر (٢/ ٢٢١)، البدور الزاهرة ص ١١٣.

﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ أي: أرشدني ودلني ووفقني للعمل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾. الصراط في لغة العرب: الطريق الواضح[(١)]، ومنه قول جرير[(٢)]:

أميرُ المؤمنينَ على صراطٍ إذا اعْوَجَّ المواردُ مستقيم

والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه، طرفه بيد المسلمين، وطرفه الآخر في الجنة.

وقوله: ﴿دِينٗا﴾ أعربوه أعاريب مختلفة[(٣)]، أجودها: أنه بدل محل من قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ لأنه مجرور في محل نصب. والأصل: (هداني ربي صراطاً مستقيماً) لأن (هدى) تتعدى إلى المفعول الثاني بنفسها دون حرف الجر، كقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾ [الصافات: آية ١١٨]، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: آية ٦]، ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠﴾ [الفتح: آية ٢٠] وقد يتعدى بـ(إلى) كقوله هنا. ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وقد يتعدى بـ(اللام) إلى المفعول الثاني، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: آية ٩] فهو وإن جُر بـ(اللام) أو بـ(إلى) فهو في محل نصب؛ لأن الفعل يتعدى إليه بنفسه، ومعروف أن مراعاة المحل في الإعراب أمر معروف:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٧) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٨٢)، القرطبي (٧/ ١٥٢)، البحر المحيط (٤/ ٢٦٢)، الدر المصون (٥/ ٢٣٨).

وَجُرَّ مَا يَتْبَعُ مَا جُرَّ وَمَنْ   رَاعَى في الاتْبَاع المحلَّ فَحَسَن[1]

كما قاله ابن مالك في الخلاصة. فقوله: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ مجرور في محل نصب، إذ (هداني) تتعدى إلى المفعول الثاني بنفسها، فكأنه قال: (هداني صراطاً مستقيماً دينا قيماً) فـ (الدين) بدل من (الصراط المستقيم) وهو بدل محل؛ لأنه منصوب أُبدل من مجرور، لكن المجرور في محل نصب.

وأعربه بعضهم حالاً من (الصراط) أي: إلى صراط مستقيم في حال كون ذلك الصراط المستقيم ديناً قيماً. والنكرة إذا نُعتت أو خُصصت جاز مجيء الحال متأخرة منها.

وبعضهم قال: هو منصوب بـ (هداني) بتضمينها معنى (عرفني). ولا يخلو من بعُد، وفيه أعاريب غير هذا أظهرها ما ذكرنا.

﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ أي: أرشدني ووفقني إلى طريق واضح لا اعوجاج فيه.

﴿دينا قيّماً﴾ على قراءة: ﴿قيّماً﴾ فهو الصفة المشبهة من قام، يقوم، فهو قَيِّم، بمعنى: استقام، يستقيم، فهو مستقيم. والعرب تطلق (قام) وتريد: استقام، ومنه: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: مستقيمة على دين الحق ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: آية ١١٣]. فالقيّم هو الصفة المشبهة من: قام، يقوم، بمعنى: استقام، يستقيم، فهو كالتوكيد لما قبله.

وقال بعضهم: هذا الدين (قيّم) معناه: أن اتباعه يقوم بشؤون الدين، وينظم علاقاتها ومصالحها في الدنيا والآخرة، من

---

(١) الخلاصة ص ٣٩.

قولهم: فلان قيّم على أهله، أي: قائم بمصالحهم وشؤونهم، ودين الإسلام جامع بين الوصفين، هو قيّم يعني بأحوال الدنيا والآخرة؛ لأن مُتبعه يصلح له جميع أموره من جميع الجهات في دنياه وأخراه.

وعلى أنه (فَيْعِل) من قام بمعنى: استقام، فهو أيضاً في غاية الاستقامة، وهو كالتوكيد لما قبله.

أما على قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فالقِيَمُ هنا مصدر قليل، كقولهم: كبُر كِبرَاً، وعَظُم عِظَماً، وشَبِعَ شِبَعاً، وقام قِيَماً. فهو مصدر بمعنىٰ (القيام) نُعت به. و(قام) التي مصدرها (قِيَماً) هنا من (قام) التي بمعنى (استقام)، فهو راجع في المعنى إلى الأول، إلا أنه من النعت بالمصدر، والعرب إذا نعتت بالمصدر كقولهم: رجل كَرَم، وفلان عَدْل. لأن العدل مصدر، إذا نعتت بالمصدر فقيل هو على حذف مضاف. أي: ذو قِيَم. أي: استقامة. زيد كَرَم. أي: ذو كَرَم. أو كأنهم بالغوا فيه حتى جعلوه عين القِيَم، بمعنىٰ الاستقامة. وكأنهم بالغوا في كرم زيد حتى جعلوه عين الكرم.

الثاني: أن المصدر المنكَّر يؤول بالوصف، فيرجع معنىٰ المصدر إلى معنىٰ (قيِّماً)، الذي هو الصفة المشبهة من (قام). فيرجع معنىٰ الأقوال إلى شيء واحد؛ لأن النعت بالمصدر معناه: ذو قِيَم. أي: استقامة. أو هو استقامة بعينه، كأنه لشدة استقامته سُمي (استقامة) لشدة استقامته. أو لأنه مصدر أُريد به الوصف، فيكون (قِيماً) بمعنى: قيِّماً. هذه الأقوال الثلاثة معروفة في النعت

بالمصدر، كما قال في الخلاصة[١]:

ونَعَتُوا بمصدرٍ كثيراً فالتزمُوا الإفرادَ والتذكيرَا

فعلى قراءة (قِيَماً) فهو من النعت بالمصدر، فالقِيَم: مصدر كالشِّبَع، والصِّغَرِ، والكِبَر. وعلى قراءة من قرأ ﴿قيّماً﴾ فالأمر واضح[٢].

وقوله: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هذه بدل من الدين[٣]؛ لأن الدين القيم هو ملة إبراهيم، والملة: الشريعة والطريقة. قال بعض العلماء: اشتقاقها من (الإملال)، و (الإملال) بلامين، وهو ما يسمونه الإملاء ــ بالهمزة ــ أن تلقي على الكاتب جملة فيكتبها، ثم تُملي عليه جملة أخرىٰ فيكتبها. ومنه قوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢]، ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] معنى أنه يملل، أي: يُلقي على الكاتب جمل عقد المداينة حتى يكتبها. أبدلوا اللام الأخيرة همزة، فجعلوه إملاء. وأصله (إملال) قالوا: لأن الملة ـ وهي الشريعة ـ تنزل جُمَلاً جُمَلاً جُمَلا حتى تتم[٤] كما وقع في ديننا. فَرضت الصلاة أولاً قبل الهجرة، ثم فُرضت الزكاة والصيام في عام اثنين من الهجرة، وفُرض الحج في عام تسع على أصح الأقوال، شيئاً بعد شيء حتى تتم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر هذه القراءات وتوجيهها في: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٥، ابن جرير (١٢/ ٢٨٢)، حجة القراءات ص ٢٧٨، القرطبي (٧/ ١٥٢).

(٣) انظر: الدر المصون (٥/ ٢٣٨).

(٤) انظر: المفردات (مادة: ملل) ص ٧٧٣.

وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو نبي الله إبراهيم، الذي جعله الله للناس إماماً، وشهد له شهادته بالوفاء ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: آية ٣٧]، ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وقيل لنبيِّنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: آية ١٢٣]، وقيل له هنا: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ثم بين أنه ملة إبراهيم.

وهنا سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: دلت هذه الآيات على أن النبيَّ ﷺ أُمر أن يتبع ملة إبراهيم، والمتبوع أفضل من التابع، فإذاً قد يكون إبراهيم أفضل من النبيِّ ﷺ، حيث أُمر باتباعه(١)؟

والتحقيق أن النبيَّ ﷺ سيد الخلق، وأفضل البشر، وأفضل من خلق الله، وأفضل من إبراهيم، ومن عامة الرسل، وسيظهر فضله على الرسل يوم القيامة، وقد ظهر ذلك فيما مضىٰ؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) ليلة الإسراء لما اجتمع بالرسل ـ أرواحهم مجسدة بصور أجسادهم ـ وخاطبوه وكلمهم، ارتفع حتى بلغ مقاماً أعلى من مقاماتهم، ولما نزل إلى الأرض، في بيت المقدس، في محل مبعث الرسل وديارهم صار إماماً للجميع بإشارة من جبريل(٢).

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) حديث الإسراء والمعراج مستفيض مشهور مُخَرَّج في الصحيحين وغيرهما، وقد رواه جماعة من الصحابة، أما صلاة النبيِّ ﷺ بالأنبياء فذلك ثابت في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: ذكر المسيح بن مريم، حديث رقم: (١٧٢)، (١/ ١٥٦ ـ ١٥٧).

وأما ما رُوي من تقديم جبريل للنبي ﷺ ليؤمهم في الصلاة فهو عند ابن سعد =

فتبين أنه سيدهم في السموات والملأ الأعلى، وسيدهم في الأرض (صلوات الله وسلامه عليه).

والجواب عن هذا: أن أمره باتباع إبراهيم مما يدل على أفضليته عليه؛ لأن كل ما كان عند إبراهيم من الشرائع التي وفاها وحاز بها الفضل يُؤمر هو باتباعها، فيساويه فيها، ثم يُزاد بتشاريع وأمور عظيمة لم تنزل على إبراهيم ولم تكن في شرعه، فيأخذ ما عنده ثم يزيد عليه، ومن هنا يتبين الفضل، وأن أمره باتباع الرسل في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام الذي قدمناه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] أنه يقتدى بما عندهم من الهدى، ثم يُزاد من أنواع الهدى أشياء عِظاماً لم تكن عندهم ولم يُعطوها، فيظهر فضله على الجميع (صلوات الله وسلامه عليه).

= في الطبقات (١/ ١٤٣ ــ ١٤٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور ٢/ ١٢٩ ــ ١٣٠) من حديث ابن عمر، وأم سلمة، وعائشة، وأم هانىء، وابن عباس (رضي الله عنهم)، (دخل حديث بعضهم في بعض)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ١٤٩).

وساق في الدر (٤/ ١٥٤) عن علي (رضي الله عنه) بنحو هذا المعنى، وعزاه للبزار، وأورد (٤/ ١٥٤) من رواية ابن الحنفية نحوه ــ أيضاً ــ وعزاه لأبي نعيم في الدلائل.

وقد ورد هذا المعنى في حديث أنس عند النسائي في الصلاة، باب: فرض الصلاة.

حديث رقم: (٤٥٠)، (١/ ٢٢١ ــ ٢٢٢)، قال ابن كثير (٣/ ٥ ــ ٦) من التفسير: «وفيها ــ أي الرواية ــ غرابة ونكارة جداً».

كما أورد ابن كثير (٣/ ٦ ــ ٧) رواية عند ابن أبي حاتم تدل على ما سبق، وعقبها ابن كثير بقوله: «هذا سياق فيه غرائب عجيبة». اهـ.

وقوله جل وعلا: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿حَنِيفًا﴾ هنا حال من إبراهيم[(١)]، والمعروف أن الحال لا تكون من المضاف إليه إلا إذا كان المضاف هو عامل الحال، أو كان المضاف كأنه جزء من المضاف إليه كما هنا، أو شبه الجزء[(٢)]، بدليل أنه لو حُذف لما ضرّ، لو قلت مثلاً: ديناً قيِّماً ملة إبراهيم. لو قلت: اتبعوا إبراهيم. لكفى عن: اتبعوا ملة إبراهيم.

والحنيف في لغة العرب: أصله الذي به حَنَف، وأصل الحَنَف في لغة العرب: هو أن يميل القدم الأيمن إلى جهة القدم الأيسر، والقدم الأيسر إلى جهة القدم الأيمن، فيكون في كلتا الرجلين اعوجاج، كل منهما تَعْوَج إلى الأخرى[(٣)]. فيقال للرجل: أحنف. وللمرأة: حنفاء. وكان الأحنف بن قيس سيد تميم كذلك، وفيه سُمي الأحنف، وكانت أمه ترقصه وهو صبي، وهي تقول[(٤)]:

واللَّـهِ لـولا حَنَـفٌ بـرجلـهِ ما كانَ في فتيانِكُم من مثلِهِ

هذا أصل الحَنَف، وصار أكثر ما يُستعمل الحَنَف في الميل عن الأديان الباطلة إلى الدين المستقيم[(٥)]. فالحنيف: المائل عن كل دين باطل لا يُرضي الله إلى الدين المستقيم الذي يرضي الله. فهذا معنىٰ كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً صاداً عن جميع الأديان الباطلة إلى

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٥٢)، البحر المحيط (٤/ ٢٦٢).

(٢) انظر: ضياء السالك (٢/ ٢٢٩).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

الدين المستقيم الذي يُرضي الله جل وعلا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٩﴾ نفي هذا الكون الماضي، بأن الله نفىٰ عن إبراهيم الشرك في الكون الماضي، معناه: أنه لم يقع منه كون الشرك فيما مضى أبداً. وهذا حق لا شك فيه، والآيات الدالة عليه كثيرة، كقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: آية ١٢٣] وهذا يكثر في القرآن ـ نفي كون الشرك الماضي عن إبراهيم ـ وبهذه الآيات وأمثالها في القرآن من تبرئة إبراهيم من شرك ماض أبداً، وقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: آية ٥١] تعلمون أنه غلط كبار من كبار العلماء، منهم كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري، والروايات المروية عن ابن عباس وغيره من أجلاء علماء التابعين، أنها كلها غلط لا شك فيه؛ وذلك لأنهم زعموا أن قول إبراهيم المتقدم في الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦] زعموا أنه كان يظن أنه ربه وقت قوله ذلك. ولو كان يظن ربوبية الكوكب لكان من أشد المشركين شركاً، والله ينفي عنه الشرك في الكون الماضي، فدل قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٩﴾ في آيات كثيرة، وقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: آية ٥١] أن قوله في الكوكب: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أنه ما كان يظن ربوبية الكوكب أبداً، إذ لو كان يظنها لكان سبق عليه شرك ماض، وظَنُّ ربوبية غير الله هو أكبر أنواع الشرك وأكفرها، والله يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦﴾ [يونس: آية ٦٦] فقول ابن جرير: إن إبراهيم كان يظن ربوبية الكوكب أولاً، وروايته لهذا عن ابن عباس وجماعة

غلط فاحش لا شك فيه[١]؛ لأن الله يقول عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ ونفي الشرك في الكون الماضي يدل على الاستغراق؛ لأنه من المعروف عند العلماء أن الفعل قسمان: فعل حقيقي، وفعل صناعي.

أما الفعل الحقيقي فهو الذي يسميه علماء النحو بالمصدر، وهو الحدث المتجدد، كالضرب والكلام والقعود. والفعل الصناعي: هو المعروف في صناعة النحو بالفعل، مما يسمونه: ماضياً، أو مضارعاً، أو فعل أمر، وهذا الفعل الصناعي عند عامة النحويين يَنْحَلّ عن مصدر وزمن[٢]، وبيَّنه في الخلاصة بقوله[٣]:

المصدرُ اسمُ ما سوىٰ الزمانِ من ... مدلولَي الفعلِ كأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

وعند المحققين من علماء البلاغة كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية: أن الفعل الصناعي يَنْحَلّ عن مصدر، وزمن، ونسبة، فالمصدر كامن في جوفه إجماعاً[٤]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ (كان) فعل صناعي، فعل ماض ناقص يكمن في جوفه مصدره قطعاً. ففيه نفي كون الشرك الماضي قطعاً، نفياً باتاً من الله، فلم يكن من إبراهيم شرك البتة، كما صرح به الله في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ في آيات كثيرة.

ولا شك أن طالب العلم يخطر في ذهنه الآن أن يقول: برّأتم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٤) انظر: جواهر البلاغة ص ٣١٠، الكليات ص ١٠٢.

إبراهيم من كل شرك ماض؛ لأن الله نفىٰ كون الشرك الماضي عنه، وهو يستغرق ماضي الزمن إلى الأزل، ولكن ماذا تقولون في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: آية ٧٦]؟

والجواب: قررناه في محله من هذه السورة(١)، وسنُلم بنموذج قليل منه، منه: أن هذا إنما قاله نبي الله إبراهيم على سبيل التنازل الجدلي، ليمكنه إفحام خصمه؛ لأن من أمهات الجدل أن تُسلم الكذب المحض لخصمك ليمكنك إفحامه؛ لأن إبراهيم لو قال أولاً: الكوكب لا يمكن أن يكون رباً. لقالوا: أنت رجل جاهل كذاب، الكوكب رب. ولم يحصل شيء، فكأنه قال: سلمنا على زعمكم الكافر الكاذب الباطل، هذا ربي!! أي: على زعمكم الكافر الملحد الفاجر، فَلِمَ يأفل؟؟ وكيف يأفل الرب ويسقط؟!! ولذا قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فلو لم يتنازل ويُسلمهم التسليم الجدلي ويقل لهم: هذا ربي. أي: فرضاً على كفركم وقولكم الباطل. لو لم يتنازل هذا التنازل لما أمكنه إفحامهم كما يقول الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: آية ٢٢]، ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: آية ٤٢] أي: لو كان رباً لما كان آفلا!! ولو لم يُظهر لهم بعض الموافقة للكذب الباطل لما أمكنه إفحامهم.

والوجه الثاني: أن همزة(٢) الاستفهام الإنكاري محذوفة دل المقام عليها، والأصل: أهذا ربي؟! وهمزة الاستفهام إذا دل المقام

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

عليها جاز حذفها. والدليل عليها وعلى أن إبراهيم ما كان ظاناً ربوبية الكوكب هو عظم إبراهيم، وشهادة الله له في القرآن أنه لم يكن مشركاً قط، وفي نفس الآية قرائن واضحة قاطعة على أنه ما كان يظن الكوكب رباً؛ لأن الله قال في أول الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: آية ٧٥] فلما حكم له بأنه من الموقنين الذين لا يُخالج يقينهم شك رتب على ذلك بالفاء قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦] فكيف يظن أنه ربه والله يقول: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ فرتب على كونه من الموقنين قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ وهمزة الاستفهام حذفها مطرد إذا كان مع (أم) لا نزاع فيه. وزعم الأخفش الصغير أبو الحسن علي بن سليمان، الأخفش الصغير، أن حذف همزة الاستفهام إذا دل عليه قرينة أنه مطرد في اللغة العربية، قياسي لا يحتاج إلى سماع. ومن أمثلته في القرآن: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء: آية ٣٤] والمعنى: أفإن مِتَّ أفهم الخالدون. لأن محل استفهام الإنكار في قوله: «أفَهُمُ الخالِدُونَ». وهو كثير في كلام العرب دون (أم)، ودون ذكر الجواب، ومع (أم)، ومع ذكر الجواب[1].

فمن أمثلته دون (أم) ودون ذكر الجواب قول الكميت[2]:

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ ولا لعباً مني وذو الشيبِ يلعبُ؟

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

يعني: أَوَذُو الشيب يلعب؟ فحذف همزة استفهام الإنكار، ونظيره قول الآخر، واسمه خويلد[١]:

رَفَوني وقالوا يا خُويلدُ لم تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوه هُمُ هُمُ

يعني: أَهُم هُم؟ فحذف همزة الاستفهام على التحقيق، وكما جزم به غير واحد.

ومن أمثلته دون (أم) مع ذكر الجواب: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[٢]:

ثم قالوا: تحبُّهَا، قلتُ بَهْراً عددَ النجمِ والحصَى والترابِ

فقوله: «ثم قالوا: تحبها» يعني: أتحبها؟ فحذف همزة الاستفهام.

أما هو مع (أم) فهو مطرد لا يخالف فيه أحد، وأنشد له سيبويه قول ابن يعفر التميمي[٣]:

لعَمْرُكَ ما أدري وإن كنتُ دارياً شُعيثُ بن سهم أمْ شُعيثُ بن مِنْقَرِ

يعني: أشعيث بن سهم؟ ومنه في كلام العرب قول ابن أبي ربيعة المخزومي[٤]:

بدا لي منها مِعْصَمٌ يوم جَمَّرتْ وكفٌ خَضِيبٌ زُيِّنتْ ببنانِ
فواللَّهِ ما أدري وإني لحاسبٌ بسبعٍ رميتُ الجمرَ أمْ بثمانِ

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

يعني: أبسبع رميت الجمر أم بثمان؟ ومنه قول الخنساء السُلمية الشاعرة، الخنساء بنت عمرو بن الشريد المشهورة[(١)]:

قـذىً بِعَيْنَيْـكَ أمْ بـالعيـنِ عُـوَّارُ أمْ خِلتَ إذ أَقْفَرَتْ من أهلِهَا الدارُ

تعني: أقذىً بعينك؟ ومنه قول أُحيحة بن الجُلاح الأنصاري[(٢)]:

ومـا تـدري وإن ذمَّـرتَ سَقْبـاً لغيـرك أم يكـون لـك الفصيـلُ

يعني: ألغيرك؟ وقول امرىء القيس[(٣)]:

تـروحُ مـن الحـي أو تَبْتكِـرْ ومـاذا عليـكَ بـأَنْ تَنْتَظِـر

وهو كثير في كلام العرب.

والحاصل أن قوله هنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾ يدل على نفي الشرك عن نبي الله إبراهيم في الزمن الماضي كله أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: الآيتان ١٦٢، ١٦٣].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ بفتح ياء ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ وسكون ياء ﴿وَمَمَاتِى﴾، وقصر ألف ﴿وَأَنَا۠﴾ وعدم مدّها. وقرأ نافع وحده دون عامة القراء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

﴿وَمَحْيَايْ﴾ بخلاف عن ورش فيه، واتفاق عن قالون: ﴿وَمَمَاتِيَ لله رَبِّ العَالمِينَ﴾ بفتح ياء ﴿وَمَمَاتِي﴾[(١)]، وقرأ ـ مثلاً ـ : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ وهي لغة تميم مدّ لفظة ﴿وَأَنَا﴾ وقرأه عامة القراء غير نافع: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ بلا مدّ ﴿وَأَنَا﴾[(٢)].

والمعنى: قل لهم يا نبي الله إن جميع عباداتي منصرفة إلى من خلقني لا أشرك فيها غيره معه، فأنا موحد صِرْفاً، مخلص لربي في عبادتي ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ إذا صليت ﴿وَنُسُكِي﴾ أكثر العلماء على أن النسك هنا معناه: النحر في الضحايا والهدايا. ونحري إذا نحرت ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾، كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: آية ٢] وعلى هذا فالنسك خاص بالذبح[(٣)]. والمعنى: أنه لا يُنحر لغير الله، ولا يذكر على الذبيحة اسم غير الله، كما لا يُصلىٰ لغير الله، كما أوضحناه في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقال بعض العلماء: ﴿وَنُسُكِي﴾ معناه: جميع عباداتي؛ لأن التنسك: التعبد، و (النسك) يطلق على جميع العبادات، ويدخل فيه دخولاً أوليّاً: النحر والتقرب بالدم؛ لأن التقرب بالدماء في الضحايا والهدايا من أعظم القُرَب إلى الله، وصرفه لغير الله صرف لحقوق الخالق إلى المخلوق، وذلك معروف ما فيه. فعلى أن (النسك) خصوص الذبح فالآية كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٦.

(٢) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٨٧، الموضح (١/ ٣٣٨)، الإقناع لابن الباذش (٢/ ٦١٠)، النشر (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، البدور الزاهرة ص ١١٤.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٥)، أضواء البيان (٢/ ٢٨٤).

فخص هاتين العبادتين وغيرهما من العبادة مثلهما. وعلى أن النسك جميع العبادة فقد شمل الذبح وغيره[١]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ اختلف العلماء في معنى قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ قال بعض العلماء: إن الذي يستحق مني أن أخصه بصلاتي وبنحري وبجميع عباداتي هو الذي بيده روحي، ويملك موتي ويملك حياتي، إن شاء أماتني وإن شاء أحياني، فالذي يملك إحيائي وإماتتي هو ربي ومعبودي الذي يحق لي أن أخلص له حقه في عبادته. وقال بعض العلماء: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ هو ما قدمت في حياتي من جميع الأعمال الصالحة مخلصاً فيه لله وحده[٢].

﴿وَمَمَاتِي﴾ قيل: هو ما أوصيت أن يُفعل بعد مماتي من إجراء قربات وصدقات تجري علي، كل ذلك مخلص فيه لله. أو ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: ما جاءني عليه الموت من الأعمال الصالحات التي أدركني الموت وأنا مقيم عليها، كما قال نبي الله يعقوب: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: آية ١٣٢] كل ذلك مخلص فيه لله (جل وعلا) وحده لا أشرك معه غيره[٣].

[٢٥/ب] وهذا تعليم لنا أننا نخلص [عبادة][٤] / خالقنا له (جل وعلا) ولا نشرك معه فيه غيره؛ لأنه أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٥٢)، أضواء البيان (٢/ ٢٥٤).

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ١٥٢)، البحر المحيط (٤/ ٢٦٢).

(٣) انظر: المصدرين السابقين.

(٤) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

من أحد أشرك معه غيره، وكل شيء يغفره إن شاء إلا الإشراك به ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨] وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيء من ذلك، لا شريك يُصلىٰ له غيره، ولا شريك يُنحر ويتقرب إليه بالنحر غيره، ولا شريك يُميت ويُحيي غيره، ولا شريك يقام على الأعمال لرضاه مخلصاً له في الحياة غيره، ولا شريك يُوصَى بالأعمال الصالحة بعد الممات يُراد بها رضى شريك غيره، بل هو وحده الذي له الإخلاص في جميع ذلك كله، ثم قال: ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم من إخلاص العبادة لله طول أيام الحياة، وما يُوصى به بعد الممات، وما يموت عليه الإنسان من الأعمال، إخلاص التوحيد والقُرَب لله في ذلك وحده ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ هكذا أمرني ربي، وأنا عبد مأمور، وقد أمرني بالإخلاص له في جميع عباداتي.

فعلينا أن نعلم أن هذا الذي أُمر به سيدنا ﷺ من تحقيق العبودية لله، وإخلاص حقوق الله لله، وتحقيق معنى (لا إله إلا الله) علينا أن نتبع فيه نبينا ﷺ.

ثم قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾، قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: أول المسلمين من هذه الأمة؛ لأنه هو الذي دعاها إلى الإسلام، فهو أول من أسلم؛ لأنه نزل عليه الوحي فآمن به ثم قام يدعو الناس إليه، أي: من هذه الأمة لا من جميع الناس. أما المسلمون قبله من الأمم الأخرى فهم كثير جداً، وكل الأنبياء قبله مسلمون، وهذا نبيُّ الله إبراهيم يقول الله فيه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: آية ١٣١] وهذا نبي الله نوح

يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: آية ٧٢] وهذا نبي الله يوسف يقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: آية ١٠١] والله يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: آية ٤٤] وأمثال هذا في القرآن كثيرة، فالمسلمون قبله كثير، ودين الإسلام قبله منتشر في شرائع الرسل. ومعنى ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: من هذه الأمة التي بعثني الله بشيراً ونذيراً إليها.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦٤].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول علماء التفسير: إن سبب نزول هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام: أن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: اعبد معنا آلهتنا مرة ونعبد معك إلهك مرات أُخرى، فأمره الله أن يُنكر عليهم هذا القول، ويقول لهم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ والمعنى: أأبغي رباً غير الله حتى أعبد صنماً وأتخذه رباً؟ لا يمكن أن يكون هذا منّي. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: لا أبغي رباً غير الرب الذي هو الرب الحقيقي، الذي هو رب كل شيء، أي: خالق كل شيء، ومدبر شؤون كل شيء، إليه المرجع والمآب، هو وحده الذي هو ربي؛ لأن غيره مخلوق مربوب مملوك له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وإنما قدم المفعول لأن محل الإنكار مُنْصَبّ على غيريّة الله، واتخاذ الربوبية إنكاره منصب على غيريّة الله؛ ولذا قدّم غير الله لأنه محل مصب الإنكار، والحال

هو ــ أي: الله ــ ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالذين تدعونني أن أعبدهم هم مخلوقون لله، ومربوبون له، فهو رب كل شيء، ومعبود كل شيء، فهو المعبود وحده، فلا أعبد غيره، ولا أتخذ غيره رباً.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ والمعنى: لا تكسب كل نفس ذنباً إلا عليها. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعني لا تكسب ذنباً إلا على نفسها. وأنا إن عبدتم أنتم الأصنام فضرر ذلك عليكم، وإنما يضرني لو كنت وافقتكم؛ ولذا قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ العرب تقول: وَزَرَ الذنب. إذا تحمّله، أي: ولا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة متحمّلة للآثام، لا تحمل وزر ذنب نفس أخرىٰ، بل كل نفس عليها ذنبها، وهذا كالتأكيد لقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ وهذا بيِّن، ولو كانت أقرب الأنفس إلى النفس لا تحمل عنها من وزرها شيئاً، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: آية ١٨] وكان بعض العلماء يقول: سبب نزول هذه الآيات: أنهم لما دعوا النبي ﷺ إلى أن يعبد معهم آلهتهم مرة ويعبدون معه إلـٰهه مرات، وقنّطهم من ذلك، وأمره الله أن يقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قالوا له: أنت وأصحابك اتبعوا سبيلنا واعبدوا معبوداتنا ونحن نتحمل عنكم جميع الآثام، ونضمن لكم خير الدنيا والآخرة، فكل ما يهمّكم في ذِممنا وعلينا، كما قال: إنهم قالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٢، ١٣] أي: أثقال ضلالهم، وأثقال إضلالهم؛ ولذا قال هنا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فكسبنا وآثامنا لا تكون عليكم، ولا يمكن أن تتحملوها لو أطعناكم

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس مذنبة ـ يعني ـ ذنب نفس أخرى، بل كل وعمله، والله لا يأخذ أحداً بعمل غيره، فالكل مؤاخذ بما عمل.

وهذه الآيات فيها موعظة عظيمة، وسؤال.

أما الموعظة العظيمة: فهي أن يعلم الإنسان أن حركاته في الدنيا وسكناته أن ما فيها من نفع فهو عائد إلى خصوص نفسه، وما فيها من ضرّ فهو عائد إلى خصوص نفسه، فليجتهد الإنسان وقت إمكان الفرصة أن يُسَلِّم نفسه من البلايا، وأن يُكسبها الخيرات. فحركات الإنسان في دار الدنيا إنما يبني بها بيته الذي إليه مصيره الأخير، وهو إما غرفة من غرف الجنة أو سجن من سجون النار، فعلى كل مكلف أن يتأمل في نور القرآن في الحياة الدنيا في صحته وفراغه، ويعلم أن حركاته من أقواله وأفعاله ونيّاته وقصوده إنما يبني بها مقرَّه الأخير النهائي: إما غرفة من غرف الجنة، وإما سجن من سجون النار.

الثاني: أن يُقال: في هذه الآية سؤال: لأن الله نص فيها أنه لا يؤاخذ أحداً بفعل أحد آخر، وقد جاءت مسألتان وقعت فيهما المؤاخذة بفعل الغير:

إحداهما: تحمّل العاقلة للديّة، فقد يقتل رجل إنساناً خطأً فتُجعل الدية على عاقلة ذلك الرجل، فيُكلفون بغرم لا ناقة لهم فيه ولا جمل. فهذه الأنفس قد أُخذت بذنب نفس أُخرى وهي لا ذنب لها فيه.

الثاني: ما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمر (رضي الله

عنهما) أنه قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»[1]. وهذا كأنه عُذب بفعل غيره، والحديث ثابت في الصحيح، وتكذيب عائشة لابن عمر في هذا الحديث، توهيمها له، وأنه غَلِطَ نظراً لهذه الآيات ـ غَلَطٌ منها هي (رضي الله عنها)، والصواب مع ابن عمر؛ لأنه حافظ سمع من النبي ﷺ غير شاك ولا متوهم[2].

فهذان سؤالان: لِمَ وجبت الديّة على العاقلة، وهي من فعل غيرها؟ ولِمَ عُذِّب الميت ببكاء أهله وهو من فعل غيره؟

والعلماء أجابوا عن هذا بأجوبة، قالوا[3]: أما العاقلة: فإن الإنسان القاتل خطأ لا ذنب عليه؛ لأنه لا يقصد شيئاً ولا مؤاخذة عليه عند الله إجماعاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: آية ٩٢] والكفارة التي وجبت عليه قال بعض العلماء: إنما هي مؤاخذة لعدم شدة التحفظ والتحرز أولاً والتسبب في عدم وقوع الخطأ، أما بعد وقوع

(١) البخاري في الجنائز، باب: قول النبيّ ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته، حديث رقم: (١٢٨٦)، (٣/ ١٥١ ـ ١٥٢)، وطرفه في (١٢٨٧ ـ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٢، ٣٩٧٨).
ومسلم في الجنائز، باب: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، حديث رقم: (٩٢٨)، (٢/ ٦٤٠)، وانظر: الأحاديث الأُخرى التي أخرجها في الباب نفسه.

(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ١٥٤)، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٦٧.

(٣) انظر: المغني (٩/ ٤٨٩)، فتح الباري (٢/ ٢٤٦).

الخطأ فلا إثم فيه قطعاً. قالوا: هذا رجل مسلم لزمته دية، وهو لم يقصد سوءاً، ولم يقصد بها ذنباً ولا جريمة، فالله (جل وعلا) أمر عاقلته من أهل ديوانه ــ ممن يقول بالديوان ــ أو من عصبته ــ ممن يقصرها على العصبة ــ أمرهم أن يساعدوه، وخالق السماوات والأرض يُدبر على البعض من البعض، ويأمر البعض بمساعدة البعض، إكراماً وجرياً على مكارم الأخلاق، كما أمر بأن تؤخذ الزكاة من أغنيائنا وترد على فقرائنا، فهذه إعانة محض، ومكارم أخلاق جاء القرآن بها معاونة لذلك الإنسان، كما أوجب الزكاة مساعدة للفقير، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك.

أما حديث ابن عمر فللعلماء عنه أجوبة كثيرة[(١)]، منها: أنهم حملوه على الميت الذي أوصاهم أن يبكوا عليه. أي: عرف أنهم إذا مات يبكون عليه، ولم ينههم. وكانت هذه عادة العرب. ويوضحه قول طرفة بن العبد في معلقته[(٢)]:

فإنْ مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُه وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ

فهذا إذا شقّت عليه الجيب وبكت عليه فلا إشكال في تعذيبه ببكائها؛ لأنه أمره بها في الدنيا، وهو من فعله. وكذلك من علم أنه إذا مات يفعلونه ولم ينههم، فهو متسبب بعدم نهيهم.

وقال بعض العلماء: تعذيبه ببكاء أهله أن أهله إذا بكوا عليه أن الله يُطلعه على ذلك ويأسف ويحزن من حزن أهله. إلى غير ذلك من الأقوال، وأظهرها الأول. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ١٥٢ ــ ١٥٥)، أحكام الجنائز للألباني ص ٤١ ــ ٤٢.

(٢) شرح القصائد المشهورات (١/ ٩٢).

﴿إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ المرجع هنا: مصدر ميمي، بمعنى: الرجوع، والمصدر الميمي إذا لم يكن من مادة واوية الفاء يكون قياسه (مفعَل) بفتح العين[1]، فالقياس أن يكون (المرجَع) بفتح الجيم، ولكن هذا سماع مانع للقياس، فهو مصدر ميمي على (مفعِل) سماعاً لا قياساً، ومعناه: إليه رجوعكم يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: يخبركم إخبار مجازاة ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ بالذي كنتم تختلفون فيه. يعني: أهؤلاء الذين كانوا شيعاً وفرقوا دينهم واتبعوا الأهواء والضلالات، وهؤلاء الذين كانوا على الصراط المستقيم، مرجعهم جميعاً إلى الله، فيخبرهم بالحقيقة، ويبيِّن لهم الضال من المهتدِ، ويعاملهم بحسب ما كانوا عليه من هدىً وضلال، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦٥].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: هذه منّة تخص أمة محمدٍ ﷺ ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله ﴿الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾ يا أمة محمد خلفاء الأرض؛ لأنه لا يأتي نبي بعد نبيكم، ولا شرع بعد شرعكم، فيكون الحكم في الأرض تبعاً لشرعه، بل شرعكم ودينكم هو الباقي الخالد في الأرض، المُحكَّم في جميع من في الأرض، في دمائهم، وأموالهم، وأديانهم، وأعراضهم، وفروجهم، فأنتم خير الأمم، وأنتم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

خلفاء الأرض، لا يأتي شرع ينسخ شرعكم، ولا نبي بعد نبيكم، فأنتم خلفاء الأرض إلى يوم القيامة، وإن شرعكم باق، ونبيكم لا نبي بعده، ودينكم باق إلى يوم القيامة. وعلى هذا فالمنّة على أمة محمد ﷺ. وهذا الامتنان يقتضي أن تعطوا الخلافة في الأرض حقها، وتقتفوا آثار الرسول ﷺ، وتخلفوه خلافة حقاً، فتُرضوا الله بأن تنفذوا أوامره في أرضه، وتضعوا العدالة في أرضه، وتجعلوا المحكّم في الدنيا نظامه الذي شرع، وتجعلوا كلمته هي العليا، وتستعدوا بكل قوة حتى تجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى، فعلى هذا القول فهو منّة على هذه الأمة. وقال بعض العلماء: (... [1]).

* * *

(١) ملحوظة: انقطع التسجيل بعد هذا الموضع.

تمَّ المجلد الثاني من «العذب النمير»
من مجالس الشنقيطي في التفسير
ويليه المجلد الثالث بإذن الله